الاكتفاء

في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء

للإمام أبي الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي

٥٦٥ — ٦٣٤ هـ

تحقيق

الدكتور مصطفى عبد الواحد

ينشر لأول مرة على نسختي «طلعت» و «التيمورية»

الجزء الثاني

الناشر
مكتبة الخانجي بالقاهرة

الاكتفاء

في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء

للإمام أبي الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي

٥٦٥ — ٦٣٤ هـ

تحقيق

الدكتور مصطفى عبد الواحد

ينشر لأول مرة على نسختي «طلعت» و«التيمورية»

الجزء الثاني

الناشر
مكتبة الخانجي بالقاهرة
ومكتبة الهلال ببيروت

١٣٨٩ هـ — ١٩٧٠ م

مطبعة السنة المحمدية
١٧ ش شريف باشا الكبير – عابدين
تليفون ٩٠٦٠١٧

بسم الله الرحمن الرحيم

شروع رسول الله صلى الله عليه وسلم

في حرب المشركين ، وذكر مغازيه التي أعز الله بها الإيمان والمؤمنين

قال ابن إسحق : ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم تهيَّأ لحربه فيما أمره الله تبارك وتعالى به من جهاد عدوّه وقتال مَنْ أمره الله بقتاله[1] ممّن يليه من مشركي العرب[2] .

وخرج غازياً في صفر على رأس اثنى عشر شهراً من مقدمه المدينة .

[غزوة ودّان]

حتى بلغ ودّان وهي غزوة الأبواء ، يريد قريشاً وبني ضَمْرة بن بكر ابن عبد مناة بن كنانة ، فوادعَتْه فيها بنو ضَمْرة ، وكان الذي وادعه [منهم][3] عليهم مَخْشِيُّ بن عمرو الضَّمْري ، وكان سيدهم في زمانه ذلك .

ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ولم يلقَ كيداً ، فأقام بها .

[سرية عبيدة بن الحارث]

وبعث في مقامه ذلك عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف ابن قُصَيّ في ستين أو ثمانين راكباً من المهاجرين ، ليس فيهم من الأنصار أحد .

فسار حتى بلغ ماء بالحجاز بأسفل ثنيّة المرّة ، فلقي بها جمعاً عظيما من

---

(١) ابن هشام : به .

(٢) ابن هشام : من المشركين مشركي العرب .

(٣) من ابن هشام .

قريش ، فلم يكن بينهم قتال ، إلاّ أن سعدَ بن أبى وقاص قد رُمى يومئذٍ بسهم ، فكان أولَ سَهم رُمِىَ به [فى سبيل الله][1] فى الإسلام .

وقال سعد فى رَمْيته تلك فيما يذكرون :

ألاَ هلْ أتى رسولَ الله أنى حَمَيْتُ صَحابتى بصدورِ نَبْلى
أذودُ بهـا أوائلَهم ذِيادًا بكلّ حُزونة وبكل سَهْلِ
فمـا يعتدّ رامٍ فى عدوّ بسَهْمٍ يا رسولَ الله قبْلى

فى أبيات ذكرها ابن إسحق ، وذكر ابن هشام أن أكثر أهل العلم ينكرها لسعد .

ثم انصرف القوم عن القوم وللمسلمين حاميةٌ .

وفرّ من المشركين إلى المسلمين المِقْدادُ بن عمرو البَهْرانى رضى الله عنهما ، وعُتْبة بن غَزْوان وكانا مسلمين ولكنهما خرجا ليتوصّلا[2] .

ويقال إن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قال فى غزوة عُبيدة هذه[3] :

أمِنْ طيفِ سَلْمى بالبِطاحِ الدّمائثِ
أرِقْتَ وأمْرٍ فى العشـيرة حادثِ
ترى مِنْ لُؤَىّ فِرْقةً لا يَصُدُّها
عن الكُفْرِ تذكيرٌ ولا بَعْثُ باعثِ
رسولٌ أتاهم صادقٌ فتكذّبوا
عليه وقالوا لستَ فينا بماكثِ

---

(١) ليست فى ابن هشام .

(٢) ابن هشام : ليتوصلا بالكفار . أى اتخذا خروجهما مع الكفار وسيلة للوصول للمسلمين .

(٣) الدمائث : الرمال اللينة .

إذا ما دعوناهم إلى الحق أدبَرُوا
وهرّوا هَرِيرَ المُحْجَرَاتِ اللواهث[1]

فكم قد مَتَتْنا فيهم بقرابة
وتَرْكُ التُّقى شىء لهم غيرُ كارثِ[2]

فإن يرجعوا عن كفرهم وعقوقهم
فمـا طَيِّبات الحِلّ مثلُ الخبائث

وإن يركبوا طغيانهم وضلالهم
فليس عذاب الله عنهم بِلاَبِثِ

ونحن أناسٌ من ذُؤابةِ غالبٍ
لنا العزُّ منها فى الفروع الأثائثِ[3]

فأولى بِرَبِّ الراقصاتِ عشيّةً
حراجيج تخدى فى السَّريح الرَّثائثِ[4]

كأُدْمِ ظبـاءٍ حولَ مكةَ عُكَّفٍ
يَرِدْنَ حِياضَ البئر ذات النَّبائثِ[5]

لئنْ لم يُفِيقوا عاجلًا من ضلالِهِمْ
ولستُ إذا آليتُ قولا بحانثِ

(١) المحجرات : الكلاب التى ألجئت إلى مواضعها .

(٢) الكارث : الهم .

(٣) الأثائث : المتممة .

(٤) أولى : أمام . والحراجيج : الطوال . السريح : الذى يربط به أخفاف الإبل . والرثائث : الخلقة .

(٥) النبائث : التراب يخرج من البئر إذا نقيت .

لَتَبْتَدِرَنْهُمْ غارةٌ ذاتُ مَصْدَقٍ
تحرِّمُ أطهارَ النساءِ الطوامثِ[1]

وكانت راية عبيدة أولَ راية عقدها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في الإسلام .

وبعض العلماء يزعم أنه بعثه حين أقبل من غزوة الأبْواء قبل أن يصل المدينة ، وأنه بعث[2] في مقامه بالمدينة حمزة بن عبد المطلب إلى سِيف البحر من ناحية العِيص في ثلاثين راكبًا من المهاجرين ، فلَقِيَ أبا جهل بذلك الساحل في ثلاثمائة راكب من أهل مكة، فحجز بينهم مَجْدِيُّ بن عمرو الجُهَنِيّ ، وكان مُوَادِعًا للفريقين .

فانصرف بعضُ القوم عن بعض ، ولم يك بينهم قتال .

وبعض الناس يقول كانت راية حمزة أولَ راية عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأَحَدٍ من المسلمين ، وذلك أنَّ بَعْثَه وبَعْثَ عُبيدة كانا معًا ، فَشُبِّه ذلك على الناس .

وقد زعموا أن حمزة قال في ذلك شعرًا يذكر فيه أن رايته أول راية عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فإن كان حمزة قال ذلك فقد صدق إن شاء الله ، لم يكن يقول إلا حقًا فالله أعلم أيّ ذلك كان .

وأما ما سمعنا من أهل العلم عندنا : فعبيدة بن الحارث أولُ من عُقِد له .

---

(١) أكملها ابن هشام وذكر إجابة عبد الله بن الزبعرى بشعر .

(٢) ابن هشام : ويبعث في موافقة ذلك حمزة .

والشعرُ المنسوب لحمزة رضى الله عنه :

ألا يا لقومى للتحكُّم والجهـــــل
وللنَّقص مِنْ رأىِ الرجالِ وللعقـــــلِ

وللراكبينـــــا بالمظالمِ لم نَطَأْ
لهم حُرُماتٍ من سَوَامٍ ولا أهلِ[1]

كأنَّا تَبَلْنَـــــاهم ولا تَبْلَ عندنا[2]
لهم غيرُ أمرٍ بالعفـــــافِ وبالعَدْلِ

وأمرٍ بإســـــلامٍ فلا يَقْبَلونه
ويَنْزِل منهم مثلَ منزلةِ الهَزْلِ

فمـــــا بَرِحوا حتى انتدبتُ لغـــــارةٍ
لهم حيث حلُّوا أبتغى راحة الفضـــــلِ

بأمرِ رســــــولِ الله أولَ خافقٍ
عليه لواء لم يكن لاحَ مِن قَبْـــــلِ

لواء لديه النصرُ من ذى كرامةٍ
إلهٍ عزيزٍ فعلُه أفضـــــلُ الفِعْلِ

عشيةَ ساروا حاشدين وكلُّنـــــا
مَرَاجله من غيظِ أصحـــــابه تَغْلى

فلمَّـــــا تراءينـــــا أناخوا فعقَّلوا
مطايا وعقَّلنـــــا مَدَى غَرَض النَّبْلِ

(١) السوام : الإبل الراعية .

(٢) تبلناهم : ذهبنا بعقولهم أو عاديناهم . والتبل : العداوة .

فقلنا لهم حبلُ الإله نصيرُنا
وليس لكم إلا الضلالة من حَبْلِ

فثارَ أبو جهل هنالك باغيًا
فخاب وردَّ الله كيدَ أبي جهل

وما نحن إلا في ثلاثين راكبا
وهم مئتان بعد واحدة فضل

فيا لَ لُؤَيٍّ لا تطيعوا غُواتكم
وفيئوا إلى الإسلام والمَنْهج السهل

فإني أخاف أن يُصبَّ عليكمُ
عذابٌ فتدعوا بالندامة والثُّكْل

[غزوة بُوَاط]

ثم غزا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في ربيع الأول يريد قريشاً حتى بلغ بُوَاط من ناحية رَضْوَى ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيدًا .

[غزوة العشيرة]

ثم غزاهم فسلك على نقب بني دينار ثم على فيفاء الخبار فنزل تحت شجرة ببطحاء ابن أزهر ، يقال لها ذات الساق ، فصلى عندها ، فثَمّ مسجده صلى الله عليه وسلم ، وصُنع له عندها طعام فأكل منه وأكل الناس معه ، فموضع أثافي البُرْمة معلوم هناك ، واستقى له من ماء يقال له المُشْتَرِب .

ثم ارتحل حتى هبط يَلْيَل ، ثم سلك فرش مَلَل حتى لقي الطريق بصُخَيْرات اليمام ، ثم اعتدل به الطريق حتى نزل العشيرة من بطن يَنْبُع ، فأقام بها جمادى الأولى وليالي من جمادى الآخرة . ووادع فيها بني مُدْلج وحلفاءهم من بني ضَمْرة ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً .

وبعث سَرِيّة فيما بين ذلك من غزوة سعد بن أبى وقاص فى ثمانية رهطٍ من المهاجرين ، فبلغ الخرّار من أرض الحجاز ثم رجع ولم يلق كيداً .

[غزوة بدر الأولى]

ولم يُقم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة حين قدم من غزوة العَشيرة إلا ليالى قلائل لا تبلغ العَشْر ، حتى أغار كُرْز بن جابر الفِهْرى على سَرْح(1) المدينة .

فخرج صلى الله عليه وسلم فى طلبه حتى بلغ واديا يقال له سَفْوان من ناحية بدر ، وفاته كُرز فلم يدركه .

وهى غزوة بدر الأولى .

ثم رجع إلى المدينة .

وبعث عبد الله بن جحش بن رِئاب الأسدى فى رجب مَقْفَله من تلك الغزاة . وبعث معه ثمانية رَهْط من المهاجرين ، وهم : أبو حُذَيفة بن عُتْبة ، وسعد بن أبى وقاص ، وعُكاشة بن مِحْصَن ، وعُتبة بن غزوان ، وعامر بن ربيعة ، وواقد بن عبد الله التميمى ، وخالد بن البكير ، وسُهيل بن بيضاء . وكتب له كتاباً وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه فيمضى لما أمره به ، ولا يستكرِه من أصحابه أحداً .

فلما سار عبدُ الله يومين فتح الكتاب فإذا فيه : « إذا نظرتَ فى كتابى هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف ، فترصّد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم » .

فقال عبدُ الله : سمعاً وطاعة . ثم قال لأصحابه : قد أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أمضى إلى نخلة أرصُد فيها قريشاً حتى آتيه منهم بخبر ، وقد

(1) السرح : المال السائم .

نهانى أن أستكره أحداً منكم ، فمن كان منكم يريد الشهادة ويَرْغب فيها ، فلينطلق ، ومن كره ذلك فليرجع ، فأمّا أنا فماضٍ لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فمضى ومضى معه أصحابه ، لم يتخلف عنه منهم أحد ، وسلك على الحجاز حتى إذا كان بمكان فوق الفرُع يقال له بَحْرَان أضلّ سعد بن أبى وقاص وعُتبة بن غَزْوان بعيراً لهما كانا يعتقبانه ، فتخلفا فى طلبه .

ومضى عبدُ الله فى بقية أصحابه[1] حتى نزل بنخلة ، فمرت به عيرٌ لقريش تحمل زبيباً ، وأدَماً ، وتجارة من تجارة قريش ، فيها عمرو بن الحضرمىّ وعثمان بن عبد الله بن المغيرة المخزومى وأخوه نوفل ، والحكم بن كيْسان ، فلما رآهم القوم هابوهم وقالوا : عُمّارٌ لا بأس عليكم منهم ، وتشاور القوم فيهم وذلك فى آخر يوم من رجب . فقالوا : والله لئن تركتموهم هذه الليلة ليدخُلنّ الحرم فليمتنعنّ منكم به ، ولئن قتلتموهم لتقتلُنّهم فى الشهر الحـــــرام .

فتردّد القومُ وهابُوا ثم شجعوا أنفسهم وأجمعوا قتلَ من قدروا عليه منهم ، وأخذ ما معهم .

فرمَى واقدُ بن عبد الله عمرَو بن الحضْرمى بسهم فقتله ، واستأسر عثمان بن عبد الله ، والحكم ، وأفلت القومَ نوفلٌ فأعجزهم .

وأقبل عبدُ الله بن جحش وأصحابه بالعير والأسيرين حتى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة .

وعَزل عبد الله بن جحش لرسول الله صلى الله عليه وسلم خُمس تلك الغنيمة وقسم سائرها بين أصحابه ، وذلك قبل أن يفرض الله الخمس من المغانم

(١) ابن هشام وبقية : أصحابه .

فلما أحلَّ الله الفيء بعد ذلك وأمر بقسمه وفرَض الخمس فيه، وقع على ما كان عبدُ الله صنع في تلك العير .

فلما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام . فوقف العيرَ والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً .

فلما قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم سُقِطَ في أيدى القوم وظنوا أنهم قد هلكوا، وعنَّفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا، وقالت قريش : قد استحلّ محمدٌ وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال !

فقال من يردُّ عليهم من المسلمين ممن كان بمكة : إنما أصابوا ما أصابوا في شعبان . وقالت يهودُ، تفاءلُ بذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم : عمرو بن الحضرمى قتله واقد بن عبد الله : عمرو : عَمِرت الحرب، والحضرمى حضرت الحرب، وواقد بن عبد الله : وقدت الحرب . فجعل الله تبارك وتعالى ذلك عليهم لا لهم .

فلما أكثر الناسُ في ذلك ، أنزل الله على رسوله : « يسألونك عن الشهر الحرام قتالٍ فيه . قل : قتالٌ فيه كبير وصَدٌّ عن سبيل الله وكُفْرٌ به ، والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبرُ عند الله[1] » .

أى إن كنتم قتلتم في الشهر الحرام فقد صدوكم عن سبيل الله مع الكفر به، وعن المسجد الحرام، وإخراجكم منه وأنتم أهله أكبرُ عند الله من قتل من قتلتم منهم، والفتنة أكبر من القتل، أى قد كانوا يفتنون المسلم في دينه حتى يردّوه إلى الكفر بعد إيمانه، فذلك أكبر عند الله من القتل .

---

(١) سورة البقرة ٢١٧ .

فلما نزل القرآن بهذا من الأمر وفرّج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الشّفق ، قَبض رسول الله صلى الله عليه وسلم العير والأسيرين ، وبعثتْ قريش في فدائهما ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا ، حتى يقدَم صاحبانا ، يعني سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غَزْوان ، فإنا نخشاكم عليهما ، فإن تقتلوهما ، فإنا نقتل صاحبَاكم ». فقدِم سعدٌ وعتبة ، فأفدَى الأسيرين عند ذلك منهم .

فأما الحكمَ فأسلم فحسن إسلامه ، وأقام عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استشهد يوم بئر مَعُونة ، وأما عثمان فلحق بمكة فمات بها كافراً .

فلما تجلّى عن عبد الله بن جحش وأصحابه ما كانوا فيه حين نزل القرآن طمعوا في الأجر ، فقالوا : يا رسول الله أنطمع أن تكون لنا غزوة نعطَى فيها أجرَ المجاهدين ؟ فأنزل الله تبارك وتعالى فيهم : « إنّ الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهَدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله ، والله غفور رحيم(١) » فوضعهم الله من ذلك على أعظم الرجاء .

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه في تلك الغزوة أبياتاً ، ويقال بل عبد الله بن جحش ، قالها حين قالت قريش : أحلّ محمدٌ وأصحابه الشهرَ الحرام ، فسفكوا فيه الدم وأخذوا المال وأسروا الرجال :

تعدُّون قتلاً في الحرام عظيمةً
وأعظمُ منه لو يَرى الرشدَ أرشدُ
صدودُكُمُ عمّا يقول محمدٌ
وكفرٌ به والله راءٍ وشاهدُ

---

(١) سورة البقرة ٢١٨ .

وإخراجكمُ من مسجد الله أهلَهُ
لئلاَّ يُرى في البيتِ لله ساجدُ

فإنَّا وإن عيَّرتمونا بقتله
وأرجفَ بالإسلام باغٍ وحاسدُ

سَقَينا من ابن الحضرمي رماحَنا
بنخلة لما أوقد الحربَ واقدُ

دماً وابنُ عبد الله عثمان بيننا
ينازعه غُلٌّ من القيد عانِدُ

. . . . . .

غزوة بدر الكبرى

قال ابن إسحق : ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع بأبى سفيان ابن حرب مُقْبلا من الشام فى عير لقريش عظيمة .

فندَب المسلمين إليهم وقال : هذه عير قريش ، فيها أموالهم ، فاخرجوا إليها لعلّ الله يُنْفِلكموها[1] .

فانتدب الناس فخفّ بعضهم وثُقل بعضهم ، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يَلْقى حَرْبا .

وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتجسّس[2] الأخبار ، ويسأل من لقى من الرُّكبان ، تخوّفا ، حتى أصاب من بعضهم خبرا باستنفار[3] رسول الله صلى الله عليه وسلم له ولعيره ، فحذِر عند ذلك ، واستأجر ضمضم بن عمرو الغِفارىّ ، فبعثه إلى مكة ليُخْبِرَ قريشا بذلك ، ويستنفرهم إلى أموالهم .

فخرج ضمضم سريعا .

[رؤيا عاتكة]

وكانت عاتكة بنت عبد المطلب قد رأت قبلَ قدوم ضمضم مكّة بثلاث رؤيا أفزعتها ، فقالت لأخيها العباس : يا أخى لقد رأيتُ الليلة رؤيا لقد أفْظَعتنى[4] وتخوّفتُ أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة ، فاكتُم عنّى ما أحدّثك .

---

(١) ينفلكموها : يجعلها غنيمة لكم .

(٢) ابن هشام : يتحسس .

(٣) ابن هشام : أن محمداً قد استنفر أصحابه .

(٤) أفظعتنى : اشتدت على .

فقال لها : وما رأيت ؟

قالت : رأيت راكباً أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح ثم صرخ بأعلى صوته : ألا انفروا يا لَغُدُرِ[1] لمصارعكم في ثلاث . فأرى الناسَ اجتمعوا إليه ، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه ، فبينما هم حوله ، مثَل به بعيره على ظهر الكعبة ، ثم صرخ بمثلها ، ألا انفروا يالَغُدَرِ إلى مصارعكم في ثلاث ، ثم مثَل به بعيرُه على رأس أبي قُبَيس فصرخ بمثلها ، ثم أخذ صخرة فأرسلها فأقبلت تهوى ، حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضّت فما بقي بيت من بيوت مكة ولا دارٌ إلا دخلتْها منها فلقة .

قال العباس : والله إنّ هذه لرؤيا ، وأنت فاكتميها ولا تذكريها لأحد .

ثم خرج العباس فلقي الوليد بن عُتبة بن ربيعة ، وكان له صديقاً ، فذكرها له واستكتمه إياها ، فذكرها الوليد لأبيه عتبة .

ففشا الحديثُ[2] حتى تحدثت به قريش[3] .

قال العباس : فغدوتُ لأطوف بالبيت وأبو جهل في رهطٍ من قريش قُعود يتحدثون برؤيا عاتكة .

فلما رآني قال : يا أبا الفضل إذا فرغتَ من طوافك فأقبلْ إلينا .

فلما فرغتُ أقبلتُ حتى جلست معهم ، فقال لي أبو جهل : يابني عبد المطلب متى حدثت فيكم هذه النَّبيئة[4] ؟! قلت وما ذلك ؟ قال : الرؤيا التي رأت عاتكة فقلت : وما رأت ؟

(١) كذا بالأصل والطبري وغدر : غادر وفي الخمس : يا آل غدر وقد قال السهيلي : هو بضم الغين والدال ، جمع غدور وذلك تحريضاً لهم ، أي إن تخلفتم فأنتم غدر لقومكم .

(٢) ابن هشام : ففشا الحديث بمكة .

(٣) زاد ابن هشام : في أنديتها .

(٤) ابن هشام والطبري : النبية .

قال : يا بنى عبد المطلب ، أمَا رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم ! قد زعمت عاتكةُ فى رؤياها أنه قال : انفروا فى ثلاثٍ . فسنتربّص بكم هذه الثلاث ، فإن يك حقًّا ما تقول فسيكون ، وإن تمضِ ولم يكن من ذلك شىء نكتب عليكم كتابًا أنكم أكذبُ أهلِ بيتٍ فى العرب .

قال العباس : فو الله ما كان منى إليه كبير ، إلا أنى جحدتُ ذلك وأنكرت أن تكون رأت شيئًا ، ثم تفرقنا .

فلما أمسيتُ لم تبق امرأة من بنى عبد المطلب إلا أتتنى ، فقالت : أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع فى رجالكم ، ثم قد تناول النساء وأنت تسمع ، ثم لم يكن عندك غِيَرة لشىء مما سمعتَ ؟ ! فقلت : قد والله فعلت ، وما كان منى إليه من كبير ، وايم الله لأتعرضن له فإن عاد لأُكفينَّكنَّه[1] .

قال : فغدوت فى اليوم الثالث من رؤيا عاتكة وأنا حَديدٌ مُغْضَبٌ ، أرى أنه قد فاتنى أمرٌ أحبُّ أن أدركه منه ، فدخلت المسجد فرأيته ، وكان رجلاً خفيفًا حديدَ الوجه حديد اللسان حديد النظر ، فو الله إنى لأمشى نحوه أتعرّضه ليعود لبعض ما قال ، فأقع به ، إذ خرج نحو باب المسجد يشتد ، فقلت فى نفسى : ماله ، لعنه الله ؟ ! أ كلُّ هذا فَرَقًا[2] منى أن أشاتمه ! وإذا هو قد سمع مالم أسمع ، صوتَ ضَمْضم بن عمرو [الغِفارى][3] وهو يصرخ ببطن الوادى واقفًا على بعيره قد جدَّعه وحوّلَ رَحْله وشقَّ قميصه وهو يقول : يامعشر قريش ، اللطيمةَ اللطيمة ، أموالكم مع أبى سفيان قد عرَض لها محمدٌ فى أصحابه ، لا أرى أن تدركوها ، الغوثَ الغوث .

قال : فشغلنى عنه ، وشغله عنى ما جاء من الأمر .

---

(١) ابن هشام : فرق . (٢) الطبرى : لأكفيكنكه .

(٣) من ابن هشام والطبرى .

[خروج قريش]

فتجهز الناس سراعاً وقالوا: أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي؟! كلا والله ليعلمن غير ذلك.

فكانوا بين رجلين، إما خارج وإما باعث مكانه رجلاً

وأوعبت(١) قريش فلم يتخلف من أشرافها أحد، إلا أن أبا لهب تخلف وبعث مكانه العاصي بن هشام بن المغيرة، وكانت عليه لأبي لهب أربعة آلاف درهم، فاستأجره بها على أن يُجزئ عنه بعثه.

وأجمع أمية بن خلف القعود وكان شيخاً جليلاً جسيماً ثقيلاً، فأتاه عقبة ابن أبي معيط وهو جالس في المسجد بين ظهري(٢) قومه بمجمرة فيها نار ومجمر(٣) حتى وضعها بين يديه، ثم قال: يا أبا علي استجمر فإنما أنت من النساء! فقال: قبحك الله وقبح ما جئت به. ثم تجهز وخرج مع الناس.

ولما فرغوا من جهازهم وأجمعوا السير ذكروا حرباً كانت بينهم وبين بني بكر بن عبد مناة بن كنانة، وقالوا: إنا نخشى أن يأتونا من خلفنا، فكاد ذلك يثنيهم، فتبدى لهم إبليس في صورة سراقة بن جعشم المدلجي، وكان من أشراف بني كنانة، فقال: أنا لكم جار من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه.

فخرجوا سراعاً.

[خروج الرسول والمسلمين]

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليال مضت من شهر رمضان

---

(١) أوعبت: اجتمعت.
(٢) ابن هشام: ظهراني قومه.
(٣) المجمر: العود.

فى أصحابه ، ودفع اللواء إلى مُصْعَب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار ، وكان أبيض ، وكان أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم رايتان سوداوان ، إحداهما مع على بن أبى طالب رضى الله عنه ، والأخرى مع بعض الأنصار ، وجعل على الساقة قيسَ بن أبى صَعْصعة أخا بنى مازن بن النجار ، وكانت راية الأنصار مع سعد بن معاذ فيما قال ابن هشام .

فسلك رسول الله صلى الله عليه وسلم طريقه من المدينة إلى مكة حتى إذا كان قريبًا من الصفراء بعث بَسْبَسَ بن عمرو[1] ، وعَدِىَّ بن أبى الزَّغْباء الْجُهَنِيَّيْن إلى بدر يتجسّسان له الأخبار عن أبى سفيان وغيره .

فمضيا حتى نزلا بدراً ، فأناخا إلى تَلّ قريب من الماء فسمعا جاريتين من جوارى الحاضر تتلازمان على الماء ، والملزومة تقول لصاحبتها : إنما تردُ العيرُ غدًا أو بعده فأعمل لهم ثم أقضيك . فقال مجدىّ بن عمرو ، وكان على الماء : صدقتِ ، ثم خلّص بينهما .

فلما سمع بذلك عدىّ وبَسْبَس ، انطلقا حتى أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبراه .

ثم تقدم أبو سفيان العير حَذِرًا حتى ورد الماء ، فقال لمجدىّ : هل أحسست أحدًا ؟ قال : لاَ ، إلاّ أنّى قد رأيت راكبين أناخا إلى هذا التلّ ، ثم استقيا فى شنّ لهما ، ثم انطلقا .

فأتى أبو سفيان مناخهما ، فأخذ من أبعار بعيريهما ففتّه فإذا فيه النَّوَى ، فقال : هذه والله علائف يثرب ! فأسرع إلى أصحابه فضرب وجهَ عيره عن الطريق فساحلَ بها ، وترك بدراً بيساره .

---

(١) هو بسبس بن عمرو بن ثعلبة بن خرشة بن عمرو بن سعد بن ذبيان .

[الرسول يستشير أصحابه]

ثم ارتحل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أتى واديا يقال له « ذَفِران » فجزَع[1] فيه ، ثم نزل .

وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم ، فأخبر الناسَ واستشارهم .

فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن ، ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن ، ثم قام المِقْداد بن عمرو فقال : يا رسول الله امضِ لما أراك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام : « اذهب أنت وربُّك فقاتِلا إنا ها هنا قاعدون » ولكن اذهب أنت وربك فقاتِلا إنا معكما مقاتلون ، فو الذى بعثك بالحق لو سرتَ بنا إلى بَرْكِ الغِماد[2] لجالَدْنا معك من دونه حتى تَبلُغه . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم خيراً ودَعَا له ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أشيرُوا علىّ أيها الناس . وإنما يريد الأنصارَ ، وذلك أنهم عَدَد الناس ، وأنهم حين بايَعُوه بالعقبة قالوا : يا رسول الله إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت فى ذمتنا ، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخوَّف ألا تكون الأنصار ترى عليها نَصْره إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه ، وأن ليس عليهم أن يسير بهم من بلادهم إلى عدوّ[3] ، فلما قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال : أجل ، قال : فقد آمنَّا بك وصدَّقْناك ، وشهِدْنا أنّ ما جئتَ به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامضِ يا رسول الله لما أردتَ فنحن معك ، فو الذى بعثك بالحق

(١) جزع الوادى : قطعه .
(٢) برك الغماد : أقصى موضع بناحية اليمن .
(٣) ابن هشام : يسير بهم إلى عدو من بلادهم . وما هنا أوضح .

لو استعرضْت بنا هذا البحر فخضتَه لخضْناه معك، ما يتخلف[1] منا رجل واحدٌ، وما نكره أن تلقى بنا عدوَّنا غدًا إنا لَصُبُرٌ فى الحرب صُدُقٌ عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقرّ به عينك، فسِرْ بنا على بركة الله.

فسُرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد ونشّطه ذلك، ثم قال: سيروا وأبشروا فإن الله تبارك وتعالى قد وعدنى إحدى الطائفتين، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم.

ثم ارتحل رسول الله صلى الله عليه وسلم من « ذَفِران » حتى نزل قريبًا من بَدْر فركب هو ورجل من أصحابه، قيل هو أبو بكر الصديق، حتى وقف على شيخ من العرب فسأله عن قريش، وعن محمد وأصحابه، وما بلغه عنهم، فقال الشيخ: لا أخبركما حتى تخبرانى ممن أنتما؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا أخبرتنا أخبرناك. قال أوَ ذاك بذاك، قال: نعم، قال الشيخ: فإنه بلغنى أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإنْ كان صدق الذى أخبرنى فهم اليوم بمكان كذا وكذا، المكان الذى به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، وبلغنى أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا، فإن صدق الذى أخبرنى فهم اليوم بمكان كذا وكذا، المكان الذى به قريش. فلما فرغ من خبره، قال: ممن أنتما؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نحن من ماء. ثم انصرف عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال: يقول الشيخ: ما من ماء! أمن ماء العراق؟

ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه، فلما أمسى بعث عليّ بن أبى طالب والزبير بن العوّام، وسعد بن أبى وقاص فى نفر من أصحابه إلى ماء بدر يلتمسون الخبر له عليه، فأصابوا راوية[2] لقريش فيها غلامان لهم، فأتوا

(١) ابن هشام: ما تخلف.

(٢) الراوية: البعير ونحوه يستقى عليه.

بهما فسألوهما ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلى ، فقالا : نحن سُقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء ، فكره القوم خبرهما ، ورجوا أن يكونا لأبى سفيان ، فضربوهما ، فلما أذلقوهما[1] قالا : نحن لأبى سفيان . فتركوهما .

وركع رسول الله صلى الله عليه وسلم وسجد سجدتيه ، ثم سلّم وقال : إذا صدقاكم ضربتموهما ، وإذا كذباكم تركتموهما ! صدقا والله إنهما لقريش ، أخبرانى عن قريش . فقالا : هم وراء هذا الكثيب الذى ترى . قال : كم القوم ؟ قالا : كثير . قال : ما عدتهم ؟ قالا : ما ندرى . قال : كم ينحرون كلّ يوم ؟ قالا : يوماً تسعاً ويوماً عشراً . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : القومُ ما بين التسعمائة والألف .

ثم قال لهما : من فيهم من أشراف قريش ؟ قالا : عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو البَخْترىّ بن هشام ، وحكيم بن حزام ، ونوفل بن خُويلد ، والحارث بن عامر ، وطُعَيمة بن عَدىّ ، والنَّضْر بن الحارث ، وزَمْعة ابن الأسود ، وأبو جهل بن هشام ، وأُمية بن خلف ، ونبيه ومُنَبِّه ابنا الحجاج ، وسُهَيل بن عمرو ، وعمرو بن عبد ودّ .

فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الناس فقال : هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها ! .

وأقبلت قريش ، فلما نزلوا الجحفة رأى جُهَيم بن الصلت بن مخرمة ابن المطلب بن عبد مناف رؤيا ، فقال : إنى أرى فيما يرى النائم ، وإنى لبين النائم واليقظان ، إذ نظرت إلى رجل أقبل على فرس حتى وقف ومعه بعير له ، ثم قال : قُتل عُتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، وأبو الحكم بن هشام ،

---

(١) أذلقوهما : أوجعوهما .

وأُمية بن خَلَفٍ وفلان وفلان ، فعدَّدَ رجالًا ممن قُتل يوم بدرٍ من أشراف قريش ، ثم رأيته ضرب فى لَبَّة بعيره ثم أرسله فى العسكر فما بقى خباء من أخبية العسكر إلا أصابه نَضحٌ من دمه .

فبلغت أبا جهل فقال : وهذا أيضاً نبى آخر من بنى عبد المطلب ! سيعلم غدًا من المقتول إنْ نحن التقينا .

[الذين تخلفوا من قريش]

قال : ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عِيره أرسل إلى قريش : إنكم خرجتم لتمنعوا عِيركم ورجالكم وأموالكم فقد نجّاها الله ، فارجعوا .

قال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نَرِد بدْرًا ، وكان موسماً للعرب لهم به سوق كل عام ، فنقيم عليه ثلاثاً ، فننحر الجزُر ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر ، وتعزِفَ علينا القِيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمْعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها ، فامضوا .

وقال الأخنس بن شَرِيق الثقفى : يا بنى زُهْرة ، وكان حليفًا لهم : قد نجّى الله أموالكم وخلّصَ لكم صاحبكم مَخرمة بن نوفل ، وإنما نفرتم لتمنعوه ومالَه ، فاجعلوا بى جُبْنَها وارجعوا ، فإنه لا حاجة لكم بأن تخرجوا فى غير ضَيْعة ، لا ما يقول هذا .

فرجعوا فلم يشهدها زُهْرىٌّ واحدٌ ، أطاعوه وكان فيهم مطاعًا .

ولم يكن بقى من قريش بطن إلا وقد نفر منهم ناس إلا بنو عَدىّ بن كعب ، لم يخرج منهم رجل واحد ، فرجعت بنو زهرة مع الأخنَس ، فلم يشهد بدراً من هذين القبيلتين أحد .

وكان بين طالب بن أبى طالب وكان فى القوم ، وبين بعض قريش

محاورة ، فقالوا : والله لقد عرفنا يابنى هاشم وإن خرجتم معنا أنّ هَوَاكم لمع محمد . فرجع طالب إلى مكة مع من رجع وقال :

لاَ هُمَّ إمّا يغزُوَنَّ طالب   في عُصْبَة مخالفًا محــــارِبْ

في مِقْنَب من هذه المقانب[1]   فليكن المطلوب غير الطالب[2]

وليكن المغلوب غيرَ الغـــالب

ومضت قريش حتى نزلوا بالعُدْوة القصوى من الوادي خلف العَقَنْقَل والقليب ببدرٍ في العدوة الدنيا إلى المدينة .

وبعث الله عزّ وجل السماء ، وكان الوادي دَهْسًا ، فأصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه منها ما لبّدَ لهم الأرض ولم يمنعهم من المسير ، وأصاب قريشًا ما لم يقدروا أن يرتحلوا معه .

[نزول المسلمين ببدر]

فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يبادرهم إلى الماء ، حتى إذا جاءوا أدنى ماء من بدرٍ نزلوا به .

فذكروا أنّ الحُبَاب بن المنذِر بن الجَمُوح الأنصاري قال : يارسول الله أرأيتَ هذا المنزل ، أمنزلٌ أنزلَكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخّر عنه ؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟

فقال : بل هو الرأي والحرب والمكيدة . قال : يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بنا حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم نُغوِّر ما وراءه من القُلُب ثم نبني عليه حوضًا فنملأه ماء ثم نقاتل القومَ ، فنشرب ولا يشربون .

(١) المقنب : الجماعة من الخيل .

(٢) ت : وليكن المطلوب غير الطالب .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد أشرتَ بالرأى . فنهض رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من الناس ، فساروا حتى إذا أتى أدنى ماء إلى القوم نزل عليه ، ثم أمر بالقُلُب فغوِّرت وبنى حوضاً على القليب الذى نزل عليه فملئ ماء ثم قذفوا فيه الآنية .

وقال سعد بن معاذ : يا نبى الله ألا نَبْنى لك عريشاً تكون فيه ، ونعدّ عندك ركائبك ، ثم نلقَى عدوّنا ، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدوّنا ، كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلستَ على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا ، فقد تخلّف عنك أقوام يانبى الله ما نحن أشدُّ حبًّا لك منهم ، ولو ظنُّوا أنك تَلْقى حرباً ما تخلفوا عنك ، يمنعك الله عز وجل بهم يناصحونك ويجاهدون معك .

فأثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم خيراً ودعا له بخير ، ثم بنى لرسول الله صلى الله عليه وسلم عريش كان فيه .

[نزول قريش ببدر]

وارتحلت قريش حين أصبحت فأقبلت ، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم تصوّب من الكَثِيب الذى جاءوا منه ، قال : اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تُحادّك وتكذّب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى اللهم أحِنْهم[1] الغداة .

وقد كان خُفاف بن أيماء بن رَحْضة الغِفَارىّ أو أبوه بعث إلى قريش حين مرّوا به ابناً له بجزائر أهداها لهم ، وقال : إن أحببتم أن نمدكم بسلاح ورجال فعلنا . فأجابوه : أن وصلَتْك رَحِمٌ قد قضيتَ الذى عليك ، فلعمرى

(١) أحنهم : أهلكهم .

لئن كنا إنما نقاتل الناسَ ما بنا ضَعف عنهم ، ولئن كنا إنما نقاتل الله كما يزعم محمد ما لأحدٍ بالله من طاقة !

فلما نزل الناس أقبل نفر من قريش فيهم حَكيم بن حزام حتى وردوا حوضَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : دَعُوهم . فما شرب منه يومئذٍ رجل إلا قتل ، إلا ما كان من حَكيم بن حزام فإنه لم يقتل ، ثم أسلم بعده فحسُن إسلامه ، وكان إذا اجتهد في يمينه قال : لا ، والذي نجّانى من يوم بدر .

ولما اطمأنّ القومُ بعثوا عُمَير بن وهب الجُمَحى فقالوا : احزِرْ[1] لنا أصحابَ محمد . فدار بفرسه حول العسكر ثم رجع إليهم ، فقال : ثلاثمائة رجل يزيدون قليلا أو ينقصونه ، ولكن أمهلونى حتى أنظر أللقوم كمينٌ أو مَدَدٌ ، فضرب فى الوادى حتى أبعدَ فلم ير شيئاً ، فرجع إليهم فقال : ما رأيت شيئاً ، ولكن رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا ، نواضح يثرب تحمل الموتَ الناقع ، قومٌ ليس لهم منَعة ولا ملجأ إلا سيوفهم ، والله ما أرى أن يُقتل رَجلٌ منهم حتى يَقتلَ رجلا منكم ، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك ، فرَوْا رأيكم .

فلما سمع حكيم بن حزام ذلك مشى فى الناس فأتى عُتبةَ بن ربيعة فقال : يا أبا الوليد إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها ، هل لك إلى أن لا تزال تُذكر منها بخير إلى آخر الدهر ؟ فقال : وما ذاك يا حكيم ؟ قال : ترجع بالناس ، وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحَضْرمىّ . قال : قد فعلتُ ، أنت علىّ بذلك إنما هو حليفى فعلىّ عقله وما أصيب من ماله ، فأتِ ابنَ الحَنظلية ، يعنى أبا جهل ، فإنى لا أخشى أن يَشْجر أمرَ الناس غيرُه .

---

(١) احزر : قدر .

ثم قام عتبة خطيباً فقال :

يامعشر قريش إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً ، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر فى وجه رجل يكره النظر إليه ، قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلًا من عشيرته ، فارجعوا وخلّوا بين محمد وبين سائر العرب ، فإن أصابوه فذاك الذى أردتم ، وإن كان غير ذلك ألفاكم ، ولم تعرضوا منه ما تريدون .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى عتبة فى القوم على جمل له أحمر فقال : إن يك عند أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر ، إن يطيعوه يرشُدوا .

قال حكيم : فانطلقت حتى جئت أبا جهل فوجدته قد نثل[1] درعاً له من جرابها فهو يهنئها[2] ، فقلت له : ياأبا الحكم إن عتبة أرسلنى إليك بكذا وكذا ، للذى قال . فقال : انتفخ والله سَحْرُه[3] حين رأى محمداً وأصحابه ، كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد وما بعتبة ما قال ، ولكنه قد رأى أن محمداً وأصحابه أكلة جَزُور وفيهم ابنه ، فقد تخوفكم عليه .

ثم بعث إلى عامر بن الحضرمىّ ، فقال : هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس ، وقد رأيتَ ثأرك بعينك ، فقم فانشد خُفْرتك ، ومقتل أخيك .

فقام عامر بن الحضرمىّ فاكتشفَ ثم صرخ : واعَمْراه ، واعمراه ! فحَمِيَت الحربُ وحَقِب[4] أمرُ الناس واستوسقوا على ما هم عليه من الشر وأفسد على الناس الرأى الذى دعاهم إليه عتبة .

---

(١) نثل : أخرج .

(٢) يهنئها : يطليها .

(٣) السحر : الرئة ، وهو كناية عن الجبن .

(٤) حقب : اشتد .

فلما بلغ عتبة قولُ أبي جهل : انتفخ والله سَحْره ، قال : سيعلم مُصفِّرُ استِه من انتفخ سحره أنا أم هو ؟!

ثم التمس عتبة بيضةً ليدخلها في رأسه فما وجد في الجيش بيضةً تَسَعُه من عِظَم هامته ، فلما رأى ذلك اعتجر[1] على رأسه بِبُردٍ له .

[المبـــــارزة]

وخرج الأسود بن عبد الأسد المخزوميّ وكان رجلًا شرِسًا سيّئَ الخُلُق فقال : أعاهد الله لأشربَنّ من حوضهم أو لأهدمنّه أو لأموتنّ دُونه .

فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب فضربه فأطنّ[2] قدمه بنصف ساقه وهو دون الحوض ، فوقع على ظهره تشخب[3] رجله دمًا ، ثم حبَا إلى الحوض حتى اقتحم فيه يُريد زعم أن تبرّ يمينه ، وأتبعه حمزةَ فضربه حتى قتله في الحوض .

ثم خرج بعده عُتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة وابنه الوليد بن عتبة حتى إذا نَصَل[4] من الصف دعا إلى المبارزة ، فخرج إليه فتية من الأنصار ثلاثة وهم عوف ومُعوّذ ابنا الحارث وأمهما عفراء ، وعبد الله بن رواحة[5] فقالوا : من أنتم ؟ قالوا : رهط من الأنصار . قالوا : مالنــا بكم من حاجة ، ثم نادى مناديهم : يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قم يا عبيدة بن الحارث ، وقم يا حمزة وقم يا عليّ . فلما قاموا ودنَوا منهم ، قالوا : من أنتم ، فقال عبيدة : عبيدة ، وقال حمزة : حمزة ، وقال علي : علي . قالوا : أكفاء كرام .

(١) اعتجر : تعمم .
(٢) أطن : أطار .
(٣) تشخب : تسيل .
(٤) نصل : خرج . وفي ابن هشام : فصل .
(٥) ابن هشام : ورجل آخر يقال : هو عبد الله بن رواحة .

فبارز عبيدةُ ، وكان أسَنَّ القوم ، عتبةَ ، وبارز حمزةُ شَيْبة ، وبارز عليٌّ الوليدَ .

فأمَّا حمزةُ فلم يُمْهِل شيبة أنْ قتله . وأما عليٌّ فلم يمهل الوليدَ أن قتله ، واختلف عبيدةُ وعتبة بينهما ضربتين كلاهما أثبتَ صاحبه ، وكرّ حمزةُ وعليٌّ بأسيافهما على عتبة فذفّفا[1] عليه ، واحتملا صاحبهما فحازاه إلى أصحابه .

وذكر ابن عُقْبة ، أنه لما طلب القومُ المبارزة فقام إليهم ثلاثة نفر من الأنصار ، استحيا النبيّ صلى الله عليه وسلم من ذلك لأنه كان أولَ قتال التقى فيه المسلمون والمشركون ورسول الله صلى الله عليه وسلم شاهد معهم ، فأحبّ النبي صلى الله عليه وسلم أن تكون الشوكة ببنى عمّه ، فناداهم أن ارجعوا إلى مَصَافِّكم ، وليقم إليهم بنو عمهم . فعند ذلك قام حمزة وعليّ وعُبَيْدة .

* * *

ثم تزاحف الناسُ ودنا بعضهم من بعض ، وأمَرَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أصحابَه أن لا يَحْملوا حتى يأمرهم ، وقال : إن اكتنفكم القومُ فانضحوهم[2] عنكم بالنَّبْل .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم في العريش معه أبو بكر الصّدّيق ، وكان شعار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : أَحَدٌ ، أَحَدٌ .

وعَدَّلَ رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذٍ الصفوف ، صفوف أصحابه وفي يده قِدْحٌ[3] يعدِّل به القوم ، فمرّ بسَواد بن غَزِيَّة حليف بنى عديّ ابن النجار وهو مُسْتَنْصِل من الصف ، أى بارز ، فطعن فى بطنه بالقدح

---

(١) ذففا : أجهزا .

(٢) انضحوهم : ادفعوهم .

(٣) القدح : السهم .

وقال : استَوِ يا سواد . فقال : يا رسول الله أوْجَعْتني ، وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقِدْني[1] . فكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بطنه وقال : استَقِدْ ، فاعتنقه فقبّل بطنه ، فقال له : ما حملك على هذا يا سواد ؟ قال : يا رسول الله حضَر ما ترى ، فأردتُ أن يكون آخرُ العهد بك أن يمَسّ جلدى جلدك ، فدعا له بخير ، وقاله له .

ثم عدّل رسول الله صلى الله عليه وسلّم الصفوف ورجع إلى العريش ، فدخله ومعه أبو بكر ، ليس فيه غيره ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يناشد ربّه ما وعده من النّصر ويقول فيما يقول : اللهم إن تَهْلك هذه العصابةُ اليومَ لا تُعبد . وأبو بكر يقول : يا نبيّ الله بعضَ مناشدتك ربّك فإن الله منجزٌ لك ما وعدك .

وخفق[2] رسول الله صلى الله عليه وسلم خفقةً وهو فى العريش ، ثم انتبه فقال : أبشر يا أبا بكر أتاك نصرُ الله ! هذا جبريل آخذ بعِنان فرسه يقوده على ثناياه النّقْع . يريد الغبار .

ورمى مِهْجَعٌ مولى عمر بن الخطاب بسهم فقتله[3] ، فكان أوّلَ قتيل من المسلمين .

ثم رُمى حارثةُ بن سُراقَةَ ، أحدُ بنى عدىّ بن النجار ، وهو يشرب من الحوض بسهم فأصاب نحره فقتله .

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الناس فحرّضهم ، ثم قال : والذى نفسُ محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجلٌ فيقتَل صابرًا محتسبًا مُقبِلًا غير مُدْبِر إلا أدخله الله الجنة .

(١) أقدنى : اقتص لى .
(٢) ابن هشام : وقد خفق .
(٣) ابن هشام : فقتل .

فقال عُمَير بن الحَمام ، أخو بنى سلمة وفى يده تمرات يأكلهن : بَخٍ بَخٍ ! أفما بينى وبين أن أَدْخُلَ الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء ! ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه فقاتل حتى قُتل .

وقال يومئذٍ عوف بن الحارث وهو ابن عَفْراء : يارسول الله ما يُضحك الرّب من عبده ؟ فقال غَمْسه يَدَه فى العدو حاسرًا ! فنزَع درعًا كانت عليه فقذفها ثم أخذ سيفه فقاتل القومَ حتى قُتل .

وقاتل عُكّاشة بن مِحْصَن الأسدى حليف بنى عبد شمس يوم بدرٍ بسيفه حتى انقطع فى يده ، فأتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فأعطاه جِذْلًا من حطبٍ ، فقال : قاتِلْ بهذا يا عُكّاشة فلما أخذه هزّه فعاد فى يده سيفًا طويل القامة شديد المتن أبيضَ الحديدة ، فقاتل به حتى فتح الله على المسلمين وكان ذلك السيف يُسمّى العون ، ثم لم يزل عنده يشهد به المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قُتل فى الرِّدة وهو عنده ، قتله طليحة الأسَدى(١) .

[هزيمة الكفار]

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ حفنة من الحصباء فاستقبل بها قريشًا ثم قال : شاهت الوجوه شاهت الوجوه . ثم نفحهم بها ثم أمر أصحابه فقال : شُدُّوا ، فكانت الهزيمة عليهم .

وجعل الله تلك الحصباء عظيمًا شأنها لم تترك من المشركين رجلا إلا ملأت عينَه .

واستولى عليهم المسلمون معهم الله وملائكته يقتلونهم ويأسرونهم

---

(١) ذكر ابن هشام بعد هذا الخبر شعرا لطليحة فى ذلك ٢/٦٣٧ .

ويجدون النفر كل رجل منهم مُنْكَبٌّ على وجهه لا يدرى أين يتوجه ، يعالج التراب ينزعه من عينيه .

فقتل الله من قتل من صناديد قريش ، وأَسَر من أسر من أشرافهم .

فلما وضع القوم أيديهم يأسرون وسعد بن معاذ قائم على باب العريش الذى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم متوشّح السيف فى نفر من الأنصار يحرسُون رسول الله صلى الله عليه وسلم خوفَ كَرّةِ العدوّ عليه[1] ، رأى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى وجه سعد الكراهيةَ لما يصنع الناسُ ، فقال له : لكأنك والله يا سعد تكره ما يصنع القوم ؟ فقال : أجل والله يا رسول الله ، كانت أولَ وقعة أوقعها الله بأهل الشرك ، فكان الإثخان فى القتل أحبَّ إلىّ من استقبال[2] الرجال .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذٍ لأصحابه : إنّى قد عرفت أن رجالًا من بنى هاشم وغيرهم أخرجوا كُرْهًا ، لا حاجة لهم بقتالنا ، فمن لقى منكم أحدًا من بنى هاشم فلا يقتله ، ومن لقى أبا البَخْتَرِىّ بن هشام فلا يقتله ، ومن لقى العباس عمّ رسول الله فلا يقتله ، فإنه إنما خرج مستكرَهًا . فقال أبو حذيفة : أنقتل آباءنا وأبناءنا وعشيرتنا ونترك العباس ! والله لئن وجدته لألحمنّه[3] السيفَ . فبلغت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لعمر بن الخطاب : يا أبا حفص . قال عمر : والله إنه لأول يوم كنّانى فيه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بأبى حفص . أيُضرَبُ وجه عم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف ؟ فقال عمر : يا رسول الله دَعْنى فلأضرب عنقه بالسيف ، فوالله لقد نافق

---

(١) ابن هشام : يخافون عليه كرة العدو .

(٢) ابن هشام : استبقاء .

(٣) ألحمه : أجعله فى لحمه .

وكان أبو حذيفة يقول : ما أنا بآمنٍ من تلك الكلمة التى قلت يومئذٍ ولا أزال منها خائفاً إلا أن تكفّرها عنى الشهادة ، فقُتل يومَ اليمامة شهيداً رحمه الله .

وإنما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل أبى البَخْتَرِىّ لأنه كان أكفَّ القوم عنه بمكة ، وكان لا يؤذيه ولا يبلُغه عنه شىء يكرهه ، وكان ممن قام فى نقض الصحيفة التى كتبت قريش على بنى هاشم وبنى المطلب .

فلقيه المجذَّر بن زِياد البَلَوِىّ حليف الأنصار ، يوم بدر ، فقال له : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نهانا عن قتلك ، ومع أبى البخترى زميل له[1] خرج معه من مكة ، قال : وزميلى ؟ قال المجذَّر : لا والله ما نحن بتاركى زميلك ، ما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بك وحدك .

قال : إذاً والله لأموتن أنا وهو جميعاً ، لا تحدِّث عنى نساء مكة أنّى تركت زميلى حرصاً على الحياة وقال :

لن يُسْلِمَ ابنُ حُرَّةٍ زميلَه حتى يموت أو يرى سبيلَه

ثم اقتتلا فقتله المجذَّر ، ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : والذى بعثك بالحق لقد جَهدْت عليه أن يستأسِر فآتيك به فأبَى إلا أن يقاتلنى ، فقاتلتُه فقتلته .

هذا الذى ذكر ابن إسحاق فى قتل أبى البخترى .

وقال موسى بن عُقْبة : يزعم ناس أن أبا اليُسْر قتل أبا البخترى ويأبى أعظم الناس إلا أن المجذر هو الذى قتله .

ثم أضربَ ابنُ عقبة عن القولين ، وقال : بل قتَله غيرَ شكٍّ أبو داود

---

(١) هو جنادة بن مليحة بنت زهير بن الحارث بن أسد ، من بنى ليث .

المازنى وسلبه سيفه فكان عند بنيه حتى باعه بعضهم من بعض بنى أبى البخترى .

وكان المجذر قد ناشده أن يستأسر ، وأخبره بنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتله ، فأبى أبو البخترى أن يستأسر وشدّ عليه المجذر بالسيف وطعنه الأنصاريُّ ، يعنى أبا داود المازنى ، بين ثدييه فأجهز عليه فقتله .

ويومئذٍ قال المجذّر فيما ذكروا :

إمّا جَهلتَ أو نَسيتَ نَسبي ... فأثبت النسبةَ أنّى من بَلِي

الطّاعنين برماح اليزَنى ... والضاربين الكبشَ حتى ينحنِي[1]

بَشّرْ بيُتْمٍ منْ أبوه البَخْتَرِي ... أو بَشّرَنْ بِمثلِها منّى بَنِي

أنا الذى يُقال أصْلِى من بَلِي ... أطعن بالصَّعْدَة حتى تنثني[2]

وأعْبِط القِرْنَ بعَضْب مَشْرَفى ... أُرْزِم الموت كإرزام المَرِي[3]

فلا ترى مُجذّرًا يَفْرِى فَرِى[4]

وقال عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه : كان أمية بن خلف لى صديقاً بمكة ، وكان اسمى عبد عمرو ، فلما أسلمتُ تسمّيت عبدَ الرحمن ، فكان يلقانى فيقول : يا عبد عمرو أرَغبتَ عن اسمٍ سمّاكه أبوك ؟ فأقول نعم . فيقول : فإنى[5] لا أعرف الرحمن ، فاجعل بينى وبينك شيئاً أدعوك به ،

---

(١) اليزنى : المنسوبة إلى سيف بن ذى يزن . والكبش : سيد القوم .

(٢) الصعدة : الرمح .

(٣) أعبط : أقتل . والعضب : السيف . والمشرفى : المنسوب إلى المشارف ، وهى قرى بالشام . وأرزم : أحن . والمرى : الناقة التى يستنزل لبنها على عسر .

(٤) يفرى فرى : يصنع مثل صنعى ؛ يقال : يفرى الفرى : يأتى بالعجب فى عمله .

(٥) ما : كأنى .

أمّا أنت فلا تجيبني باسمك الأول ، وأما أنا فلا أدعوك بما لا أعرف . فقلت له : يا أبا عليّ : اجعل ما شئتَ . قال : فأنت عبد الإله . فقلت : نعم .

حتى إذا كان يوم بدر مررت به وهو واقفٌ مع ابنه عليّ آخذٌ بيده ومعى أدراع لى قد استلَبْتها فأنا أحملها ، فلما رآنى قال : يا عبد عمرو . فلم أجبه فقال : يا عبد الإله . فقلت : نعم . قال : هل لك فىّ فأنا خيرٌ لك من هذه الأدراع ؟ قلت : نعم .

فطرحتُ الأدراعَ من يدى وأخذت بيده ويد ابنه ، وهو يقول : ما رأيتُ كاليوم قط ! ما لكم حاجة فى اللبن ؟ يريد الفِدَاء .

وقال عبد الرحمن : قال لى أمية وأنا بينه وبين ابنه آخذ بأيديهما : مَن الرجُل منكم المُعَلَّم بريشة نعامة فى صدره ؟ قلت : ذلك حمزة بن عبد المطلب . قال ذلك الذى فعل بنا الأفاعيل .

قال عبد الرحمن : فوالله إنى لأقودهما إذ رآه بلال ، وكان هو الذى يعذّبه بمكة على تَرْك الإسلام ، فيخرجه إلى رَمْضاء مكة إذا حَميت فيضجعه على ظهره ثم يأمر بالصَّخْرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول : لا تزال هكذا أو تفارق دين محمد . فيقول بلال : أحَدٌ أحَدٌ . فلما رآه قال : رأسُ الكفر أميَّة بن خلف لا نجوتُ إن نجوتَ ، قال : قلت أىْ بلال أ بِأَسيرىّ ؟!

قال : لا نجوتُ إن نجا . قلت : أتسمع يا بن السوداء ؟ قال : لا نجوتُ إن نجا . ثم صرخ بأعلى صوته : يا أنصار الله ، رأس الكفر أمية بن خلف ، لا نجوتُ إن نجا .

فأحاطوا بنا حتّى جعلونا فى مثل المُسْكة[1] ، وأنا أذبُّ عنه ، فأحاطَ

---

(١) المسكة : الحلقة كالسوار .

رجلٌ السيفَ فضرب رِجل ابنه فوقع ، وصاح أمية صيحةً ما سمعت مثلها قط ، فقلت : انجُ بنفسك ، ولا نجاء به ، فو الله ما أغنى عنك شيئا ، فهبروهما بأسيافهم حتى فرغوا منهما ، فكان عبد الرحمن يقول : رحم الله بلالا ، ذهبتْ أدراعى وفجعنى فى[1] أسيرَىَّ .

[الملائكة تقاتل مع المؤمنين]

وقاتلت الملائكة يوم بدر . قال ابن عباس : ولم تقاتل فى يوم سواه ، وكانوا يكونون فيما سواه من الأيام عَدَدًا أو مَددًا لا يضربون ، وكانت سيماهم يوم بدر عمائمَ بيضاء ، قد أرسلوها فى ظهورهم ، ويوم حُنَين عمائم حمرًا .

وذكر ابن هشام عن علىّ رضى الله عنه فى سيماهم يوم بدرٍ مثلَ ما قال ابن عباس ، إلا جبريل ، فإن فى حديث علىّ أنه كانت عليه عمامة صفراء .

وقال ابن عباس : حدثنى رجل من غِفارٍ قال : أقبلتُ أنا وابن عمّ لى حتى أصعَدنا فى جبلٍ نُشرف منه[2] على بَدْر ، ونحن مشركان ، ننظر لمن تكون الدائرة فننهب مع من ينهب : فبينا نحن فى الجبل إذ دَنَتْ منا سحابة فسمعنا فيها حَمْحَمةَ الخيل ، فسمعت قائلاً يقول : أَقْدِم حَيْزومُ . فأمّا ابن عمّى فانكشف قِناعُ قلبه فمات مكانه ، وأمّا أنا فكِدْتُ أهلك ثم تماسكْتُ .

وقال أبو أُسَيْد الساعِدِىّ بعد أن ذهب بصره ، وكان شَهِدَ بدرًا : لو كنت اليوم ببدرٍ ومعى بَصَرِى لأريتكم الشِّعب الذى خرجت منه الملائكة ، لا أشكُّ ولا أتمارى .

وقال أبو داود المازنى : إنى لأتبع رجُلاً من المشركين يوم بدرٍ لأضربه إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفى ، فعرفت أنه قد قتله غيرى .

* * *

---

(١) ابن هشام : بأسيرى .

(٢) ابن هشام : يشرف بنا .

[مصرع أبي جهل]

فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من عدوه أمر بأبي جهل أن يُلتمس في القتلى، وقال لهم : انظروا إن خَفِيَ عليكم في القتلى إلى أثرِ جُرحٍ في ركبته، فإني ازدحمتُ يوماً أنا وهو على مأدبةٍ لعبد الله بن جُدْعانٍ ونحن غلامان وكنت أشفَّ[1] منه بيسير، فدفعته فوقع على ركبتيه فجُحِشَ[2] في إحداهما جحشاً لم يزل أثره به.

وكان من حديث عدوّ الله يوم بدرٍ أنه لما التقى الناس ودنا بعضهم من بعض قال : اللهم أقطعنا للرَّحم وآتانا بما لا يُعْرف فأحِنْه[3] الغداةَ . فكان هو المستفتِح، وأقبل يرتجز وهو يقول :

ما تَنْقِمُ الحربُ العَوَانُ منِّي بازلُ عامينِ حديثٌ سِنِّي[4]
لمثلِ هـذا ولدتْني أمي

وكان أوّل من لقيه فيما ذكر مُعاذ بن عمرو بن الجموح أخو بني سلمة، قال : سمعتُ القوم وأبو جهل في مثل الحَرَجَةِ[5] يقولون : أبو الحكم لا يُخلَصُ[6] إليه.

فلما سمعتها جعلتُه من شأني، فصَمَدْتُ نحوه، فلما أمكنني حملت عليه

---

(١) أشف : أفضل .

(٢) الجحش : سحج الجلد وقشره من شيء يصيبه .

(٣) أحنه : أهلكه .

(٤) العوان : الشديدة . والبازل : الذي خرج نابه من الإبل .

(٥) الحرجة : الشجر الملتف . وفي الحديث عن عمر بن الخطاب أنه سأل أعرابياً عن الحرجة فقال : هي شجرة لا يوصل إليها .

(٦) ابن هشام : لا يخلص .

فضربته ضربةً أطنّتْ[1] قدمه بنصف ساقه ، فضربنى ابنه عكرمة على عاتقى فطرحَ يدى فتعلّقتْ بجلدةٍ مِنْ جنبى ، وأجهَضنى[2] القتال عنه ، فلقد قاتلتُ عامةَ يومى وإنى لأسحبها خلفى ، فلما آذتنى وضعت عليها قدمى ثم تمطّيتُ بها حتى طرحتها . وعاش بعد ذلك معاذ هـذا رحمه الله ، إلى زمان عثمان رضى الله عنه .

ثم مرّ بأبى جهلٍ ، وهو عَقِير، معوِّذ بن عَفْراء فضربه حتى أثبته فتركه وبه رمَق ، وقاتل معوّذ حتى قتل .

فمرّ عبدُ الله بن مسعود بأبى جهل حين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتماسه فى القتلى . قال عبد الله : وقد كان ضَبث[3] بى مرةً بمكةَ فآذانى ولكزنى ، فوجدته بآخر رَمَقٍ فعرفتُه فوضعت رجلى على عنقه ثم قلت له : أخزاك الله ياعدوّ الله ! قال : وبماذا أخزانى ؟ أعْمَدُ[4] من رجل قتلتموه ، أخبرنى لمن الدائرة اليوم ؟ قلت : لله ولرسوله .

ثم احتززت رأسه ، ثم جئت به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا رسول الله هذا رأس عدو الله أبى جهل . فقال : آللّه الذى لا إله غيره ؟ وكانت يمينَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قلت : نعم ، والله الذى لا إله غيره ثم ألقيت رأسه بين يديه ، فحمد الله .

وخرّج مسلم فى صحيحه عن عبد الرحمن بن عوف ، قال : بينا أنا واقف فى الصف يوم بدرٍ نظرتُ عن يمينى وشمالى ، فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثةٍ أسنانُهما ، فتمنّيتُ لو كنت بين أضلعَ[5] منهما فغمزنى أحدهما ،

(١) أطنت : أطارت .
(٢) أجهضنى : غلبنى .
(٣) ضبث . قبض عليه ولزمه ، قال ضابىء بن الحارث البرجمى :

فأصبحتُ مما كان بينى وبينكم   من الودّ مثل الضابثِ الماء باليدِ

(٤) أى ما هو إلا رجل قتله قومه يريد أنه ليس عليه عار فى ذلك .
(٥) أضلع : أقوى .

فقال : يا عم ، هل تعرف أبا جهل ؟ قلت : نعم وما حاجتك إليه يابن أخى ؟ قال : أُخبرنا أنه يسُبُّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، والذى نفسى بيده لئن رأيته لا يفارق سَوادى سواده حتى يَمُوت الأعْجلُ منّا . قال : فتعجبت لذلك ، فغمزنى الآخر فقال مثلها .

قال : فلم أنشب أن نظرت إلى أبى جهل يَجُول فى الناس ، فقلت : ألا تريان ؟ هذا صاحبكما الذى تسألان عنه .

فابتدراه ، فضرباه بسيفيهما حتى قتلاه ، ثم انصرفا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبراه ، فقال : أيكما قتلَه ؟ فقال كل واحدٍ منهما : أنا قتلته . فقال هل مسَحتُما سيفيكما ؟ قالا لا ، فنظر فى السيفين ، فقال : كِلاَكما قتله . وقضى بسَلَبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح . والرجلان : معاذ بن عمرو بن الجَموح ، ومعاذ ابن عفراء .

وذكر ابن عُقْبة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف يوم بدر على القتلى ، فالتمس أبا جهل فلم يجده ، حتى عُرِف ذلك فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : اللهم لا يُعجِزَنّكَ فرعونُ هذه الأمّة .

فسعى له الرجال حتى وجده عبد الله بن مسعود مصروعاً ، بينه وبين المعركة غير كبير ، مقنّعاً فى الحديد واضعاً سيفه على فخذيه ، ليس به جرح ولا يستطيع أن يحرِّك منه عضواً ، وهو مكبّ ينظر إلى الأرض ، فلما رآه ابن مسعود طاف حوله ليقتله وهو خائف أن ينوء[1] إليه ، فلما دنا منه وأبصره لا يتحرك ظنّ أنه أثبت جراحاً ، فلما أراد أن يضربه بسيفه ، خاف أن لا يغنى شيئاً فأتاه من ورائه ، فتناول قائمَ سيف أبى جهل فاستلّه وهو مكبٌّ لا يتحرك ، ثم رفع سابغة البَيْضة عن قفاه ، فضربه فوقع رأسه بين يديه ، ثم سلبَه ،

(١) ينوء : ينهض بجهد ومشقة .

فلما نظر إليه إذا هو ليس به جراح وأبصر فى عنقه حَدَرًا[1] وفى يديه وكتفه مثل آثار السياط .

وأتى ابنُ مسعود النبىَّ صلى الله عليه وسلم فأخبره بقتله ، والذى رأى به ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم ، زعموا : ذلك ضرب الملائكة .

[فى القليب]

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقتلى أن يُطْرَحوا فى القَلِيب فطرحوا فيه إلا ما كان من أميَّة بن خلف ، فإنه انتفخ فى درعه فملأها ، فذهبوا ليجروه فتزايل ، فأقروه وألقوا عليه ما غيَّبه من التراب والحجارة .

ويقال أنهم لما ألقوا فى القَليب وقف عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا أهل القليب بئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم ، كذَّبتمونى وصدَّقنى الناس ، وأخرجتمونى وآوانى الناس ، وقاتلتمونى ونصَرنى الناس . يا أهل القليب ، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا ، فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقًّا .

فقال له أصحابه : يارسول الله أتكلم قوماً موتى ؟

فقال لهم : لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حق .

والناس يقولون : لقد سمعوا ما قلت لهم ، وإنما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد عَلِموا .

وفى حديث أنس أن المسلمين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين نادى أصحاب القَليب : يا رسول الله أتنادى قوماً قد جيَّفوا . فقال : ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبونى .

وذكر ابن عقبة نحواً من ذلك عن نافع عن عبد الله بن عمر .

---

(١) الحدر : ورم الجلد وغلظه من الضرب .

وقال حسّان بن ثابت :

عرفتَ ديارَ زينبَ بالكثيبِ
كخطّ الوَحْي في الورق القشيبِ[1]

تَداوَلها الرياحُ وكلُّ جَوْنٍ
من الوَسْميّ منهمرٍ سَكوبِ[2]

فأمسى رَسْمُها خَلَقًا وأمست
يَبابًا بعد ساكنها الحبيبِ

فَدَعْ عنك التذكُّرَ كلَّ يومٍ
ورُدَّ حرارةَ الصَّدر الكئيبِ

وخَبِّرْ بالذي لا عيبَ فيه
بصدقٍ غير أخبار الكَذوبِ

بما صنعَ المليكُ غَداةَ بدرٍ
لنا في المشركين من النصيبِ

غداةَ كأنّ جمعهم حِراءٌ
بَدَتْ أركانه جُنْحَ الغُروبِ

فلاقَيْناهُمُ منّا بجمعٍ
كأُسْد الغاب مُرْدانٍ وشِيبِ

(١) الكثيب : الرمل المكدس . والقشيب : الجديد .
قال السهيلى : أراد حسان بالقشيب هنا : الذى خالطه ما يفسده ، إما من دنس وإما من قدم .

(٢) الجون : الأبيض ، والوسمى : مطر الربيع الأول .

أمامَ محمـدٍ قد آزَروه
على الأعداء في لَفْح الحـروبِ
بأيديهم صَوارمُ مُرْهَفـات
وكل مجـرَّب خاظِي الكُعوبِ[1]
بنو الأوْس الغَطارفِ آزَرَتْهـا[2]
بنو النجّـارِ في الدّين الصَّـلِيبِ[3]
فغـادَرْنا أبا جهلٍ صريعًـا
وعُتبة قد تركنـا بالجَبُوبِ[4]
وشَيْبة قد تركنـا في رِجال
ذوي حَسَبٍ إذا نُسبوا حسيبِ
يُنـاديهم رسولُ الله لمـا
قذفناهم كَبَـاكِبَ في القَليبِ[5]
ألم تجدوا كلامي كان حقًا
وأمرُ الله يأخذ بالقـلوبِ
فمـا نطقوا ، ولو نطقوا لقـالوا
صـدقتَ وكنتَ ذا رأيٍ مُصيبِ

* * *

(١) الصوارم : السيوف البواتر . والخاظي : مكتنز الكعوب قويها .
(٢) ابن هشام : وازرتها .
(٣) الصليب : الشديد .
(٤) الجبوب : وجه الأرض .
(٥) كباكب : جماعات .

ولما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُلقوا فى القَلِيب أُخذ عتبة ابن ربيعة فسُحب إلى القَليب ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما ذكر ، فى وجه أبى حذيفة بن عُتْبة فإذا هو كئيب قد تغيّر فقال : يا أبا حذيفة لعلك دَخلك من شأن أبيك شىء ؟ أو كما قال صلى الله عليه وسلم .

قال[1] : لا والله يا رسول الله ، ما شككتُ فى أبى ولا فى مَصْرعه ، ولكنى كنت أعرف من أبى رأيًا وحِلمًا وفضلًا ، فكنت أرجو أن يهديه ذلك للإسلام[2] ، فلما رأيتُ ما أصابه وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذى كنت أرجو له ، أحزَنَنى ذلك .

فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير وقال له خيراً .

[الذين ظلموا أنفسهم]

وكان فى قريش فِتْية أسلموا ورسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، فلما هاجر إلى المدينة حبسَهم آباؤهم وعشائرهم بمكة ، وفتنوهم فافتتَنوا ، ثم ساروا مع قومهم إلى بدر فأصيبوا به جميعًا ، فنزل فيهم من القرآن فيما ذكر « إنّ الذين توفَّاهم الملائكةُ ظالمِى أنفسهم قالوا فِيمَ كنتم ؟ قالوا : كنّا مُسْتَضْعَفِين فى الأَرْضِ ، قالوا أَلَمْ تَكُنْ أرضُ الله واسعةً فتهاجروا فيها ؟ فأُولئِكَ مَأْوَاهم جهنّمُ وساءتْ مَصِيرًا[4] » .

وأولئك الفتية : الحارث بن زَمْعة بن الأسود ، وأبو قيس بن الفاكه وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة ، وعلىّ بن أمية بن خلف ، والعاص بن مُنبه ابن الحجاج .

---

(١) ابن هشام : فقام .
(٢) ابن هشام : إلى الإسلام .
(٤) سورة النساء ٩٧ .

[قسمة الغنائم]

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بما فى العسكر مما جمع الناسُ فجُمع .

فاختلف فيه المسلمون ، فقال مَن جمعه : هو لنا . وقال الذين كانوا يقاتلون العدوّ ويطلبونه : والله لولا نحن ما أصَبْتموه ، لَنحن شَغَلْنا عنكم القومَ حتى أصبتم ما أصبتم .

وقال الذين كانوا يحرسون رسول الله صلى الله عليه وسلم مخافةَ أن يخالِف إليه العدوّ :

والله ما أنتم بأحقّ به منا ، لقد رأينا أن نقتل العدوّ إذ منحنا الله أكتافهم[1] ، ولقد رأينا أن نأخذ المتاع حين لم يكن دونه من يمنعه ، ولكنّا خِفنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كَرَّةَ العدوّ فقمنا دونه ، فما أنتم بأحق به منا .

فكان عبادة بن الصامت إذا سُئل عن الأنفال ، قال : فينا معاشرَ أصحاب بدر أُنزلت حين اختلفنا فى النَّفَل وساءت فيه أخلاقُنا ، فنزعه الله من أيدينا ، فجعله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقَسَمه بيننا على بَوَاء .

يقول : على السواء .

فكان فى ذلك تقوى الله وطاعته وطاعة رسوله ، وصلاح ذات البَيْن .

[بشير النصر]

ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبدَ الله بن رَوَاحة بشيراً إلى أهلِ العالية بما فتح الله على رسوله وعلى المسلمين ، وبعث زيدَ بن حارثة إلى أهل

---

(١) ابن هشام : أكتافهم .

السافلة ، قال أسامة بن زيد : فأتانا الخبرُ – حين سوّينا على رُقَيّة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم خلّفنى عليها مع زوجها عثمان – أنّ زيدَ بن حارثة قد قدِم .

قال : فجئته وهو واقف بالمصلّى وقد غشيه الناس وهو يقول : قتل عُتبة ابن ربيعة ، وشَيبة بن ربيعة وأبو جهل بن هشام ، وزَمْعة بن الأسود ، وأبو البَختَرىّ بن هشام ، وأُمية بن خلَف ، ونُبَيْه ومُنَبِّه ابنا الحجاج . قلت : يا أبتِ أحقٌّ هذا ؟ قال : نعم يا بنى[1] .

[رجوع الرسول إلى المدينة]

ثم أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم قافلاً إلى المدينة ومعه الأسارى من المشركين ، وفيهم عُقبة بن أبى مُعَيط والنَّضْر بن الحارث ، حتى إذا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مَضِيق الصفراء ، نزل على كَثيب يقال له سَيرٌ إلى سَرْحة به ، فقسَّمَ هنالك النَّفلَ الذى أفاء الله على المسلمين من المشركين على السواء .

ثم ارتحل حتى إذا كان بالرَّوْحاء ، لقيه المسلمون يهنئونه بما فتح الله عليه ومن معه من المسلمين ، فقال لهم سلَمة بن سلامة بن وَقْش : ما الذى تهنئوننا به ؟ فو الله إنْ لقينا إلاَّ عجائزَ صُلْعًا كالبُدْن المعقَّلة فنحرناها فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : أى ابنَ أخى ؟ أولئك المَلأ[2] .

حتى إذا كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بالصَّفْراء ، قُتل النَّضْر ابن الحارث ، قتله علىُّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، ثم خرج حتى إذا كان

(١) ابن هشام : نعم والله يابنى .
(٢) الملأ : الأشراف والرؤساء .

بعِرْق الظبية ، قُتل عُقْبة بن أبي مُعَيْط ، فقال عقبة حين أُمِرَ بقتله : فمن للصِّبية يا محمد ؟ قال : النار !

فقتله عاصمُ بن ثابت بن أبي الأَقْلح ، في قول ابن عُقْبة وابن إسحاق .
وقال ابن هشام[1] : قتله علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

وقالت قُتَيْلة أُخت النَّضر[2] بن الحرث لما بلغها مقتل أخيها :

يا راكباً إن الأُثيل[3] مَظِنَّةٌ
من صُبْح خامسةٍ وأنت مُوفَّقُ

أبلغْ بهـا مَيْتاً بأنّ تحيةً
ما إنْ تزال بها الركائبُ تَخْفقُ

مني إليك وعَـبْرة مسفوحة
جادت بِوَاكِفِهـا وأُخرى تَخْنُقُ[4]

هـل يَسْمَعَنِي النَّضْر إنْ ناديتُه
أم كيف يَسْمَعُ ميِّتٌ لا يَنطقُ

أمحمدٌ يا خير ضِنْءِ كريمةٍ
في قومها والفحلُ فحلٌ مُعْرِقُ[5]

---

(١) ذكر ابن هشام القول الأول ثم قال : ويقال : قتله علي بن أبي طالب فيما ذكر لي ابن شهاب الزهري وغيره من أهل العلم .

(٢) قال السهيلي : الصحيح أنها بنت النضر لا أخته ، كذلك قال الزبير وغيره ، وكذلك وقع في كتاب الدلائل : الروض ٢ / ١١٩ .

(٣) الأثيل : موضع بين بدر ووادي الصفراء .

(٤) الواكف : المنهمر . وفي سيرة ابن كثير ٢ / ٤٧٤ : بوابلها .

(٥) الضنء : الأصل . ويروى : ضئ : وهو الأصل والولد . والمعرق : العريق الكريم .

ما كان ضَرّكَ لو مَنَنْتَ وربما
مَنّ الفتى وهو المغيظُ المحنَقُ
والنّضْر أقربُ من أسَرْتَ قرابةً
وأحقُّهم إن كان عِتق يُعتَقُ
ظلّت سيوفُ بنى أبيه تنوشُه
لله أرحامٌ هناك تُشَقّقُ !

قال ابن هشام : فيقال والله أعلم ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لمّا بلغه هذا الشعر قال : لو بلغنى هذا الشعر قبلَ مقتله ، لمننتُ عليه .

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قدِم المدينة قبل الأسارى بيوم ، وقد كان فرّقهم بين أصحابه ، وقال : استوصوا بالأسارى خيراً .

وكان أبو عزيز بن عمير أخو مُصْعب بن عمير لأبيه وأمّه فى الأسارى ، قال : وكنتُ فى رهطٍ من الأنصار حين أقبلوا بى من بدرٍ وكانوا إذا قدّموا غداءهم وعشاءهم خصُّونى بالخبز ، وأكلوا التمر ، لوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم إياهم بنا ، ما تقع فى يدِ رجل منهم كِسرةٌ من الخبز إلا نفحنى بها ، قال : فأستحى فأردُّها عليه فيردها علىّ ما يمسّها !

قال : ومرّ بى أخى مُصْعبٌ ورجلٌ من الأنصار يأسرنى ، فقال له : شدّ يدك به ، فإن أمّه ذات متاع لعلها تَفْديه منك فقال له أبو عزيز — فيما ذكر ابن هشام — يا أخى هذه وصاتك بى ! فقال له مصعب : إنه أخى دونك ، فسألت أمُّه عن أغلَى ما فُدِىَ به قرشىّ ، فقيل لها : أربعة آلاف درهم ، فبعثت بأربعة آلاف درهم ففدته بها .

* * *

وذكر قاسم بن ثابت فى دلائله ، أن قريشاً لمّا توجهت إلى بدرٍ مرّ هاتف من الجن على مكة فى اليوم الذى أوقع بهم المسلمون وهو ينشد بأبعد صوتٍ ولا يرى شخصه :

أزارَ الحنيفيّون بدرًا وَقيعةً
سَيَنْقَضُّ منها ركنُ كِسْرى وقيصَرا

أبادت رجالًا من لُؤَىٍّ وأبرزَتْ
خَرائدَ يَضْرِبْنَ التَّرائبَ حُسَّرَا

فيـا ويح من أمسَى عدوَّ محمـدٍ
لقد حادَ عن قَصْـدِ الهُدَى وتحيَّرَا

فقال قائلهم : من الحنيفيّون ؟ فقالوا : هو محمدٌ وأصحابه ، يزعمون أنهم على دين إبراهيم الحنيف ، ثم لم يلبثوا أن جاءهم الخبر اليقين[1] .

وكان أول من قدِم مكة بمصاب قريش : الحَيْسُمَانُ بن عبد الله الخزاعى . فقالوا ما وراءك ؟ قال : قُتِل عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، وأبو الحَكَم ابن هشام وأُمية بن خلَف ، وزَمْعة بن الأسود ، ونبيه ومُنَبِّه ابنا الحجاج ، وأبو البَخْتَرِىّ بن هشام ، فلما جعل يعدّد أشرافَ قريش ، قال صفوان ابن أمية وهو قاعد فى الحِجْر والله إنْ يَعْقِل هذا ، فسَلوه عنى . قالوا : ما فعل صفوان بن أُمية ؟ قال : ها هو ذاك جالس فى الحِجْر ، وقد والله رأيت أباه وأخاه حين قُتلا .

[موت أبى لهب]

وقال أبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم : كنت غلاماً للعباس ابن عبد المطّلب ، وكان الإسلام قد دَخَلنا أهلَ البيت فأسلم العباسُ ،

(١) الروض الأنف ٢/٨٥ .

وأمُّ الفضل ، وأسلَمتُ ، وكان العباسُ يهاب قومه ، ويكره خِلافهم ، فكان يكتم إسلامه ، وكان ذا مالٍ كثير متفرق فى قومه ، وكان أبو لهب قد تخلّف عن بدر فلما جاءه الخبر عن مصاب أصحاب بدرٍ من قريش كبته الله وأخزاه ، ووجَدْنا فى أنفسنا قوةً وعزةً ، وكنت أعمل الأقداح فى حُجْرة زمزم ، فو الله إنّى لجالسٌ فيها أنحتُ أقداحى وعندى أمُّ الفضل جالسةً ، وقد سرّنا ما جاءنا من الخبر ، إذ أقبل أبو لهب يجرُّ رجليه بشرٍّ حتى جلس الى طُنُب[1] الحجرة ظهره إلى ظهرى .

فبينا هو جالس إذ قال الناس : هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قَدِم . فقال أبو لهبٍ هلمّ إليه فعندك لعمرى الخبر ، فجلس إليه الناس قيام عليه ، فقال يابن أخى أخبرنى كيف كان أمرُ الناس ؟ قال : والله ما هو إلا أن لقِينَا القومَ فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا[2] كيف شاءوا ويأسروننا كيف شاءوا وأيمُ الله مع ذلك ما لُمتُ الناسَ ، لقِينا رجالاً بيضًا على خيْل بُلْق بين السماء والأرض ، والله ما تُليق[3] شيئاً ، ولا يقوم لها شىء .

قال أبو رافع : فرفعتُ طُنُب الحجرة بيدى ثم قلت : تلك والله الملائكة ! فرفع أبو لهب يده فضرب وجهى ضربة شديدة ، وثاورته فاحتملنى وضرب بى الأرض ، ثم برك علىَّ فضربنى وكنت رجلا ضعيفًا ، فقامت أمُّ الفضل إلى عمود من عُمُد الحجرة فضربته به ضربة فلقت[4] فى رأسه شجّة

(١) الطنب : حبل طويل يشد به بسرادق البيت أو الوتد والمراد به : الطرف .
(٢) ابن هشام : يقودوننا كيف شاءوا . وماهنا أصح وأوضح .
(٣) ماتليق : ماتبقى .
(٤) فلقت : كذا بالأصل ، والطبرى ١٣٣٠ ط أوربا وفى ابن هشام : فلعت . ومعناها : شقت .

منكرة . وقالت : أتستضعفه[1] أن غاب عنه سيده ! فقام مولّيًا ذليلًا ، فوالله ما غاب إلا سبع ليالٍ حتى رماه الله بالعَدَسةِ فقتله .

وذكر محمد بن جرير الطبري فى تاريخه أن العَدَسة قَرحةٌ كانت العرب تتشاءم بها ويَرَوْنَ أنها تُعْدِى أشدَّ العدْوى .

فلما أصَابَتْ أبا لهب تباعد عنه بنوه ، وبقى بعد موته ثلاثًا لا تُقرب جَنازته ، ولا يُحاوَل دفنه ، فلما خافوا السُّبّةَ فى تركه حفروا له ثم دفعوه بِعُودٍ فى حُفرته ، وقذفوه بالحجارة من بعيد ، حتى واروْه[2] .

وقال ابن إسحاق فى رواية يونس بن بُكَيْر عنه : إنهم لم يحفروا له ولكن أسندوه إلى حائطٍ وقذفوا عليه الحجارة من خلف الحائط ، حتى واروْه .

ويُرْوى أن عائشة رضى الله عنها كانت إذا مرّت بموضعه ذلك غطّت وجهها .

وخرّج البخارى فى صحيحه أن أبا لهب رآه بعضُ أهله فى المنام بشَرِّ خيبةٍ ، أى حالة ، فقال : ما لقيتُ بعدكم راحةً ، غير أنى سُقيت فى مثل هذه — وأشار إلى النقرة بين السبّابة والإبهام — بعِتْقى ثُوَيْبة .

وثُوَيْبة هذه أرضعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأرضعت عمه حمزةَ وأبا سلَمة بن عبد الأسد .

ورَوَى غير البخارى أن الذى رأى أبا لهب من أهله هو أخوه العباس ، قال : فمكثت حولًا بعد موت أبى لهب لا أراه فى نوم ، ثم رأيته فى شرٍّ

---

(1) ابن هشام : استضعفته وماهنا موافق لرواية الطبرى فى تاريخه .

(2) تاريخ الطبرى ١٣٣٠ ط أوربا .

حال ، فقال : ما لقيتُ بعدكم راحةً ، إلاَّ أن العذاب يُخفَّفُ عنّى كلَّ يوم اثنين .

وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولد يوم الاثنين ، فبشّرتْ أبا لهب بمولده ثُوَيْبة مولاته فقالت له : أشعرتَ أن آمنة ولدت غلاماً لأخيك عبد الله ؟ فقال لها : اذهبى فأنت حرّة ، فنفعه ذلك وهو فى النار ، كما نفع أخاه أبا طالب ذَبُّه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم واجتهاده فى منعه ونصرته ، فهو أهونُ أهل النار عذاباً .

ويفعل الله ما يشاء مما يطابق سابق تقديره ، وقد قضى الله سبحانه بإحباط عمل الكافرين ، فمحال أن يقيم لهم يومَ القيامة وزْناً ، أو ينالوا عنده بشىء قدموه مما يتصور بصورة الأعمال الصالحة نعيّاً ، إلا أنه ربما جعل التفاوت بين جماهيرهم وبين من شاء منهم بمقدار العذاب ، فيضاعفه على قومٍ أضعافاً ، ويضع من شدّة أيده عن آخرين تخفيفاً .

وكل عذاب الله شديد ، فنعوذ برضا مولانا الكريم من سخطه ، وبمعافاته من عقوبته .

[قريش تبكى قتلاها]

وحدّث محمد بن إسحاق بن يَسار عن يحيى بن عبّاد ، عن أبيه عبّاد ابن عبد الله بن الزبير ، قال : ناحتْ قريش على قتلاهم ، ثم قالوا : لا تفعلوا فيبلغَ محمد وأصحابه فيشمتوا[1] بكم ، ولا تبعثوا فى أسراكم حتى تستأنُوا بهم لا يَتَأرَّب[2] عليكم محمدٌ وأصحابه فى الفداء .

قال : وكان الأسود بن المطّلب قد أصيب له ثلاثة من ولده : زَمْعة وعَقِيل

(١) الطبرى : فيشمت .
(٢) يتأرب : يتشدد ويغلو .

ابناه ، والحارث بن زمعة وهو ابن ابنه ، وكان يحب أن يبكى عليهم ، فسمع نائحة من الليل فقال لغلام له وقد ذهب بصره ، انظر هل أحِلّ النّحْب ؟ هل بكت قريش على قتلاها ؟ لعلّى أبكى على أبى حكيمة يعنى زَمْعة ، فإن جوفى قد احترق !

فلما رجع إليه الغلام ، قال : إنما هى امرأة تبكى على بعير لها أضلّتْه . قال : فذاك حين يقول الأسود :

أتبكى أن يَضِلّ لها بَعيرٌ ويمنَعُها من النومِ السهودُ

فلا تبكى على بَكْرٍ ولكن على بَدْرٍ تقاصَرت الجُدودُ

فى أبيات ذكرها ابن إسحاق .

وقد تقدم دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأسود بن عبد المطلب هذا بأن يُعْمى الله بَصَره ويُثْكله ولده ، فاستجيب له وفق دعائه ، سبَق العمى أولاً إلى بصره ، ثم أصيب يومَ بدر بثلاثة مِن ولده ، فتمت إجابةُ الله سبحانه رسولَه فيه .

وكان فى الأسارى أبو وَداعة السَّهْمِىّ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنّ له بمكة ابناً كيِّسًا تاجراً ذا مالٍ ، وكأنكم به قد جاءكم فى طلب فداء أبيه فلما قالت قريش : لا تعجلوا بفداء أسراكم لا يتأرّب عليكم محمد وأصحابه ، قال المُطّلب بن أبى وداعة ، وهو الذى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عَنَى : صدَقتم لا تعجلوا . وانسَلّ من الليل فقدِم المدينة وأخذ أباه بأربعة آلاف درهم .

ثم بعثت قريش فى فداء الأسارى ، فقدم مِكْرَز بن حَفْص بن الأَخْيَف فى

فداءسُهيل بن عمرو وكان الذى أسره مالك بن الدُّخْشم أخو بنى سالم بن عوف ، فلما قاوَلهم فيه مِكْرَز وانتهى إلى رضاهم قالوا : هات الذى لنا ، قال : اجعلوا رِجْلى مكان رجله ، وخلوا سبيله حتّى يبعث إليكم بفدائه . فخلوا سبيل سُهَيل ، وحبسوا مكرزًا مكانه عندهم ، فقال مكرزٌ :

فدَيْتُ بأذْوادٍ ثمانٍ سِبا فتًى
ينالُ الصميمَ غُرْمُها لا المَواليَا

رَهنتُ يدِى والمالُ أيسرُ من يدى
علىّ ولكنّى خَشِيتُ المخَازِيا

وقلت سُهَيلٌ خيرُنا فاذهبوا به
لأبنائنا حتى ندير الأمانيَا

وكان سهيل قد قام فى قريش خطيباً عندما استفزَّهم أبو سفيان ، فقال : يالَغالبٍ أتاركون أنتم محمداً والصُّبَّاء من أهل يثرب يأخذون عيرانكم وأموالكم ، من أراد مالًا فهَذَا مالِى ، ومن أراد قوّة فهذه قوّة .

فيُرْوَى أن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم لما أُسِرَ سُهيل يوم بدرٍ : يا رسول الله انزع[1] ثَنِيَّتَىْ سُهيل بن عمرو يَدْلَع[2] لسانه ، فلا يقوم عليك خطيباً فى موطنٍ أبداً .

فقال رسول الله صلى الله عليه « وسلم : لا أُمثّل به ، فيُمَثّل الله بى ، وإن كنت نبيًّا ! إنه عسى أن يقوم مقاماً لا تذمّه » .

---

(١) الطبرى : انتزع . وفى ابن هشام : دعنى أنزع .

(٢) يدلع : يخرج .

فصدّق اللهُ رسولَه ، وكان لسهيل بعد وفاته صلى الله عليه وسلم فى تثبيت أهل مكة على الإيمان مقام سيأتى ذكر حديثه فى موضعه إن شاء الله .

وكان عمرو بن أبى سفيان بن حرب[1] أسيراً فى يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أسارَى بدرٍ ، فقيل لأبى سفيان بن حرب : فِدِ عمراً ابنك . فقال : أيجمع علىّ دَمِى ومالى ، قتلوا حنظلة وأفْدى عمراً ! دعوه فى أيديهم يمسكونه ما بدا لهم !

فبَيْنا هو كذلك محبوس بالمدينة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ خرج سعدُ بن النعمان بن أَكّال أخو بنى عمرو بن عوف معتمراً ، ومعه مُرَيّة[2] له ، وكان شيخاً مسلماً فى غنمٍ له بالبقيع ، فخرج من هنالك معتمراً ولا يخشى الذى صُنِع به ، لم يظن أن يُحبس بمكة ، إنما جاء معتمراً وقد كان عَهِد قريشاً لا يَعْرِضون لأحدٍ[3] جاء حاجاً أو معتمراً إلاّ بخيرٍ ، فعدا عليه أبو سفيان بن حرب بمكة فحبسه بابنه عمرو . ثم قال أبو سفيان :

أرَهْطَ ابنِ أكّالٍ أجيبوا دعاءه
تعاقدْتُمُ لا تُسْلموا السيّدَ الكهلاَ

فإن بنى عَمرٍو لئــــامٌ أذلّةٌ
لئن لم يفكّوا عن أسيرهم الكَبْلاَ

فأجابه حسان بن ثابت فقال :

(١) فى ابن هشام والطبرى وكان لابنة عقبة بن أبى معيط .

(٢) مرية : تصغير امرأة .

(٣) الطبرى : لا تعترض لأحد .

لو كان سعدٌ يوم مكة مُطلَقا
لأكثرَ فيكم قبل أن يُؤسَرَ القتلا

بِعَضْبِ حُسَام أو بصفراء نَبْعةٍ
تحِنّ إذا ما أُنبِضَتْ تَحفِزِ النَّبلا[٢]

ومشى بنو عمرو بن عوفٍ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه خبره ، وسألوه أن يعطيهم عمرو بن أبي سفيان ، فيفكوا به صاحبهم ، ففعل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فبعثوا به إلى أبي سفيان ، فخلى سبيل سعد .

وكان في الأسارى أيضاً أبو العاص بن الرّبيع بن عبد العُزى بن عبد شمس ، خَتَن رسول الله صلى الله عليه وسلم زوج ابنته زينب ، وكان صلى الله عليه وسلم يثني عليه في صِهْره خيراً ، وكان من رجال مكة المعدودين مالاً وأمانةً وتجارة ، وهو ابن أخت خديجة رضي الله عنها وهي سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلَ أن ينزل عليه الوحي أن يزوّجه ، وكان لا يخالفها ، فزوجه ، وكانت تعدُّه بمنزلة ولدها .

فلما أكرم الله رسوله صلى الله عليه وسلم بنبوته ، آمنت به خديجة وبناته ، فصدّقنه ودِنّ بدينه ، وشَهِدْن أن الذي جاء به هو الحق ، وثبت أبو العاص على شِرْكه .

فلما بادَى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم قريشاً بأمر الله تبارك وتعالى وبالعداوة ، قالوا : إنكم فرّغتم محمداً من همه ، فرُدُّوا عليه بناته فاشغلوه بهن . فمشوا إلى أبي العاص فقالوا له : فارقْ صاحبتك ونحن نزوّجك أيَّ امرأةٍ شئتَ . قال : لا ها الله ، إذاً لا أفارق صاحبتي ، وما أحبُّ أنّ لي بها امرأة من قريش .

---

(٢) النبع : شجر القسي والسهام . وأنبضت : حركت . وتحفز : تقذف .

ثم مشوا إلى عُتْبة بن أبي لهب وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد زوّجه رقية وأخاه أمّ كلثوم، فقالوا له طلق ابنة محمدٍ ونحن ننكحك أي مرأة من قريش شئت، فقال: إن زوجتموني ابنة أبان بن سعيد بن العاص، أو ابنة سعيد بن العاص فارقتها. فزوجوه بنت سعيد بن العاص وفارقها، ولم يكن دخل بها فأخرجها الله من يده كرامةً لها وهَوَانًا له. وخلَف عليها عثمان ابن عفان بعده.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يُحِلّ بمكة ولا يُحرِّم، مغلوبًا على أمره، وكان الإسلام قد فرّق بين زينب ابنته وبين أبي العاص، إلاّ أنه كان لا يقدر أن يفرق بينهما، وأقامت معه على إسلامها وهو على شركه، حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فلما سارت قريش إلى بدرٍ سار فيهم أبو العاص فأصيب في الأسارى، فكان بالمدينة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما بعث أهلُ مكةَ في فداء أسراهم بعثت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في فداء أبي العاص بمالٍ وبعثت فيه بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى بها، فلما رآها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم رقّ لها رقةً شديدة، وقال: إنْ رأيتم أن تُطلقوا لها أسيرها، وتردّوا عليها الذي لها فافعلوا. قالوا: نعم يارسول الله. فأطلقوه وردوا عليها مالها.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخذ عليه أن يُخلّي سبيل زينب إليه، وعده أبو العاص بذلك، أو شَرطه عليه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في إطلاقه، ولم يَظهر ذلك منه ولا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيُعلم ما هو.

إلاّ أنه لما خرج أبو العاص إلى مكة وخَلّى سبيله، بعث رسول الله صلى الله

عليه وسلم مكانه زيد بن حارثة ، ورجلا من الأنصار ، فقال كُونا ببطن يأجج حتى تمرّ بكما زينب فتصحباها ، حتى تأتياني بها . فخرجا وذلك بعد بَدْر بشهرٍ أو شيعة ، فلما قَدِم أبو العاص مكة أمَرها باللحوق بأبيها ، فخرجت تتجهّز .

قالت زينب : بَيْنا أنا أتجهز بمكة لقيتني هند ابنة عُتْبة ، فقالت : يا ابنة محمدٍ ألم يبلغني أنك تريدين اللحاق بأبيك ؟ قلتُ : ما أردتُ ذلك . قالت : أى ابنة عمّ لا تفعلى ، إن كانت لك حاجة بمتاع مما يَرْفق بك فى سفرك أو مالٍ تبلغين به إلى أبيك ، فإن عندى حاجتَكِ ، فلا تَضْطَنِى منى(١) فإنه لا يدخل بين النساء ما [يدخل](٢) بين الرجال . قالت زينب : فوالله ما أراها قالت ذلك إلا لتفعل ، ولكنى خِفْتها فأنكرتُ أن أكون أريد ذلك ، وتجهزتُ .

ولما فَرَغتْ بنتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم من جهازها قدّم إليها كِنانة بن الربيع أخو زوجها بعيراً فركبتْه ، وأخذ قوسه وكنانته ثم خرج بها نهارًا يقود بها وهى فى هَوْدج لها ، وتحدّث بذلك رجال قريش ، فخرجوا فى طلبها حتى أدركوها بذى طُوًى ، فكان أوّل من سبق إليها هبّار بن الأسود الفهرى ، فروّعها هَبّارٌ بالرُّمح وهى فى هودج لها ، وكانت حاملًا فيما يزعمون ، فلما رِيعَتْ طرحتْ ذا بطْنها ، وبَرَك حَمُوها كِنانةُ ونثر كِنانته ثم قال : والله لا يدنو منى رجلٌ إلاّ وضعتُ فيه سهمًا . فتكرْكَر الناسُ عنه ، وأتى أبو سفيان بن حرب فى جِلّة من قريش فقال : أيها الرجل كُفّ عنّا نَبْلَك حتى نكلّمك . فكفّ ، فأقبل أبو سفيان حتى وقف

---

(١) تضطنى : تستحيى أو تنقبضى . وفى الطبرى : تضطنئى بالهمز على الأصل .

(٢) من الطبرى .

عليه ، فقال : إنك لم تُصِبْ ، خرجتَ بالمرأة على رءوس الناس علانيةً ، وقد عرفتَ مُصيبتَنا ونكبتنا ، وما دخل علينا من محمد ، فيظنّ الناسُ إذا خرجتْ إليه ابنته علانية على رءوس الناس من بين أظْهُرنا أن ذلك عن ذلّ أصابنا عن مصيبتنا التى كانت ، وأن ذلك منا ضعفٌ ووَهنٌ ، لعمرى ! ما لنا بحَبْسها عن أبيها من حاجة ، وما لنا فى ذلك من ثُؤْرة ، ولكن أرْجِع المرأة ، حتى إذا هدأت الأصوات وتحدّث الناسُ أنْ قد رددْناها ، فسُلّها سرًّا وألحقْها بأبيها . ففعل ، فأقامت لَيَالىَ حتى إذا هدأت الأصوات خرج بها ليلا حتى أسلَمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه ، فقدِما بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولما انصرف الذين خرجوا إلى زينب لقيتهم هند بنت عتبة فقالت لهم :

أفى السِّلْم أعْيارٌ جفاءً وغِلْظَةً
وفى الحرب أشْباهُ النساء العَوارِكِ(١)

وأمّر رسول الله صلى الله عليه وسلم سريّةً بعثها بتحريق هَبّار بن الأسود والرجل الذى سبق معه إلى زينب إن ظفروا بهما ، ثم بعث إليهم فقال : إنى كنت قد أمرتكم بتحريق هذين الرجلين إنْ أخذْتُموهما ، ثم رأيتُ أنه لا ينبغى أن يعذّب بالنار إلا الله عزّ وجل ، فإن ظفرتم بهما فاقتلوهما .

[إسلام أبى العاص]

وأقام أبو العاص بمكة وأقامت زينب عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حين فرّق بينهما الإسلام ، حتى إذا كان قبلَ الفتح خرج أبو العاص تاجراً إلى

---

(١) الأعيار : جمع عير ، وهو الحمار . والعوارك : الحيض .

الشام ، وكان رجلًا مأمونًا ، بمالٍ له وأموالٍ لرجال من قريش أبضَعوها[1] معه ، فلمّا فَرَغَ من تجارته وأقبل قافلاً لقيته سريّةٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأصابوا ما معه وأعجزَهم هاربًا ، فلما قدمت السّرية بما أصابوا من ماله أقبل أبو العاص تحت الليل حتى دخل على زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستجار بها فأجارته ، وجاء فى طلب ماله ، فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصبح فـكبّر وكبّر الناس معه صرخت زينب من صُفّة النساء : أيها الناس : إنى قد أجرتُ أبا العاص بن الربيع . فلما سلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصلاة أقبل على الناس فقال : أيها الناس هل سمعتم ما سمعتُ ؟ قالوا : نعم . قال : أما والذى نفس محمد بيده ما علمتُ بشىء حتى سمعتُ ما سمعتم ، إنه يُجير على المسلمين أدناهم .

ثم انصرف ، فدخل على ابنته فقال : أىْ بُنَيّة أكرمى مثواه ولا يَخلُصنّ إليك ، فإنك لا تَحِلّينَ له . وبعث إلى السّرية الذين أصابوا مال أبى العاص فقال لهم : إنّ هذا الرجل منا حيث قد علمتم ، وقد أصبتم له مالا ، فإن تُحسنوا وتردّوا عليه الذى له فإنا نحبُّ ذلك ، وإن أبيتم فهو فَىْء الله الذى أفاء عليكم ، فأنتم أحق به . قالوا : يا رسول الله بل نردّه عليه ، فردوه عليه ، حتى إن الرجل ليـأتى بالدّلو ويأتى بالشّنّة والإداوة ، حتى إن الرجل ليأتى بالشِّظَاظ[2] حتى ردّوا عليه مالَه بأسْره لا يفقدُ منه شيئًا ، ثم احتمل إلى مكة فأدّى إلى كل ذى مالٍ من قريش مالَه ثم قال : يا معشر قريش ، هل بقى لأحدٍ منكم عندى مال لم يأخذه ؟ قالوا : لا ، فجزاك الله خيرًا فقد وجدناك وفيًّا كريمًا . قال : فإنى أشهد أن لا إله إلا الله ،

---

(١) ط : انضعوها

(٢) الشنة : القربة الخلق . والشظاظ : خشبة عقفاء تجعل فى عروتى الجوالقين .

وأن محمداً عبده ورسوله ، والله ما منعنى من الإسلام عنده إلا تخوّفُ أن تظنوا أنى إنما أردت أن آكل أموالكم ، فلما أداها الله إليكم وفرغتُ منها ، أسلمتُ . ثم خرج حتى قدِم على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وحكى ابن هشام عن أبى عبيدة ، أن العاص لما قدم من الشام ومعه أموال المشركين قيل له : هل لك أن تُسْلِم وتأخذ هذه الأموال ، فإنها المشركين ؟ فقال : بئس ما أبدأ به إسلامى أن أخون أمانتى !

[أمر أبى عَزّة]

ومنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على نَفَرٍ من الأسارى من قريش بغير فداء ، منهم أبو عَزّة عمرو بن عبد الله الجمحى ، كان محتاجاً ذا بناتٍ ، فكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله : لقد عرفْتَ مالى من مالٍ وإنى لذو حاجةٍ وذو عيالٍ فامْنُنْ عَلَىَّ . فمَنّ عليه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وأخذ عليه أن لا يظاهِرَ عليه أحدًا ، فقال أبو عزة فى ذلك يمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم ويذكر فضله على قومه :

مَنْ مُبْلِغٌ عنّى الرسولَ محمدًا
بأنك حقٌّ والمليكُ حميدُ
بأنك[1] امرؤٌ تدعو إلى الحق والهُدَى
عليك من الله العظيمِ شهيدُ
فإنك من حاربته لمحارَبٌ
شقىٌّ ومن سالَمْتَه لَسعيدُ
فأنت امرؤٌ بُوِّئْتَ فينا مَباءةً
لها درجاتٌ سهلةٌ وصُعُودُ

(١) ابن هشام : وأنت .

ولكن إذا ذُكِّرتُ بَدْراً وأهلَهُ تأوّبَ ما بى حَسْرة وقعودُ

وذكر موسى بن عُقْبة أن المسلمين جهدوا على أبى عَزّة هذا عندما أُسِر ببدر فقال : لا حتى أضرب فى الخَزْرجية يوماً إلى الليل .

وما وقع فى شِعْرِهِ ومحاورته رسولَ الله صلى الله عليه وسلم مما يقتضى التصريح برسالته فلا أعلم له مَخرجاً ، إن صَحّ ، إلا أن يكون ذلك من جملة ما قصد به أبو عزة أن يَخدع رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فعاد على عدوّ الله ما أتمر ، ولم يخدع إلا نفسه وما شعر ، وذلك أنه لما أخذت قريشٌ قبلَ أحد فى الإعداد لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم طالباً بثأرهم فى يوم بدر قال صفوان بن أمية لأبى عزة هذا : يا أبا عزة إنك امرؤ شاعر ، فأعِنّا بلسانك ، فاخرج معنا . فقال : إن محمداً قد منّ علىّ فلا أريد أن أظاهر عليه . قال : بلى ، فأعنّا بنفسك ، فلك الله علىّ إن رجعت أن أغنيك ، وإن أصبتَ أن أجعل بناتك مع بناتى ، يُصيبهنّ ما أصابهنّ من عزّ ويُسرٍ . فخرج أبو عزة يسير فى تهامة ويدعو بنى كنانة ويقول :

أيا بنى عبد مناة الرِّزامْ[1] أنتم حُماةٌ وأبوكم حامْ

لا تَعِدونى نَصْرَكم بعد العامْ لا تُسْلِمونى لا يحلّ إسلامْ

ثم كان من الأمر يوم أحد ما كان ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الوقعة مُرهباً لعدوه حتى انتهى إلى حَمراء الأسَد ، فأخذ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى وجه ذلك أبا عَزّةَ الجُمَحى ، فقال : يا رسول الله أقِلْنى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والله لا تمسح عارضيك بمكة ، تقول : خَدَعْتُ محمداً مرتين ! اضرب عنقه يا زبير » . فضرب عنقه .

وذكر ابن هشام فيما بلغه عن سعيد بن المسيِّب أن رسول الله صلى الله

(١) الرزام : الرجل الشديد الصعب .

عليه وسلم قال له : « إن المؤمن لا يُلدغ من جُحْر مرتين ، اضرب عنقه ، يا عاصم بن ثابت » فضرب عنقه .

[إسلام عمير بن وهب]

وكان عُمَيْر بن وهب شيطاناً من شياطين قريش ، وممن كان يؤذى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بمكة ويَلْقون منه عنَتاً ، وكان ابنه وَهْب بن عمير فى أسارى بدر ، فجلس عمير مع صفوان بن أمية فى الحِجْر بعد مُصاب أهل بدر بيسير ، فذكر أصحاب القَليب ومُصابهم ، فقال له صفوان : فوالله إنْ فى العيش خيرٌ بعدَهم . فقال له عمير : صدقتَ والله، أمَا والله لولا دَيْنٌ علىَّ ليس له عندى قضاء وعيال أخشى عليهم الضَّيْعة بعدى لركبتُ إلى محمد حتى أقتله ، فإن لى فيهم علةً[1] ، ابنى أسيرٌ فى أيديهم . فاغتنمها صفوان فقال : علىَّ دَيْنك أنا أقضيه عنك ، وعيالُك مع عيالى أواسيهم ما بقُوا لا يسعنى شىء ويَعْجِز عنهم ، قال عمير : فاكتم عنّى[2] شأنى وشأنك ، قال : أفعل . ثم أمر عمير بسيفه فشُحِذ له وسُمَّ ، ثم انطلق حتى قدم المدينة . فبَيْنا عمر بن الخطاب فى نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر ويذكرون ما أكرمهم الله به وما أراهم من عدوّهم ، إذ نظر عمر إلى عُمَير بن وهب حين أناخ على باب المسجد متوشّحاً السيف ، فقال : هذا الكلب عدوّ الله عُمير بن وهب ما جاء إلا لشر ، وهذا الذى حرّش بيننا وحزَرنا[3] للقوم يومَ بدر .

ثم دخل عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا نبىّ الله هذا عدو الله عمير بن وهب ، قد جاء متوشحاً سيفه . قال : فأدخله علىّ . فأقبل

---

(١) الطبرى : قبلهم علة .

(٢) الطبرى : علىّ .

(٣) حزرنا : قدر عددنا .

عمر حتى أخذ بحمالة سيفه فى عنقه فلبّبه بها[١] وقال لرجال من الأنصار كانوا معه : ادخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجلسوا عنده واحذروا عليه هذا الخبيث فإنه غير مأمون . ثم دخل ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك قال : أرسِله يا عمر ، أدْنُ يا عُمَير . فدنا ثم قال : أنعموا صباحاً ، وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قد أكرمنا الله بتحيةٍ خير من تحيتك يا عمير ، بالسلام تحية أهل الجنة » . قال : أمَا والله إنْ كنت بها يا محمد لَحديثَ عَهْد . قال : فما جاء بك يا عمير ؟ قال : جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم فأحسِنوا فيه ، قال : فما بال السيف فى عنقك ؟ فقال : قبّحها الله من سيوف ، وهل أغنت شيئاً ! قال : اصدقنى ما الذى جئت له ؟ قال : ما جئتُ إلا لذلك . قال : بل قعدتَ أنت وصَفْوان بن أمية فى الحِجْر ، فذكرتما أصحابَ القَليب من قريش ، ثم قلتَ : لولا دَيْن علىّ وعيالٌ عندى لخرجتُ حتى أقتل محمداً ، فتحمّل لك صَفْوان بدَيْنك وعيالك على أن تقتلنى له ، والله حائلٌ بينك وبين ذلك . قال عمير : أشهد أنك رسول الله ، قد كنا يا رسول الله نـكذّبك بما كنت تأتينا به من خبَر السماء وما يَنْزل عليك من الوَحْى ، وهذا أمرٌ لم يحضره إلا أنا وصفوان ، فو الله إنّى لأعلم ما أتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذى هدانى للإسلام وساقنى هـذا المَساق . ثم شهد شهادَةَ الحق . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فقّهوا أخاكم فى دِينه ، وأقرئوه القرآن ، وأطلقوا له أسيره » ففعلوا .

ثم قال : يا رسول الله إنى كنت جاهداً على إطفاء نور الله شديداً الأذى لمن كان على دين الله ، وأنا أحِبُّ أن تأذن لى فأقدم مكة فأدعوهم إلى الله

---

(١) لببه : جمع ثيابه عند نحره فى الخصومة .

وإلى الإسلام ، لعل الله يهديهم ، وإلا آذيتهم فى دينهم كما كنت أوذى أصحابك فى دينهم .

فأذِن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فلحق بمكة . وكان صفوان حين خرج يقول : أبشروا بوقعة تأتيكم الآن فى أيام تُنسيكم وقعة بدرٍ . وكان يسأل عنه الركبان ، حتى قدم راكبٌ فأخبره عن إسلامه ، فحلف أن لا يكلمه أبداً ولا ينفعه بنفع أبداً ، فلما قدِم عميرٌ مكة أقام بها يدعو إلى الإسلام ويؤذى من خالفه أذى شديداً ، فأسلم على يديه ناس كثير .

وعمير هذا أو الحارث بن هشام — يشك ابن إسحاق — هو الذى رأى إبليسَ حين نكص على عقبيه يومَ بدر فقال : أين أىْ سُرَاق ؟ فَثَل[1] عدوُّ الله فذهب . فأنزل الله تبارك وتعالى فيه : « وإذْ زَيَّنَ لهم الشيطانُ أعمالَهم وقال لا غالبَ لكم اليومَ من الناسِ وإنى جارٌ لكم[2] » فذكر استدراجَ إبليس إياهم بتشبهه بسُراقة بن مالك بن جُعْشُم لهم حين ذكروا ما بينهم وبين بنى بكر من الحرب ، يقول الله عز وجل : « فلما تراءتِ الفِئَتَانِ » ونظر عدوُّ الله إلى جنود الله من الملائكة قد أيَّدَ الله بهم رسولَه والمؤمنين على عدوهم « نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وقال : إنِّى بَرِىءٌ منكم إنِّى أرَى ما لا تَرَوْن » وصدق عدوُّ الله الكذوب ، رأى ما لم يروا وقال : « إنِّى أخَافُ اللهَ وَاللهُ شَدِيدُ العِقَابِ » فذكروا أنهم كانوا يرونه فى كل منزلٍ فى صورة سُرَاقة لا ينكرونه ، حتى إذا كان يوم بدر والتقى الجمعان نكص على عقبيه فأوردهم ثم أسلمهم .

---

(١) ابن هشام : وفثل . والمقصود : انطىء بالأرض واختفى .
(٢) سورة الأنفال ٤٨ .

وفى ذلك يقول حسّان بن ثابت :

قَوْمِي الذين هُمُ آوَوْا نبيَّهمُ
وصَدَّقُوهُ وأهلُ الأرضِ كُفَّارُ

إلاَّ خصائص أقوامٍ هُمُ سَلَفٌ
للصالحين مع الأنصارِ أنصارُ

مُسْتبشرون بِقَسْمِ الله قولُهُمُ
لمّا أتاهم كريمُ الأصلِ مُختارُ

أهلًا وسهلًا ففى أمْنٍ وفى سَعةٍ
نِعْم النبيُّ ونعم القَسْمُ والجارُ

فأنزلوه بدارٍ لا يُخافُ بها
من كان جارَهمُ دارًا هى الدارُ

وقاسموهم بها الأموالَ إذ قدموا
مهاجِرين وقَسْمُ الجاحدِ النارُ

سِرْنا وساروا إلى بَدْرٍ لحَيْنهم
لو يعلمون يقينَ العِلْم ما سارُوا

دَلاَّهُمُ بغُرورٍ ثم أسلَمهم
إنّ الخبيث لمن والاه غرّارُ

وقال إنّى لكم جار فأوردَهمْ
شرَّ المواردِ فيه الخزى والعارُ

ثم التقينا فولَّوا عن سَراتهم
من مُنْجدين ومنهم فِرْقةٌ غارُوا

ويُروَى أنّ قريشاً رأوا سُرَاقة المُدْلجي بعد وقعة بدر ، وهو الذى تمثّل لهم إبليس فى صورته يومَ بدر كما تقدم ، فقالوا له : يا سُرَاقةَ أخرمتَ الصفّ وأوقعْتَ فينا الهزيمة ؟ ! فقال : والله ما علمتُ بشيء من أمركم حتى كانت هزيمتكم ، وما شهدتُ معكم فما صدّقوه حتى أسلموا وسمعوا ما أنزل الله فى ذلك ، فعلموا أنه كان إبليس تمثّل لهم

[ما نزل فى بدر من القرآن]

ولمّا انقضى أمر بدر ، أنزل الله تبارك وتعالى فيه من القرآن « الأنفالَ » بأسْرها(1) .

[من شهد بدراً من المسلمين]

وكان جميع من شهد بدراً من المسلمين من المهاجرين والأنصار ، من شهدها ومن ضُرب له بسهمه وأجره ثلاثمائة رجل وأربعة عشر رجلاً ، من المهاجرين ثلاثة وثمانون رجلاً : ثلاثة منهم ضُربَ لهم بسهامهم وأجورهم ولم يشهدوا ، وهم : عثمان بن عفان ، تخلّف على امرأته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم لمرضها الذى توفيت فيه قبل أن يرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من بدر ، فضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم بسهمه قال : وأجرى يا رسول الله ؟ قال : وأجرك . وطلحة بن عبيد الله ، وسعيد بن زيد(2) ، كانا بالشام فرجعا بعد رجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم من بدر ، فضرب لكليهما بسهمه قال . وأجرى يا رسول الله ؟ قال : وأجرك .

ومن الأوس : واحد وستون ، اثنان منهم ضُرب لهما بسهميهما : عاصم بن

---

(1) انظر تفسير ابن هشام وعرضه لسورة الأنفال فى السيرة ١/٦٦٦ — ٦٧٧ .

(2) هو سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل .

عدِىّ العَجْلانى ، رده رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن خرج معه وضرب له بسهمه ، وخوّات بن جُبَير ضرب له أيضاً بسهمه

ومن الخزرج مائة وسبعون رجلًا ، منهم الحارث بن الصِّمة كُسِر به بالروحاء فضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم بسهمه[1] .

[الشهداء]

واستشهد يومئذ من المسلمين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة عشر رجلا : ستة من قريش : عُبَيْدة بن الحارث بن المطّلب ، وعُمَيْر بن أبى وقاص الزُّهْرى ، وذو الشِّمالين بن عبد عمرو حليفٌ لبنى زهرة ، وعاقل بن البُكَيْر حليف لبنى عَدِىّ ، ومِهْجَع مولى عمر بن الخطاب ، وصفوان بن بَيْضَاء .

ومن الأنصار ثمانيةُ نفر ، خمسة من الأوس سعد بن خيثمة ، ومبشّر ابن عبد المنذر من بنى عمرو بن عوف ، ويزيد بن الحارث الذى يقال له ابن فُسْحم من بنى الحارث بن الخزرج ، وعُمَيْر بن الُحمَام من بنى سَلِمَة ، ورافع بن المعلّى من بنى جُشَم .

وثلاثةٌ من الخزرج من بنى النجّار : حارثة بن سُرَاقة ، وعوف ومُعَوِّذ ابنا الحارث بن رفاعة منهم ، وهما ابنا عفراء ، رحمة الله على جميعهم ورضوانه .

وكان مع المسلمين يوم بدرٍ من الخيل فرَس الزبير بن العوام ، وفرس مَرْثَدِ بن أبى مرثدٍ الغَنَوى ، وفرس المقداد بن عمرو البَهْرانىّ

[قتلى المشركين]

وذكر ابن إسحق أن جميع من أُحْصِىَ له من قتلى قريش من المشركين يوم بدر خمسون رجلا . وقال ابن هشام : حدثنى أبو عبيدة عن أبى عمرو أنّ قَتْلَى بدرٍ من المشركين كانوا سبعين رجلًا والأسرى كذلك ، وهو قول

---

(١) زاد الواقدى : وأجره . ابن كثير ٢/٥٠٩ .

ابن عباس وسعيد بن المسيّب . وفي كتاب الله تبارك وتعالى : « أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا » يقول لأصحاب أُحُد ، وكان من استشهد منهم سبعون رجلاً يقول : قد أصبتم يومَ بدرٍ مِثْلَيْ من استشهد منكم يوم أُحدٍ : سبعين قتيلًا وسبعين أسيرًا .

وأنشدني أبو زيد الأنصاري لكعب بن مالك من قصيدة له يعني قتلى بدرٍ :

فأقامَ بالعَطَنِ المعطّنِ منهم　　سبعون عُتْبَةُ منهمُ والأسودُ

[ما قيل من الشعر في يوم بدر]

وكان مما قيل في يوم بدر من الشعر : قول حمزة بن عبد المطّلب يرحمه الله ، ومن أهل العلم من ينكرها له :

ألم تر أمرًا كان من أعجبِ الدهرِ[(1)]
ولِلْحَيْنِ أسبابٌ مُبَيَّنَةُ الأمرِ

وما ذاك إلا أن قومًا أفادهم
فَحَانُوا تَوَاصٍ بالعقوق وبالكفر[(2)]

عشيةَ راحوا نحو بَدْرٍ بجَمْعِهم
فكانوا رُهُونًا بالرَّكِيَّةِ من بَدْرِ[(3)]

وكنا طلبنا العير لم نبغِ غيرها
فساروا إلينا فالتقينا على قَدْرِ

فلما التقينا لم تكن مَثْنَوِيَّةٌ
لنا غير طَعْنٍ بالمثقَّفة السُّمْرِ[(4)]

(١) ابن هشام : كان من عجب الدهر .
(٢) أفادهم : أهلكهم . وحانوا : جاء حينهم .
(٣) الركية : البئر غير المطوية .
(٤) المثنوية : الرجوع والانصراف .

وضربٍ ببيضٍ يختلي الهامَ حدُّها
مشهَّرةُ الألوانِ بيِّنةُ الأُثْرِ (١)

ونحنُ تركنا عُقبةَ الغيِّ ثاوياً
وشَيْبَةَ في قتلى تُجَرْجَمُ في الجَفْرِ (٢)

وعمرٌو ثوى فيمن ثوى من حُماتهم
فشُقَّت جيوبُ النائحاتِ على عمرو

جُيوبُ نساءٍ من لُؤَيِّ بن غالبٍ
كرامٍ تفرَّعْنَ الذوائبَ من فِهرِ

أولئك قومٌ قُتِّلوا في ضلالهم
وخلَّوا لواءً غيرَ مُحْتَضَرِ النَّصرِ

لواءَ ضَلالٍ قادَ إبليسُ أهلَه
فخاسَ بهم إنَّ الخبيثَ إلى غَدْرِ (٣)

وقال لهم إذ عاينَ الأمرَ واضحاً
بَرِئْتُ إليكم ما بِيَ اليومَ من صَبْرِ

فإنِّي أرَى ما لا تَرونَ وإنني
أخافُ عقابَ اللهِ واللهُ ذو قَسْرِ

فقدَّمهم للحَيْنِ حتَّى تورَّطوا
وكان بما لم يُخْبَرِ القومُ ذا خُبْرِ

---

(١) يختلي: يقطع. والأثر: بفتح الهمزة: فرند السيف. وليس هذا مرادا هنا. وبالضم: أثر الجراح يبقى بعد البرء. ولعله هو المقصود.

(٢) تجرجم: تسقط. والجفر: البئر لم تطو، أو طوي بعضها.

(٣) خاس: غدر.

فكانوا غداةَ البئرِ ألفاً وجمعُنا
ثلاثُ مئينٍ كالمسدَّمةِ الزُّهْرِ[1]

وفينا جنودُ اللهِ حين يُمِدُّنا
بهم في مقامٍ ثَمَّ مُسْتَوْضَحِ الذِّكْرِ

فشدَّ بهم جبريلُ تحتَ لوائنا
لدى مَأْزِقٍ فيه مَنَاياهُمُ تجرى

وقال على بن أبي طالب رضى الله عنه في يوم بدر — ولم يرَ ابن هشام أحدًا يعرفُها من أهل العلم :

ألم ترَ أنّ اللهَ أبلَى رسولَه
بلاءَ عزيزٍ ذى اقتدارٍ وذى فضلِ

بما أنزل الكفارَ دارَ مَذلّةٍ
فلاقَوا هَوانًا من إسارٍ ومن قتلِ

فأمسى رسولُ اللهِ قد عزَّ نصرُه
وكان رسولُ اللهِ أُرسِلَ بالعدلِ

فجاء بفرقانٍ من اللهِ مُنزَلٍ
مُبيَّنةٌ آياته لذوى العقلِ

فآمنَ أقوامٌ بذاك وأيقنوا
فأمسَوْا بحمدِ اللهِ مجتمعى الشملِ

وأنكرَ أقوامٌ فزاغت قلوبُهم
فزادهمُ ذو العرش خَبْلًا على خبلِ

وأمكنَ منهم يومَ بدرٍ رسولَه
وقومًا غضابًا فِعلُهم أحسنُ الفعلِ

---

(١) المسدمة : الفحول الهادرة . والزهر : البيض .

بأيديهم بيضٌ خِفَافٌ عَصُوا بهـــا[١]
وقد حادَثوها بالجلاَء وبالصَّقـــلِ

فكم تركوا من ناشيء ذى حَمِيَّةٍ صَريعٍ ومن ذى نجدةٍ منهم كهلِ
تبيت عيونُ النـائحات عليهمُ تجود بإسبال الرشاشِ وبالوبْلِ
نوائحُ تنعى عُتْبة الغىِّ وابنَه وشَيْبة تَنْعاه وتنعَى أبا جهلِ
وذا الرِّجْل تنعَى وابن جُدْعان فيهمُ مُسَلِّبةٌ حَرَّى مبيِّنة الثُّـكْلِ[٢]

ثوَى منهمُ فى بئر بدرٍ عصـــابةٌ
ذَوِى نَجداتٍ فى الحروب وفى المَحْـلِ

دعا الغىُّ منهم من دعا فأجابه ولِلْغَىِّ أسبابٌ مرمّقةُ الوَصلِ[٣]

فأضحـوا لدَى دارِ الجحيم بمَعْزِلِ
عن الشَّغْبِ والعُدْوان فى أشْغَلِ الشغلِ[٤]

* * *

وقال كعب بن مالك أخو بنى سلمة يذكر بدرًا ويقول :

عَجِبْتُ لأَمْرِ اللهِ واللهُ قادرٌ على ما أرادَ ليس لله قاهرُ
قضَى يوم بدرٍ أنْ نُلاَقِىَ مَعْشرًا بَغَوْا وسبيلُ الغىِّ فى الناس جائرُ
وقد حشَدُوا واستنفَروا من يليهمُ من الناس حتى جَمْعُهم متكاثرُ
وسارت إلينا لا تحاول غيرَنا بأجمعهـا كعبٌ جميعًا وعامرُ
وفينا رسول الله والأوس حوله له معقل منهم عزيز وناصرُ

---

١) عصوا بها : ضربوا .
(٢) المسلبة : التى تلبس السلاب ، وهى الثياب السود ، حدادا .
(٣) المرمق : الضعيف .
(٤) فى سيرة ابن كثير ٢ / ٥٢٦ : فى أسفل السفل .

وَجَمْعِ بني النجَّارِ تحت لوائه ... يمشون في الماذِيِّ والنقْعُ ثائرُ(١)

فلما لقيناهم وكلٌّ مجاهدٌ ... لأصحابه مُستبسِلُ النفسِ صابرُ

شَهِدْنا بأنَّ الله لا ربَّ غيره ... وأنَّ رسولَ الله بالحق ظاهرُ

وقد عُرِّيَتْ بيضٌ خِفافٌ كأنها ... مَقابيسُ يُزْهيها لعينيك شاهِرُ

بهن أبَدْنا جَمْعَهم فتبدَّدوا ... وكان يلاقي الحَيْنَ من هو فاجرُ

فكُبَّ أبو جهل صريعاً لوجهه ... وعُتْبةُ قد غادَرْنَه وهو عاثِرُ

وشَيْبةُ والتَّيْميُّ غادَرْن في الوغى ... وما منهما إلا بِذِي العَرْشِ كافرُ

فأمسَوا وقودَ النار في مُستقَرِّها ... وكل كَفُورٍ في جهنم صائرُ

تلظَّى عليهم وهي قد شُبَّ حَمْيُها ... بزُبْرِ الحديد والحجارةِ ساجِرُ(٢)

وكان رسول الله قد قال أقبِلوا ... فوَلَّوْا وقالوا إنما أنت ساحرُ

لأمرٍ أراد الله أن يَهْلِكوا به ... وليس لأمرٍ حَمَّه الله زاجِرُ

ولضِرار بن الخطاب الفِهْرِيِّ في هذا الرويِّ شعرٌ ، ذكر ابن إسحاق أن كعب بن مالك أجابه عنه بهذا الشعر الذي كتبناه أيضاً ، والأظهَرُ من مقتضى الشعر أن ضراراً هو الذي أجاب كعبَ بن مالك ونقض عليه . وهذا شعر ضرار رضي الله عنه .

عجبتُ لفخرِ الأوْسِ والحَيْنُ دائرٌ ... عليهم غداً والدهرُ فيه بصائرُ

وفخرِ بني النجار أنْ كان معشرٌ ... أُصيبوا ببدرٍ كلهم ثَمَّ صابرُ

فإن تكُ قتلَى غُودِرَتْ من رجالنا ... فإنَّا رجالٌ بعدهم سنغادرُ

---

(١) الماذي : الدروع البيض اللينة .

(٢) تلظى : تولد . وزبر الحديد بفتح الباء وإنما سكنت لوزن الشعر : قطعه . والساجر : الموقد .

وَتَرْدِى بنا الْجُرْدُ المَنَاجِيجُ وَسْطَهُم
بنى الأوس حتى يَشْفِى النفسَ ثائرُ[1]

ووسْط بنى النجار عوف نكرُّها | لها بالقَنَا والدَّارِعِينَ زَوافِرُ
فنترك صرعَى تَعْصِب الطيرُ حولهم | وليس لهم إلا الأمانِىَّ ناصِرُ
وتبكيهمُ من أهل يثرب نِسْوَةٌ | لهنَّ بها لَيْلٌ عن النوم ساهِرُ
وذلك أنَّا لا تزالُ سيوفنا | بهن دمٌ ممن يُحَارِبْنَ مائرُ[2]
فإنْ تظفَروا فى يوم بدرٍ فإنما | بأحمدَ أمسَى جدُّكم وهو ظافِرُ
وبالنَّفرِ الأخيار هم أولياؤه | يُحَامُون فى اللَّأْواء والموتُ حاضِرُ[3]
يُعَدُّ أبو بكر وحمزة فيهم | ويُدْعَى علىٌّ وَسْطَ من أنت ذاكِرُ
أولئك لا من نَتَّجَتْ فى ديارها | بنو الأوسِ والنَّجار حين تفاخِرُ
ولكنْ أبوهم من لُؤَىِّ بن غالبِ | إذا عُدَّت الأنسابُ كعبٌ وعامرُ
هم الطَّاعِنُون الخيل فى كل مَعْرِكٍ | غداةَ الهياج الأطيبون الأكارِرُ

ومن شعر حسَّان بن ثابت يُعَرِّضُ بالحارث بن هشام وفراره عن يوم بدرٍ :

إن كنتِ كاذبةَ الذى حَدَّثْتِنِي | فَنَجَوْتِ مَنْجَى الحارث بن هشامِ[4]
ترك الأحبّة أن يُقَاتِلَ دونهم | ونجا برأسِ طِمِرَّةٍ ولجامِ[5]

---

(١) تردى : تسرع . والجرد : الخيل القصار الشعر . والمناجيج : جياد الخيل . والثائر : الطالب لثأره . وفى ابن هشام : وسطهم . بدلا من : وسطكم .

(٢) المائر : الجارى .

(٣) اللأواء : البأس والشدة .

(٤) من قصيدة أوردها ابن هشام فى السيرة ٣ / ١٦ .

(٥) الطمرة : الفرس الجواد .

فأجابه الحارث بن هشام فيما ذكر فقال :

اللهُ أعلمُ ما تركتُ قتالهم ... حتى علوْا فرسى بأشقر مُزْبِدِ

وعرفتُ أنى إنْ أقاتلْ واحدًا ... أُقتلْ ولا يَضْرُرْ(١) عدوِّيَ مَشْهدِى

فصدَدْتُ عنهم والأحبة فيهمُ ... طمعًا لهم بعقابِ يومٍ مُفسِدِ

وقال حسان بن ثابت أيضاً ، ويقال إنها لعبد الله بن الحارث السَّهمى ، ويشبه أنها من قصيدة :

مُسْتَشْعِرِى حَلَقِ الماذِىِّ يَقْدُمهم ... جَلْدُ النَّحيزةِ ماضٍ غير رِعْدِيدِ(٢)

أعنى رسولَ الإلهِ(٣) الحقِّ فضَّله ... على البريَّةِ بالتقوى وبالجودِ

وقد زعمتم بأن تحموا ذِمَارَكُمُ ... وماءُ بدرٍ زعمتُمْ غير مَوْرُودِ

ثم وردْنا ولم نسمع لقوالكمُ ... حتى شربنا رِوَاءً غير تصريدِ(٤)

مستعصمين بحبلٍ غير مُنْجَذِمٍ ... مُسْتحكم من حبال الله ممدودِ

فينا الرسول وفينا الحق نَتْبعه ... حتى المماتِ ونصرٌ غير محدودِ

وقال حسان بن ثابت أيضاً :

ألا ليت شِعرى هل أتى أهلَ مكةٍ ... إبادتُنا الكفارَ فى ساعة العُسْرِ

قتلنا سَرَاةَ القوم عند مجالنا ... فلم يرجعوا إلا بقاصمة الظهرِ

فكم قد قتَلْنا من كريمٍ مُرَزَّإٍ ... له حسَبٌ فى قومه نابهُ الذِّكْرِ

---

(١) فى سيرة ابن كثير ٢ / ٥٣١ : ولا يبكى .

(٢) الماذى : الدروع اللينة . والمستشعر اللابس على جسده بغير حاجز والنحيزة : الطبيعة . والرعديد : الجبان .

(٣) كذا بالأصل . وفى ابن هشام : رسول إله الخلق . .

(٤) التصريد : الشرب القليل دون الرى .

تركناهمُ لِلعاوياتِ تَنُوشهم(١) ويَصْلَوْن نارًا بَعْد حامية القَعْرِ

لَعَمْرك ما حامتْ فوارسُ مالك وأشياعهم يومَ التقينا على بَدْرِ

وقال عُبَيْدة بن الحارث بن المطّلب فى يوم بدر ، يَذْكر مبارزته هو وحمزة وعلىّ عدوّهم ، وما كان من إصابة رِجْله يومئذ قال ابن هشام : وبعض أهل العلم بالشعر ينكرها له :

ستَبْلغ عنا أهلَ مكةَ وقعةٌ يهب لها من كان عن ذلك نائيا

بعُتْبة إذ ولّى وشيبةُ بعده وما كان فيها بِكْرُ عُتْبَةَ راضيا

فإن تَقْطَعوا رِجْلى فإنّى مُسْلمٌ أرجّى بها عيشًا من الله دانيا

مع الحور أمثال التماثيل أُخْلِصت مع الجنّةِ العُلْيا لمن كان عاليا

وبعتُ بها عيشًا تعرّفتُ صَفْوَه وعالجتُه حتى فقدتُ الأدانيا

وأكرمنى الرحمنُ من فضل مَنِّه بثوب من الإسلام غطّى المَساويا

وما كان مكروهًا إلىّ قتالُهم غَداةَ دَعَا الأكفاء مَن كان داعيا(٢)

لَقيناهم كالأسْد تَخْتِرُ(٣) بالقَنا نُقاتل فى الرحمن من كان عاصيا

فما بَرِحَتْ أقدامُنا من مُقَامنا ثلاثتنا حتى أُزيروا المَنائيا

قال ابن هشام : لما أصيبت رِجْل عبيدة قال : أمَا والله لو أدرك أبو طالب هذا اليومَ لعلم أنى أحق منه بما قال حين يقول :

كذَبْتم وبيتِ الله نُبْزَى محمدًا(٤) ولمّا نطاعن حوله ونُناضِل

ونُسْلمهُ حتى نُصرَّعَ حَوْله ونَذْهَلَ عن أبنائنا والحلائل

---

(١) ابن هشام : ينيبهم. وفى رواية له : ينشنهم .

(٢) بعده فى ابن هشام زيادة :

ولم يبغ إذ سالوا النبى سواءها ثلاثتنا حتى حضرنا المناديا

(٣) كذا بالأصل . وفى اللسان : عتر الرمح وغيره اشتد واضطرب واهتز ، قال :

وكل خطى إذا هزه عتر وفى ابن هشام : تخطر بالقنا

(٤) فى اللسان : يبزى محمد . ومعناه : يقهر ويذل .

وأمّا هلك عبيدة بن الحارث من مُصَاب رِجله قالت هند ابنة أثاثة بن عبّاد ابن المطلب ، وكانت وفاته بالصفراء وبها دفن يرحمه الله :

لقد ضمّن الصفْراء مجدًا وسؤددًا
وحِلْمًا أصيلًا وافرَ اللُّب والعقــلِ

عبيدةُ فابكيه لأضيــافِ غُرْبةٍ
وأرملةٍ تهْوِى لأشعثَ كالجِذْلِ[1]

وبكّيه للأقوامِ فى كل شَتْوةٍ
إذا احمرّ آفاقُ السماء من المَحْلِ[2]

وبكّيه للأيتــامِ والريحُ زفزفٌ[3]
وتشبيبُ قِدْرٍ طال ما أزْبَدَت تغْلى

فإن تُصبح النيران قد مات ضوؤها
فقد كان يُذْكيهنّ بالحطَب الجَزْلِ

لطارق ليـــلٍ أو لملتمس القِرَى
ومُستنْبِـحٍ أضحَى لديه على رِسْلِ

وقال طالب بن أبى طالب يمدح النبى صلى الله عليه وسلم ، ويبكى أصحاب القليب من قريش :

ألاَ إنّ عينى أنفدَتْ ماءها سَكْبًا
تبكّى على كعبٍ وما إنْ ترَى كعْبَا

(١) تهوى : تسقط من البكاء والأشعث : الوتد . والجذل : ماعظم من أصول الشجر تريد : أنه ثابت قوى .
(٢) المحل : الجدب .
(٣) زفزف : شديدة .

ألاَ إن كعبًا فى الحروب تخاذلوا
وأرداهمُ ذا الدهرُ واجترحوا ذَنْبَا
وعامرُ تَبْكى الملمـات غُدوةً
فياليت شعرى هل أرى لهما قرْبَا
هما أخواى لن يُعَدَّا لَغيَّةٍ
تُعَدّ ولن يُستامَ جارُهما غَصْبَا
فيا أَخَوَيْنا عبدَ شمسٍ ونوفلاً
فِدًا لكما لا تبعثوا بَيْننا حَرْبَا
وَلاَ تُصْبحوا من بعد ودّ وألفةٍ
أحاديثَ فيها كلكم يَشْتَكى النَّكْبَا
ألم تعلموا ما كان فى حَرْب دَاحسٍ
وجيش أبى يَكْسُومَ إذْ ملأوا الشِّعْبَا[1]
فلولا دفاع الله لا شيء غَيره
لأصبحتمُ لا تمنعون لكم سَرْبًا[2]
فما إنْ جنَيْنَا فى قريشٍ عظيمةً
سوى أن حَمَيْنا خيرَ من وطىء التُّرْبَا
أخَا ثقةٍ فى النائباتِ مُرزَّأً
كريمًا ثناه لا بخيلًا ولا ذَرْبَا[3]

---

(١) أبو يكسوم : أبرهة الحبشى . الذى قصد مكة لهدم الكعبة فأهلكه الله وجنوده .
(٢) السرب بالفتح : الطريق . وبكسر الباء : النفس .
(٣) الثنا : الذكر والخبر . والذرب : السليط اللسان .

يُطيف به المــــافون يَغْشون بابه
يؤمُّون نهراً لا نَزُورًا ولاَ صَرْبًا[1]
فوالله لا تنفكُّ نفسى حزينــةً
تَمَلْمَلُ حتى تَصْدُقوا الخزرج الضَّرْبَا

[غزوة بنى سُلَيم]

وكانت وقعة بدر يوم الجمعة لسبع عشرة من شهر رمضان ، وكان فراغ رسول الله صلى الله عليه وسلم منها فى عقبه أو فى شوّال بعده .

فلما قدِم المدينة لم يقم بها إلا سبع ليال حتى غزا بنفسه يريد بنى سُلَيم ، فبلغ ماء من مياههم يقال له الــكُدْر[2] فأقام عليه ثلاثَ ليال ، ثم رجع الى المدينة ولم يَلْقَ كيداً فأقام بها بقية شوال وذا القعدة وأفدى فى إقامته تلك جُلّ الأسارى من قريش .

[غزوة السويق]

وكان أبو سفيان بن حرب حين رجع فَلُّ[3] قريش من بدرٍ نَذَرَ ألا يمسّ رأسَه ماء من جَنابة حتى يغزو محمداً صلى الله عليه وسلم ، فخرج فى مائتى راكب من قريش لتَبَرّ يمينُه فسلك النَّجدية حتى نزل بصَدْر قناة ، على بَرِيد أو نحوه من المدينة ، ثم خرج من الليل حتى أتى بنى النضير تحت الليل ، فأتى حُيَيّ ابن أخطَب فضرب عليه بابه ، فأبَى أن يفتح بابَه وخافه ، فانصرف عنه إلى

(١) النزور : القليل الماء . والصرب : الحامض . وأصله : لابن .

(٢) فى معجم البلدان : كدر : جمع أكدر ، قرارة الــكدر . قال الواقدى بناحية المعدن قريبة من الأرحضية ، بينها وبين المدينة ثمانية برد : وقال غيره : ماء لبنى سليم . ثم ذكر خبر الغزوة .

(٣) الفل : المنهزم من الجيش .

سَلاّم بن مِشْكَم وكان سيد بنى النّضير فى زمانه ذلك وصاحب كَنْزهم ، فاستأذن عليه فأذن له فقراه وسقاه وبطَن[1] له من خبَر الناس ، ثم خرج فى عَقِب ليلته حتى أتى أصحابه ، فبعث رجالًا منهم فأتوا ناحية العُرَيض فحرقوا بها أصوار نخل[2] وقتلوا رَجُلًا من الأنصار وحليفًا له فى حَرْث لهما ، ثم انصرفوا راجعين ، ونَذِر[3] بهم الناسُ فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طلبهم حتى بلغ قَرْقرة الكُدْر ، ثم انصرف وقد فاته أبو سفيان ابن حرب وأصحابُه ، وطرَحوا من أزوادهم يتخففون منها للنجاء ، وكان أكثر ما طرحوه السَّويق ، فهجم المسلمون على سويق كثير ، فسمّيت غزوة السَّويق ، فقال المسلمون حين رجع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله أتطمع لنا أن تكون غزوةً ؟ قال : نعم .

[غزوة ذى أَمَر]

ثم غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم نجدًا يريد غطفان ، وهى غزوة ذى أَمَر ، فأقام بنجدٍ ثم رجع ولم يلق كيْدًا .

ثم غزا قريشًا حتى بلغ بَحْران معدنًا بالحجاز من ناحية الفُرُع ، ثم رجع منه إلى المدينة ولم يلق كيدًا ، وذلك بعد مقامه به نحوًا من شهرين ، ربيع الآخر وجُمادَى الأولى من سنة ثلاث

(١) بطن : أى أخبره بأسرارهم .
(٢) الأصوار : جمع صور وهو النخل الصغار أو المجتمع .
(٣) نذر بهم الناس : شعروا بهم وحذروهم .

أمرُ بني قَيْنُقَاع

وكان فيما بين ما ذكر مِن غَزْو رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرُ بني قينقاع .

وكانوا أولَ يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاربوا فيما بين بدرٍ وأُحدٍ .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم جمعهم في سوقهم ، ثم قال : « يا معشر يهود احذروا من الله مثلَ ما نزل بقريش من النِّقمة وأَسْلِمُوا ، فإنكم قد عرفتم أني نبيٌّ مرسَل ، تجدون ذلك في كتابكم وعَهْد الله إليكم »

قالوا : يا محمد إنك ترى أنا قومُك ! لا يغرّنك أنك لقيتَ قومًا لا عِلْم لهم بالحرب فأصبتَ منهم فُرصةً ، إنا والله لئن حاربناك[1] لتعلَمَنّ أنا نحن الناس .

وقال ابن عباس : ما أُنزل[2] هؤلاء الآيات إلا فيهم : « قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ * قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ » .

وكان مَنْشأ أمرهم : أن امرأة من العرب قدمت بجَلَبٍ[3] لها فباعته بسوق بني قَيْنُقَاع وجلست إلى صائغ بها ، فجعلوا يريدونها على كشف

---

(١) الطبري : لئن حاربتنا .

(٢) ابن هشام : ما نزل .

(٣) الجلب : ما يجلب للأسواق للتجارة .

وجهها وأبَتْ [فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها فلما قامت انكشفت سَوْءتها ، فضحكوا بها] فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، وكان يهوديًا ، فشدّت اليهودُ على المسلم فقتلوه ، فاستصْرَخَ أهلُ المسلم المسلمين على اليهود ، فأُغضِب[1] المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع .

فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلوا على حكمه ، فقام إليه عبد الله بن أُبَىّ بن سَلُول ، حين أمكنه الله منهم ، فقال : يا محمد أَحْسِنْ فى مَوَالِىّ ، وكانوا حُلفاء الخزرج ، فأبطأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا محمد أحسنْ فى موالىّ ، فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأدخل يده فى جيب دِرْع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يقال لها ذات الفُضول ، فقال له : أَرسِلْنى ! وغضب صلى الله عليه وسلم حتى رأوا لوجهه ظُلَلًا[2] ، ثم قال : ويحك أرسِلْنى . قال : لا والله لا أُرسلك حتى تُحسِن فى موالىّ ، أربعمائة حاسِر وثلاثمائة دارِع قد منعونى من الأحمر والأسود تحصُدهم فى غَداةٍ واحدةٍ ! إنى والله امرؤٌ أخشَى الدوائر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هُمْ لكَ .

ولما حاربت بنو قينقاع وتَشَبَّثَ عبدُ الله بن أُبىّ بأمرهم وقام دونهم ، مشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان أحدَ بنى عوف ، لهم من حِلْفه مثل الذى لهم من عبد الله بن أُبىّ ، فجعلهم[3] إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبرّأ إلى الله وإلى رسوله من حِلْفهم ، وقال : يا رسول الله

---

(١) ابن هشام : فغضب .

(٢) الطبرى : حتى رأوا لوجهه ظلالا ، يعنى تلونا .

(٣) ابن هشام : فخلعهم .

أتولّى اللهَ ورسوله والمؤمنين ، وأبرأ من حِلْف هؤلاء الكفار وولايتهم .

ففيه وفي عبد الله بن أُبيّ نزلت [هذه] القصة من المائدة : « يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » يريد عبد الله بن أُبيّ « يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ، فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ » . ثم القصة إلى قوله : « إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ » وذلك لتولّي عُبادة بن الصامت اللهَ ورسوله والذين آمنوا ، وتبرّيه ، من بني قينقاع وحِلْفهم وولايتهم « وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ » .

[سرية زيد بن حارثة]

ولمّا كان من وقعة بدر ما كان ، خافت قريش طريقَهم التي كانوا يَسلكون إلى الشام ، فسلكوا طريق العراق ، فخرج منهم تجار فيهم أبو سفيان بن حرب ، ومعه فضة كثيرة وهي عُظْمُ تجارتهم ، وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيدَ بن حارثة فلقيهم على القَرَدَة ، ماء من مياه نجدٍ ، فأصاب تلك العيرَ وما فيها وأعجزه الرجالُ ، فقَدِم بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فذلك الذي يعني حسّان بن ثابت بقوله في غزوة بدر الآخرة يؤنّب قريشاً في أخذهم تلك الطريق يقول :

دَعُوا فَلَجَاتِ الشامِ قد حالَ دُونها
جِلَادٌ كأفواه المخــاضِ الأوارِكِ[١]

بأيدِى رجالٍ هــاجرُوا نحو ربّهم
وأنصــــارِه حقًّا وأيدِى الملائكِ

إذا سَلَـكتْ للغَوْر من بطن عالجٍ
فقُولا لهـــا ليس الطريق هُنَــالكِ[٢]

[مقتل كعب بن الأشرف]

ولما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيدَ بن حارثة وعبد الله بن رواحة بشيرَيْن إلى من بالمدينة من المسلمين بفَتْح الله عليه وقَتْل من قُتل من المشركين ببدر ، قال كعب بن الأشرف وكان رجلاً من طيىء ، ثم أحد بنى نَبْهان ، وأمه من بنى النَّضِير ، حين بلَغه هذا الخبر ، أحقٌّ هذا ؟ أترون أن محمداً قتل هؤلاء الذين يسمِّى هذان الرجلان ؟ فهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس ، والله لئن كان محمدٌ أصاب هؤلاء القوم لَبطْن الأرض خير لى[٣] من ظَهْرها .

فلما تبيّن عدوّ الله الخبرَ ، خرج حتى قدِم مكة ، فجعل يحرّض على رسول الله صلى الله عليه وسلم وينشد الأشعار ، ويبكى أصحاب القَلِيب من قريش ، ثم رجع إلى المدينة فشبّب بنساء المسلمين حتى آذاهم .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من لى من[٤] ابن الأشرف ؟

---

(١) الفلجات : الأودية ، أو الأنهار الصغار . والجلاد : المجالدة فى الحرب . والمخاض : الإبل الحوامل . والأوارك : التى ترعى الأراك . شجر معروف .
(٢) الغور : المنخفض من الأرض . وعالج : اسم مكان فيه رمل كثير .
(٣) الطبرى : خير لنا .
(٤) كذا بالأصل والطبرى ، وفى ابن هشام : من لى بابن الأشرف .

فقال له محمد بن مَسْلمة الأشهلي : أنا لك به يا رسول الله ، أنا أقتله . قال : فافعل إن قدرْت على ذلك .

فرجع محمد بن مَسْلمة فمكث ثلاثاً لا يأكل ولا يشرب إلا ما يُعلق به نفسه ، فذُكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاه فقال له : لم تركتَ الطعام والشراب ؟ فقال : يا رسول الله قلت لك قولاً لا أدرى هل أفِيَنَّ[1] لك به أم لا . قال إنما عليك الجَهْد ، قال : يا رسول الله لا بد لنا من أن نقول . قال : قولوا ما بدا لكم فأنتم فى حِلٍّ من ذلك .

فاجتمع فى قتله محمد بن مَسْلمة ،وسِلْكان بن سلامة أبو نائلة، وعبّاد بن بِشْر والحارث بن أوْس ، وكلهم من بنى عبد الأشهل ، وأبو عَبْس بن جَبْر أخو بنى حارثة ، ثم قدّموا إلى عدو الله ابن الأشرف سِلْكان بن سلامة وكان أخاه من الرضاعة ، فجاءه فتحدث معه ساعةً ثم قال : ويحك يابن الأشرف ! إنى قد جئتك لحاجة أريد ذكرها لك فاكتم عنى قال : أفعل قال : كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء من البلاء ، عادتْنا العرب ورمَتْنا عن قوسٍ واحدة، وقُطعت عنا السُّبل حتى ضاع العيال وجُهِدت الأنفس . فقال كعب : أنا ابن الأشرف! أمَا والله لقد كنت أُخبرك يابن سلامة أن الأمر سيصير إلى ما أقول . فقال له سِلْكان :إنى قد أردتُ أن تبيعنا طعاماً ونَرْهنك ونُوثّق لك . قال : أترهنونى نساءكم ؟ قال : كيف نَرْهنك نساءنا وأنت أشَبُّ أهل يثرب وأعطرهم . قال : أترهنونى أبناءكم ؟ قال : لقد أردت أن تفضحنا ، يُسبُّ ابنُ أحدنا فيقال : رُهِن فى وسق شَعِير ! ثم قال له : إن معى أصحاباً لى على مثل رأيى وقد أردتُ أن آتيك بهم فتبيعهم وتُحْسن فى ذلك ونرهنك من الحَلْقة[2] ما فيه وفاء وأراد سِلْكان ألاّ ينكر السلاحَ إذا جاءوا بها . قال : إنّ فى الحَلْقة أوفاء .

---

(١) الطبرى : هل أفى .

(٢) الحلقة : السلاح .

فرجع سِلْكان إلى أصحابه فأخبرهم وأمرهم أن يأخذوا السلاحَ ويجتمعوا إليه ، فاجتمعوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمشى معهم صلوات الله عليه إلى بَقِيع الغَرْقد فى ليلة مُقْمرة ، ثم وجّههم وقال : انطلقوا على اسم الله ، اللهم أعِنْهم . ثم رجع إلى بيته .

فأقبلوا حتى انتهوا إلى حصنه ، فهتف به أبو نائلة ، وكان حديث عهد بعُرْس ، فوثب فى مِلْحفته،فأخذت امرأته بناحيتها وقالت : إنك امرؤ محارب ، وإن أصحاب الحرب لا ينزلون هذه الساعة . قال : إنه أبو نائلة لو وجدنى نائماً ما أيقظنى . فقالت : والله إنى لأعرف فى صوته الشر . فقال لها كعب : لو يُدْعى الفتى لِطَعنةٍ لأجاب !

فنزل فتحدث معهم ساعةً وتحدثوا معه ، فقالوا له : هل لك يا بن الأشرف إلى أن نتماشَى إلى شِعْب العجوز فنتحدث فيه بقية ليلتنا هذه . قال : إن شئتم .

فخرجوا يتماشون ، فمشوا ساعة ، ثم إن أبا نائلة شامَ[1] يدَه فى فَوْد رأسه ثم شم يده ، فقال : ما رأيتُ كالليلة طيباً أعْطَر قط ، ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلها ، حتى اطمأن ، ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلها ، فأخذ بفَوْد رأسه ثم قال : اضربوا عدوّ الله ، فضربوه فاختلفت عليه أسيافهم فلم تُغْنِ شيئاً .

قال محمد بن مَسْلمة : فتذكرت مِغْوَلاً[2] كان فى سيفى حين رأيت أسيافنا لا تُغْنى شيئاً ، فأخذتُه وقد صاح عدو الله صيحةً لم يَبْقَ حولنا حِصْن إلا أوقدت عليه نار ، قال : فوضعته فى ثُنَّتِه[3] ثم تحاملتُ عليه حتى بلغتُ غايته[4] فوقع عدو الله وقد أصيب الحارث بن أوس بجرح فى رجله أو رأسه أصابه بعض

---

(١) شام يده : أدخلها . والفود : معظم الشعر الرأس مما يلى الأذن أو ناحية الرأس .

(٢) المغول : نصل طويل أو سيف دقيق له قفا .

(٣) الطبرى : فى ثندوته . والثنة : العانة أو مابينها وبين السرة .

(٤) ابن هشام والطبرى : عانته .

أسيافنا ، فخرجنا حتى أسندنا فى حَرّة العُرَيْض وقد أبطأ علينا الحارث بن أوس صاحبنا ونزفه الدم ، فوقفنا له ساعة ثم أتانا يتبع آثارنا فاحتملناه فجئنا به رسولَ الله صلى الله عليه وسلم آخر الليل وهو قائم يصلى ، فسلّمنا عليه فخرج إلينا فأخبرناه بقتل عدو الله ، وتفل على جُرح صاحبنا ، ثم رجعنا إلى أهلينا وأصبحنا وقد خافت يهود لوقعتنا بعدوّ الله ، فليس بها يهودى إلا وهو يخاف على نفسه .

وذكر ابن عُقْبة أن كعب بن الأشرف لمّا قدِم على قريش يستنفرهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له أبو سفيان والمشركون : نناشدك الله : أدِيننا أحبّ إلى الله أم دين محمد وأصحابه ؟ وأيّنا أهْدَى فى رأيك وأقرب إلى الحق ، فإنا نُطْعم الجَزُورَ الكَوْماء[1] ونَسْقى اللبنَ على الماء ونُطْعِم ما هَبّت الشّمال .

فقال ابن الأشرف : أنتم أهدَى سبيلًا ، فأنزل الله فيه والله أعلم بما ينزل : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا[2] » .

وذكر ابن إسحاق أن هذه الآية إنما نزلت فى حُيَيّ بن أخْطَب وسَلّام ابن أبى الحُقَيْق وجماعة غيرهما من أحبار يهود ، ليس ابن الأشرف مذكوراً فيهم ، وهم الذين حَزّبوا الأحزاب من قريش وغَطَفان على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما قدموا على قريش قالوا : هؤلاء أحبار يهود وأهل العلم بالكتاب الأوّل فَسَلُوهم : أدينكم خير أم دين محمد ؟ فسألوهم فقالوا : بل دينكم خير من دينه وأنتم أهدَى منه وممن اتبعه . فأنزل الله تعالى فيهم الآية المذكورة . فالله تعالى أعلم .

* * *

---

(١) الكوماء : الناقة العظيمة السنام .

(٢) سورة النساء .

قال ابن إسحاق ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه . فوثب مُحَيِّصة بن مسعود الأوسى على ابن سُنَيْنَة من تجار يهود ، وكان يلابسهم ويبايعهم فقتله ، فلما قتله جعل أخوه حُوَيِّصة ابن مسعود ولم يكن أسلَمَ يومئذ وكان أسنَّ من محيصة ، يضربه ويقول : أى عدو الله أَقتَلْتَه ، أما والله لَرُبَّ شحمٍ فى بطنك من ماله ! فقال محيصة : والله لقد أمرنى بقتله من لو أمرنى بقتلك لضربت عنقَك ! قال : فو الله إنْ كان لأول إسلام حُوَيِّصة قال : أو الله لو أمرك محمد بقتلى لقتلتنى ؟ قال : نعم والله لو أمرنى بضرب عنقك لضربتُها ، قال : والله إن دينًا بلغ منك هذا لَعجب ! فأسلم حُوَيِّصة ، وقال محيصة فى ذلك :

يلوم ابنُ أمى لو أُمِرْتُ بقتله   لطبَّقتُ ذِفْراه بأبيض قاضبِ[1]

حُسامٍ كلون المِلح أُخلِص صَقْله   متى ما أُصوِّبه فليس بكاذبِ

وما سرَّنى أنى قتلتك طائعًا   وأن لنا ما بين بُصْرى ومَأْرِبِ

وذكر ابن هشام أن هذا عَرَض لمحيصة بعد غزوة بنى قريظة وظفر رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم دفع إليهم منهم كعبَ بن يهوذا . قال : وكان عظيما فيهم ، ليقتله ، فقال له أخوه حُوَيِّصة وكان كافرًا : أقتلت كعب بن يهوذا ؟ قال : نعم . قال : أما والله لَرُبَّ شحمٍ نَبَتَ فى بطنك من ماله ، إنك للئيم . فقال له محيصة : لقد أمرنى بقتله من لو أمرنى بقتلك لقتلتك . فعجب من قوله ، ثم ذهب عنه متعجبًا فذكروا أنه جعل ينتفض[2] من الليل فيعجب من قول أخيه محيصة حتى أصبح وهو يقول : والله إن هذا لَدين . ثم أتى النبى صلى الله عليه وسلم فأسْلَمَ .

---

(١) الذفرى : عظم ناتىء خلف الأذن . والأبيض القاضب : السيف البتار .

(٢) ابن هشام : يتيقظ .

غزوة أحـــــد

وكان من حديث أحد أنه لما قَتَل الله مَن قتل من كفار قريش يوم بدر ورجع فَلُّهم إلى مكة ، ورجع أبو سفيان بن حرب بعيرهم ، مشى عبد الله ابن ربيعة وعِكْرِمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وقالوا لهم : إن محمداً قد وَتَرَكم وقتل خِيارَكم ، فأعينوا بهذا المال على حربه لعلنا ندرك منه ثأراً بما أصاب منا . ففعلوا .

ففيهم يقال أنزل الله عز وجل : « إنَّ الذين كفروا يُنْفِقُونَ أموالَهُمْ لِيَصُدُّوا عن سبيل الله فسيُنْفِقونها ثم تكون عليهم حسرةً ثم يُغْلَبُونَ والذين كفروا إلى جهنم يُحْشَرُونَ[1] » .

فاجتمعت قريش لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين فعل ذلك أبو سفيان وأصحابُ العِير ، وحرَّكوا لذلك من أطاعهم من القبائل وحرَّضوهم عليه وخرجوا بحَدِّهم وجَدِّهم وأحابيشهم ومن تابعهم من بني كنانة وأهل تهامة ، وخرجوا معهم بالظُّعُن[2] التماسَ الحفيظة وأن لا يفرُّوا ، فخرج أبو سفيان بن حرب وكان قائدَ الناس بهند بنت عُتبة ، وكذلك سائر أشراف قريش وكبرائهم خرجوا معهم بنسائهم .

وكان جُبَير بن مُطْعِم قد أمر غلامه وحشيًّا الحبشي بالخروج مع الناس وقال له : إنْ قتلت حمزة عم محمد بعمّي طُعَيمة بن عدي فأنت عَتيق . فكانت هند بنت عُتبة كلما مرت بوحشيّ أو مَرَّ بها قالت : وَيْهاً[3] أبا دَسْمة ، وهي كنيته ، اشفِ واشتَفِ[4] .

---

(١) سورة آل عمران .

(٢) الظعن : النساء . وأصل الظعينة : المرأة في الهودج .

(٣) ويها : كلمة للتحريض والتشجيع .

(٤) ابن هشام : واستشف ومن هنا أصبح .

فأقبلوا حتى نزلوا بعَيْنين ، جبل[1] ببطن السَّبْخة من قناة على شَفِيرِ الوادى مقابل المدينة .

[الرسول يشاور أصحابه]

فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون قد نزلوا حيث نزلوا ، قال عليه السلام : إنى قد رأيت والله خيراً ، رأيت بقرًا تُذْبح ، ورأيت فى ذُبَاب[2] سيفى ثَلْماً ، فأما البقر ، فهى ناس من أصحابى يقتلون وأما الثَلْم الذى فى ذُبَاب سيفى فهو رجل من أهل بيتى يُقتل ، ورأيت أنى أدخلت يدى فى دِرْع حصينة فأوّلتها المدينة ، فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدَعوهم حيث نزلوا فإن أقاموا أقاموا بشرّ مُقام وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكره الخروج وكان عبد الله بن أُبَىّ يرى رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك ، فقال رجل من المسلمين ممن أكرم الله بالشهادة يوم أحد وغيره ممن كان فاته بدر : يا رسول الله ، اخرج بنا إلى أعدائنا ، لا يرون أنا جَبُنّا عنهم . فقال عبد الله بن أبى : يا رسول الله أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم ، فو الله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا ، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه ، فدَعْهم يا رسول الله فإن أقاموا أقاموا بشر مَحْبِس وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجوههم ورماهم الصبيان والنساء بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا .

[خروج الرسول والمسلمين]

فلم يزل برسول الله صلى الله عليه الناسُ الذين كان من أمْرهم حُبّ لقاء

---

(١) ابن هشام : بجبل . وما هنا أصح . فإن عينين جبل بأحد ، كما فى القاموس

(٢) الذباب : حد السيف . والثلم : الكسر .

العدو ، حتى دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلبس لَأْمته وذلك يوم الجمعة حين فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصلاة ، وقد مات فى ذلك اليوم رجل من الأنصار يقال له عمرو أخو بنى النجار ، فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم خرج عليهم وقد ندم الناسُ ، فقالوا : يا رسول الله استكرهناك ولم يكن ذلك لنا ، فإن شئت فاقعد صلى الله عليك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ما ينبغى للنبى إذا لبس لَأْمته أن يضعها حتى يقاتل » .

فخرج فى ألف من أصحابه ، حتى إذا كانوا بين المدينة وأُحد انخذَل عنه عبد الله بن أُبَىّ بثلث الناس وقال : أطاعهم وعصانى ، ما ندرى علام نقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس . فرجع بمن اتبعه من أهل النفاق والرَّيْب ، واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حَرام يقول : يا قوم أذكِّركم الله أن تخذلوا قومكم ونبيكم عند ما حضَر من عدوهم . قالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم ، ولكنا لا ندرى أنه يكون قتال . فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف عنهم ، قال : أبعَدَكم الله أعداء الله فسيُغنى الله عنكم نبيه .

ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سلك فى حَرّة بنى حارثة ، فذَبّ[1] فرسٌ بذنَبه فأصاب كَلَّابَ[2] سيفٍ فاستلّه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يحب الفألَ ولا يعتاف[3] :

«يا صاحب السيف شِمْ[4] سيفك فإنى أرى السيوف ستُسَلّ اليوم » .

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من رجلٌ يخرج بنا على القوم

---

(١) ذب : ضرب .
(٢) الكلاب : ذؤابة السيف ، أو مسمار فى طرفه .
(٣) لا يعتاف : لا يتطير .
(٤) شم سيفك : اغمده . وهو من أفعال الأضداد .

من كَثَب أى من قُرْب ، من طريق لا تمرّ بنا عليهم » ؟ فقال أبو خيثمة أخو بنى حارثةُ : أنا يا رسول الله .

فنفَذ به فى حَرّة بنى حارثة وبين أموالهم حتى سلك فى مالٍ لِمِرْبَع بن قَيْظىّ ، وكان منافقاً ضرير البصر ، فلما سمع حسّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من المسلمين قام يَحْثى التراب فى وجوههم ويقول : إن كنتَ رسول الله فإنى لا أُحلّ لك أن تدخل حائطى . وذُكِر أنه أخذ حفنة من تراب فى يده ثم قال : والله لو أعلم أنى لا أصيب بها غيرك يا محمد لضربت بها وجهك . فابتدره القومُ ليقتلوه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تقتلوه ، فهذا الأعمى أعمى القلب أعمى البصر !

ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل الشِّعْب من أحد فجعل ظَهْره وعسكره إلى أحد وقال : لا يقاتلن أحدٌ حتى نأمره بالقتال .

وقد سرّحت قريشٌ الظَّهر والكُرَاع[1] فى زروع كانت للمسلمين فقال رجل من الأنصار : أتُرعى زروع بنى قَيْلة[2] ولمّا نُضَارِب !

[الرسول يعبئ جيشه]

وتعبّى رسول الله صلى الله عليه وسلم للقتال وهو فى سَبعمائة رجل ، وأمّر على الرماة عبدَ الله بن جبير أخا بنى عمرو بن عوف ، وهو مُعلَم يومئذ بثياب بيض ، والرماة خمسون رجلًا فقال: انضَح[3] الخيلَ عنا لا يأتوننا من خَلْفنا ، إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نُؤْتَيَنّ من قِبَلك .

---

(١) الظهر : الإبل . والكراع : الخيل .

(٢) بنو قيلة : الأوس والخزرج .

(٣) انضح : ادفع .

وظاهر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بين دِرْعين ، ودفع اللواء إلى مُصْعَب بن عُمَير أخي بني عبد الدار .

[تعبئة قريش]

وتعبأت قريش وهم ثلاثة آلاف ومعهم مائتا فرس قد جَنَّبوها ، فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد وعلى الميسرة عِكْرِمة بن أبي جهل .

[أمر أبي عامر]

وقد كان أبو عامر عبد عمرو بن صَيْفِيّ من الأوس ، خرج عن قومه إلى مكة مباعداً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان يَعِدُ قريشاً أن لو لَقِيَ قومه لم يختلف عليه منهم رجلان ، فلما التقى الناس كان أول من لقيهم أبو عامر في الأحابيش وعُبْدان أهلِ مكة ، فنادى : يا معشر الأوس أنا أبو عامر . قالوا : فلا أنعم الله بك عيناً يا فاسق . وبذلك سمّاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يسمّى في الجاهلية الراهب ، فلما سمع ردَّهم عليه ، قال : لقد أصاب قومي بعدي شرّ ! ثم قاتلهم قتالاً شديدًا ثم راضخهم بالحجارة .

وقال أبو سفيان يومئذ لأصحاب اللواء من بني عبد الدّار يحرضهم بذلك : يا بني عبد الدار إنكم قد وَلِيتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم ، وإنما يُؤتَى الناسُ من قِبَل راياتهم ، إذا زالت زالوا ، فإمّا أن تَكفُونا لواءنا وإما أن تُخلّوا بيننا وبينه فنكفيكموه . فهمّوا به وتواعَدوه وقالوا : نحن نُسْلم إليك لواءنا ! ستعلم غداً إذا التقينا كيف نصنع وذلك أراد أبو سفيان .

[القتـــال]

فاقتتل الناسُ حتى حَمِيت الحرب .

وقاتل أبو دُجَانة سِمَاك بن خَرَشة أخو بني ساعدة ، حتى أمعنَ في الناس ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لسيفٍ عنده : من يأخذ

هـذا السيف بحقه ؟ فقام إليه رجال فأمسكه عنهم ، حتى قام إليه أبو دُجَانة فقال : وما حقه يا رسول الله ؟ قال : أن تضرب به العدوّ حتى ينحنى . قال : أنا آخذه يا رسول الله بحقه . فأعطاه إياه ، وكان أبو دجانة رجلًا شجاعاً يختال عند الحرب ، وكان إذا أُعْلِم بعصابة له حمراء فاعتصب بها عَلِم الناس أنه سيقاتل ، فلما أخذ السيف من يد رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرج عصابته تلك فعصب بها رأسه ، ثم جعل يتبختر بين الصَّفين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآه يتبختر : إنها لمِشْية يبغضها الله إلا فى مثل هذا الموطِن !

وكان الزبير بن العوام قد سأل رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ذلك السيف مع من سأله منه فمنعه إياه ، فقال : وجدتُ فى نفسى حين سألته إياه فمنعنيه وأعطاه أبا دجانة ، وقلت : أنا ابن صفية عمته ومن قريش وقد قمت إليه فسألته إياه قَبْله فأعطاه إياه وتركنى ! والله لأنظرن ما يصنع ، فأتبعته ، فأخرج عصابة حمراء فعصب بها رأسه ، فقالت الأنصار : أخرج أبو دُجَانة عصابة الموت ! وهكذا كانت تقول له إذا تعصَّب بها ، فخرج وهو يقول :

أنا الذى عاهدَنى خَليلى ونحن بالسَّفح لدَى النخيـــلِ
أن لا أقومَ الدهر فى الـكَيُّولِ[1] أضرب بسيف الله والرسولِ

فجعل لا يَلْقى أحداً إلا قتله ، وكان فى المشركين رجل لا يدَع جريحاً إلا ذَفَّف[2] عليه ، فجعل كل واحد منهما يدنو من صاحبه ، فدعوت الله أن يجمع بينهما ، فالتقيا فاختلفا ضربتين ، فضرب المشرك أبا دُجَانة فاتقاه بدَرَقته[3] فعضَّتْ سيفه ، وضربه أبو دجانة فقتله ، ثم رأيته قد حمل

---

(١) الـكيول : آخر صفوف الحرب .
(٢) ذفف : أجهز .
(٣) الدرقة : ترس من جلد بلا خشب .

السيف على مَفْرِق رأس هند بنت عُتبة ثم عدَل السيف عنها ، قال الزبير : فقلت الله ورسوله أعلم .

وقال أبو دُجانة : رأيت إنسانًا يَخْمِش[1] الناس خمشًا شديدًا فصَمَدت إليه[2] ، فلما حملت عليه السيف وَلْوَل فإذا امرأة ، فأكرمتُ سيفَ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أضرب به امرأة .

[استشهاد حمزة]

وقاتل حمزةُ بن عبد المطلب حتى قتل أحدَ النفر[3] الذين كانوا يحملون اللواء من بنى عبد الدار ، وكان جُبَير بن مُطْعِم قد وعد غلامه وحشيًّا بالعتق إذا قتل حمزة بعمه طُعَيمة بن عدى المقتول يوم بدر ، قال وَحْشِي : فخرجت مع الناس وكنت رجلًا حبشيًا أقذف بالحَرْبة قَذْفَ الحبشة قَلَّ ما أخطئ بها شيئًا ، فلما التقى الناسُ خرجت أنظر حمزةَ حتى رأيته فى عُرْض الناس مثل الجَمَل الأَوْرَق[4] يهدُّ الناسَ بسيفه هدًّا ما يقوم له شىء ، فو الله إنى لأتهيأ له أريده وأستتر منه بشجرة أو بحجر ليدنو منى إذ تقدمنى إليه سِبَاع ابن عبد العُزّى الغبشانى ، فلما رآه حمزة قال له : هلمَّ إلىَّ يابن مقطِّعة البظور . وكانت أمه خَتَّانة بمكة ، قال : فضربه ضربةً فكأنما أخطأ رأسه ، قال : وهَزَزْت حَرْبتى حتى إذا رضيت منها دفعتُها عليه فوقعت فى ثُنَّته حتى خرجت من بين رجليه وذهب لينوء نحوى فغُلب وتركته وإياها حتى مات ، ثم أتيته

---

(١) يخمش : يضرب .

(٢) ابن هشام : فصمدت له .

(٣) وهو أرطاة بن عبد شرحبيل بن هاشم .

(٤) الأورق من الإبل : ما فى لونه بياض إلى سواد ، وهو من أطيب الإبل سيرا وعملا .

فأخذت حربتي ورجعت إلى العسكر فقعدت فيه ، ولم تكن لي بغيره حاجة ، إنما قتلته لأعتق .

فلما قدمت مكة عتقت ، ثم أقمت حتى إذا افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة هربت إلى الطائف فكنت بها، فلما خرج وفدُ الطائف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليُسْلموا تعيَّت عليَّ المذاهب ، فو الله إني لفي ذلك إذ قال لي رجل : ويحك إنه والله ما يقتل أحداً من الناس دخل في دينه ، فلما قال لي ذلك خرجت حتى قدِمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فلم يَرُعْه إلا بي قائماً على رأسه أتشهّد شهادة الحق ، فلما رآني قال : أوحشيّ ؟ قلت : نعم يا رسول الله ، قال : اقعد حدثني كيف قتلتَ حمزة فحدثته فلما فرغت قال : ويحك ! غيِّب عني وجهك . فكنت أتنكّبه صلى الله عليه وسلم حيث كان لئلا يراني حتى قبضه الله تعالى .

فلما خرج المسلمون إلى مُسَيْلمة الكذاب خرجت معهم وأخذت بحربتي التي قتلت بها حمزةَ ، فلما التقى الناسُ رأيت مُسَيْلِمة قائماً في يده السيف وما أعرفه ، فتهيأت له وتهيأ له رجل من الأنصار من الناحية الأخرى كِلانا يريده ، فهزَزْت حَرْبتي حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه فوقعت فيه وشدّ عليه الأنصاري فضربه بالسيف ، فربُّك أعْلم أيّنا قتله ، فإن كنتُ قتلته فقد قتلتُ خيرَ الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم عم رسول الله ، وقد قتلتُ شرَّ الناس !

وذكر ابن إسحاق بإسناد له إلى عبد الله بن عمر ، وكان شَهِد اليمامة قال : سمعت يومئذ صارخًا يقول : قتله العبد الأسود .

قال ابن إسحاق : فبلغني أن وحشيًا لم يزل يُحَدُّ في الخمر حتى خُلِع من الديوان . فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : قد علمتُ أن الله لم يكن ليدَع قاتل حمزة .

قال ابن إسحاق :

وقاتل مُصْعَب بن عُمَيْر دونَ رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قتله ابن قَمِيئة[1] الليثى ، وهو يظن أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرجع إلى قريش فقال : قتلتُ محمداً .

فلما قُتِل مصعب أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم اللواء عليّ بن أبي طالب ، فقاتل عليٌّ ورجال من المسلمين .

ولما اشتد القتال يومئذ جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت راية الأنصار وأرسلَ إلى عليّ أن قدِّم الراية ، فتقدم فقال أنا أبو القُصَم[2] فناداه أبو سعد بن أبي طلحة : هل لك يا أبا القُصَم في البِرَاز من حاجة ؟ قال : نعم . فبرزا بين الصفين فاختلفا ضربتين فضربه عليّ فصرعه ثم انصرف ولم يُجهز عليه ، فقال له أصحابه : أفلا أجهزت عليه ؟ فقال : إنه استقبلني بعورته فعطفتني عليه الرحم وعرفت أن الله قد قتله .

ويقال : إن أبا سعد هذا خرج بين الصفين وطلب من يبارزه مراراً فلم يخرج إليه أحد ، فقال : يا أصحاب محمد زعمتم أن قتلاكم في الجنة وقتلانا في النار ، كذبتم واللات لو تعلمون ذلك حقًّا لخرج إليّ بعضكم . فخرج إليه عليّ فاختلفا ضربتين فقتله علي . وقد قيل إن سعد بن أبي وقاص هو الذى قتل أبا سعد هذا .

وقاتل عاصم بن ثابت بن أبي الأَقْلح ، فقتل مُسَافِعَ بن طلحة وأخاه الجُلاَس بن طلحة ، كلاهما يُشْعِره سهماً فيأتي أمه فيضع رأسه في حجرها فتقول : يا بنى من أصابك ؟ فيقول : سمعت رجلا يقول حين رماني : خذها

---

(١) كذا بالأصل والطبرى ، وفى ابن هشام : ابن قمئة .

(٢) فى اللسان : قصم ، مثل قثم : يحطم ما يلقى . والقصم : دق الشيء .

وأنا ابن أبي الأفلح . فنذرتْ إن أمكنها الله من رأس عاصم أن تشرب فيه الخمر ، وكان عاصم قد عاهد الله أن لا يمس مشركاً ولا يمسه مشرك أبداً ، فتمم الله له ذلك حياً وميتاً حسب ما نذكره عند مقتل عاصم على الرَّجيع ، ماء لهذيل ، إن شاء الله تعالى .

والتقى يومَ أحد حنظلةُ بن أبي عامر الغَسِيل وأبو سفيان ، فلما استعلاه حنظلة رآه شداد بن الأسود بن شَعُوب قد علا أبا سفيان فضربه شداد فقتله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن صاحبكم ، يعني حنظلة ، لتَغْسِله الملائكة فسَلُوا أهلَه ما شأنه ؟ فسئلت صاحبته ، فقالت : خرج وهو جُنُب حين سمع الهائعة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لذلك غسلته الملائكة .

ثم أنزل الله نصره على المسلمين وصدَقهم وعدَه فحَسُّوهم[1] بالسيوف حتى كشفوهم عن العسكر ونهكوهم قتلاً .

وقد حملت خيل المشركين على المسلمين ثلاثَ مرات ، كل ذلك تُنْضَح بالنَّبْل فترجع مَفْلولةً ، وكانت الهزيمة لا شك فيها .

فلما أبصرَ الرماةُ الخمسون أن الله قد فتح لإخوانهم قالوا : والله ما نجلس هنا لشيء ، قد أهلك الله العدوّ ، وإخواننا في عسكر المشركين ، فتركوا منازلَهم التي عَهِد إليهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أن لا يتركوها ، وتنازعوا وفشلوا ، وعصَوا الرسولَ فأوجفت الخيلُ فيهم قتلا ، ولم يكن نَبْل يَنْضَحُها ووجدت مَدْخلا عليهم ، فكان ذلك سبب الهزيمة على المسلمين بعد أن كانت لهم .

قال الزبير بن العوام رضي الله عنه : والله لقد رأيتني أنظر إلى خدَم[2]

(١) حسوهم : قتلوهم واستأصلوهم .
(٢) الخدم : الساق أو الخلخال .

هند بنت عُتبة وصواحبها مشكشفات هوارب ، مادُون أخذهن قليل ولا كثير ، إذ مالت الرماة إلى العسكر حين كشفنا القومَ عنه ، وخلّوا ظهورنا للخيل ، فأتتنا من خلفنا ، وصرخ صارخ : ألا إن محمداً قد قُتل ، فانكفأنا وانكفأ علينا القوم بعد أن أصبنا أصحابَ اللواء ، حتى ما يدنو منه أحدٌ من القوم .

وانكشف المسلمون فأصاب فيهم العدو ، ويقال إن الصارخ هو الشيطان .

وكان يوم بلاء وتمحيص أكرم الله فيه من أكرم من المسلمين بالشهادة . حتى خَلَص العدوُّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فدُثّ بالحجارة[1] حتى وقع لشقّه فأصيبت رَباعيته وكُلِمت شفته وشُجّ في وجهه فجعل الدم يسيل على وجهه ، وجعل صلى الله عليه وسلم يمسحه ويقول : « كيف يفلح قومٌ خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم ! » .

فأنزل الله في ذلك : « ليس لك من الأمر شيء أو يتوبَ عليهم أو يعذّبهم فإنهم ظالمون[2] » .

وكان الذي كسَرَ رَباعيته وجرح شفته عُتبة بن أبي وقاص وشجّه عبدُ الله ابن شهاب الزُّهْري في جبهته وجرح ابنُ قميئة وجْنَته فدخلت حَلْقتان من حَلَق المِغفر في وجنته ، ووقع صلوات الله عليه في حفرة من الحفر التي عمل أبو عامر ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون فأخذ علي بن أبي طالب بيده ورفعه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائماً ، ومصّ مالك بن سِنان والد أبي سعيد الخُدْري الدمَ من وجهه ثم ازدرده ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من مَسّ دمَه دمي لم تصبه النار » .

---

(١) دث : رمي وأصيب .
(٢) سورة آل عمران ١٢٨ .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من أحبَّ أن ينظر إلى شهيد يمشي على الأرض فلينظر إلى طلحة » .

ونزع أبو عبيدة بن الجرّاح إحدى الحلقتين من وجهه صلى الله عليه وسلم فسقطت ثنيّته ، ثم نزع الأخرى فسقطت ثنيته الأخرى ، فكان ساقط الثنيّتين .

وكان سعد بن أبي وقاص يقول : والله ما حرصت على قتل رجل قط حرصي على قتل عتبة بن أبي وقاص ، وهو أخوه ، وإن كان ما علمت لسيىء الخلق مبغضاً في قومه ، ولقد كفاني منه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : اشتدّ غضبُ الله على من دمّى وجهَ رسول الله[١] .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين غَشيه القومُ : « من رجلٌ يَشْرى لنا نفسه ؟ » فقام زياد بن السَّكَن في نفرٍ خمسة من الأنصار ، وبعضُ الناس يقولون : « إنما هو عُمَارة بن زياد بن السَّكَن ، فقاتلوا دونَ رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلًا ثم رجلًا ، يُقْتلون دونه ، حتى كان آخرهم زياد أو عمارة ، فقاتل حتى أثْبَتَتْه الجراحة ، ثم جاءت فئة من المسلمين فأجهضوهم[٢] عنه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أدنوه مني . فأدنَوْه منه فوسَّده قدمَه ، فمات وخدُّه على قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

* * *

وقاتلتْ أم عُمارة نَسِيبة[٣] بنت كعب المازنية يومئذ قالت : خرجتْ

---

(١) ابن هشام : وجه رسوله .

(٢) أجهضوهم : أزالوهم وغلبوهم .

(٣) نسيبة : بفتح النون وكسر السين المهملة ، كما ضبطها في الإكمال والتبصير والإصابة وغيرهم . وضبطها بالتصغير وهم ، إنما هذا في نسيبة أم عطية فنقله في أم عمارة غلط . انظر شرح المواهب ٢/٤١ .

أولَ النهار وأنا أنظر مايصنع الناس ومعى سِقَاء فيه ماء ، فانتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى أصحابه والدولة والريحُ للمسلمين ، فلما انهزم المسلمون انحزْتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقمت أباشر القتال وأذُبّ عنه بالسيف وأرمى عن القوس ، حتى خَلَصتْ الجراح إلىّ .

قالت أم سعد بنت سعد بن الربيع : فرأيت على عاتقها جرحاً أجوف له غَوْر فقلت : من أصابك بهذا ؟ قالت : ابن قَمِيئة أقمأه الله ، لما ولّى الناسُ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل يقول : دُلّونى على محمد فلا نجوت إن نجا . فاعترضته أنا ومصعب بن عُمَير وأناس ممن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فضربنى هذه الضربة ، ولقد ضربتُه على ذلك ضرباتٍ ولكن عدوّ الله كانت عليه دِرْعان .

وترّس دونَ رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو دُجَانة بنفسه ، يقع النَّبْل فى ظهره وهو منحنٍ عليه ، حتى كثر فيه النَّبْل .

ورَمَى سعدُ بن أبى وقاص دونَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال سعدُ : فلقد رأيته يناولنى النَّبْل ويقول : ارم فداك أبى وأمى ! حتى إنه ليناولنى السهم ماله من نَصْل فيقول : ارم به .

ورمى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يومَ أُحد حتى اندقت سِيتها .

وأصيبت يومئذ عينُ قتادة بن النعمان فردّها رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده فكانت أحسن عينيه وأحدّهما .

وأصيب فم عبد الرحمن بن عوف فهُتِم وجرح عشرين جراحة أو أكثر ، أصابه بعضها فى رجله فعَرِج .

وانتهى أنسُ بن النضر عم أنس بن مالك وبه سمّى ، إلى عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله فى رجال من المهاجرين والأنصار قد ألقوا بأيديهم ،

فقال : ما يُجلسكم ؟ قالوا : لقد قُتل محمد رسول الله . قال : فما تصنعون بالحياة بعده ! قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم استقبل القومَ فقاتل حتى قُتل رحمه الله تعالى .

وروى حميد عن أنس ، أن عمه أنس بن النضر هذا غاب عن قتال يوم بدر ، فقال : غِبْت عن أول قتال قاتلَه رسول الله صلى الله عليه وسلم المشركين لئن أشْهَدنى الله قتالًا ليرين الله ما أصنع ، فلما كان يوم أُحد انكشف المسلمون فقال : اللهم إنى أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء ، يعنى المشركين ، وأعتذر إليك مما جاء به هؤلاء ، يعنى المسلمين ، ثم مشى بسيفه فلقيه سعد بن معاذ فقال : أىْ سعد والذى نفسى بيده إنى لأجد ريح الجنة دون أحد ! واها لريح الجنة . فقال سعد : فما استطعت يا رسول الله ما صنع . فوجدناه بين القتلى وبه بضع وثمانون جراحة من ضربة بسيف وطعنة برمح ورَمْية بسهم ، وقد مثَّلوا به حتى عرفته أخته ببنانه .

قال أنس : كنا نقول أنزلت هذه الآية : « من المؤمنين رِجَالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه[1] » فيه وفى أصحابه .

قال ابن إسحاق : وكان أول من عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الهزيمة وتحدّث الناس بقتله : كعب بن مالك الأنصارى ، قال : عرفتُ عينيه تَزْهران تحت المِغْفَر فناديت بأعلى صوتى : يا معشر المسلمين أبشروا ، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأشار إلىّ أن أنصت . فلما عرف المسلمون رسول الله صلى الله عليه وسلم نهضوا به ونهض معهم نحو الشِّعْب ، معه أبو بَكر الصديق وعمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وطلحة بن عبيد الله والزبير ابن العوام والحارث بن الصِّمَّة ، ورهط من المسلمين .

* * *

(١) سورة الأحزاب ٢٣ .

فلما أسْنَدَ[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشِّعب أدركه أُبيّ بن خَلَف وهو يقول : أين محمد ؟ لا نجوتُ إن نجا ! فقال القوم : يا رسول الله أيعطف عليه رجلٌ منا ؟ فقال : دعوه . فلما دنا تناول رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الحَرْبة من الحارث بن الصِّمَّة ، يقول بعض القوم : فلما أخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم منه انتفض بها انتفاضةً تطايرنا عنه تطاير الشُّعْراء[2] من ظهر البعير إذا انتفض بها ، ثم استقبله فطعنه في عنقه طعنةً تدأدأ[3] منها عن فرسه مراراً .

وكان أُبيّ بن خلف يلقى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بمكة فيقول : يا محمد إن عندي العَوْذ ، فرساً أعلفه كلّ يوم فرقاً[4] من ذُرَة أقتلك عليه . فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل أنا أقتلك إن شاء الله .

فلما رجع إلى قريش وقد خدَشه في عنقه خدشاً غير كبير فاحتقن الدم قال : قتلني والله محمد ! فقالوا له : ذهب والله فؤادك ! والله إنْ بكَ بأس قال : إنه قد كان قال لي بمكة : أنا أقتلك . فوالله لو بصَق عليّ لقتلني .

فمات عدوُّ الله بسَرِف[5] وهم قافلون به إلى مكة .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال يومئذ : « اشتدَّ غضبُ الله على رجل قتله رسولُ الله » . فسُحقاً لأصحاب السعير .

* * *

ولما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الشِّعب خرج علي بن

---

(١) أسند : صعد . أي اسند إلى جانب من الجبل .
(٢) الشعراء : ذباب له لدغ .
(٣) تدأدأ : تقلب عن فرسه لجعل يتدحرج .
(٤) الفرق : مكيال يسع ستة عشر مناً ، أو اثنى عشر رطلا .
(٥) سرف : موضع على ستة أميال من مكة .

أبي طالب حتى ملأ دَرَقَته من المِهْراس(١) ، فجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليشرب منه ، فوجد له ريحاً فعافه ولم يشرب منه ، وغسل عن وجهه الدم فصبَّ على رأسه وهو يقول : « اشتد غضب الله على من دمى وجه رسوله » .

فبَيْنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الشعب معه أولئك النفر من أصحابه إذا علت عاليةٌ من قريش الجبَل فقال : « اللهم إنه لا ينبغى لهم أن يَعْلونا » فقاتل عمرُ بن الخطاب ومعه رهط من المهاجرين حتى أهبطوهم من الجبل .

ونهض رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى صخرة من الجبل ليعلوها فلم يستطع ، وقد كان بَدّن(٢) وظاهَر بين درعين ، فجلس تحته طلحةُ بن عبيد الله فنهض به حتى استوى عليه ، فقال صلى الله عليه وسلم : أَوْجَبَ طَلْحة(٣) .

وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر يومئذ قاعداً من الجِرَاح التى أصابته ، وصلى المسلمون خلفه قعوداً .

* * *

ولما خرج صلى الله عليه وسلم إلى أحد رُفِع حُسَيْل بن جابر وهو اليمان أبو حذيفة بن اليمان ، وثابت بن قيس فى الآكام مع النساء والصبيان فقال أحدهما لصاحبه وهما شيخان كبيران : لا أبا لك ! ما تنتظر ؟ فو الله إنْ بقى لواحدٍ منا من عمره إلا ظِمء(٤) حمار ، إنما نحن هامَة اليوم(٥) أو غد ، أفلا نأخذ

---

(١) المهراس : ماء بأحد .

(٢) بدن : عظم جسمه . أو أسن وضعف .

(٣) أى وجبت له الجنة .

(٤) الظمء : ما بين الشربتين والوردين ، والمراد : ما بقى لا يسير ، لأنه ليس شىء أقصر : ظمأ منه .

(٥) هامة : يريد موتى ، والهـامة طائر تزعم العرب أنه يخرج من رأس القتيل يصيح طلباً للثأر اه .

أسيافنا ثم نلحق رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، لعل الله يرزقنا الشهادة معه ؟
فأخذا أسيافهما ثم خرجا حتى دخلا فى الناس ولم يُعلم بهما .

فأما ثابت فقتله المشركون ، وأما حُسَيْل فاختلفت عليه أسياف المسلمين فقتلوه وهم لا يعرفونه ، فقال حذيفة : أبى ! قالوا : والله إن عرفناه . وصدَقوا . قال حذيفة : يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين . فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يَدِيَه فتصدق حذيفة بديته على المسلمين ، فزاده عند رسول الله خيراً .

[خبر مخيريق]

وكان ممن قُتِل يوم أحد مُخَيريق من أحبار اليهود ، وقد تقدم خبره وكيف قال يومئذ ليهود : لقد علمتم أن نصر محمد عليكم لحقّ . فتعللوا عليه بأنه يوم السبت ، فقال لهم : لا سَبْتَ لكم . وأخذ سيفه وعُدّته فلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم فقاتل معه حتى قُتل بعد أن قال : إن أُصبْتُ فمالى لمحمد يصنع فيه ما شاء . وفيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مُخَيْريق خيرُ يهود » .

وكان عمرو بن ثابت بن وَقْش أُصَيْرِم بنى عبد الأشهل يأبَى الإسلام على قومه ، فلما كان يوم أحد بدا له فى الإسلام فأسلم ، ثم أخذ سيفه فغدا حتى دخل فى عُرْض الناس فقاتل حتى أثبتته الجراحة ، فبينا رجال من بنى عبد الأشهل يلتمسون قتلاهم فى المعركة إذاهم به ، فقالوا : والله إن هذا لَلأُصيرم ما جاء به ؟ لقد تركناه وإنه لمنكر لهذا الحديث . فسألوه ما جاء بك يا عمرو ؟ أحدَبٌ على قومك أم رغبة فى الإسلام ؟ قال : بل رغبة فى الإسلام ، آمنت بالله وبرسوله وأسلمتُ ثم أخذت سيفى فغدوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قاتلت حتى أصابنى ما أصابنى . ثم لم يلبث أن مات فى أيديهم فذكروه لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إنه لمن أهل الجنة .

وكان أبو هريرة يقول : حدّثونى عن رجل دخل الجنة لم يصلّ قط ؟ فإذا لم يعرفه الناس سألوه من هو ؟ فيقول : أُصَيْرِم بنى عبد الأشهل .

* * *

وكان عمرو بن الجَمُوح أعرجَ شديد العرج ، وكان له بنون أربعة مثل الأُسْد يشهدون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المشاهد ، فلما كان يوم أحد أرادوا حبسه وقالوا : إنّ الله قد عَذَرك . فأتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن بنيّ يريدون أن يحبسونى عن هذا الوجه والخروج معك فيه ، فوالله إنى لأرجو أن أطأ بعَرْجتى هذه فى الجنة . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمّا أنت فقد عذرك الله فلا جهاد عليك » . وقال لبنيه : « ما عليكم أن لا تمنعوه لعل الله يرزقه الشهادة » فخرج معه فقتل ، يرحمه الله .

* * *

ووقفت هند بنت عُتْبَة والنسْوة اللاتى معها يمثّلن بالقتلى من المسلمين يجدّعن الآذان والأنوف ، حتى اتخذت هند من آذان الرجال وأنوفهم خَدَما[1] وقلائد ، وأعطت خدمها وقلائدها وقرطها وحشيا قاتل حمزة ، وبقرتْ عن كبد حمزة رضى الله عنه فلاكتها فلم تستطع أن تُسيغها فلفظتها ، ثم علت على صخرة مشرفة فصرخت بأعلى صوتها :

نحن جزيناكم بيوم بدر ... والحربُ بعد الحرب ذات سُعْر[2]
ما كان عن عُتْبة لى من صبر ... ولا أخى وعمه وبَكْر
شفَيْتُ نفسى وقضيت نَذْرى ... شفيتَ وحشىّ غليلَ صدرى

---

(١) الخدم : الخلاخيل .

(٢) السعر : الشدة والقرم .

فشكْرُ وحشىٍّ علىَّ عمرى حتى ترِمَّ أعظُمى فى قبرى[1]

فأجابتها هند بنت أثاثة بن عبَّاد بن المطلب فقالت :

خَزِيتِ فى بَدْرٍ وبعد بدرِ يا بنت وقاعٍ عظيم الكفرِ
صبحكِ الله غداة الفَجْرِ بالهاشميين الطوال الزُّهْرِ
بكل قطاعٍ حُسامٍ يفرى حمزةُ ليثى وعلىٌّ صقرى
إذ رام شَيْبٌ وأبوكِ غَدْرى فخضَّبا منه ضواحى النَّحْرِ
ونَذْرُكِ السوء فشرُّ نَذْرِ

وقد كان الحُلَيْسُ بن زَبَّان أخو بنى الحارث بن عبد مناة ، وهو يومئذ سيد الأحابيش، مر بأبى سفيان وهو يضرب فى شدق حمزة بن عبد المطلب بزُجّ الرمح ويقول :ذُقْ عُقَق[2] ،فقال الحُلَيْس: يا بنى كنانة هذا سيد قريش يصنع بابن عمه ما ترون لحمًا . فقال : ويحك اكتمها عنى فإنها كانت زَلّة .

* * *

ثم إن أبا سفيان حين أراد الانصراف أشرف على الجبل ثم صرخ بأعلى صوته : أنعَمَت فعالِ[3] ، إن الحرب سجالٌ يومٌ بيوم بدر ، اعْلُ هُبَل . أى ظهر دينك[4] .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قم يا عمر فأجِبْه . فقل : « الله أعلى

---

(١) ترم : تبلى .

(٢) عقق : أراد باعاق . فعدله إلى صيغة (فعل) .

(٣) أنعمت : بفتح التاء : خطاب لنفسه ، وبسكونها يريد الحرب أو الواقعة ، أو أن الأزلام أجابت بنعم . وفعال اسم للفعل الحسن ، وقال السهيلى : فعال : أمر ، أى عال عنها وأقصر عن لومها ، تقول العرب : اعل عنى وعال ، بمعنى ارتفع عنى ودعنى .

(٤) ابن هشام : أى أظهر دينك .

وأجلّ ، لا سواء ، قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار » .

وفى الصحيح من حديث البرّاء أن أبا سفيان قال : لنا العزّى ولا عُزّى لـكم . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أجيبوه . قالوا : ما نقول ؟ قال قولوا : « الله مولانا ولا مولى لـكم » .

وفيه أيضاً : أن أبا سفيان أشرف يوم أحد فقال : أفى القوم محمد ؟ فقال : لا تجيبوه . فقال أفى القوم ابن أبى قحافة ؟ قال : لا تجيبوه . قال : أفى القوم ابن الخطاب ؟ قال : لا تجيبوه فلما لم يجبه أحد قال : إنّ هؤلاء قتلوا ، فلو كانوا أحياءً لأجابوا ، فلم يملك عمر نفسه فقال : كذبتَ يا عدو الله قد أبقى الله لك ما يخزيك .

قال ابن إسحق : فلما أجاب عمر أبا سفيان قال له : هلم إلىّ يا عمر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر : ايته فانظر ما شأنه . فجاءه فقال له أبو سفيان : أنشدك الله يا عمر : أقتلنا محمداً ؟ قال عمر : اللهم لا وإنه ليسمع كلامك الآن ، قال : أنت أصْدق عندى من ابن قميئة[1] وأبر . لقول ابن قميئة لهم : إنى قد قتلت محمداً ، ثم نادى أبو سفيان : إنه قد كان فى قتلاكم مَثْل[2] ، والله ما رضيت وما سخطت ، وما أمرت وما نَهَيْت .

ولما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى : إنّ موعدكم بدر العام القابل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل من أصحابه قل : نعم هو بيننا وبينـكم مَوْعِد .

* * *

ثم بعث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم علىّ بن أبى طالب فقال : اخرج فى آثار القوم فانظر ماذا يصنعون وماذا يريدون ، فإن كانوا قد جنبوا الخيل

(١) كذا بالأصل والطبرى : وفى ابن هشام وابن كثير : ابن قمئة .

(٢) المثل : كالمثلة ، التنـكيل بالقتلى .

وامتطوا الإبلَ فإنهم يريدون مكة ، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فهم يريدون المدينة ، والذى نفسى بيده لئن أرادوها لأسيرنّ إليهم فيها ثم لأناجزنّهم فخرج علىّ فرآهم قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل ووجهوا إلى مكة .

* * *

وفرغ الناسُ لقتلاهم وانتشروا يبتغونهم ، فلم يجدوا قتيلا إلا وقد مثّلوا به إلا حنظلة بن أبى عامر فإن أباه كان مع المشركين فتركوه له ، وزعموا أن أباه وقف عليه قتيلا فدفع صدره بقدمه وقال : قد تقدمتُ إليك فى مصرعك هذا ، ولعمر الله إن كنت لَواصلا للرحم برًّا بالوالدة .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من رجلٌ ينظر لى ما فعل سعد ابن الربيع ، أفى الأحياء هو أم فى الأموات ؟ فقال رجل من الأنصار : أنا أنظر لك يارسول الله ما فعل . فنظر فوجده جريحًا فى القتلى وبه رمق ، قال فقلت : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنى أن أنظر أفى الأحياء أنت أم فى الأموات ؟ قال : أنا فى الأموات ، فأبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم عنى السلام وقل له : إن سعد بن الربيع يقول : جزاك الله عنا خيرَ ما جزَى نبيًّا عن أمته ، وأبلغ قومك السلام عنى وقل لهم : إن سعد بن الربيع يقول لكم : إنه لا عُذر لكم عند الله إنْ خُلِص إلى نبيكم وفيكم عَيْن تَطْرف . قال : ثم لم أبرح حتى مات . فجئت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته خبره .

وفى سعد هذا يقول أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، وقد دخل عليه رجل وعلى صدره بنتٌ لسعد جارية صغيرة يَرْشفها ويقبّلها فقال الرجل : من هذه ؟ فقال أبو بكر رضى الله عنه : بنت رجل خير منى ، سعد بن الربيع ، كان من النقباء ليلة العقبة وشهد بدراً ، واستشهد يوم أحد .

[حزن الرسول على حمزة]

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يلتمس حمزةَ بن عبد المطلب فوجده ببطن الوادى قد بُقر بطنه عن كبده ومثّل به فجُدع أنفه وأذناه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأى ما رأى : « لولا أن تحزن صفية ويكون سُنّةً من بعدى لتركته حتى يكون فى بطون السباع وحواصل الطير ، ولئن أظهرنى الله على قريش فى موطن من المواطن لأُمثلنّ بثلاثين رجلا منهم » .

فلما رأى المسلمون حزنَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيظه على من فعل بعمه ما فعل ، قالوا : والله لئن أظفَرنا الله بهم يوماً من الدهر لنمثلن بهم مُثْلة لم يمثلها أحدٌ من العرب . فأنزل الله تعالى ، فيما قاله من ذلك رسوله صلوات الله عليه وسلامه : « وإنْ عاقَبْتم فعاقِبوا بمثل ما عُوقبتم به ولئن صَبرْتم لهو خيرٌ للصابرين . واصبرْ وما صَبْرك إلا بالله ، ولا تَحزَن عليهم ولاتَكُ فى ضَيْق مما يمكرون[1] » فعفا رسول الله صلى الله عليه وسلم وصبرَ ونَهى عن المُثْلَة .

ويقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما وقف على حمزة قال : لن أصاب بمثلك أبداً ! ما وقفتُ موقفاً قط أغْيَظ لى من هذا . ثم قال : جاءنى جبريل فأخبرنى أنّ حمزة مكتوب فى أهل السموات السبع : حمزةُ ابن عبد المطلب أسَدُ الله وأسد رسوله .

ثم أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فسجّى ببُرْده ، ثم صلى عليه

---

(١) سورة النحل ١٢٦ ، ١٢٧ .

فكبّر سبع تكبيرات ، ثم أتى بالقتلى ، يوضعون إلى حمزة وصلى عليهم وعليه معهم ، حتى صلى عليه ثنتين وسبعين صلاة .

وأقبلت صفية بنت عبد المطلب لتنظر إليه ، وكان أخاها لأبيها وأمها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابنها الزبير بن العوام : القَها فأرجعها ، لا ترى ما بأخيها . فقال لها : يا أمه إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن ترجعي . قالت ولم ؟ وقد بلغني أن قد مُثّل بأخي ، وذلك في الله ، فما أرضانا بما كان من ذلك ، لأحتسبنّ ولأصبرن إن شاء الله . فلما أخبر الزبير بذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال له : خَلِّ سبيلها . فأتته فنظرت إليه فصلّت عليه واسترجعت واستغفرت له .

ثم أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فدفن .

وزعم آلُ عبد الله بن جحش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دفن عبدَ الله بن جحش مع حمزة في قبره ، وهو ابن أخته أميمة بنت عبد المطلب ، وكان قد مثّل به كما مثل بخاله حمزة ، إلا أنه لم يُبقر عن كبده وجُدع أنفه وأذناه ، فلذلك يقال له : المجدّع في الله .

وكان في أول النهار قد لقي سعدَ بن أبي وقاص فقال له عبدُ الله : هلم ياسعد فلندْعُ الله وليذكر كلٌّ واحد منا حاجته في دعائه وليؤمّن الآخر . فقال سعد : يارب إذا لقيتُ العدو فلقّني رجلاً شديدا بأسه شديدا حَرده أقاتله فيك ويقاتلني ثم ارزقني الظفر عليه حتى أقتله وأسلبه سَلَبه . فأمّن عبد الله بن جحش ثم قال : اللهم ارزقني رجلا شديدا بأسه شديداً حَرْده أقاتله فيك ويقاتلني ثم يجْدَع أنفي وأذني ، فإذا لقيتك غداً قلت لي : ياعبد الله فيم جُدع أنفك وأذناك ؟ فأقول : فيك يارب وفي رسولك . فتقول لي : صدقت . فأمّن سعد على دعوته .

قال سعد : كانت دعوة عبد الله خيرا من دعوتى ، لقد رأيته آخر النهار وإن أذنيه وأنفه معلقتان فى خيط ، ولقيت أنا فلانا من المشركين فقتلته وأخذت سَلَبه .

وذكر الزبير أن سيف الله عبد الله بن جحش انقطع يوم أُحد فأعطاه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عرجونا فعاد فى يده سيفا قائمه منه ، فقاتل به فكان ذلك السيف يسمى العرجون ، ولم يزل هذا يتوارث حتى بيع من بُغَا التركى بمائتى دينار .

[دفن الشهداء]

واحتمل ناسٌ من المسلمين قتلاهم إلى المدينة فدفنوهم بها ، ثم نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال : ادفنوهم حيث صُرِعوا .

ولما أشرف صلوات الله عليه وسلامه يوم أُحد على القتلى قال : أنا شهيد على هؤلاء ، إنه ما من جريح يُجرح فى الله إلا والله يبعثه يوم القيامة يدمِى جُرْحه اللونُ لونُ دَمٍ والريح ريح مسك ، انظروا أكثر هؤلاء جمعاً للقرآن فاجعلوه إمام أصحابه فى القبر . وكانوا يدفنون الاثنين والثلاثة فى القبر الواحد .

وقال يومئذ حين أمر بدفن القتلى : انظروا عمرَو بن الجموح وعبد الله بن عمرو بن حَرام ، فإنهما كانا متصافيين فى الدنيا فاجعلوهما فى قبر واحد .

وذكر مالك بن أنس فى مُوطّئه أن السيل حفر قبرهما بعد زمان فحفر عنهما ليغيَّرا من مكانهما ، فوجدا لم يتغيرا كأنما ماتا الأمس ، وكان

أحدهما قد جُرح فوضع يده على جرحه فدفن وهو كذلك فأميطت يده عن جرحه ثم أرسلت فرجعت كما كانت ، وكان بين أحد وبين يوم حُفِر عنهما ست وأربعون سنة .

[رجوع الرسول إلى المدينة]

ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعا إلى المدينة فلقيته حَمْنَة بنت جحش ، فلما لقيت الناسَ نُعِى لها أخوها عبدُ الله بن جحش فاسترجعت واستغفرت له ، ثم نعى لها خالُها حمزة بن عبد المطلب فاسترجعت واستغفرت له ، ثم نعى لها زوجها مُصْعَب بن عمير فصاحت وولولت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن زوج المرأة منها لَبِمَكان » لما رأى من تثبّتها على أخيها وخالها وصياحها على زوجها .

[بكاء الشهداء]

ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم بدار من دور الأنصار فسمع البكاء والنوائح على قتلاهم ، فذرفت عيناه فبكى ثم قال : لكن حمزة لا بواكى له !

فلما رجع سعد بن معاذ وأسيد بن حُضَير إلى دار بنى عبد الأشهل أمرا نساءهما أن يتحزّمْن ثم يذهبن فيبكين على عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففعلن ، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بكاءهن على حمزة خرج عليهن وهن على باب المسجد يبكين عليه فقال: ارجعن يرحمكن الله فقد آسَيْتن بأنفسكن. وقيل إنه لما سمع بكاءهن قال . رحم الله الأنصار ، فإن المواساة منهم ما علمتُ لقديمة ، مروهن فلينصرفن .

ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى انصرافه بامرأة من بنى دينار وقد أصيب زوجها وأبوها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بأحد ، فلما نعوا لها قالت: فما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالوا : خيرا يا أم فلان هو بحمد الله كما

تحبين . قالت : أرونيه حتى أنظر إليه . فأشير لها إليه حتى إذا رأته قالت : كلُّ مصيبة بعدك جَلَل انريد صغيرة[1] .

* * *

فلما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهله ناولَ سيفه ابنته فاطمة فقال : اغسلي عن هذا دمه يا بنية ، فوالله لقد صدَقني اليومَ ، وناولها علي ابن أبي طالب سيفه وقال : وهذا فاغسلي عنه دمه فوالله لقد صدَقني اليوم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لئن كنت صدَقْت القتالَ لقد صدَق معك سهلُ بن حُنَيْن وأبو دُجَانة .

وكان يقال لسيف رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذو الفِقَار . ونادى منادٍ يوم أُحد :

لا سيفَ إلا ذو الفقَا ر ولا فتًى إلا عَلِي

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب : « لا يصيب المشركون منا مثلَها حتى يفتح الله علينا » .

[غزوة حمراء الأسد]

وكان يوم أُحد يومَ السبت للنصف من شوال .

فلما كان الغد منه يوم الأحد أذَّن مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بطلَب العدو ، وأذَّن مؤذنه : أن لا يخرجن معنا أحدٌ إلا أحدٌ حضر يومَنا بالأمس .

فكلمه جابرُ بن عبد الله بن عمرو بن حَرام فقال : يا رسول الله كان أبي

(١) قال ابن هشام : الجلل يكون من القليل والكثير . وهو ها هنا القليل ، قال امرؤ القيس :

لقَتْل بني أسدٍ ربَّهم ألا كل شيء خلاه جلَلْ

أي صغير وقليل .

خلَّفنى على أخوات لى سَبْع وقال : « يا بُنَىّ إنه لا ينبغى لى أو لك أن نترك هؤلاء النسوة لا رجل فيهن ، ولستُ بالذى أوثرك بالجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفسى ، فتخلَّفْ على أخواتك . فتخلفتُ عليهن . فأذِن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج معه .

وإنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مرهبًا للعدو ليُبلِّغهم أنه خرج فى طلبهم فيظنوا به قوة ، وأن الذى أصابهم لم يُوهنهم عن عدوّهم .

وشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يومَ أحد أخوان من بنى عبد الأشهل فرجعا جريحين ، قال أحدهما : فلما أذَّن مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخروج فى طلب العدو قلت لأخى أو قال لى : أتفوتنا غزوةٌ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ! والله ما لنا من دابّة نركبها وما منّا إلا جريح ثقيل . فخرجنا وكنت أيسرَ جرحًا منه ، فكان إذا غُلب حمَلْته ، عُقْبة[1] ومشَى عقبة ، حتى انتهينا إلى ما انتهى عليه[2] المسلمون .

وانتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خروجه إلى حَمْراء الأسَد ، على ثمانية أميال من المدينة . فأقام بها الاثنين والثلاثاء والأربعاء ثم رجع إلى المدينة .

وقد مرّ به هنالك مَعْبَد بن أبى مَعْبَد الخُزَاعى ، وكانت خزاعة مسلمهم ومشركهم عَيْبة نُصْح[3] رسول الله صلى الله عليه وسلم بتهامة ، صَفْقتهم[4] معه لا يُخفون عنه شيئًا كان بها ، ومَعْبَد يومئذ مشرك ، فقال : يا محمد أما والله لقد عزّ علينا ما أصابك فى أصحابك ، ولَوَدِدْنا أن الله عافاك فيهم .

(١) العقبة : النوبة .
(٢) ابن هشام : إليه .
(٣) العيبة : موضع السر .
(٤) صفقتهم : حلفهم .

ثم خرج ورسول الله صلى الله عليه وسلم بحمراء الأسد ، حتى لقى أبا سفيان ابن حرب ومن معه بالرَّوحاء وقد أجمعوا الرَّجْعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وقالوا : أصَبْنا حَدَّ أصحابه وقادتهم وأشرافهم ثم نرجع قبل أن نستأصلهم ! لَنَكُرَّنَّ على بقيتهم فلنفرغن منهم . فلما رأى أبو سفيان معبداً قال : ما وراءك يا معبد ؟ قال : محمد قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أرَ مثله قط يتحرقون عليكم تحرقاً قد اجتمع معه من كان تخلّف عنه فى يومكم وندِموا على ما صنعوا ، فيهم من الحَنَق عليكم شىء لم أر مثله قط . فقال : ويحك ما تقول ؟ قال : والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصى الخيل . قال : فوَ الله لقد أجمعنا الكَرَّة عليهم لنستأصل بقيتهم . قال : فإنى أنهاك عن ذلك ، والله لقد حملنى ما رأيتُ أن قلت فيه أبياتاً من الشعر . قال : ما قلت ؟ قال قلت :

كادتْ تُهدُّ من الأصوات راحلتى ... إذ سالت الأرض بالجُرْد الأبابيل[1]

تَرْدِى بأُسْد كرام لا تنابلةٍ ... عند اللقاء ولا مِيلٍ معازيلِ[2]

فظَلْتُ عَدْواً أظن الأرض مائلة ... لما سَمَوْا برئيس غير مخذولِ

فقلت ويل ابن حَرْب من لقائكم ... إذا تغطمطت البطحاء بالجيلِ[3]

إنى نذيرٌ لأهل البَسْل[4] ضاحيةً ... لكل ذى إربة منهم ومعقول

من جيش أحمد لا وَخْشاً قنابله ... وليس يوصف ما أنذرتُ بالقيل[5]

فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه

---

(١) الجرد : عتاق الخيل . والأبابيل : الجماعات .

(٢) تردى : تسرع .

(٣) تغطمطت : اهتزت . والجيل : الصنف من الناس .

(٤) أهل البسل : قريش .

(٥) الوخش : الردىء . وفى ابن هشام : لا وخش تنابلة . وفى سيرة ابن كثير ٣/١٠٠ : لا وخش قنابله .

ومرّ به رَكْبٌ من عبد القيس فقال : أين تريدون ؟ قالوا : نريد المدينة ، قال : ولم ؟ قالوا : نريد الميرة . قال : فهل أنتم مبلغون عنى محمداً رسالة أرسلكم بها إليه وأحمل لكم بهذه[1] غداً زبيباً بعكاظ إذا ما أتيتموها ؟ قالوا نعم . قال : فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم . فمرّ الركب برسول الله صلى الله عليه وسلم وهم بحمراء الأسد فأخبروه بالذى قال أبو سفيان وأصحابه فقالوا[2] : « حَسْبنا الله ونعم الوكيل » .

ويقال إنهم لما هموا بالرجعة إلى المدينة ليستأصلوا — كما زعموا — بقية أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم صفوان بن أمية : لا تفعلوا فإن القوم قد حَرِبُوا[3] وقد خشينا أن يكون لهم قتالٌ غير الذى كان ، فارجعوا . فرجعوا .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم وهو بحمراء الأسد حين بلغه أنهم هَمُّوا بالرجعة : « والذى نفسى بيده لقد سُوِّمَتْ لهم حجارة لو صبّحوا بها لكانوا كأمسِ الذاهب » .

وأخذ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى وجهه قبل رجوعه إلى المدينة معاوية ابن المغيرة بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس جد عبد الملك بن مروان أبا أمه وأبا عَزَّة الجمحى ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أسَرَه ببدر ثم مَنَّ عليه وقد تقدم ذكر ذلك وذكر مقتله إياه فى هذه الأحدة الثانية صدر غزوة أحد ، ولجأ معاوية بن المغيرة إلى عثمان بن عفان فاستأمن له رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فأمّنه على أنه إن وجد بعد ثلاث قُتل ، فأقام بعدها وتوارَى . فبعث النبى صلى الله عليه وسلم زيدَ بن حارثة وعمار بن ياسر وقال : إنكما ستجدانه بموضع كذا . فوجداه فقتلاه .

---

(١) ابن هشام : هذه .

(٢) ابن هشام : فقال .

(٣) حربوا : غضبوا .

[ما نزل من القرآن فى أحد]

وكان يوم أحد يومَ بلاء ومصيبة وتمحيص ، اختبر الله به المؤمنين ومحق به المنافقين ممن كان يُظهر الإيمان بلسانه وهو مستخف بالكفر فى قلبه ، وأكرم الله فيه من أراد كرامته لشهادة من أهل ولايته .

وكان مما أنزل الله تبارك وتعالى من القرآن فى شأن أحد ستون آية من آل عمران فى طاعة من أطاع ، ونفاق من نافق ، وصفة ما كان فى يومهم ، وتعزية المؤمنين فى مصيبتهم ومعاتبة من عاتب منهم .

يقول الله تبارك وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : « وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » . أى سميع لما يقولون عليم بما يُخفون .

« إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ منكم أن تَفْشَلاَ » أى تتخاذلا . والطائفتان : بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس ، وهما الجناحان ، يقول الله تبارك وتعالى : « والله وليُّهما » أى المدافع عنهما ما همّتا به من ذلك برحمته وعائذته حتى سَلِمتا ولحقتا بنبيِّهما . وقيل إنه لما أنزل الله تعالى فى هاتين الطائفتين قالتا : ما نحب أنا لم نهمّ بما هَمَمْنا لتولّى الله إيانا فى ذلك .

« وعلى الله فليتوكل المؤمنون » أى من كان به ضعف من المؤمنين فليتوكل علىّ وليَستعن بى أُعِنْه على أمره وأدفع عنه حتى أبلغ به وأقوّيه على نيته .

« ولقد نصركم الله ببدْر وأنتم أذِلة » أقلّ عدداً وأضعف قوة « فاتقوا الله لعلكم تشكرون » أى فاتقونى فإنه شكرُ نعمتى .

« إذ تقولُ للمؤمنين أَلَنْ يكفيكم أن يُمِدَّكم ربُّكم بثلاثة آلافٍ من الملائكة مُنْزَلِينَ ؟ * بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هٰذَا

يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمسة آلافٍ من الملائكة مُسَوِّمِينَ » أى إن تصبروا لعدوّى وتطيعوا أمرى ويأتوكم من وجههم هذا أمددكم بهذا المدد من الملائكة مسوّمين أى معلّمين .

« وما جعله الله إلا بُشْرى لكم ولتطمئنَّ قلوبكم به وما النصرُ إلا من عِنْدِ الله العزيزِ الحكيم » أى ما سمّيت لكم مَن سمّيته من جنود ملائكتى إلا لتستبشروا بذلك وتطمئن قلوبكم إليه ، لما أعرف من ضعفكم ، وما النصر إلا من عند الله لسلطانى وقدرتى ، وذلك أن العزة والحكم لى لا إلى أحد من خلْقى .

ثم قال لمحمد عليه الصلاة والسلام : « ليس لك من الأمر شىء أو يتوبَ عليهم أو يعذّبهم فإنهم ظالمون » أى ليس لك من الحكم شىء فى عبادى إلا ما أمرتك به فيهم ، أو أتوب عليهم برحمتى فإن شئتُ فعلت ، أو أعذبهم بذنوبهم فبحقى فإنهم ظالمون أى عصوا فاستوجبوا ذلك بمعصيتهم إياى .

ثم استقبل ذكر المصيبة التى نزلت بهم والبلاء الذى أصابهم والتمحيص بما كان فيهم واتخاذه الشهداء منهم ، فقال تعزيةً لهم وتعريفاً لهم فيما صنعوا وفيما هو صانع بهم : « قد خلَتْ من قَبْلِكم سُنن فسِيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذِّبين » أى قد مضت منى وقائع نقمة فى أهل التكذيب برسلى والشرك ، فى عاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مَدْين ، فرأوا مثلاتٍ قد مضت منى فيهم ولمن هو على مثل ما هم عليه : « هذا بَيَانٌ للناسِ وهُدًى وموعِظةٌ للمتقين » أى نور وأدب لمن أطاعنى وعرف أمرى .

« ولا تَهِنوا ولا تحزَنوا » أى لا تَضْعفوا ولا تبتئسوا على ما أصابكم

« وأنتم الأَعْلَوْن » لكم تكون العاقبة والظهور « إن كنتم مُؤْمنين » أى إن كنتم صدّقتم نبيِّ بما جاءكم به عنّى .

« إنْ يَمْسَسْكم قَرْحٌ » أى جراح « فقد مَسَّ القومَ قَرْحٌ مثلُه » أى جِراح مثلها « وتلك الأيامُ نداولها بَيْن الناسِ » أى نصرّفها للبلاء والتمحيص « وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذَ منكم شُهَدَاء والله لا يحبُّ الظالمين . وليمحِّص الله الذين آمَنُوا ويمْحَقَ الكافرين . أم حَسِبْتم أن تَدْخلوا الجنة ولمّا يَعْلم الله الذين جاهَدوا منكم ويَعْلم الصابرين » أى حسبتم أن تدخلوا الجنة فتصيبوا كرامةَ ثوابى ولم أختبركم بالشدة وأبتليكم بالمكاره حتى أعلم صِدْقَ ذلك منكم ، الإيمان بى والصبر على ما أصابكم فىَّ .

« ولقد كنتم تَمَنَّون الموتَ » أى الشهادة « من قَبْلِ أنْ تَلْقَوه » يعنى الذين استنهضوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم إلى الخروج بهم إلى عدوّهم يوم أحد لما فاتهم من يوم بدر رغبةً فى الشهادة يقول : « فقد رأيتموه وأنتم تَنظُرون » .

« وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خلَتْ من قَبْله الرسُل أفئنْ مات أو قُتل انقلبْتم على أعقابكم » أى لقول الناس : قُتِلَ محمد . وانهزامهم عند ذلك وانصرافهم عن عدوهم . أفئن مات أو قُتل رجعتم عن دينكم كفاراً كما كنتم ، وتركتم جهاد عدوكم وكتابَ ربكم وما خلّف نبيُّه من دينه معكم وعندكم وقد بين لكم فيما جاءكم به عنّى أنه ميت عنكم ومفارق لكم ؟ « ومن يَنقلبْ على عَقِبيه » أى يرجع عن دينه « فلن يَضُرَّ الله شيئا » أى لن ينقص ذلك عزَّ الله ولا مُلكه ولا سلطانه ولا قدرته « وسيَجْزى الله الشاكرين » أى من أطاعه وعمل بأمره .

« وما كان لنفسٍ أن تموتَ إلا بإذنِ الله كتابا مؤجّلاً ومن يُرِدْ ثوابَ

الدنيا نؤته منها ومن يُرِدْ ثوابَ الآخرةِ نُؤتِه منها وسنجزى الشاكرين »
أى من أراد الدنيا خاصة أتاه منها ما كُتب له وماله فى الآخرة من نصيب ،
ومن أراد الآخرة وسعَى لها سَعْيها وهو مؤمن آتاه منها ما وعد به مع ما يُجزى
عليه فى دنياه من رزقه المقدَّر له ، وذلك هو جزاء الشاكرين أى المتقين .

« وكأيِّنْ من نبيٍّ قاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كثيرٌ فما وَهَنُوا لِمَا أصابَهُمْ
فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا » أى وكم من نبي أصابه القتلُ ومعه
جماعات من أنصاره ، فما وهنوا لفقد نبيهم وما ضعفوا عن عدوهم وما استكانوا
لما أصابهم فى الجهاد عن الله وعن دينهم ، وذلك هو الصبر « والله يحب
الصابرين » .

« وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إلاَّ أنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي
أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ » أى فقولوا مثل
ما قالوا ، واعلموا أن ذلك بذنوب منكم فاستغفروه كما استغفروا ، وامضوا على
دينكم كما مضوا على دينهم ولا ترتدّوا على أعقابكم راجعين ، وسَلُوه كما سألوه
أن يثبت أقدامكم وينصركم على القوم الكافرين . فكل هذا من قولهم كان
وقد قُتل نبيهم ، ولم يفعلوا كما فعلتم .

« فآتاهم الله ثوابَ الدنيا » بالظهور على عدوِّهم « وحُسْن ثواب الآخرة »
الذى به وعدهم « والله يحب المحسنين » .

« يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردُّوكم على أعقابكم
فتنقلبوا خاسرين » أى عن عدوكم فتذهب دنياكم وآخرتكم .

« بل الله مَوْلاَكُمْ وهو خيرُ الناصرين » فإن كان ما تقولون بألسنتكم
صِدْقاً عن قلوبكم فاعتصموا به ولا تنتصروا بغيره ، ولا ترجعوا كفاراً على
أعقابكم مرتدّين عن دينه .

« سَنُلْقِى فى قلوب الذين كفروا الرعبَ » الذى كنت به أنصركم عليهم جزاء لهم بما أشركوا بى ، فلا تظنوا أن لهم عاقبة نصر أو ظهورًا عليكم ما اعتصمتم بى واتبعتم أمرى ، وإنما أصابكم منهم ما أصابكم بذنوب قدمتموها لأنفسكم خالفتم بها أمرى وعصيتم فيها نبىّ .

« ولقد صدَقَكم الله وعده إذ تحسُّونَهم بإذنه حتى إذا فَشِلْتُمْ وتنازَعتم فى الأمر وعَصَيْتُم من بعدِ ما أراكم ما تُحِبُّون » أى لقد وفَّيْت لكم ما وعدتكم من النصر على عدوكم إذ تَحُسُّونهم بالسيوف أى تستأصلونهم قتلًا بإذنى وتسليطى أيديكم عليهم وكَفِّى أيديهم عنكم « حتى إذا فَشِلتم » أى تخاذلتم « وتنازعتم فى الأمر » اختلفتم فيه « وعَصَيْتم » بترك أمر نبيكم ، يعنى الرُّماة الذين عُهِد إليهم ألا يفارقوا مكانهم فخالفوا أمره حتى أُتِى المسلمون من قِبَلهم « من بعْدِ ما أراكم ما تُحِبُّونَ » أى الفتح لا شك فيه وهزيمة القوم من نسائهم وأموالهم « منكم من يريدُ الدنيا » أى النهب « ومنكم من يريد الآخرة » أى الذين جاهدوا فى الله ولم يخالفوا إلى ما نُهوا عنه « ثم صَرَفكم عنهم ليَبْتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضلٍ على المؤمنين » أى أنه سبحانه وإن عاقب من يشاء من عباده ببعض الذنوب فى عاجل الدنيا أدبًا وموعظةً ، فإنه غيرُ مستوفٍ كلَّ ماله فيهم من الحق بما أصابوا من معصية ، فضلًا من الله ورحمة .

ثم أنَّبهم بالفرار عن نبيهم وهو يدعوهم ولا يَعْطفون عليه فقال : « إذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُم فِى أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ » أى كربًا بعد كرب بقتل من قُتل من إخوانكم وعلوّ عدوكم عليكم وما وقع فى أنفسكم حين سمعتم أنه قُتِل نبيكم « لكيلا تحزَنوا على ما فاتكم » من الظهور على عدوكم بعد أن رأيتموه بأعينكم « ولا ما أصابكم » من قتل

إخوانكم بما فرّجت عنكم من الكرب بوقاية نبيكم وكشف كرب الشيطان في الصراخ بقتله بينكم ، فكان هذا هو الذى فرج الله به عنهم ماتابع عليهم من الغم ، فلما رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حيًّا بين أظهرهم هان عليهم ما فاتهم من القوم بعد الظهور عليهم والمصيبة التى أصابتهم فيمن قتل منهم .

ثم قال تعالى بعد آيات ذكَر فيها ماذكر من قصة أُحد « وما أصابكم يومَ التقى الجمعانِ فبإذن الله وليَعْلَمَ المؤمنين * وليعلم الذين نافقُوا وقيل لهم تعالَوْا قاتِلوُا في سبيل اللهِ أو ادفَعُوا ، قالوا : لو نَعْلَمُ قِتَالاً لاتَّبعْنَاكم » يعنى عبدَ الله بن أُبىّ والراجعين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سار إلى عدوّه من المشركين . يقول الله تبارك وتعالى : « هم لِلْكُفْرِ يومئذٍ أقْرَبُ منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون * الذين قالوا لإخوانهم وقَعَدُوا لو أطاعونا ما قُتِلوُا قل فادرأُوا عن أنفسِكمُ المَوْتَ إن كنتم صادقين » .

ثم قال لنبيه عليه السلام يرغّب المؤمنين فى الجهاد ويهون عليهم القتل : « ولاَ تحْسَبَنَّ الذين قُتِلُوا فى سبيل الله أمواتًا بل أحياء عند ربهم يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لم يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ ألاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولاَ هُمْ يَحْزَنُونَ » .

قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما أُصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طَيرٍ خُضْرٍ تَرِدُ أنهارَ الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب فى ظل العرش ، فلما وجدوا طِيبَ مَشْرَبهم ومأكلهم وحُسْن مَقيلهم قالوا : يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا لئلا يزهدوا فى الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب » قال الله تبارك وتعالى : فأنا أبلغهم عنكم . فأنزل الله عزّ ذكره على رسوله صلى الله عليه

وسلم هذه الآيات : « ولاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ » إلى آخرها .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الشهداء على بارقِ نهر بباب الجنة في قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشيًا » .

وسئل عبد الله بن مسعود عن هؤلاء الآيات : « ولاَ تَحْسَبَنَّ الذِينَ قُتِلُوا في سبيل الله أمواتًا » فقال : أمّا إنّا قد سألنا عنها فقيل لنا : إنه لمّا أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طَيْرٍ خُضْرٍ تَرِدُ أنهارَ الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب في ظل العرش فيطّلع الله إليهم اطلاعةً ، فيقول : يا عبادى ما تشتهون فأزيدكم ؟ فيقولون ربّنا لا فوق ما أعطيتنا : الجنة نأكل منها حيث شئنا . ثم يطلع الله إليهم اطلاعة فيقول يا عبادى ما تشتهون فأزيدكم ؟ فيقولون : ربنا لا فوق ما أعطيتنا الجنة نأكل منها حيث نشاء ، إلا أنا نحب أن تَردّ أرواحنا في أجسادنا ثم تردنا إلى الدنيا فنقاتل فيك حتى نُقتل فيك مرة أخرى » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجابر بن عبد الله : « ألا أبشّرك يا جابر ؟ قال : قلت : بلى يا رسول الله . قال : إن أباك حيث أصيب بأحد أحياه الله ، ثم قال : ما تحبُّ يا عبد الله بن عمرو أن أفعل بك ؟ قال : أىْ ربٌّ أحبّ أن تردّنى إلى الدنيا فأقاتل فيك فأقتل مرةً أخرى » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسى بيده ما من مؤمن يفارق الدنيا يحب أن يرجع إليها ساعةً من النهار وأن له الدنيا وما فيها ، إلا الشهيد فإنه يحب أن يُردّ إلى الدنيا فيقاتل في الله فيقتل مرة أخرى » .

* * *

واستشهد من المسلمين يوم أحد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار خمسة وستون رجلًا ، أربعة من المهاجرين وسائرهم من الأنصار وقتل الله من المشركين يومئذ اثنين وعشرين رجلا .

[ما قيل من الشعر فى أحد]

وكان مما قيل من الشعر فى يوم أحد قول كعب بن مالك الأنصارى رحمه الله :

ألا هل أتى غسان عنا ودونهم	من الأرض خرق سيره متتعتع (١)
صحار وأعلام كأن قتامها	من البعد نقع هامد متقطع (٢)
تظل به البزل العراميس رزحا	ويخلو به غيث السنين فيمرع (٣)
به جيف الحسرى يلوح صليبها	كما لاح كتان التجار الموضع (٤)
به العين والآرام يمشين خلفة	وبيض نعام قيضه يتقلع (٥)
مجالدنا عن ديننا كل فخمة	مذربة فيها القوانس تلمع (٦)
وكل صموت فى الصوان كأنها	إذا لبست نهى من الماء مترع (٧)
ولكن ببدر سائلوا من لقيتم	من الناس والأنباء بالغيب تنفع
وإنا بأرض الخوف لو كان أهلها	سوانا لقد أجلوا بليل فأقشعوا
إذا جاء منا راكب كان قوله	أعدوا لما يزجى ابن حرب ويجمع (٨)

(١) الخرق : الفلاة الواسعة. والمتتعتع : العنيف . وتروى : متنعنع : أى مضطرب .

(٢) الأعلام : الجبال . والقتام : الغبار . والنقع : الغبار أيضاً .

(٣) البزل : جمع بازل ، وهى الناقة التى تبلغ التاسعة . والعراميس : الصلبة . والرزح : المعيية .

(٤) الصليب : ودك العظام . والموضع : المبسوط .

(٥) العين : بقر الوحش ، والآرام جمع رئم ، وهو الظبى الخالص البياض . وخلفة : قطعة وراء قطعة . والقيض : قشور البيض . ويتقلع : يتشقق .

(٦) مذربة : محددة . والقوانس : جمع قونس وهى بيضة السلاح .

(٧) كل صموت . أراد به الدرع ، جعلها صموتا لشدة نسجها وإحكام صنعتها . والنهى : الغدير . والمترع : الملىء .

(٨) يزجى : يسوق .

ولمّا ابتغَوْا بالعِرض قال سَراتُنا … علامَ إذَا لم يُمْنع العرض نَزْرعُ [١]

وفينا رسولُ الله نَتْبع أمرَه … إذا قال فينا القولَ لا نتطلّعُ [٢]

تدلّى عليه الروح من عندِ ربه … ينزّل من جوّ السماء ويُرفَعُ

نشاوره فيما نريد وقَصْدنا [٣] … إذا ما اشتهى أنا نطيع ونسمعُ

وقال رسول الله لما بدَوْا لنا … ذَرُوا عنكمُ هَوْلَ المنيّات واطمعوا

ولكن خذوا أسيافكم وتوكلوا … على الله إن الأمر لله أجمعُ

وكونوا كمن يَشْرِى الحياة تقرُّبًا … إلى مَلِك يُحيا لديْه ويُرْجَعُ [٤]

فسِرْنا إليهم جهرةً في رحالهِمْ … ضُحَيًّا علينا البيض لا نتخشّعُ

بملمومةٍ فيها السَّنَوّر والقنا … إذا ضربوا أقدامَها لا تَرَوّعُ [٥]

فجئنا إلى موجٍ من البحر وَسْطه … أحابيش منهم حاسرٌ ومقنّعُ

ثلاثة آلافٍ ونحن نَصِيّة … ثلاث مِيين إن كَثُرْنا وأربعُ [٦]

نغاورهم تجرى المنيّة بيننا … نُشارعهم حوضَ المنايا ونَشْرَعُ [٧]

تهادَى قِسيُّ النّبع فينا وفيهمُ … وما هو إلا اليثربيّ المقطّعُ [٨]

ومنجوفةٌ حَرَميّة صاعِدية … يذَرُّ عليها السّمّ ساعةَ تُصْنَعُ [٩]

---

(١) العرض : سفح الجبل ، وهو جبل أحد .

(٢) لا نتطلع : لا ننظر إلى غيره . ويروى : لا نتظلم : أى لا نميل عنه .

(٣) ابن هشام : وقصرنا . أى : غايتنا .

(٤) ذكر ابن هشام هذا البيت قبل : ولكن خذوا أسيافكم .

(٥) الملمومة : الكتيبة . والسنور : السلاح . وتروع : تفزع . ورواية ابن هشام . لا تورع .

(٦) النصية . الخيار من القوم .

(٧) نغاورهم : نغير عليهم . ونشارعهم : نشاربهم . ونشرع : نشرب .

(٨) النبع : شجر للقسي والسهام ينبت في قلة الجبل . واليثربي : الوتر المنسوب الى يثرب .

(٩) المنجوفة : السهام . والحرمية : المنسوبة الى الحرم . والصاعدية : المنسوبة الى صاعد ، رجل كان يصنعها .

وخيلٌ تراها بالفضاء كأنها جرادٌ صَبًا في قَرَّة يتريَّعُ (١)

فلما تلاقَيْنا ودارت بنا الرحَى وليس لأمرٍ حَمَّه الله مَدْفَعُ

ضربناهمُ حتى تركنا سَراتهمْ كأنهمُ بالقاع خُشْبٌ مُصَرَّعُ

لَدُنْ غُدْوةٍ حتى استفقنا عشيةً كأن ذَكاها (٢) حَرُّ نارٍ تَلَفَّعُ

وراحوا سِراعًا موجَعين كأنهم جَهامٌ هراقَتْ ماءه الريح مُقْلَعُ (٣)

ورُحْنا وأُخْرانا بِطاءٌ كأننا أُسودٌ على لحمٍ ببيشة ظُلَّعُ (٤)

فنِلْنا ونال القومُ منا وربما فعلنا ولكن ما لدى الله واسع (٥)

ودارت رحانا واستدارت رحاهمُ وقد جعلوا كلٌّ من الشر يَشْبعُ

ونحن أُناسٌ لا نرى القتلَ سُبَّةً على كل من يحمى الذِّمار ويَمنعُ

جِلادٌ على رَيْب الحوادث لا تُرَى على هالكٍ عينٌ لنا الدهرَ تَدْمع (٦)

بنو الحرب لا نَعْيا بشيء نقوله ولا نحن مما جرَّت الحربُ نَجْزَعُ

بنو الحرب إن نظفر فلسنا بفُحَّشٍ ولا نحن من أظفارها نتوجَّعُ

* * *

وقال حسان بن ثابت يجيب عبدَ الله بن الزِّبَعْرَى عن كلمة له على رويّ

---

(١) الصبا : ريح شرقية . والقرة : الليلة الباردة . ويتريع : يذهب ويجيء .

(٢) ابن هشام : ذكانا : أي حرارتنا في الحرب . ولعله أراد هنا أن يعيد الضمير الى الحرب .

(٣) ابن هشام : موجفين . والجهام : السحاب الرقيق . وهراقت : صبت .

(٤) بيشة : موضع كثير الأسود .

(٥) ابن هشام : أوسع .

(٦) ابن هشام : . لا ارى على هالك عينا لنا الدهر تدمع

وما هنا أصح .

هذا الجواب يفخر فيها بيوم أحد ، وكانتا الكلمتين ينكرها بعض أهل العلم لمن نسبت إليهما :

أشاقتك من أم الوليد رُبوعُ ... بَلاقِع ما من أهلهن جميعُ (١)

عفاهن صَيْفِيُّ الرياح وواكفٌ ... من الدَّلْو رَجَّاف السحاب هَمُوعُ (٢)

فلم يبق إلا مَوْقِد النار حوله ... رواكدُ أمثال الحمام كُنُوعُ (٣)

فَدَعْ ذِكْر دارٍ بُدِّدَتْ بين أهلها ... نوًى لمتينات الحبال قطوعُ

وقُلْ إن يكن يومٌ بأحْد يَعُدُّه ... سفيه فإن الحق سوف يشيعُ

فقد صابرَتْ فيه بنو الأوس كلُّهم ... وكان لهم ذِكْرٌ هناك رفيعُ

وحامَى بنو النجار فيه وصابَرُوا ... وما كان منهم فى اللقاء جَزُوعُ

أمام رسول الله لا يَخْذُلونه ... لهم ناصرٌ من ربِّهم وشفيعُ

وفَوْا إذ كفرتُمْ يا سَخِينُ بربكم ... ولا يستوى عَبْدٌ وَفَى ومُضِيعُ (٤)

بأيديهمُ بيضٌ إذا حَمِى الوغَى ... فلا بد أن يودِى بهن صريعُ (٥)

كما غادرَتْ فى النَّقْع عُتبة ثاوياً ... وسَعْدًا صريعًا والوشيجُ شُرُوعُ (٦)

وقد غادرَتْ تحت العَجاجة مُسْندًا ... أُبَيًّا وقد بلَّ القميصَ نَجِيعُ (٧)

بكفِّ رسول الله حيث تنصَّبتْ ... على القوم مما قد يُثِرْن نُقُوعُ (٨)

---

(١) البلاقع : الخاوية .

(٢) الرجاف : المتحرك . وفى ابن هشام : رحاف . ومعناها : متحرك مصوت . والهموع : الممطر .

(٣) الكنوع : اللاصقة بالأرض .

(٤) سخين : أصلها سخينة ، وهو لقب لقريش فى الجاهلية .

(٥) ابن هشام : فلا بد أن يردى لمن صريع . ويودى : يهلك .

(٦) الوشيج : الرماح . وأصله شجر تصنع منه الرماح .

(٧) العجاجة : غبار الحرب . والنجيع : الدم .

(٨) النقوع : جمع نقع وهو الغبار .

أولئك قومٌ سادةٌ من فروعكم ... وفي كل قومٍ سادةٌ وفروعُ
بهن نُعِزُّ اللهَ حتى يُعِزَّنا ... وإنْ كان أمرٌ يا سَخِينَ فَظِيعُ
فلا تذكروا قتلى وحمزةُ فيهم ... قتيــلٌ ثَوى لله وهو مطيعُ
فإن جِنَان الخلدِ مَنزِلةٌ له ... وأمرُ الذى يقضى الأمورَ سَرِيعُ
وقتلاكمُ فى النارِ أفضل رِزْقهم ... حَمِيمٌ معًا فى جَوْفها وضَرِيعُ

* * *

وقال كعب بن مالك يجيب ابنَ الزِّبَعْرَى وعمرو بن العاص عن كلمتين قالاها فى ذلك :

أَبلِغ قريشًا وخير القولِ أَصْدَقُهُ ... والصدق عند ذوى الألباب مقبولُ
أنْ قد قَتَلْنا بقتلانا سَرَاتَكمُ ... أهلَ اللواء ففيما يَكْثُر القِيلُ
ويومَ بدرٍ لقيناكم لنا مَدَدٌ ... فيه مع النصر ميكالٌ وجبريلُ
إنْ تقتلونا فدِين الحق فِطْرَتنا ... والقتلُ فى الحق عند الله تفضيلُ
وإن تروا أمرَنا فى رأيكم سفهًا ... فرأيُ من خالف لإسلامَ تضليلُ
فلا تَمَنَّوا لِقـــاحَ الحرب واقتعِدوا
إنّ أخا الحرب أَصْدَى اللونِ مشغولُ(١)
إنّا بنو الحربِ نَمْرِيها ونَنْتِجُها ... وعندنا لذوى الأضغانِ تنكيلُ(٢)
إنْ ينجُ منها ابنُ حرب بعد ما بلغت ... منه التراقِي وأمر الله مفعولُ
فقد أفادت له حِلْمًا وموعظةً ... لمن يكون له لُبٌّ ومعقولُ
ولو هبطتم ببطن السيل كافحكم ... ضربٌ بشاكلة البطحاء تَرْعِيلُ(٣)

---

(١) لقاح الحرب : اشتدادها . وأصدى اللون : يضرب لونه بين السواد والحمرة .
(٢) نمريها : نحلبها . وننتجها : نستولدها .
(٣) الشاكلة : الناحية . والترعيل : الطعن الشديد .

تلقاكم عُصَبٌ حولَ النبىّ لها[1] ... مما يُعِدُّون للهَيْجا سرابيلُ

من جِذْم غسّانَ مُسْترخٍ حمائلهم ... لا جُبَنَاء ولا مِيلٌ مَعَازِيلُ[2]

يَمْشُون تحت عَمايَاتِ القتالِ كما ... يمشى المصاعبة الأُدْم المراسيلُ[3]

أو مثلَ مَشْىَ أسود الطل ألثقها ... يومٌ رذاذٌ من الجَوْزاء مشمولُ[4]

فى كل سابغةٍ كالنِهْى محكمةٍ ... قِيامُها فَلِجٌ كالسيف بُهْلولُ[5]

تَرُدُّ حَدَّ قِرَان النَّبْل خاسئةً ... ويَرْجِع السيفُ عنها وهو مَفْلولُ[6]

وقد قذفتم بسَلْع عن ظهوركم ... وللحياة ودفع الموت تأجيلُ[7]

ما زال فى القوم وِتْرٌ منكمُ أبدًا ... تعفو السَّلاَمُ عليه وهو مطلولُ[8]

* * *

وقال كعب فى يوم أُحد أيضاً من قصيدة يفخر فيها بقومه :

فإن كنت عن شأننا سائلًا[9] ... فَسَلْ عنه ذا العلم ممن يلينا

بنا كيف نفعل إن قلّصتْ ... عوانًا ضَرُوساً عَضُوضًا حَجُونا[10]

---

(١) ابن هشام : لهم .

(٢) الميل : جمع أميل وهو الجبان . والمعازيل : جمع معزال وهو من لا رمح معه .

(٣) المصاعبة : الفحول من الإبل . والأدم : البيض الواضحة . والمراسيل المتتابعة .

(٤) ألثقها : بلها . والرذاذ : الضعيف من المطر . والمشمول : الذى هبت به ريح الشمال .

(٥) السابغة : الدرع . والنهى : الغدير . والفلج : من الفلاح . والبهلول : السيد الجامع لكل خير .

(٦) قران النبل : الموالاة بين سهمين سهمين . و فى ابن هشام : قرام النبل . وما هنا أصح .

(٧) سلع : جبل بالمدينة .

(٨) تعفو : تبلى وتدرس . والسلام : جمع سلمة . وهى الحجارة .

(٩) ابن هشام : جاهلا .

(١٠) قلصت : يريد الحرب . أى اشتدت . والعوان : الحرب التى قوتل فيها مرة . والضروس : الشديدة . والحجون : المعوجة .

ألسنا نشدّ عليها العصاب[1]　　حتى تدرّ وحتى تَلِينَا

ويوم له رهَج[2] دائم　　شديد التهاول حامِى الأرِينا[3]

طويل شديد أوَارِ القتال　　تَنفِى حوافزُه المُقْرِفينا[4]

تخال الكُماةَ بأعراضه　　ثَمالَى على لذةٍ مُنْزِفينا[5]

تَعاوَر أيمانُهم بينهم　　كؤوسَ المنايا بحدِّ الظُّبِينَا

شهدنا وكنا[6] أولى بأسِهِ　　وتحت العصابة والمُعْلِمينَا

بخُرْس الحَسِيسِ حِسَانٍ رِوَاء　　وبُصْرِيَّة قد أجْمَن الجفونا[7]

فما يَنْفللن وما ينحنين　　وما يَنْتَهِين إذا ما نُهِينَا

كبَرْق الخريف بأيدى الكُمَاةِ　　يفجّعن بالظِّلِّ هامًا سُكونًا[8]

وعلّمنا الضربَ آباؤنا　　وسوف نعلِّم أيضاً بنينا

جِلادَ الكُماة وبَذْل التلاد　　عن جُلِّ أحسابنا ما بقينا

إذا مرّ قَرْنٌ كفى نسلَه　　وأورثه[9] بعده آخرينا

نَشِبّ وتَهلِك آباؤنا　　وبينا نُرَبِّى بنينا فَنِينا

* * *

---

(١) العصاب : ما تشد به ضرع الناقة لتدر .

(٢) الرهج : الغبار . والأرين : أصلها من أرنه بمعنى عضه .

(٣) كذا فى ط : والحافزة : التى تحفز برجلها أى تدفع بها ، لأنه مقلوب الحافزة . وفى ت و ابن هشام : حوافزه . والمقرف : الهجين الأصل .

(٤) منزفينا : سكارى .

(٥) ابن هشام : فكنا .

(٦) خرس الحسيس : لا صوت لهن . والرواء : التى رويت من الدم . وبصرية : منسوبة إلى بصرى . وأجمن : مللن وكرهن .

(٧) الكماة : الشجعان . ويفجعن : يضربن . والهام : الرءوس .

(٨) التلاد : المال .

(٩) ت : وأورثه .

وقال حسان بن ثابت يبكي حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه :

أتعرف الدارَ عفَا رَسْمهَا ... بعدَكَ صَوْبُ المسْبِل الهاطلِ [١]

بين السَّراديح وأدْمانةٍ ... فمَدْفع الروحاء في حائلِ [٢]

سألتها عن ذاك فاستعجمت ... لم تَدْرِ ما مَرْجوعةُ السائلِ [٣]

دَعْ عنك داراً قد عفا رَسْمها ... وابك على حمزةَ ذي النائلِ [٤]

المالىءُ الشِّيزَى إذا أعْصفَتْ ... غبراء في ذي الشَّبِم الماحِلِ [٥]

والتاركُ القِرْنَ لذي لِبْدةٍ ... يَعْثُرُ في ذي الْخُرص الذابلِ [٦]

واللابس الخيلَ إذا أحجَمَتْ ... كالليث في غابته الباسلِ

أبيض في الذِّرْوة من هاشمٍ ... لم يَمْرَ دُونَ الحق بالباطلِ

مات شهيداً بين أسيافكم ... شُلَّتْ يدا وحشيَّ من قاتلِ

أيّ امرئٍ غادَر في ألَّةٍ ... مطرورة مارِنَة العاملِ [٧]

أظلمت الأرضُ لفقدانهِ ... واسودَّ نورُ القمرِ الناصلِ [٨]

---

(١) المسبل : المطر الهاطل .

(٢) السراديح : جمع سردح وهي الأرض المستوية . وأدمانة ومدفع الروحاء : موضعان . وحائل : واد في جبلي طيء وفي ت : في الحائل .

(٣) استعجمت : لم تجب .

(٤) النائل : العطاء .

(٥) الشيزى : جفان كبيرة من خشب . وأعصفت : اشتدت . والغبراء : الرياح . والشبم : البرد . والماحل : المجدب . يريد في يوم البرد والجوع .

(٦) ذو لبدة : كنية الأسد . وفي ابن هشام : لدى بالدال المهملة . ولعلها محرفة . والخرص : الرمح . والذابل : الرقيق .

(٧) رواية البيت في الديوان ص ٣٣١ :

إن امرءا غودر في آلة ... مطرورة مارنة العامل

والألة : الطعنة بالحربة والمطرورة : المحددة . والمارنة : اللينة .

(٨) الناصل : الخارج من السحاب .

صلّى عليه الله في جنةٍ عاليةٍ مُكرَّمةِ الداخلِ

كنا نرى حمزة حرزاً لنا من كلّ أمرٍ يأتنا نازلِ

وكان في الإسلام ذا تُدْرَأ يكفيك فَقْدَ القاعدِ الخاذلِ[1]

لا تفرحي يا هند واستحلبي دمعاً وأذرِي عَبْرة الثاكلِ

وابكي على عُتْبة إذ قَطَّه بالسيف تحت الرَّهَج الجائلِ[2]

إذ خرّ في مشيخةٍ منكمُ من كل عاتٍ قلبُه جاهلِ

أرْداهمُ حمزةُ في أُسرةٍ يمشون تحت الحَلَق الفاضلِ[3]

غداةَ جبريلُ وزيرٌ له نعم وزير الفارسِ الحاملِ

* * *

وقال عبد الله بن رواحة يبكي حمزة، وتروى أيضاً لكعب بن مالك رضي الله عنهم أجمعين :

بكت عيني وحُقّ لها بُكاها وما يُغْني البكاء ولا العويلُ

على أسَد الإله غداةَ قالوا أحمزةُ ذاكم الرجلُ القتيلُ

أصيب المسلمون به جميعاً هناك وقد أُصيب به الرسولُ

أبا يَعْلَى لك الأركان هُدَّتْ وأنت الماجدُ البَرُّ الوَصُولُ

عليك سلام ربك في جِنَانٍ مُخالطها نعيمٌ لا يزولُ[4]

وقالت صفية بنت عبد المطلب تبكي أخاها حمزة رضي الله عنهما :

أسائلةٌ أصحابَ أُحُد مخافةً بناتُ أبي من أعْجَمٍ وخبيرِ

---

(١) ذو تدرأ : مدافع ذو عز ومنعة . ورواية الديوان : لم يك بالواني ولا الخاذل .

(٢) قطه : قطعه . والرهج : الغبار . والجائل : المتحرك .

(٣) أرداهم : أهلكهم. وفي أسرة: أي في قرابة . والحلق : الدروع . والفاضل: السابغ.

(٤) أتم ابن هشام القصيدة ٢ / ١٦٢ .

فقال الخبير : إن حمزة قد ثَوى ... وزير رسولِ الله خير وزيرِ

دعاه الإلهُ الحق ذو العرشِ دعوةً ... إلى جنةٍ يحيا بها وسرورِ

فذلك ما كنا نرجّي ونرتجى ... لحمزة يومَ الحشر خير مصيرِ

فو الله ما أنساك ما هبّت الصَّبا ... بكاء وحُزنا محضرِى ومَسيرِى

على أسَد الله الذى كان مِدْرهًا[(١)] ... يذودُ عن الإسلام كلَّ كفورِ

فياليت شِلوِى[(٢)] عند ذاك وأعظمى ... لدَى أضبُع تعتادنى ونسورِ

أقول وقد أعْلى[(٣)] النعىُّ عَشيرتى ... جزَى الله خيراً من أخ ونصيرِ

* * *

وقالت نُعْم امرأة شَمَّاس بن عثمان تبكى زوجها شماسًا وأصيب يوم أُحد :

ياعين جودِى بفيضٍ غير إبساسٍ[(٤)] ... على كريم من الفتيان لَبّاسِ

صعب البديهة ميمون نقيبته ... حَمّال ألوية ركَّابَ أفراسِ

أقول لما أتى الناعِى له جزَعا ... أوْدَى الجوادُ وأودَى المطعِم الكاسِى

وقلت لما خلَتْ منه مجالسه ... لا يُبْعِدُ الله منّا قُرْبَ شمّاسِ

فأجابها أخوها يعزيها فقال :

اقْنَى[(٥)] حياءكِ فى سِترٍ وفى كرم ... فإنما كان شمّاسٌ من الناسِ

لا تقتلى النفسَ إذ حانت منيّته ... فى طاعةِ الله يومَ الرَّوع والباسِ

قد كان حمزةُ ليثَ الله فاصطبرى ... فذاقَ يومئذٍ من كأسِ شمّاسِ

* * *

---

(١) المدره : المدافع المحامى .

(٢) شلوى : جسدى .

(٣) ابن هشام : أعلى .

(٤) الإبساس : التكلف والجهد .

(٥) اقنى حياءك : احفظيه .

وقالت هند بنت عُتْبة حين انصرف المشركون عن أُحد :

رجعتُ وفي نفسي بلابلُ جمّةٌ … وقد فاتني بعضُ الذي كان مَطْلَبي

من أصحاب بدر من قريش وغيرهم … بني هاشم منهم ومن آل يثربِ

ولكنني قد نِلْتُ شيئاً ولم يكن … كما كنت أرجو في مَسِيرِي ومَرْكَبي

وهذه هند أم معاوية بن أبي سفيان ، وكانت امرأة فيها مكارة وذكورة ولها نفس وأنفة ، وكان المسلمون قد أصابوا يومَ بدر أباها عُتبة وعمها شَيْبة وأخاها الوليد ، فأصابها من ذلك ما يصيب النفوس الشهمة والقلوب الكافرة ، فخرجت إلى أُحُد مع زوجها أبي سفيان تبتغي الانتصار وتطلب الأوتار ، فهذا قولها ، يرحمها الله ، والوِتْر يُقلقها والكفر يخنقها والحزن يُحْرِقها والشيطان يُنْطِقها .

ثم إن الله سبحانه هداها إلى الإسلام وأَخَذَ بحُجْزتها عن سواء النار ، فصَلُحت حالها وتبدلت أقوالُها ، حتى قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قالت له : والله يا رسول الله ما كان على الأرض أهلُ خِبَاء أحبَّ إلىَّ أن يَذِلوا من أهل خبائك ، وما أصبح اليوم على الأرض من خباء أحبَّ إلىَّ أن يعزّوا من أهل خبائك . أو نحو هذا من القول .

فالحمد لله الذي هدانا برسوله أجمعين ، وإياه سبحانه نسأل أن يميتنا على خير ما هدانا إليه ، لا مبدّلين ولا مغيرين .

غدر عضل والقارة بأصحاب رسول الله

صلى الله عليه وسلم

وقَدِم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أحد رهطٌ من عَضَل والقارة، وهم بنو الهون بن خُزَيمة بن مُدْرِكة، فقالوا له: يارسول الله إنّ فينا إسلاماً فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا فى الدين ويقرئوننا القرآن ويعلموننا شرائع الإسلام.

فبعث معهم ستة من أصحابه: مَرْثَد بن أبى مرثد الغَنَوىّ وأمّره عليهم وخالد بن البُكَيْر، وعاصم بن ثابت بن أبى الأقلح، وخُبيب بن عَدِىّ، وزيد ابن الدَّثِنة، وعبدالله بن طارق.

فخرجوا حتى إذا كانوا على الرجيع ماء لهذيل بناحية الحجاز من صدر الهَدْأة[1] غدَروا بهم، فاستصرخوا عليهم هُذَيْلا فلم يُرَع القومَ وهم فى رِحالهم إلا الرجالُ بأيديهم السيوف قد غَشُوهم، فأخذوا أسيافهم ليقاتلوا القومَ فقالوا لهم: إنا والله ما نريد قتالكم، ولكنا نريد أن نصيب بكم شيئاً من أهل مكة، ولكم عهدُ الله وميثاقه أن لا نقتلكم.

فأما مَرْثَد وخالد وعاصم فقالوا: والله لا نقبل من مشركٍ عهدا ولا عَقْداً أبدا. وقال عاصم:

ما عِلّتى وأنا جَلْدٌ نابِلُ والقوسُ فيها وَتَرٌ عُنابِلُ[2]

---

(١) الهدأة كما قال ياقوت فى معجم البلدان: موضع بين عسفان ومكة. وفى الأصل: الهدة. وهو موضع بين مكة والطائف. وما أثبته عن ابن هشام والطبرى.

(٢) الجلد: القوى. والنابل: صاحب النبل. والعنابل: الغليظ.

تزِلُّ عن صفحتها المَعَابِلُ الموتُ حَقٌّ والحياة باطلُ[1]

وكل ما حَمَّ الإلهُ نازلُ بالمرء والمرء إليه آيلُ

إن لم أقاتلكم فأمّى هابِلُ

ثم قاتل القومَ حتى قُتل وقتل صاحباه رحمهم الله .

فلما قُتل عاصم أرادت هُذيل أخْذ رأسه ليبيعوه من سُلافة بنت سعد ابن شُهَيد بمكة ، وكانت حين أصابَ ابنيها يومَ أحد نذرت لئن قَدرَتْ على رأس عاصم لتشربنّ فى قِحْفه الخمر ، فمنعه الدَّبْر[2] فقالوا : دَعُوه حتى يُمْسى فتذهب عنه فنأخذه . فبعث الله الوادى[3] فاحتملَ عاصماً فذهب به .

وقد كان عاصم أعطى الله عهداً ألاّ يمسّ مشركا وألاّ يمسّه مُشْرك أبدا ، تنجّساً !

فكان عمر بن الخطاب يقول : يحفظ الله العبدَ المؤمن ! كان عاصم نذَر ألاّ يمسّه مشرك ولا يمسّ مشركا أبدا فى حياته ، فمنعه الله بعد وفاته كما امتنع منه فى حياته .

* * *

وأما زيد بن الدَّثِنة وخُبَيْب بن عَدِىّ وعبد الله بن طارق فلانوا

---

(١) المعابل : جمع معبلة ، وهو نصل عريض طويل .

(٢) الدبر : النحل .

(٣) الوادى : السيل .

ورقّوا ورغبوا فى الحياة ، فأعطوا بأيديهم فأسروهم ، ثم خرجوا بهم إلى مكة ليبيعوهم بها ، حتى إذا كانوا بالظّهران[١] انتزع عبدُ الله بن طارق يده من القِرَان[٢] ثم أخذ سيفه واستأخر عنه القوم ، فرموه بالحجارة حتى قتلوه ، فقبره بالظهران .

وأما خُبيب بن عدىّ وزيد بن الدَّثِنة فقدموا بهما [مكة][٣] فابتاع خُبيباً حُجَيْرُ بن أبى إهاب التميمى لعُقْبة بن الحارث بن عامر بن نوفل ليقتله بأبيه .

وأما زيد بن الدَّثنة فابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلَف ، فبعث به مع مولًى له يقال له نسطاس إلى التّنعيم[٤] ، فأخرجوه من الحرم ليقتلوه ، واجتمع رهط من قريش منهم أبو سفيان بن حرب ، فقال له أبو سفيان لما قُدِّم ليُقتل : أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك تُضرب عنقه وأنك فى أهلك ؟ فقال : والله ما أحب أن محمداً الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكةٌ تؤذيه وأنى جالسٌ فى أهلى !

يقول أبو سُفيان : ما رأيتُ من الناس أحداً يحب أحداً كحُبِّ أصحابِ محمدٍ محمدًا !

ثم قتله ، رحمه الله ، نسطاسُ مولى صفوان .

قال ابن عُقْبة : وزعموا أنهم رموه بالنَّبْـل وأرادوا فتنته فلم يزده إلا إيماناً ويقيناً .

وأما خُبَيب بن عدىّ فجلس فى مكة فى بيت ماوِيّة مولاة حُجَيْر بن أبى إهاب ، فكانت تخبر بعد ما أسلمتْ ، قالت : لقد اطّلعتُ عليه يوماً

---

(١) الظهران : واد قرب مكة .
(٢) القران : الحبل .
(٣) من ابن هشام .
(٤) التنعيم : موضع بين مكة وسرف على فرسخين من مكة .

وإن فى يده لقطفاً من عنب مثل رأس الرجل يأكل منه ، ووالله ما أعلم فى أرض الله عنباً يؤكل !

قالت : وقال لى حين حضره القتلُ : ابعثى إلىّ بحديدة أتطهر بها للقتل ، فأعطيت الموسَى غلاماً من الحى فقلت : ادخل بها على هذا الرجل . قالت : فوالله ما هو إلا أن ولَّى الغلام بها إليه فقلت : ماذا صنعت ؟ أصاب والله الرجلُ ثأره فقتل[1] هذا الغلامَ ، فيكون رجلا برجل فلما ناوله الحديدة أخذها من يده ثم قال : لَعَمْرك ما خافت أمك غَدْرى حين بعثتك بهذه الحديدة إلىّ ؟ ! ثم خلَّى سبيله .

ثم خرجوا بخُبَيْب حتى إذا جاءوا به التنعيم ليصلبوه قال لهم : إن رأيتم أن تَدَعونى حتى أركع ركعتين فافعلوا . قالوا له دونك فاركع . فركع ركعتين وأتمّهما وأحسنهما ، ثم أقبل على القوم فقال : أمَا والله لولا تظنوا أنى إنما طوّلت جزعاً من القتل لاستكثرت من الصلاة .

فكان خبيب أول من سَنّ هاتين الركعتين عند القتل المسلمين[2] .

ثم رفعوه على خشبة ، فلما أوثقوه قال : اللهمّ قد بلّغنا رسالة رسولك فبلّغه الغداة ما يُصنع بنا . ثم قال : اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً ولا تغادر منهم أحداً . ثم قتلوه .

فكان معاوية بن أبى سفيان يقول : حضرت يومئذ فيمن حضره مع أبى

(١) ابن هشام : يقتل . وفى ابن كثير : يقتل .

(٢) قال السهيلى : وإنما صارت سنة لأنها فعلت فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم واستحسنت من صنيعه . وقد صلاها زيد بن حارثة أيضا فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم ، فى قصة أخرجها أبو بكر بن أبى خيثمة .

سفيان ، فلقد رأيته يلقيني في الأرض فَرَقًا من دعوة خُبَيْب ، وكانوا يقولون : إن الرجل إذا دُعِي عليه فاضطجع لجنبه زَلَّت عنه .

وكان ممن حضر يومئذ سعيد بن عامر بن حِذْيم الجمحيّ ، ثم أسلم بعد ذلك واستعمله عمر بن الخطاب رضي الله عنه على بعض الشام ، فكانت تصيبه غَشْيةٌ بين ظَهْرَي القوم ، فذكر ذلك لعمر وقيل : إن الرجل مصاب . فسأله عمر رحمه الله في قَدْمة قَدمها عليه فقال : يا سعيد ما هذا الذي يصيبك؟ قال : والله يا أمير المؤمنين ما بي من بأس ، ولكني كنت فيمن حضر خُبَيْبَ بن عدي حين قُتل وسمعتُ دعوته ، فوالله ما خطرتْ على قلبي وأنا في مجلس إلا وغُشِي عليّ . فزادته عند عمر خَيْرا .

وذكر ابن عُقْبة أن خبيب وزيداً قتلا في يوم واحد ، قال : وزعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو جالس في ذلك اليوم الذي قُتلا فيه : « وعليكما أو عليك السلام ، خبيب قتلتْه قريش » لا ندري أذكَر ابنَ الدَّثِنة معه أم لا .

وقال خُبيب رحمه الله لما اجتمع القومُ لصَلْبه :

لقد جمع الأحزابُ حَوْلِي وألّبوا ... قبائلَهم واستجمعوا كلَّ مَجْمَعِ

وقد جَمعوا أبناءهم ونساءهم ... وقُرِّبْتُ من جِذْعٍ طويلٍ ممنَّعِ

إلى الله أشكو غُرْبتي ثم كُرْبتي ... وما أرْصدَ الأحزابُ لي عند مَصْرعِي

فذا العرش صَبِّرْني على ما يراد بي ... فقد بضَعوا لحمي وقد ياسَ مَطْمعي[1]

---

(١) بضعوا : قطعوا . وياس : يئس .

وذلك في ذات الإله وإن يشأ
يبارك على أوصال شِلوٍ مُمَزَّعِ[1]
وقد خيَّروني الكفرَ والموتُ دونَه وقد هملت عيناى من غير مجزعِ
وما بي حِذارُ الموتِ إنِّي لميّت
ولكن حذارى جَحْمُ نارٍ ملفّعِ[2]
ولست أبالي حين أُقتَل مُسلماً
على أيِّ جَنبٍ كان في الله مَضْجَعي[3]
فلست بمُبدٍ للعدوّ تخشّعاً ولا جزَعاً إنّي إلى الله مَرْجِعي

* * *

وقال حسان بن ثابت يبكي خُبَيباً :

ياعينُ جُودي بدمعٍ منك منسكبِ
وابكِي خُبَيْبا مع الفتيان لم يؤُبِ
صقْراً توسّط في الأنصار مَنصِبُه
سَمْح السجيّة محضاً غير مُؤْتشِبِ[4]
قد هاج عَيْني على عِلّات عَبرتها
إذ قيل نُصَّ[5] إلى جِذعٍ من الخشَبِ

---

(١) الشلو : العضو والجسد من كل شيء . والممزع : المقطع .

(٢) الجحم : الموقد المضطرم : والملمع : المتلهب .

(٣) رواية البيت عند ابن كثير : فوالله ما أرجو إذا مت مسلما . . وفي ابن هشام : مَصْرعي .

(٤) المحض : الصريح النسب . والمؤتشب : المختلط .

(٥) نص : رفع وأسند .

يا أيها الراكبُ الغــادِى لِطِيَّتِه[١]

أبلغ إليكَ[٢] وعيداً ليس بالـكذبِ

بنى كُهَيْنَةَ إنّ الحرب قد لَقِحَت

مَحلوبُها الصــابُ إذ تمْرى لمحتَلِبِ[٣]

منهـا أسودُ بنى النّجـــار يقدمهم

شُهْب الأسنّة فى مُعْصَوْصب لجِبِ[٤]

وقال حسان أيضاً يهجو هذيلا :

لَعَمْرِى لقد شانَتْ هُذَيلَ بن مُدْرِك أحاديثُ كانت فى خُبَيْبٍ وعاصمِ

أحاديث لحِيـــان صلَوْا بقبيحها ولِحيـان جَرّامُون شَرَّ الجرائمِ

أناس هُمُ من قومهم فى صَميمهم بمنزلة الزِّمْعان دُبْرَ القوادمِ[٥]

هُمُ غَدروا يومَ الرَّجيع وأسلَمَتْ أمانتَهم ذا عفـةٍ ومَـكارمِ

رسولَ رسولِ الله غدْرًا ولم تـكن هُذَيل تَوَقَّى مُنْـكَرَاتِ المحارمِ

---

(١) الطيته : الغايته التى يمضى إليها . قال فى الأساس : « مضى لطيته . وبعدت عنا طيته ، وهى الجهة التى إليها يطوى البلاد »

(٢) ابن هشام : أبلغ لديك .

(٣) كهينة . كذا بالأصل . ورواية ابن هشام : كهينة . قال السهيلى : « جعل كهينة كأنه اسم علم لأمهم ، وهذا كما يقال : بنى صوطرى ، وبنى الفدى ، وبنى دردة . وهذا كله اسم لمن يسب وعبارة عن السفلة من الناس ، وكهينة من الكهنة وهى الصيرة ، وهذا كما قالوا : بنى الغبراء » الروض ٢ / ١٧٣ .
ورواية الديوان . بنى فكيهة . ولقحت الحرب : اشتدت . والصاب : شجر مر ، وتمرى : يدر لبنها .

(٤) المعصوصب : الجيش المجتمع . واللجب : ذو الجلبة وذلك يدل على كثرته .

(٥) الزمعان : جمع زمعة ، وهى هنة زائدة ، أو شبه أظفار الغنم فى الرسغ .
وفى ابن هشام : دبر القوادم .

فسوف يرون النصر يوماً عليهمُ

بقتل الذى يحميه دون الحرائم[١]

أبابيلُ دَبْرٍ شُمّسٍ دون لَحمه

حَمَتْ لحمَ شَهّـــادٍ عِظَامَ الملاحِمِ[٢]

لعــلّ هُذيلاً أن يروا بمصـــابه

مصـــارع قتـــلَى أو مُقاماً لمأتمِ

ويوقع فيهـــا وقعة ذات صَوْلة

يوافى بهـــا الركبانُ أهلَ المواسمِ

بأمر رسول الله إنّ رسوله

رأى رأى ذى حَزْم بلحْيان عالمِ

قُبَيّـــلة ليس الوفاء بهمهم

وإن ظُلموا لم يرفعوا كفّ ظالم

إذا الناسُ حلّوا بالفضـــاء رأيتهم

بمَجْرى مَسِيل الماء بين المَخارم[٣]

محلّهم دارُ البَوار ورأيهـــم

إذا نابهم أمرٌ كرأى البهـــائم

---

(١) الحرائم : الحرمات . أى دون أن تنتهك حرمته .

(٢) الأبابيل : الجماعات . والدبر : ذكور النحل . والشمس : الحامية . والملاحم : الحروب .

(٣) المخارم : مسايل الماء .

غزوة بئر معونة

وبعث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أصحابَ بئر مَعُونة فى صفَر على رأس أربعة أشهر من أُحُد .

وكان من حديثهم أن أبا براء مُلاَعِب الأسِنَّة ، واسمه عامر بن مالك ابن جعفر ، قدِم المدينةَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعرض عليه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الإسلامَ ودعاه إليه ، فلم يُسْلم ولم يَبْعُد من الإسلام ، وقال : يامحمد لو بعثتَ رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنى أخشى عليهم أهلَ نجد » . قال : أنا لهم جارٌ فابعثهم .

فبعث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المنذرَ بن عمرو أخا بنى ساعدة ، المُعْنِق ليموت[1] ، فى أربعين رجلا من أصحابه ، منهم الحارث بن الصِّمة ، وحَرام ابن مِلْحان ، وعروة بن أسماء بن الصَّلْت السُّلَمى ، ونافع بن بُدَيْل بن ورقاء وعامر بن فُهَيْرة ، فى رجال مسمَّين من خيار المسلمين .

فساروا حتى نزلوا بئر معونة وهى بين أرض بنى عامر وحَرّة بنى سُلَيم ، كلاَ البلدين منها قريب ، وهى إلى حَرّة بنى سُلَيم أقرب .

فلما نزلوها بعثوا حَرامَ بن مِلْحان بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عدو الله عامر بن الطُّفَيل ، فلما أتاه لم ينظر فى كتابه حتى عدا على الرجل

---

(١) أى المسرع إلى الشهادة .

فقتله ، ثم استصرخ عليهم بنى عامر فأبوا أن يجيبوه ، وقالوا : لن نَخْفِر أبا بَراء ، وقد عقد لهم عَقْداً وجوارا .

فاستصرخ عليهم قبائل من [بنى][1] سُلَيْم : عُصَيَّة ورِعْلاً وذَكْوان ، فأجابوه إلى ذلك ، فخرجوا حتى غَشُوا القومَ فأحاطوا بهم فى رحالهم فلما رأوهم أخذوا سيوفهم ثم قاتلوهم حتى قُتلوا من عند آخرهم رحمهم الله ، إلاّ كعبَ بن زيد أخا بنى دينار بن النجار يرحمه الله ، فإنهم تركوه وبه رمَق فارتُثَّ[2] من بين القتلى فعاش حتى قُتل يوم الخندق شهيداً .

وكان فى سَرْح القوم عمرو بن أمية الضَّمْرى ، ورجل من الأنصار من بنى عمرو بن عوف قيل إنه المنذر بن محمد بن عُقْبة بن أُحَيْحَة بن الجُلاَح ، فلم ينبئهما بمصاب أصحابهما إلا الطير تحوم على العسكر فقالا : والله إنّ لهذا الطير لشأنا .

فأقبلا لينظرا فإذا القومُ فى دمائهم وإذا الخيل التى أصابتهم واقفة .

فقال الأنصارى لعمرو بن أمية : ما ترى ؟

قال : أرى أن نلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم فنخبره . فقال الأنصارى : ولكنى ما كنت لأرغبَ بنفسى عن موطنٍ قُتل فيه المنذر بن عمرو وما كنتُ لتخبرنى عنه الرجال .

ثم قاتل القومَ حتى قُتل .

---

(١) من ابن هشام .

(٢) ارتث : نجا جريحا وبه رمق

وأخذوا عمرو بن أمية أسيراً ، فلما أخبرهم أنه من مضر أطلقه عامر بن الطفيل وجزَّ ناصيته وأعتقه عن رقبةٍ زعم أنها كانت على أمه .

فخرج عمرو بن أمية حتى إذا كان بالقَرْقرة[1] من صدر قناة أقبَل رجلان من بنى عامر حتى نزلا معه فى ظلٍّ هو فيه فسألهما ممن أنتما ؟ فقالا : من بنى عامر . فأمهلهما حتى إذا ناما عدا عليهما فقتلهما ، وهو يرى أنه قد أصاب بهما ثُؤْرة من بنى عامر فى ما أصابوه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان مع العامريين عَقْد من رسول الله صلى الله عليه وسلم وجِوَار لم يعلم به عمرو بن أمية ، فلما قدم عمرو على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر قال : لقد قتلتَ قتيلين لأدِيَنّهما . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هـذا عملُ أبى بَراء ، قد كنت لهـذا كارها متخوّفاً .

وكان فيمن أصيب يومئذ عامر بن فُهَيْرة ، فكان عامر بن الطُّفَيْل يقول : من رجلٌ منهم لمّا قُتل رأيتُه رُفِع بين السماء والأرض حتى رأيت السماء دونه ؟ قالوا : هو عامر بن فُهَيْرة .

وذكر ابن عُقْبة أنه لم يوجد جسدُ عامر بن فهيرة يومئذ ، فيرون أن الملائكة هى وارَتْه رحمة الله عليه .

وكان جَبّار بن سَلْمى فيمن حضرها يومئذ مع عامر بن الطفيل ثم أسلم فكان يقول : إن مما دعانى إلى الإسلام أنى طعنت رجلا منهم

(١) القرقرة : هى قرقرة الكدر ، موضع بناحية المعدن ، بينه وبين المدينة ثمانية برد .

بالرمح بين كتفيه ، فنظرت إلى سِنان الرمح حين خرج من صدره ، فسمعته يقول : فُزْتُ والله ! فقلت فى نفسى : ما فاز ؟ ألستْ قد قتلت الرجال ؟ ! حتى سألتْ بعد ذلك عن قوله فقالوا : بالشهادة[1] فقلت : فاز لعَمْرُ الله .

وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم شهراً يدعو فى صلاة الغداة على الذين قتلوا أصحاب بئر مَعُونة ، يدعو على رعل وذكوان وعُصَيّة الذين عصوا الله ورسوله ، وأُنزل فيمن قُتل هنالك قرآن ثم رفع : « بلِّغوا عنا قومنا أن لقينا ربَّنا فرضِى عنَّا ورضينا عنه » .

(١) ابن هشام : للشهادة .

ذكر غزوة بنى النضير

والسبب الذى هاج الخروجَ إليهم

وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إليهم يستعينهم فى دية العامريَّيْن ، اللذين قتلَ عمرو بن أمية الضَّمْرى ، للجوار الذى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عقَد لهما ، فقالوا له لمّا كلَّمهم فى ذلك : نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه ، اجلس حتى تَطْعم وترجع بحاجتك .

فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ظل جدار من جُدر بيوتهم معه نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلى[1] ، ينتظرون أن يصلحوا أمرهم .

فخلا بعضهم[2] ببعض والشيطان معهم لا يفارقهم ، فائتمروا بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ، فمن رجلٌ يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرةً فيريحنا منه .

فانتدب لذلك عمرو بن جِحَاش بن كعب ، أحدهم ، فقال : أنا لذلك . وصعد ليفعل .

---

(١) زاد الطبرى : وأسيد بن حضير .

(٢) الضمير راجع الى يهود بنى النضير .

فأتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم الخبرُ من السماء بما أراد القومُ ، فقام راجعاً إلى المدينة وترك أصحابه فى مجالسهم ، فلما استلبث النبىّ صلى الله عليه وسلم أصحابُه قاموا فى طلبه ، فلقوا رجلاً مقبلا من المدينة فسألوه عنه فقال : لقيته داخلاً المدينة ، فأقبلوا حتى انتهوا إليه فأخبرهم بما كانت يهود أرادت من الغدر به .

* * *

وأمر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم ، ثم سار بالناس ونزل بهم ، فتحصنوا منه فى الحصون .

وعرض عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الجلاء عن أوطانهم وأن يسيروا حيث شاءوا ، فراسلهم أولياؤهم من المنافقين عبد الله بن أبىّ فى رهط من قومه حين سمعوا مايراد منهم : أن اثبتوا وتمنّعوا فإنا لن نسلمكم ، إن قاتلتم قاتلنا معكم وإن خرجتم خرجنا معكم .

فغرّتهم أمانىّ المنافقين ، ونادوا النبىّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه : إنا والله لا نخرج ، ولئن قاتلتنا لنقاتلنك .

فمضى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لأمر الله فيهم ، فلما انتهى إلى أزقتهم وحصونهم كره أن يمكّنهم من القتال فى دورهم وحصونهم ، فحفظ الله له أمرَه وعزمَ له على رشده ، فأمر بالأدنى فالأدنى من دورهم أن تُهدم وبالنخيل أن تحرق وتقطع ، وكفّ الله أيديهم وأيدى المنافقين فلم ينصروهم ، وألقى الله فى قلوب الفريقين كليهما الرعب ، فهدموا الدورَ التى هم فيها من أدبارها ، فلما كادوا يبلغون آخر دورهم وهم ينتظرون

المنافقين ويتربصون مِن نصرهم ما كانوا يُمَنّونهم به حتى يئسوا مما عندهم، سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كان عَرض عليهم قبلَ ذلك .

فقاضاهم صلوات الله عليه وسلامه أن يُجْليهم ويكفّ عن دمائهم وعلى أن لهم ما استقلّت به الإبلُ من أموالهم إلا الحلْقة فقط .

فطاروا بذلك كلَّ مَطِير وتحمّلوا بما أقلّت إبلهم ، حتى إن الرجل ليهدم بيته عن نِجَاف[1] بابه فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به . فخرجوا إلى خيبر ، ومنهم من سار إلى الشام ، وكان أشرافهم بنو أبى الحُقَيق وحُيَيّ بن أخطب فيمن سار إلى خيبر ، فلما نزلوها دانَ لهم أهلها .

وخلّى بنو النضير الأموالَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانت له خاصّة بحكم الله له بها ليضعَها حيث شاء ، فقسمها على المهاجرين الأوّلين دون الأنصار ، إلا أن سهل بن حُنَيف وأبا دُجانة سِمَاك بن خرَشة ذكرا فقراً فأعطاهما رسولُ الله صلى الله عليه وسلم منها .

وكانت اليهود قد عيّروا المسلمين حين يهدمون الدور ويقطعون النخل فنادوا : أن يا محمد قد كنت تَنْهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه ، فما بال قَطْع النخيل وتحريقها ؟ وما ذنب شجرة وأنتم تزعمون أنكم مصلحون فى الأرض ؟!

فأنزل الله سبحانه فى قصتهم وما ذكروه من قولهم وبيان وجه الحكم فى أموالهم سورةَ الحشر بأسْرها . فقال عز من قائل :

---

(١) النجاف : العتبة بأعلى الباب .

« سَبَّح لله ما فى السموات وما فى الأرض وهو العزيزُ الحكيمُ ، هو الذى أخرجَ الذين كفروا من أهلِ الكتاب من ديارهم لأوّلِ الحشْر ما ظننتم أن يخرُجوا وظنّوا أنهم مانعتهم حصونُهم من الله فأتاهم الله من حيثُ لم يحتسِبوا وقذَف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتَهم بأيديهم وأيدى المؤمنين ، فاعتبروا يا أولى الأبصار » للذى كان منهم من الهدْم من أدبار بيوتهم وهدم المسلمين لما يليهم منها .

« ولولا أنْ كتبَ الله عليهمُ الجلاء لعذّبهم فى الدنيا » أى بالسيف « ولهم فى الآخرةِ عذابُ النار » أى مع ما لقوه فى الدنيا من النقمة .

ثم قال تعالى فيما عابوه من قطع النخيل وعدّوه من ذلك فساداً : « ما قطَعتُم من لِينَة[1] أو تركتموها قائمةً على أصولها فبإذْن الله » أى فبأمر الله قطعت ، لم يكن ذلك فسادا بل نقمة أنزلها بهم « وليُخزِى الفاسقين » .

ثم بين تعالى لرسوله الحكم فى أموالهم وأنها نَفَل له لا سهمَ لأحدٍ فيها معه فقال عزّ ذِكره وجَلّ قولُه : « وما أفاء الله على رسولِه منهم فما أوْجَفْتُم عليه مِنْ خَيْلٍ ولا رِكاب ولكنّ الله يُسَلطُ رُسُلَه على من يشاء والله على كل شىء قدير » فقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن أراه الله من المهاجرين الأولين كما تقدم وأعطى منها الرجلين المسمّيْين من الأنصار .

* * *

(١) اللينة : ما لم تكن برنية ولا عجوة من النخل .

وقال على بن أبى طالب يذكر إجلاء بنى النضير وما تقدم قبل ذلك من قتل كعب بن الأشرف ، ويقال بل قالها رجل من المسلمين غير علىّ: [١]

عرفتُ ومن يعتدلْ يَعْرِفِ وأيقنتُ حقًا ولم أصْدِفِ [٢]
عن الكَلِمِ المحكَمِ اللاء من لدَى الله ذى الرأفة الرائفِ [٣]
رسائل تُدْرَس فى المؤمنين بهن اصطفى أحمدَ المصطفى
فأصبح أحمدُ فينا عزيزا عزيزَ المُقَامة والموْقفِ
فيا أيها الموعِدوه سَفاهًا ولم يأت جَوْرًا ولم يَعْنُفِ
ألستم تخافون أدنَى العذاب وما آمِنُ الله كالأخْوفِ
وأن تُصْرَعوا تحت أسيافه كمصرع كعبٍ أبى الأشْرَفِ
غداةَ رأى الله طغيانَه وأعرض كالجمل الأحْنَفِ [٤]
فأنزل جبريلَ فى قتله بوحيٍ إلى عبده مُلْطفِ
فدسَّ الرسولُ رسولاً له بأبيض ذى هَبّةٍ مُرْهَفِ
فباتت عيونٌ له مُعْوِلات متى يُنْعَ كعبٌ لها تَذْرِفِ
وقلن لأحمد ذَرْنا قليلا فإنا من النَّوح لم نَشْتَفِ
فخلاهم ثم قال اظْعَنوا دُحُورًا على رَغم الآنُفِ
وأجْلَى النَّضيرَ إلى غُرْبة وكانوا بدارِ ذوى زُخْرفِ

---

(١) قال ابن هشام : ولم أر أحدا من أهل العلم بالشعر يعرفها لعلى .
(٢) لم أصدف : لم أعرض .
(٣) ابن هشام : الأرأف .
(٤) الأحنف : المائل صدر قدمه أو المعوج الرجل . وفى ابن هشام الأجنف : والجنف : الميل والجور .

إلى أَذْرُعاتٍ رُدَافَى وهم[1] على كل ذى دَبَرٍ أَعْجَفِ

ولم يُسْلِم من بنى النضير إلا رجلان : يامين بن عمير بن كعب بن عم عمرو ابن جِحَاش ، وأبو سعد بن وهب ، أسلما خوفاً على أموالهما فأحرزاها وحدَّث بعضُ آل يامين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ليامين : ألم تر ما لقيتُ من ابن عمك وما همّ به من شأنى ؟ فجعل يامين لرجل جُعلًا على أن يقتل عمرو ابن جِحَاش فقتله ، فيما يزعمون .

(١) رداف : متتابعين .

غزوة ذات الرقاع

ثم أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة بعد غزوة بني النَّضِير شهرَ ربيع وبعض جُمَادى ، ثم غزا نجداً يريد بني محارِب وبني ثعلبة من غطفان حتى نزل نخلاً[1] . وهي غزوة ذات الرِّقاع وسميت بذلك لأنهم رقّعوا فيها راياتهم ، وقيل لأجل شجرة بذلك الموضع يقال لها ذات الرِّقاع وقيل انما كانوا يعصبون على أرجلهم من الخِرَق إذا نقبت أقدامهم .

فلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم هنالك جَمْعاً من غطَفان ، فتقارب الناسُ ولم يكن بينهم حَرْب وخاف الناسُ بعضهم بعضاً ، حتى صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ بالناس صلاة الخوف ، ثم انصرف بهم .

وفي هذه الغزوة عرض له رجل من مُحَارِب يقال له غَوْرث ، وقد قال لقومه من غطفان ومحارِب : ألا أقتل لكم محمداً ؟ قالوا : بلى ، وكيف تقتله ؟ قال : أفتك به . فأقبل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس وسيفه في حِجره فقال : يا محمد أنظر إلى سيفك هذا ؟ قال : نعم . فأخذه فاستلَّه ثم جعل يهزّه ويهمّ به فيكبته الله ، ثم قال : يا محمد أمَا تخافني ؟ قال : لا ، ما أخاف منك . قال : أما تخافني وفي يدي السيف ؟ قال : بل يمنعني الله منك . ثم عمد إلى سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم فردّه عليه .

فأنزل الله تبارك وتعالى : « يَاأَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إذْ هَمَّ قَوْمٌ أنْ يَبْسُطُوا إلَيْكُمْ أيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُؤْمِنُونَ[2] » .

---

(١) نخل : موضع بنجد من أرض غطفان .

(٢) سورة المائدة ١١ .

وقيل: إنها إنما نزلت في عمرو بن جحاش وما همّ به من إلقاء الحجر على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم وصل إلى بني النضير مستعيناً بهم في دية العامريين. فالله أعلم أيّ ذلك كان.

* * *

وحدّث جابر بن عبد الله قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة ذات الرقاع من نخل فأصاب رجلٌ امرأة رجلٍ من المشركين، فلما انصرف رسولُ الله صلى الله عليه وسلم قافلاً أتى زوجها وكان غائباً، فلما أخبر الخبر حلف ألاّ ينتهى حتى يُهْرِيق في أصحاب محمد دمًا، فخرج يتبع أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلاً، فقال: مَن رجلٌ يكلؤنا ليلتنا؟ قال: فانتدب رجلٌ من المهاجرين، قيل هو عمّار بن ياسر، ورجل من الأنصار، قيل هو عبّاد بن بِشْر، فلما خرج الرجلان إلى فم الشعب قال الأنصاريّ للمهاجريّ: أيّ الليل تحب أن أكفيكه أوّله أو آخره؟ قال: بل اكفني أوله فاضطجع المهاجريّ فنام، وقام الأنصاري يصلي، وأتى الرجلُ فلما رأى شخصه عرف أنه رَبيئة[1] القوم، فرماه بسهم فوضعه فيه، قال: فانتزعه عنه وثبت قائمًا، ثم رماه بسهم آخر فوضعه فيه فنزعه فوضعه وثبت قائمًا، ثم عاد له بالثالث، فوضعه فيه فنزعه ثم ركع وسجد، ثم أهَبَّ صاحبه فقال: اجلس فقد أُثْبِتُّ[2].

قال: فوثب، فلما رآهما الرجلُ عرف أن قد نَذِرا به فهرب، فلما رأى المهاجريُّ ما بالأنصاري من الدماء، قال: سبحان الله، أفلا أهْبَبْتَني أولَ ما رماك؟ قال: كنت في سورة أقرؤها فلم أحبّ أن أقطعها حتى أُنفذها فلما تابع على الرميَ ركعت فآذنتُك، وأيم الله لولا أن أضيع ثغرًا أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظه لقطع نفسي قبل أن أقطعها أو أنفذها!

(١) الربيئة: الطليعة.

(٢) أثبت: أثخنته الجراحة.

[قصة جمل جابر]

وقال جابر بن عبد الله : خرجت إلى غزوة ذات الرقاع على جمل لى ضعيف ، فلما قفَل رسول الله صلى الله عليه وسلم جعلت الرفاقُ تمضى وجعلتُ أتخلَّف ، حتى أدركنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : مالك يا جابر ؟ قلت : يا رسول الله أبطأ بى جملى . قال : أَنِخْه . فأنختُه وأناخ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : أعطنى هذه العصا من يدك أو اقطع لى عصا من شجرة ففعلت فأخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم فنخسه بها نَخَسات ثم قال : اركب ، فركبت فخرج والذى بعثه بالحق يواهق[1] ناقته مواهقة ، وتحدثت معه فقال لى : أتبيعنى جملك هذا يا جابر ؟ قلتُ : يا رسول الله بل أَهَبُه لك . قال : لا ولكن بِعْنيه قلت : فسُمْنيه . قال : قد أخذته بدرهم . قلت : لا إلا أن تَغْبِنَنى يا رسول الله . قال : فبدرهمين . قلت : لا . فلم يزل يرفع لى حتى بلغ الأوقية فقلت : أفقد رضيتَ ؟ قال : نعم . قلت : فهو لك . قال : قد أخذته .

ثم قال : يا جابر هل تزوجت بعدُ ؟ قلت : نعم يا رسول الله ، قال : أثَيِّباً أم بكراً قلت : بل ثَيِّباً . قال : أفلا جاريةً تلاعبها وتلاعبك ؟ قلت : يا رسول الله إن أبى أُصيب يوم أحد وترك بناتٍ له سَبْعًا فنكحتُ امرأةً جامعة تجمع رءوسهن وتقوم عليهن . قال : أصبتَ إن شاء الله ، أمَا إنه لو قد جئنا صِرَاراً[2] أمرْنا بجَزُور فنُحرت وأقمنا عليها يومَنا ذلك وسمعتْ بنا فنفضتْ[3] نمارقها . قلت : والله يا رسول الله مالنا[4] من نمارق . قال : إنها ستكون . فإذا

(١) يواهق ناقته : يباريها .

(٢) صرار : موضع على ثلاثة أميال من المدينة .

(٣) يريد امرأة جابر . والنمارق : الوسائد أو الطنافس .

(٣) ابن هشام : مالنا .

أنت قدمت عليها فاعمل عملًا كيِّسًا . قال : فلما جئنا صِرَارًا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بجزور فنُحرت وأقمنا عليها ذلك اليوم ، فلما أمسى دخل ودخلنا ، فحدَّثتُ المرأة الحديث وما قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : فدونك فسَمْع وطاعة .

فلما أصبحتُ أخذتُ برأس الجمل فأقبلت به حتى أنَخْتُهُ على باب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم جلست فى المسجد قريبًا منه ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى الجمل ، فقال : ما هذا ؟ فقالوا : يارسول الله هذا جمل جاء به جابر . قال : أين جابر ؟ فدُعيت له . فقال : ياابن أخى خُذْ برأس جملك فهو لك . ودعا بلالًا وقال : اذهب بجابر فأعطه أوقيةً . قال : فذهبت معه فأعطانى أوقية وزادنى شيئًا يسيرًا ، فوالله ما زال يَنْمى عندى ويُرى مكانه من بيتنا حتى أصيب أمس فيما أصيب لنا ! يعنى يوم الحرَّة[1] .

[غزوة بَدْر الموعِد]

قال ابن إسحاق : ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة ذات الرِّقاع أقام بها بقية جمادى الأولى وجُمادى الآخرة ورجب .

ثم خرج فى شعبان إلى بَدْر لميعاد أبى سفيان ، حتى نزله فأقام عليه ثمانى ليال ينتظره .

وخرج أبو سفيان ، فى أهل مكة حتى نزل مَجَنَّة من ناحية الظَّهران ،

---

(١) وقعة الحرة كانت بالمدينة أيام يزيد بن معاوية حين خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية وأخرجوا مروان بن الحكم وبنى أمية . فأرسل يزيد مسلم بن عقبة المرى فانتهب المدينة وقتل من أهلها خلقا ، وكان بيت جابر رضى الله عنه بين البيوت التى نهبت ، بل كاد أن يقتل لولا أن أجاره مروان !

هذا وقد قال المقريزى فى إمتاع الأسماع ١ / ١٩١ : وقد قيل إن قصة جمل جابر وبيعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت فى غزوة ذات الرقاع ، وفى ذلك نظر ، لأنه جاء أن ذلك كان فى غزوة تبوك .

وبعضُ الناس يقول عُسْفان ، ثم بَدا له في الرجوع فقال : يا معشر قريش إنه لا يُصْلحكم إلا عامٌ خَصيب تَرْعَون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن ، فإنّ عامكم هذا عامُ جَدْب ، وإني راجع فارجعوا فرجع الناس ، فسماهم أهلُ مكةَ جيشَ السَّويق يقولون : إنما خرجتم تشربون السويق .

وأقام رسولُ الله صلى الله عليه وسلم على بَدْر ينتظر أبا سفيان لميعاده ، فأتاه مَخْشى بن عمرو الضَّمْرى ، وهو الذى كان وادَعَه على بنى ضمرة فى غزوة وَدّان فقال : يا محمد أجئت للقاء قريش على هذا الماء ؟ قال : نعم يا أخا بنى ضمرة ، وإن شئتَ مع ذلك رددْنا إليك ما كان بيننا وبينك ثم جالدْناك حتى يحكم الله بيننا وبينك . قال : لا والله يا محمد ، مالنا بذلك منك من حاجة .

ومرّ برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو هناك ينتظر أبا سفيان مَعْبَدُ ابن أبى مَعْبَد الخزاعى فقال وناقته تهوى به ، وقد رأى مكانَ رسول الله صلى الله عليه وسلم :

قد نَفَرتْ من رفقتىْ محمدِ وعجوةٍ من يثرب كالعَنْجَدِ[1]
تَهْوى على دِين أبيها الأتْلَدِ قد جعلتْ ماء قُدَيْدٍ موعدى[2]
وماء ضَجْنان لها ضحى الغدِ

* * *

وقال عبد الله بن رواحة فى ذلك ، ويقال إنها لكعب بن مالك :

وعَدْنا أبا سفيان بَدْرًا فلم نجدْ لميعاده صِدْقًا وما كان وافيا
فأقسمُ لو وافيْتَنا فلقيتَنا لأُبْتَ ذَميمًا وافتقدتَ المَواليا
تركنا بها أوصالَ عُتْبةَ وابنه وعَمْرًا أبا جهلٍ تركناه ثاويا

---

(١) العنجد : الزبيب أو الأسود منه ، أو الردىء .

(٢) الأتلد : الأقدم . وقديد : موضع قرب مكة . وضجنان : جبل بناحية تهامة ، وقيل على بريد من مكة .

عصيتم رسولَ الله أفٍّ لدينكم   وأمركم السيِّيء الذي كان غاويا

فإنّي وإن عنّفتموني لقائلٌ   فِدًا لرسول الله أهلي وماليا

أطعناه لم نعدله فينا بغيره   شهاباً لنا في ظلمة الليل هاديا

وقال حسان بن ثابت في ذلك :

دَعُوا فَلَجاتِ الشام قد حال دونها   جِلادٌ كأفواه المخاض الأَوَارِكِ (١)

بأيدي رجالٍ هاجروا نحوَ ربهم   وأنصاره حقًّا وأيدي الملائكِ

إذا سلكتْ للغَوْرِ من بطن عالجٍ   فقولا لها ليس الطريق هنالكِ

أقمنا على الرَّسِّ النَّزُوعِ ثمانيًا   بأرْعَنَ جرّارٍ عريض المَبارِكِ (٢)

بكل كُمَيْتٍ جَوْزُه نصفُ خَلْقه   وقُبٍّ طوالٍ مُشْرِفاتِ الحوارِكِ (٣)

ترى العَرْفجَ العاميَّ تذْرِي أصولَه   مَنَاسِمُ أخفافِ المطيِّ الرواتكِ (٤)

فإن تلْقَ في تَطْوافنا والتماسنا   فُراتَ بن حيّان يكن رَهْنَ هالكِ

وإن تلْقَ قيسَ بن امرئ القيس بعده   يزِدْ في سوادٍ لونه لونَ حالكِ

فأبلغ أبا سفيان عنّي رسالةً   فإنك من غُرِّ الرجال الصَّعالكِ

ثم انصرف رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فأقام بها حتى مضى ذو الحجة وهي سنة أربع من مَقْدمه المدينة ، ثم غزا دَوْمة الجندل ، ثم رجع قبل أن يصل إليها ولم يلْقَ كيداً ، صلى الله عليه وسلم .

---

(١) الفلجات : جمع فلج بالتحريك وهو النهر الصغير . والجلاد : الضرب بالسيوف المخاض : الحوامل من الإبل . والأوارك : التي ترعى الأراك .

(٢) الرس : البئر المطوية بالحجارة . والنزوع : القريبة القعر . والأرعن : الجيش الكثير له فضول .

(٣) الكميت : الفرس . والجوز : الوسط . والقب : جمع أقب ، وهو الضامر من الخيل . والحوارك : جمع حارك وهو أعلى الكاهل .

(٤) العرفج : نبت . والعامي : الذي أتى عليه العام . وتذري : تقلع . والمناسم : جمع منسم وهو خف البعير . والرواتك المسرعة .

غزوة الخنــــدق

وكانت فى شوال من سنة خمس فى قول ابن إسحاق .

وكان من الحديث عن الخندق أنه لما أجْلَى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بنى النضير خرج نفرٌ من اليهود ، سَلَّام بن أبى الحُقَيق وحُيَيّ بن أخْطَب وكنانة بن الربيع النَّضَريّون، وهَوْذة بن قيس وأبو عمار الوائليان، فى نفر من بنى النضير وبنى وائل ، وهم الذين حزّبوا الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى قدموا مكة على قريش فاستنفروهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوهم إلى حربه وقالوا : إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله .

فقالت لهم قريش : يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفدينُنا خيرٌ أم دينه ؟ قالوا : بل دينكم خيرٌ من دينه وأنتم أولى بالحق منه ، فهم الذين أنزل الله عز وجل فيهم : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا : هٰؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا * »(١) .

فلما قالوا ذلك لقريش سرّهم ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجتمعوا لذلك واتّعدوا له .

ثم خرج أولئك النفر حتى جاءوا غَطَفان من قَيْس عَيْلان فدعوهم إلى مثل ما دعوا إليه قريشاً ، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم وأن قريشاً قد تابعوهم على ذلك .

وجعلت يهودُ لغَطَفان تحريضاً على الخروج نِصْف تمر خيبر كل عام(٢) .

---

(١) سورة النساء ٥١ ، ٥٢ .

(٢) فى إمتاع الأسماع للمقريزى ١/٢١٧ . وجعلت لهم تمر خيبر سنة ، إن هم نصروهم.

فزعموا أن الحارث بن عوف أخا بنى مُرّة قال لعُيَيْنة بن حِصْن بن حذيفة ابن بدر ولقومه من غطفان : يا قوم أطيعونى ، دَعُوا قتالَ هذا الرجل وخلُّوا بينه وبين عدوّه من العرب فغلب عليهم الشيطان وقطع أعناقهم الطمع ونفذوا لأمر عُيَيْنة على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكتبوا إلى حلفائهم من بنى أسد ، فأقبل طُلَيْحةُ الأسدى ، فيمن اتبعه من بنى أسد وهما الحليفان أسد وغطفان .

وكتبت قريش إلى رجال من بنى سُلَيْم أشراف بينهم وبينهم أرحام استمداداً لهم ، فأقبل أبو الأعور بمن اتبعه من سليم مدداً لقريش .

فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب وخرجت غطفان وقائدها عُيَيْنة بن حصن فى بنى فَزارة والحارث بن عوف فى بنى مُرّة ومِسْعر بن(١) رُخَيْلة الأشْجعى فيمن تابعه من قومه من أشْجع ، وتكامل لهم ولمن استمدوه فأمدَّهم جمعٌ عظيم ، هم الذين سماهم الله « الأحزاب » .

[حفر الخنـــــدق]

فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بخروجهم وبما أجمعوا له من الأمر أخذ فى حفر الخندق وضربه على المدينة ، فعمل فيه صلى الله عليه وسلم ترغيبًا المسلمين فى العمل والأجر وعمل معه المسلمون ، فدأب فيه ودأبوا حتى أحْكموه .

وأبطأ عنهم فى عملهم ذلك رجالٌ من المنافقين وجعلوا يُورّون بالضعيف من العمل ويتسللون إلى أهليهم بغير علم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا إذن ، وجعل الرجل من المسلمين إذا نابتْه النائبة من الحاجة التى لا بد له

---

(١) كذا بالأصل . وفى ابن هشام : مسعود .

منها يذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ويستأذنه فى اللحوق بحاجته فيأذن له فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله رغبةً فى الخير واحتساباً له ، فأنزل الله فى أولئك من المؤمنين : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمرٍ جامعٍ لم يَذْهَبوا حتى يَسْتَأْذِنوهُ ، إنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الذين يؤمنون بالله ورسوله ، فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فَأْذَنْ لمن شِئْتَ منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم[1] » فنزلت هذه الآية فيمن كان من المسلمين من أهل الحِسْبة والرغبة والطاعة لله ولرسوله

ثم قال تبارك وتعالى ، يعنى المنافقين الذين كانوا يتسللون من العمل ويذهبون بغير إذن من النبى صلى الله عليه وسلم : « لا تجعلوا دُعَاء الرَّسُولِ بينكم كدعاء بَعْضِكم بعضاً ، قد يَعْلَم اللهُ الذين يتسَلَّلونَ مِنْكُمْ لِوَاذاً فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » .

[معجزات للرسول]

وكانت فى حفر الخندق أحاديث فيها من الله عبرة فى تصديق رسوله وتحقيق نبوته ، عاين ذلك المسلمون . منها : أنه اشتد عليهم فى بعض الخندق كُدْيَة[2] فشكَوْها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعا بإناء من ماء فتفل فيه ثم دعا بما شاء الله أن يدعو به ، ثم نضح ذلك الماء على تلك الكدية فيقول من حضرها : فوالذى بعثه بالحق لأنهالتْ حتى عادت كالكثيب ما تردّ فأساً ولا مسحاة .

ودعتْ عَمْرة بنت رَوَاحة أم النعمان بن بشير ابنةً لها من بشير وأعطتها

---

(١) سورة النور ٦٢.

(٢) الكدية : الصخرة الشديدة .

حَفْنة من تمر فى ثوبها ثم قالت : أىْ بنية اذهبى إلى أبيك وخالك عبد الله بن رواحة بغدائهما .

قالت : فأخذتها فانطلقت فمررت برسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا ألتمس أبى وخالى، فقال : تعالَىْ يابنية ما هذا معك ؟ قالت : قلت :يارسول الله هذا تمر بعثتنى به أمى إلى بشير بن سعد وخالى عبد الله بن رواحة يتغديانه . قال : هاتيه قالت : فصببته فى كفىْ رسول الله صلى الله عليه وسلم فما ملأتهما ثم أمر بثوب فبُسط له ، ثم دحَا بالتمر فتبدَّد فوق الثوب ، ثم قال لإنسان عنده : اصرخ فى أهل الخندق : أن هَلُمّ إلى الغداء . فاجتمع أهلُ الخندق عليه فجعلوا يأكلون منه وجعل يزيد حتى صدَر أهلُ الخندق وإنه ليسقط من أطراف الثوب !

وقال جابر بن عبد الله : عملنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الخندق وكنا نعمل فيه نهاراً فإذا أمسينا رجعنا إلى أهلينا ، فكانت معى شويهة غير جِدّ سمينة ، فقلت : والله لو صنعناها لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فأمرت امرأتى فطحنت لنا شيئاً من شعير فصنعت لنا منه خبزا وذبحت تلك الشاة فشويناها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما أمسينا وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم الانصراف عن الخندق قلت:يا رسول الله إنى صنعتُ لك شُوَيْهة كانت عندنا وصنعنا معها شيئاً من خبزهذا الشعير ، فأحب أن تنصرف معى إلى منزلى . وإنما أريد أن ينصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وحَده .

فلما قلت له ذلك قال : نعم . ثم أمر صارخا فصرخ : أن انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيت جابر بن عبد الله . قال : قلت : إنا لله وإنا إليه راجعون ! فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم والناسُ معه فجلس وأخرجناها

إليه فبَرّك وسمّى الله ثم أكل وتواردها الناسُ ، كلما فرغ قومٌ قاموا وجاء ناس ، حتى صدَر أهلُ الخندق عنها .

وحدّث سَلْمان الفارسي قال : ضربتُ في ناحية من الخندق فغلُظتْ عليّ ورسول الله صلى الله عليه وسلم قريب مني ، فلما رآني أضرب ورأى شدة المكان عليّ نزل فأخذ المِعْوَل من يدي فضرب به ضربة لمعت تحتَ المِعْوَل بَرْقة ، ثم ضرب به ضربة أخرى فلمعت تحته برقة أخرى ، ثم ضرب به الثالثة فلمعت برقة أخرى ، قلت : بأبي أنت وأمي يارسول الله ! ما هذا الذي رأيتُ لمع تحت المِعْوَل وأنت تضرب ؟ قال : أوَقد رأيت ذلك ياسلمان ؟ قلت : نعم قال : أمّا الأولى فإن الله فتح عليّ بها اليمن ، وأما الثانية فإن الله فتح عليّ بها الشام والمغرب ، وأما الثالثة فإن الله فتح بها(1) عليّ المشرق . فكان أبو هريرة يقول حين فُتحت الأمصار في زمان عمر وزمان عثمان وما بعده : افتتحوا ما بدا لكم ، فوالذي نفس أبي هريرة بيده ما افتتحتم من مدينة ولا تفتحونها إلى يوم القيامة إلا وقد أعطى اللهُ محمداً صلى الله عليه وسلم مفاتيحها قبل ذلك .

* * *

ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع الأسيال من رُومة بين الجرف وزُغابة في عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تبعهم من بني كنانة وأهل تِهامة ، وأقبلت غَطَفان ومن تبعهم من أهل نجد حتى نزلوا بذنب نَقْمَى إلى جانب أُحد .

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سَلْع ، في ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب هنالك عسكره والخندقُ بينه وبين

(1) ابن هشام : على بها .

القوم ، وأمر بالذّرارى والنساء فجُعلوا فى الآطام .

[نقض بنى قريظة العهد]

وخرج عدوّ الله حُيَيّ بن أخطب حتى أتى كعبَ بن أسد صاحب عَقْد بنى قُرَيظة ، وعهدهم ، وكان قد وادعَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم على قومه وعاقَده على ذلك وعاهده ، فلما سمع كعبٌ بحُيَيّ بن أخطب أغلق دونه بابَ حصنه ، فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له ، فناداه حيى : ويحك يا كعب افتح لى . فقال : ويحك ياحيى إنك امرؤ مشؤوم ، وإنى قد عاهدتُ محمدًا فلست بناقضٍ ما بينى وبينه ، ولم أر منه إلا وفاءا وصِدْقا ، قال : ويحك افتح لى أكلّمك . قال : ما أنا بفاعل . قال والله : إنْ أغلقتَ دونى إلا على جَشِيشتك[1] أن آكل معك منها . فأحْفَظَ الرجلَ ففتح له فقال : ويحك يا كعب ! جئتك بعزّ الدهر وببحرٍ طامٍ ! جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمُجْتمع الأَسْيال من رُومة ، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نَقْمَى إلى جنب أحد ، قد عاهدونى وعاقَدونى على أن لا يَبْرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه .

فقال له كعب : جئتنى والله بذل الدهر، وبجَهَام[2] قد هَراق ماءه فهو يَرْعد ويُبْرق وليس[3] فيه شيء ، ويحك ياحُيَيّ فدعنى وما أنا عليه فإنى لم أر من محمد إلا صدقًا ووفاء .

فلم يزل حُيى بكعب يَفْتله فى الذِّرْوة والغارب حتى سمح له ، على أن أعطاه

(١) الجشيشة : ماجش من بر ونحوه .
(٢) الجهام : السحاب لا ماء فيه . أو قد هراق ماءه .
(٣) ابن هشام : ليس فيه شيء .

عهداً من الله وميثاقاً لئن رجعت قريشٌ وغطفان ولم يصيبوا محمداً أن أدخل معك فى حصنك حتى يصيبنى ما أصابك .

فنقض كعب بن أسد عهدَه ، وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فلما انتهى الخبرُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى المسلمين بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سعدَ بن مُعاذ ، وهو يومئذ سيد الأوس وسعدَ بن عبادة وهو يومئذ سيد الخزرج ومعهما عبد الله بن رَوَاحة وخَوّات بن جُبير فقال : انطلقوا حتى تنظروا أحقٌّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم ؟ فإن كان حقًّا فالحنوا إلىّ لحناً أعرفه ولا تفتّوا فى أعضاد الناس ، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس .

فخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم ، نالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : من رسولُ الله ؟! لا عهد بيننا وبين محمد ولا عَقْد فشاتمهم سعدُ بن معاذ وشاتموه ، وكان رجلا فيه حِدّة فقال له سعد بن عُبادة : دَعْ عنك مشاتمتهم فما بيننا [وبينهم][1] أرْبَى من المشاتمة .

ثم أقبلا ومن معهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : فسلموا عليه ، ثم قالوا : عَضل والقارة . أى كغدر عضل والقارة بأصحاب الرَّجيع خُبيب وأصحابه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أكبر أبشروا يامعشر المسلمين .

[اشتداد البلاء]

وعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف وأتاهم عدوُّهم من فوقهم ومن أسفل

---

(١) من ابن هشام والطبرى .

منهم ، حتى ظن المؤمنون كلَّ ظن ونجَم النفاقُ من بعض المنافقين ، وحتى قال قائل منهم : كان محمد يَعِدنا أن نأكل كنوزَ كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط !

وأقام عليه المشركون قريباً من شهر لم يكن بينهم حرب إلا الرِّمِّيَّاء[1] . بالنَّبل والحصار .

فلما اشتد على الناس البلاء بعث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى عُيَيْنة ابن حِصْن وإلى الحارث بن عوف ، وهما قائدا غَطَفان فأعطاهما ثلثَ ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه ، فجرى بينه وبينهما المراوضة في الصلح[2] حتى كتبوا الكتاب ولم تقع الشهادةُ ولا عزيمة الصلح ، ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سعد بن مُعَاذ وسعد بن عبادة ، فذكر لهما ذلك واستشارهما فيه فقالا : يارسول الله أمراً تحبه فنصنعه ؟ أم شيئا أمرَك الله به لابد لنا من العمل به ؟ أم شيئاً تصنعه لنا ؟ قال : بل شيء أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا أني رأيت العربَ قد رمتكم عن قوس واحدة وكالَبوكم من كل جانب فأردت أن أكْسِر عنكم من شوكتهم إلى أمرما[3] .

فقال سعد بن معاذ : يارسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قِرىً أو بيعًا ، فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزَّنا بك نعطيهم

---

(١) كذا بالأصل ، وفي ابن هشام . الرميا . وفي الطبري . الرمي . والرميا بكسر الراء والميم مشددتين وتخفيف الياء المفتوحة : المراماة .

(٢) ابن هشام والطبري : فجرى بينه وبينهما الصلح . وما هنا أدق .

(٣) الطبري : لأمر ما ساعة .

أموالنا ؟ مالنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأنت وذاك . فتناول سعد الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب[١] ثم قال : ليَجْهدوا علينا .

فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون وعدوهم مُحَاصروهم ، ولم يكن بينهم قتال ، إلا أن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبدوَدّ وعكرمة ابن أبي جهل وهُبَيْرة بن أبي وهب وضِرَار بن الخطاب تلبَّسوا[٢] للقتال ثم خرجوا على خيلهم حتى مرّوا بمنازل بني كنانة فقالوا : تهيَّأوا يابني كنانة للحرب فستعلمون مَن الفرسان اليوم . ثم أقبلوا تُعْنق[٣] بهم خيلهم حتى وقفوا على الخندق فلما رأوه قالوا : والله إن هذه لَمكيدة ما كانت العرب تكيدها ! ثم تيمّموا مكاناً من الخندق ضيّقا فضربوا خيلهم فاقتحمت منه فجالت بهم في السَّبْخة بين الخندق وسَلْع ، وخرج عليٌّ بن أبي طالب في نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التي أقْحموا منها خيلَهم ، وأقبلت الفرسان تُعْنق نحوهم ، وكان عمر بن عبدوَدّ قد قاتل يوم بدر حتى أثبتَتْه الجراحة فلم يشهد يوم أُحد فلما كان يوم الخندق خرج مُعْلِما ليُرِى مكانه ، فلما وقف هو وخيله قال : من يبارز ؟ فبرز له عليّ بن أبي طالب فقال له : ياعمرو إنك كنت عاهدتَ الله لا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خَلّتين إلا أخذتها[٤] منه فقال له : أجَلْ . فقال له على : فإني أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام . قال : لاحاجة لى

---

(١) ابن هشام : من الكتاب .

(٢) الطبري : قد تلبسوا .

(٣) تعنق : تسرع .

(٤) الطبري : إلا أخذت منه إحداها .

بذلك . قال : فإني أدعوك إلى النِّزَال . قال له : ولم يا بن أخي ! فوالله ما أحب أن أقتلك . قال علي : لكني والله أحب أن أقتلك ! فحَمِي عمرو عند ذلك فاقتحم عن فرسه فعقَره وضرب وجهَه ، ثم أقبل على عليّ فتنازلا وتجاوَلا ، فقتله عليٌّ .

وخرجت خيلُهم منهزمةً حتى اقتحمت من الخندق هاربة .

وذكر ابن إسحاق في غير رواية البَكّائي أن عَمْراً لما نادى بطلب من يبارزه قام علي رضي الله عنه وهو مقنّع في الحديد فقال : أنا له يانبي الله . فقال له : اجلس إنه عمرو ! ثم ذكر عمرو النداء وجعل يؤنّبهم ويقول : أين جنتكم التي تزعمون أنه من قتِل منكم دخلها ! أفلا تبرزون إليّ رجلا ؟ ! فقام علي فقال: أنا له يارسول الله . قال اجلس إنه عمرو . ثم نادى الثالثة وقال :

ولقد بُححتُ من النـــــدا ء بجمعكم هل من مُبَـــارِزْ

ووقفتُ إذ جَـــبُنَ المشجـــع وقفـــة الرجـــل المناجِزْ

وكذاك أنـــــى لم أزَلْ متسرِّعا نحـــو المزاهِزْ(١)

إنّ الشجاعة في الفتى والجودَ مِن خـــير الغرائزْ

فقام عليّ رضي الله عنه فقال : أنا له يارسول الله . فقال : إنه عمرو ! فقال : وإن كان عمراً . فأذِن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فمشى إليه عليٌّ وهو يقول : —

لا تَعجلنّ فقـــد أتـــا ك مجيبُ صوتك غير عاجزْ

ذو نيـــة وبصـــيرة والصدق مُنْجِي كلّ فائزْ

---

(١) المزاهز : الدواهي والشدائد .

إنى لأرجو أن أقيم عليك نائحة الجنائز
من ضربة نجلاء يبقى ذكرها عند الهزاهز

فقال عمرو : من أنت ؟ قال : أنا علىّ ، قال : ابن عبد مناف ؟ قال : أنا على بن أبى طالب . فقال غيرك يا بن أخى من أعمامك من هو أسنّ منك ، فإنى أكره أن أهريق دمك . فقال علىّ : لكنى والله ما أكره أن أهريق دمك . فغضب ونزل فسلّ سيفه كأنه شعلة نار ، ثم أقبل نحو علىّ مغضبا . ويقال إنه كان على فرسه فقال له على : كيف أقاتلك وأنت على فرسك ؟ ولكن انزل معى . فنزل عن فرسه ثم أقبل نحوه فاستقبله علىّ بدرقته فضربه عمرو فيها فقدّها وأثبت فيها السيف وأصاب رأسه فشجّه ، وضربه علىّ على حبل العاتق فسقط وثار العجاج ، وسمع رسولُ الله صلى الله عليه وسلم التكبير فعرف أن عليًا قد قتله ، ثم يقول على رضى الله عنه :

أعلىّ تقتحم الفوارسُ هكذا عنّى وعنه أخبروا أصحابى
فاليومَ يمنعنى الفرارَ حفيظتى ومُصمّم فى الرأس ليس بنابى
أدّى عُمَير حين أخلص صقله صافى الحديدة يَستفيضُ ثوابى[1]
فغدوت ألتمس القِرَاع بمرهَف عضْب مع البتراء فى إقرابِ[2]

(١) قال السهيلى : قوله : أدى عمير إلى قوله : ثوابى : أى أدى إلى ثوابى وأحسن جزائى حين أخلص صقله :

قلت : الصواب إن شاء الله فى تفسيره : أن يكون ثوابى مفعولا بيستفيض : أى أدى الأمانة حين أخلص صقله . ومفعول أدى محذوف وهو الأمانة . فقوله يستفيض : أى يطلب فيض ثوابى أى جزائى ومكافأتى . وهذا هو الحق . والله أعلم . « هامش ط »

(٢) القراع : القتال ، والعضب : القطع . والبتراء : يقال قوس باتر : تقطع الوتر لصلابتها . وفى الروس البتراء محرفة . والاقراب : إدخال السيف فى القراب . وهو الغمد

قال ابن عَبْد حين شدّ أَلِيّةً[1] وحلفتُ فاستمعوا من الكذّابِ

أن لا يفرّ ولا يُهلّل[2] فالتقى أسَدان يضطربان[3] كلّ ضرابِ

نصَر الحجارةَ مَن سفاهة رأيه ونصرتُ دينَ محمدٍ[4] بصوابِ[5]

فصدَدْت حين تركته متجدلًا كالجِذْع بين دَكَادِكٍ وروابِي[6]

وعففت عن أثوابه ولو أنني كنتُ المجدَّل بَزّنِي[7] أثوابي

لا تحسُبَن الله خاذلَ دينه ونبيِّه يا معشرَ الأحزابِ

* * *

وكان شعار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق وبنى قريظة « حم لا يُنْصرون » .

[إصابة سعد بن معاذ]

وكانت عائشة رضى الله عنها يوم الخندق فى حصن بنى حارثة ، وكان من أحرز حصون المدينة وكانت أم سعد بن معاذ معها فى الحصن ، قالت عائشة : وذلك قبل أن يُضرب علينا الحجاب ، فمرّ سعد وعليه دِرْع له مُقَلَّصة[8] وقد

---

(١) الألية : الحلف .

(٢) التهليل : النكوص والجبن ، يقال : حمل فما هلل .
قال كعب بن زهير : * وما لهم عن حياض الموت تهليل *

(٣) هامش ط : الأصل : يلتقيان .

(٤) هامش ط . الأصل : رب محمد .

(٥) ذكر ابن هشام هذه الأبيات الأربعة الأخيرة وقال : وأكثر أهل العلم بالشعر يشك فيها لعلى بن بن أبى طالب . ٢/٢٢٦ .

(٦) المتجدل : الصريع . والدكادك : جمع دكداك وهو الرمل اللين . والروابى جمع رابية وهى المرتفع من الأرض .

(٧) بزنى : : سلبنى .

(٨) مقلصة : منكمشة غير سابغة .

خرجت منها ذراعه كلها وفى يده حربة يَرْقَدُ بها فى نشاط ، وهو يقول :

لبِّث قليلًا يشهد الهَيْجا حَمَلْ[1]   لا بأس بالموت إذا حان الأَجَلْ

فقالت أمه : الحق أىْ بنى فقد والله أخرت . قالت عائشة : فقلت لها : يا أم سعد والله لَوددتُ أن درع سعد كانت أسبغ مما هى . قالت: وخِفْت عليه حيث أصاب السهمُ منه ، فرمِى سعدٌ بسهم قطع منه الأَكْحَل ، رماه حِبَّان بن قيس بن العَرِقة أحد بنى عامر بن لؤىّ ، فلما أصابه قال : خذها وأنا ابن العَرِقة . فقال له سعد : عرّق الله وجهك فى النار ، اللهم إن كنت أبقيت من حَرْب قريشا شيئًا فأبقنى لها فإنه لا قومَ أحب إلىّ أن أجاهد[2] من قوم آذوا رسولَك وكذّبوه وأخرَجوه ، اللهم وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعلها لى شهادة ولا تُمِتْنى حتى تقرّ عينى من بنى قريظة .

وكان عبد الله بن كعب بن مالك يقول : ما أصاب سعداً يومئذ إلا أبو أسامة الجُشَمىّ حليف بنى مخزوم ، وقال فى ذلك شعراً يخاطب عِكْرمة بن أبى جهل :

أعِكْرِم هلا لُمْتنى إذ يقول لى[3]   فداك بآطام المدينة خالدُ
ألستُ الذى ألزمتُ سعداً مُرِشّةً[4]   لها بين أثناء المرافق عائدُ[5]

---

(١) بالأصل : جل كما فى ابن هشام . وفى الطبرى : حل . وحمل : هو حمل بن سعدانة ابن حارثة الكلبى ، وهو الذى تمثل بهذا البيت كما قال السهيلى فى الروض . وقد نسبه له الزبيدى فى تاج العروس ٧ / ٢٩٠ وهو فى اللسان ١٣ / ١٩٣ .

(٢) ابن هشام والطبرى : أن أجاهدهم .

(٣) ابن هشام : إذ تقول .

(٤) مرشة : أى رمية أصابته ففرقت دمه .

(٥) ابن هشام : عاند .

قضى نَحْبه منها سعيدٌ فأعولَتْ   عليه مع الشُّمْط العذارى النواهدُ

فى أبيات ذكرها ابن إسحق .

ويقال : إن الذى رمى سعدا خفافة[1] بن حبّان . فالله أعلم أىّ ذلك كان .

[شجاعة صفية بنت عبد المطلب]

وكانت صفية بنت عبدالمطلب فى فارع ، أُطُم[2] حسان بن ثابت ، قالت : وحسان معنا فيه مع النساء والصبيان . قالت صفية : فمرّ بنا رجل من يهود فجعل يُطيف بالحصن وقد حاربتْ بنو قريظة وقطعتْ ما بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس بيننا وبينهم أحدٌ يدفع عنا ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون فى نُحُور عدوّهم لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إلينا إن أتانا آت ، قالت : قلت ياحسان إنّ هذا اليهودى كما ترى يُطيف بالحصن وإنى والله ما آمنه أن يدل على عورتنا مَن وراءنا من يهود ، وقد شُغل عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فانزلْ إليه فاقتله . قال: يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب ! والله لقدعلمت ما أنا بصاحب هذا. فلما قال لى ذلك ولم أر عنده شيئاً احتجزتُ[3] ثم أخذت عمودا ثم نزلت من الحصن إليه فضربتُه بالعمود حتى قتلته ، فلما فرغت منه رجعت إلى الحصن فقلت لحسان : انزل فاسلبه فإنى لم يمنعنى من سَلْبه إلا أنه رجل . قال : مالى بسلبه من حاجة يابنت عبد المطلب .

وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فيما وصف الله من الخوف

---

(١) ابن هشام : خفاجة بن عاصم بن حبان .

(٢) الأطم : الحصن . وفى ابن هشام والطبرى . فى حصن حسان .

(٣) احتجزت : شدت على وسطها حجزا .

والشدة لتظاهر عدوّهم عليهم وإتيانهم إياهم من فوقهم ومن أسفل منهم .

[حيلة نعيم بن مسعود]

ثم إن نُعَيْم بن مسعود الأشجعى أتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله إنى قد أسلمتُ وإنّ قومى لم يعلموا بإسلامى ، فمُرْنى بما شئتَ .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما أنت فينا رجل واحد فخذِّل عنا إن استطعت ، فإن الحرب خُدْعة .

فخرج نُعَيْم حتى أتى بنى قريظة ، وكان لهم نديماً فى الجاهلية فقال : يا بنى قُرَيْظة ، قد عرفتم ودِّى إياكم وخاصةَ ما بينى وبينكم . قالوا : صدقتَ فلست عندنا بمتَّهم . فقال لهم : إن قريشا وغطفان ليسوا كأنتم ، البلدُ بلدكم به أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون على أن تتحوّلوا منه إلى غيره ، وإن قريشاوغطفان قد جاءوا لحرب محمدوأصحابه وقدظاهرتموهم عليه ، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره فليسوا كأنتم[1] فإن رأوا نُهْزة أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلّوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ، فلا طاقة لكم به إن خلا بكم ، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن يقاتلوا معكم محمداً حتى تُنَاجزوه .

قالوا : لقد أشرت بالرأى .

ثم خرج حتى أتى قريشا فقال لأبى سفيان ومن معه من رجالهم : قد عرفتم ودّى لكم وفراق محمداً ، وإنه قد بلغنى أمرٌ رأيت علىَّ حقا أن أبلغكموه

---

(١) الطبرى : ليسوا كهيئتكم .

نصحا لكم فاكتموا عنى . قالوا : نفعل . قال : تعلمون أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد ، وقد أرسلوا إليه أنا قد ندمنا على ما فعلنا ، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالا من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقى منهم حتى نستأصلهم ؟ فأرسل إليهم : نعم . فإن بعثتْ إليكم يهود يلتمسون رهنا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلا واحداً .

ثم خرج حتى أتى غطَفان فقال : يامعشر غطفان إنكم أهلى وعشيرتى وأحبّ الناس إلىّ ، ولا أراكم تتهموننى . قالوا : صدقت ما أنت عندنا بمتهم قال : فاكتموا عنى . قالوا : نفعل . ثم قال لهم مثل ما قال لقريش وحذّرهم ما حذرهم .

فلما كانت ليلة السبت[1] وكان ذلك من صُنْع الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم أرسل أبو سفيان بن حرب ورءوس غطفان إلى بنى قريظة عِكْرِمَةَ بن أبى جهل فى نفر من قريش وغطفان فقالوا لهم : إنا لسنا بدار مُقام قد هلك الخفُّ والحافر فاغدوا للقتال حتى نناجز محمداً ونفرغ مما بيننا وبينه فأرسلوا إليهم : إن اليوم يوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً ، وقد كان أحْدَث فيه بعضُنا حدَثاً فأصابه مالم يَخْفَ عليكم ، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقةً لنا حتى نناجز محمداً ، فإنا نخشى إن ضرّستْكم الحرب ، واشتد عليكم القتال أن تنشمروا إلى بلادكم وتتركونا والرجل فى بلادنا[2] ولا طاقة لنا بذلك .

---

(١) زاد ابن هشام والطبرى : من شوال سنة خمس .

(٢) ابن هشام والطبرى : فى بلدنا .

فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان : والله إنّ الذى حدّثكم نُعَيْم بن مسعود لحقّ . فأرسَلوا إلى بنى قريظة : إنا والله لا ندفع إليكم رجلا واحداً من رجالنا ، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا .

فقالت بنو قريظة حين انتهت إليهم الرسل بهذا : إن الذى ذكر لكم نعيمُ ابن مسعود لَحَقّ ما يريد القومُ إلا أن يقاتلوا فإن رأوا فرصة انتهزوها وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم وخلّوا بينكم وبين الرجل فى بلدكم . فأرسَلوا إلى قريش وغطفان : إنا والله لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهنا . فأبَوْا عليهم .

وخذل الله بينهم ، وبعث عليهم الريحَ فى ليال شاتية شديدة البرد ، فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح آنيتهم[١] .

فلما انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اختلف من أمرهم وما فرّق الله من جماعتهم دعا حذيفَة بن اليمان فبعثه ليلًا لينظر ما فعل القومُ لحدَّث حُذيفة رحمه الله ، وقد قال له رجل من أهل الكوفة : يا أبا عبد الله رأيتم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبتموه ؟ قال نعم يا بن أخى . قال : فكيف كنتم تصنعون ؟ قال : والله لقد كنا نَجْهَد . قال الرجل : والله لو أدركناه ما تركناه يمشى على الأرض ولحملناه على أعناقنا . فقال حذيفة : يا بن أخى والله لقد رأيتنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخندق وصلى هَوِيّاً[٢] من الليل ثم التفت إلينا فقال : من رجلٌ يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع — يشترط له رسول الله صلى الله عليه وسلم الرَّجْعة — أسأل الله أن يكون رفيقى فى الجنة ؟ فما

(١) ابن هشام والطبرى : أبنيتهم .

(٢) الهوى : الساعة من الليل .

قام رجل من القوم من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد ، فلما لم يقم أحدٌ دعانى فلم يكن لى بُد من القيام حين دعانى فقال : يا حذيفة اذهب فادخل فى القوم فانظر ما يفعلون ولا تُحْدِثنّ شيئاً حتى تأتينا .

فذهبتُ فدخلت فى القوم والريحُ وجنود الله تفعل بهم ما تفعل لا تُقِرّ لهم قِدْراً ولا ناراً ولا بناءاً ، فقام أبو سفيان فقال : يامعشر قريش لينظر امرؤ من جليسُه . قال حذيفة : فأخذت بيد الرجل الذى إلى جنبى فقلت : من أنت ؟ قال : فلان بن فلان .

وذكر ابن عُقْبة أنه فعل ذلك بمن يلى جانبيه يميناً ويسارا ، قال : وبدَرهم بالمسألة خشية أن يفطنوا له .

قال حذيفة : ثم قال أبو سفيان : يامعشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مُقام ، لقد هلك الكُرَاع والخُفّ وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذى نكره ، ولقينا من شدة الريح ما ترون ما تُطْمَئِنّ[1] لنا قِدْر ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فإنى مرتحل . ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث فما أطلق عقاله إلا وهو قائم . ولولا عَهْد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلىّ « أن لا تُحْدِث شيئاً حتى تأتينى » ثم شئت لقتلته بسهم .

فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قائم يصلى فى مرط لبعض نسائه فلما رآنى أدخلنى إلى[2] رجليه وطرّح علىّ طرف المِرْط ثم ركع وسجد وإنى لفيه ، فلما سلّم أخبرته الخبر .

وسمعت غطفان بما فعلت قريش فانشمروا راجعين إلى بلادهم .

---

(١) ابن هشام : ما تطمئن لنا قدر

(٢) الطبرى : بين رجليه .

ولما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف عن الخندق راجعاً إلى المدينة والمسلمون معه وقد عضّهم الحصار ، فرجعوا مجهودين فوضعوا السلاح .

[غزوة بنى قريظة]

فلما كانت الظهر أتى جبريلُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم معتجراً بعمامة من استبرق على بغلة عليها رِحَالة عليها قطيفة من ديباج .(١)

ويقولون فيما ذكر ابن عقبة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فى المغتَسل عند ما جاءه جبريل وهو يرجّل رأسه قد رجّل إحدى شقّيه . فجاءه جبريل على فرس عليه اللأمة(٢) حتى وقف بباب المسجد عند موضع الجنائز وإن على وجه جبريل لأثر الغبار ، فخرج إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له جبريل : غفر الله لك ! أقد وضعتم السلاح ؟ قال : نعم . قال جبريل : ما وضعت الملائكةُ السلاحَ بعدُ وما رجعت الآن إلا من طلب القوم ، إن الله يأمرك يا محمد بالمسير إلى بنى قريظة فإنى عامدٌ إليهم فمزلزل بهم .

فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذّناً فأذّن فى الناس من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلّين العصر إلا فى بنى قريظة .

وقدّم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عليّ بن أبى طالب براية إلى بنى قريظة وابتدرها الناسُ ، فسار علىّ رضى الله عنه حتى إذا دنا من الحصون سمع منها مقالةً قبيحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرجع حتى لقى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بالطريق فقال : يا رسول الله لا عليك ألّا تدنو من هؤلاء الأخابث . قال : لِمَ ؟ أظنك سمعت منهم لى أذى ؟ قال : نعم . قال : لو رأونى لم يقولوا من ذلك شيئاً . فلما دنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من حصونهم

---

(١) الرحالة : السرج .

(٢) اللأمة : ما يلبسه المحارب من الدروع .

فقال : يا إخوان القردة هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته ؟ قالوا : يا أبا القاسم ما كنت جهولا .

ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفر من أصحابه فى طريقه قبل أن يصل إلى بنى قريظة ، فقال : هل مرّ بكم أحد ؟ قالوا : يا رسول الله مرّ بنا دِحْية ابن خليفة الكلبى على بغلة بيضاء عليها رِحَالة عليها قطيفة ديباج . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذلك جبريل بُعث إلى بنى قريظة يزلزل بهم حصونهم ويقذف الرعب فى قلوبهم .

وتلاحق الناسُ برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتى رجالٌ من بعد العشاء الآخرة لم يصلوا العصر لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يصلّين أحد العصر إلا ببنى قريظة » فصلوا العصر بها من بعد العشاء الآخرة ، فما عابهم الله بذلك فى كتابه ولا عنفهم به رسوله .

وذكر ابن عُقْبة أن الناس لمـا حانت العصر وهم فى الطريق ذكروا الصلاة فقال بعضهم : ألم تعلموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمركم أن تصلوا العصر فى بنى قريظة . وقال آخرون : هى الصلاة . فصلى منهم طائفة وأخرت الصلاة طائفة حتى صلوها فى بنى قريظة بعد أن غابت الشمس ، فذكروا لرسول الله صلى الله عليه وسلم من عجّل بالصلاة ومن أخّرها ، فذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعنّف واحدة من الطائفتين .

[الحصـــــار]

وحاصر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بنى قريظة خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب .

وكان حيي بن أخطب دخل على بنى قريظة فى حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان وفاء لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه ، فلما أيقنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غير منصرف عنهم حتى يناجزهم قال لهم كعب بن أسد يا معشر يهود قد نزل بكم من الأمر ما ترون ، وإنى عارض عليكم خلالا ثلاثا فخذوا أيها شئتم . فقالوا : وما هى ؟ قال : نتابع هذا الرجل ونصدقه فوالله لقد تبين لكم أنه نبى مرسل وأنه للذى تجدونه[1] فى كتابكم ، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم . قالوا : لا نفارق حكم التوراة أبداً ولا نستبدل به غيره . قال : فإذا أبيتم علىّ هذه فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالا مصلتين بالسيوف لم نترك وراءنا ثقلا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلا نخشى عليه وإن نظهر فلعمرى لنجدن النساء والأبناء . قالوا : نقتل هؤلاء المساكين فما خير العيش بعدهم ! قال : فإذا أبيتم على هذه فإن الليلة ليلة السبت وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمِنوا فيها فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غِرّة . قال : نفسد سبتنا ونحدث فيه ما لم يُحْدث من كان قبلنا إلا من قد علمت فأصابه مالم يخف عليك من المسخ ! قال : ما بات رجلٌ منكم منذ ولدته أمه حازما ليلة واحدة من الدهر !

ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن ابعث إلينا أبا لُبَابة ابن عبد المنذر ، أخا بنى عمرو بن عوف ، وكانوا حلفاء الأوس، نستشيره فى أمرنا فأرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم فلما رأوه قام إليه الرجال وجهش إليه النساء والصبيان يبكون فى وجهه ، فرقّ لهم وقالوا له : يا أبا لبابة أترى أن ننزل على حكم محمد ؟ قال : نعم . وأشار بيده إلى حَلْقه : إنه الذبح .

---

(١) الطبرى : كنتم تجدونه

قال أبو لُبابة : فوالله ما زالت قدماى من مكانهما حتى عرفت أنى قد خُنْت الله ورسوله . ثم انطلق أبو لبابة على وجهه ولم يأت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم حتى ارتبط فى المسجد إلى عمود من عمده . وقال : لا أبرح مكانى هذا حتى يتوب الله علىّ مما صنعت ، وعاهَد الله : أن لا أطأ[1] بنى قريظة أبدا ولا أرى فى بلد خنت الله ورسوله فيه أبداً .

فلما بلغ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم خبره وكان قد استبطأه قال : أمّا إنه لو كان جاءنى لاستغفرت له ، فأمّا إذ فعل ما فعل فما أنا بالذى أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه . فنزلت توبته على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى بيت أم سلمة ، قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم من السَّحَر وهو يضحك قلت : مم تضحك أضحك الله سنك ؟ قال : تِيب على أبى لبابة . قالت قلت : أفلا أبشره يا رسول الله . قال : بلى إن شئت . قال فقامت على باب حجرتها ، وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب فقالت : يا أبا لُبابة أبشر فقد تاب الله عليك . قالت : فثار الناس إليه ليُطْلقوه فقال : لا والله حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يطلقنى بيده . فلما مرّ عليه خارجا إلى صلاة الصبح أطْلقه .

وذكر ابن هشام أن أبا لبابة أقام مرتبطا بالجذع ست ليال تأتيه امرأته فى كل وقت صلاة فتحله للصلاة ، ثم يعود فيرتبط بالجذع .

والآية التى نزلت فى توبته : « وآخَرون اعترفوا بذنوبهم خَلطوا عملاً صالحاً

---

(١) الطبرى : ألا يطأ .

وآخر سيئاً عسى الله أن يتوبَ عليهم إن الله غفور رحيم[١] » وأنزل الله فى أبى لبابة ، فيما روى عن عبد الله بن قتادة :

« يا أيها الذين آمنوا لا تَخُونوا الله والرسولَ وتَخونوا أماناتِكم وأنتم تَعلمون[٢] » .

ثم إن ثعلبة بن سَعْيَة وأسيد بن سَعْية وأسد بن عبيد وهم نفر من [بنى][٣] هُدَل ليسوا من بنى قريظة ولا بنى النضير ، نسبهم فوق ذلك هم بنو عم القوم ، أسلموا تلك الليلة التى نزلت فيها بنو قريظة على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحرزوا دماءهم وأموالهم ، وكان إسلامهم فيما زعموا عمّا كان ألقاه إليهم من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن الهَيّبان القادم عليهم قبل الإسلام متوكفاً لخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم محققاً لنبوته ، فنفع الله هؤلاء الثلاثة بذلك واستنقذهم به من النار .

وقد تقدم ذكر خبره فيما مضى من هذا الكتاب[٤] .

وخرج فى تلك الليلة عمر بن سُعْدَى القُرظى ، فمرّ بحرس رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه محمد بن مَسْلمة ، فلما رآه قال : من هذا ؟ قال : أنا عمرو بن سُعدى . وكان عمرو قد أبىَ أن يدخل مع بنى قريظة فى غَدْرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : لا أغدر بمحمد أبداً . فقال محمد بن مَسْلمة حين عرفه : اللهم لا تحرمنى إقالة عثرات الكرام ! ثم خلى سبيله ، فخرج على وجهه حتى بات فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة تلك الليلة ثم ذهب فلم يُدْرَ

---

(١) سورة التوبة ١٠٢ .
(٢) سورة الأنفال ٢٧.
(٣) من ابن هشام والطبرى .
(٤) سبق ذلك فى الجزء الأول من هذا الكتاب ٢٣٤.

أين توجَّه من الأرض إلى يوم هذا . فذُكِر شأنُه لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ذاك رجلٌ نجّاه الله بوفائه . وبعض الناس يزعم أنه كان أوثق برُمّةٍ فيمن أُوثق من بنى قريظة حين نزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأصبحت رُمّته ملقاةً ولا يدرى أين ذهب . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه تلك المقالة . فالله أعلم أىّ ذلك كان .

[حكم سعد بن معاذ]

ولما نزل بنو قريظة على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم تواثبت الأوسُ فقالوا : يا رسول الله إنهم مَوَالينا دون الخزرج ، وقد فعلتَ فى موالى إخواننا بالأمس ما قد علمت — يريدون بنى قَيْنقاع — وما كان من حصار رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم ونزولهم على حكمه ، وكيف سأله إياهم عبدُ الله بن أبىّ بن سَلُول فوهبهم له . فلما كلمته الأوس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألاَ ترضون يامعشر الأوس أن يحكم فيهم رجلٌ منكم ؟ قالوا : بلى . قال : فذاك إلى سعد بن معاذ .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جعل سَعد بن معاذ فى خيمة لامرأة من أَسْلَم يقال لها رُفيدة فى مسجده كانت تداوى الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال لقومه حين أصابه السهم فى الخندق : اجعلوه فى خيمة رُفيدة حتى أعوده من قريب . فلما حكّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بنى قريظة أتاه قومه فحملوه على حمار قد وطّأوا له بوسادة من أدَم ، وكان رجلا جسيما ، ثم أقبلوا معه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يقولون : يا أبا عمرو أحسنْ فى مَواليك

فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما ولاّك ذلك لتحسن فيهم . فلما أكثروا قال : لقد آن لسعدٍ أن لا تأخذه فى الله لومةُ لائم !

فرجع بعضُ من كان معه من قومه إلى دار بنى عبد الأشهل فنعى لهم رجالَ بنى قُريظة قبل أن يصل إليهم سعد ، عن كلمته التى سمع منه .

فلما انتهى سعدٌ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قوموا إلى سيدكم » فأما المهاجرون من قريش فيقولون : إنما أراد الأنصارَ . وأما الأنصار فيقولون : قدعمَّ بها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المسلمين . فقاموا إليه فقالوا : يا أبا عمرو إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ولاّك أمرَ مَواليك لتحكم فيهم . فقال سعد بن معاذ : عليكم بذلك عهدُ الله وميثاقه : أنّ الحكمُ فيهم لما حكَمْتُ ؟ قالوا : نعم . قال : وعلى من هاهنا — فى الناحية التى فيها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم — وهو مُعرض عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إجلالا له . فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم . قال سعد : فإنى أحكم فيهم أن تُقتل الرجال وتُقسم الأموالُ وتُسبى الذّرارى والنساء . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد حكمتَ فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرْقعة[1] .

ثم استُنزلوا لحبسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة فى دار امرأة من بنى النجار ، ثم خرج صلى الله عليه وسلم إلى سوق المدينة فخَنْدق بها خنادق ، ثم بعث إليهم فضرب أعناقهم فى تلك الخنادق ، يُخرج بهم إليها أرسالا . وفيهم عدوّ الله حُيَيّ بن أخطب وكعب بن أسد رأس القوم ، وهم

(١) الأرقعة : السموات ، واحدها رقيع .

ستمائة أو سبعمائة ، والمكثر يقول : كانوا بين الثمان المائة والتسع المائة[1] . وقالوا لكعب بن أسد وهم يُذهب بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسالا : يا كعب ماتراه يصنع بنا ؟ قال : أفى كل موطن لا تعقلون ! ألا ترون أن الداعى لا ينزع وأن الذاهب[2] لا يرجع ؟ ! هو والله القتل .

فلم يزل ذلك الدأب حتى فرغ منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتى بعدوّ الله حُيَيّ بن أخطب وعليه حلة فُقّاحيّة[3] قد شقها عليه من كل ناحية قدر أنملة لئلا يُسْلَبها ، مجموعة يداه إلى عنقه بحبل ، فلما نظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أمَا والله ما لُمت نفسى فى عداوتك ولكن من يخذل الله يُخذل ! ثم أقبل على الناس فقال : يا أيها الناس ، إنه لا بأس بأمر الله ، كتاب وقَدَر ومَلْحمة كُتبت على بنى إسرائيل ! ثم جلس فضُربت عنقه . فقال فى ذلك جبل بن جوّال الثعلبى :

لعَمْرك ما لام ابنُ أخطبَ نفسَه ولكنه من يَخذل الله يُخْذَلِ
لجاهَدَ حتى أبْلغ النفسَ عُذْرها وقَلْقل يبغى العِزّ كلَّ مُقَلْقَلِ[4]

بل ابتغى عدوُّ الله ذلّ الأبد فوجده ، وجاهد اللهَ بجهده فأصبح برأيه القائل[5] وسعيه الخاسر من الذين لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذابُ النار .

وقُتل من نساء بنى قريظة امرأة واحدة لم يقتل من نسائهم غيرها ، قالت

---

(١) ابن هشام : بين الثمان مائة والتسع مائة .
(٢) ابن هشام : وأنه من ذهب به منكم لا يرجع .
(٣) الفقاح : الزهر إذا انشقت أكمته . والمراد أنها كانت تضرب إلى الحمرة .
قال ابن هشام : فقاحية : ضرب من الوشى .
(٤) قلقل : سعى وتحرك .
(٥) القائل : المخطىء

عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها : والله إنها لعندى تحدّث معى وتضحك ظهراً وبطنا ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقتل رجالها فى السوق إذ هتف هاتف باسمها : أين فلانة قالت : أنا والله قلت لها : ويلك مالك ؟ قالت : أُقتل . قلت : ولم ؟ قالت : لحدث أحدثته . فانطلق بها فضربت عنقها . فكانت عائشة تقول : والله لا أنسى عجباً منها طيب نفسها وكثرة ضحكها وقد علمت أنها تُقتل .

قال ابن هشام : هى التى طرحت الرَّحا على خلاّد بن سُوَيْد فقتلته .

[قصة الزبير بن باطا]

وكان الزبير بن باطا القُرظى قد مَنَّ على ثابت بن قيس بن شمَّاس فى الجاهلية ، أخذه يوم بُعاث فجزّ ناصيته ثم خلّى سبيلَه . فجاءه ثابت لمّا قُتل بنو قريظة وهو شيخ كبير فقال : يا أبا عبد الرحمن هل تعرفنى ؟ قال : وهل يجهل مثلى مثلك قال : فإنى أردتُ أن أجزيك بيدك عندى . قال : إنّ الكريم يجزى الكريم . ثم أتى ثابتٌ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله إنه كان للزبير علىّ مِنّة وقد أحببت أن أجزيه بها فهَبْ لى دمَه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هو لك . فأتاه فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وهب لى دَمَك فهو لك قال : شيخ كبير لا أهل له ولا ولد فما يصنع بالحياة؟ فأتى ثابتٌ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : بأبى أنت وأمى يارسول الله امرأته وولده . قال : هم لك . فأتاه فقال : قد وهب لى رسول الله صلى الله عليه وسلم أهلك وولدك فهم لك . قال : أهل بيت بالحجاز لا مال لهم فما بقاؤهم على ذلك ؟ فأتى ثابتٌ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يارسول الله ماله . قال : هو لك . فأتاه ثابت فقال : قد أعطانى رسول الله صلى الله عليه وسلم مالَك

فهو لك ، فقال : أىْ ثابت ما فعل الذى كان وجهه مرآة صِينية يتراءى فيها عذارى الحى ، كعب بن أسد ؟ قال : قُتل . قال فما فعل سيدُ الحاضر والبادى حُيَىّ بن أخطب ؟ قال : قُتل قال . فما فعل مُقدمتنا إذا شدَدْنا وحاميتنا إذا فرَرْنا عَزّال بن شموال[١] . قال قُتل . قال : فما فعل المجلسان ، يعنى بنى كعب بن قريظة وبنى عمرو بن قريظة ؟ قال : ذهبوا فقتلوا . قال : فإنى أسألك يا ثابت بيدى عندك إلا ألحقتنى بالقوم ، فوالله مافى العيش بعد هؤلاء من خير فما أنا بصابر لله فَيْلة[٢] دلوِ ناضحٍ حتى ألقى الأحبة . فقدّمه ثابت فضرب عنقه .

فلما بلغ أبا بكر الصديق رضى الله عنه قوله : « ألقى الأحبة » قال : يلقاهم والله فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً !

* * *

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر بقتل كل من أنبت منهم . قال عطية القرظى : وكنت غلاماً فوجدونى لم أنبت فخلّوا سبيلى[٣] .

وكان رفاعة بن شموال القرظى رجلا قد بلغ فلاذ بسَلْمى بنت قيس أم المنذر ، أخت سليط بن قيس ، وكانت إحدى خالات رسول الله صلى الله عليه وسلم قدصلّت القبلتين معه وبايعته بيعةَ النساء فقالت : يانبى الله بأبى أنت وأمى

---

(١) ابن هشام : عزال بن سموأل . بالسين .

(٢) كذا بالأصل ، وهو الصواب موافقا لما ذكره ابن كثير فى سيرته ٣ / ٢٤١ حيث قال : قال ابن إسحاق : « فيلة بالفاء والياء المثناة من أسفل . وقال ابن هشام بالقاف والباء الموحدة » خلافا لما أثبته محققو السيرة والسهيلى فى الروض الأنف : فتلة بالتاء . بتأويل بعيد . والناضح البعير الذى يستقى عليه الماء . وقال أبو عبيدة : معناه : إفراغة دلو .

(٣) قال ابن كثير فى السيرة ٣ / ٢٤١ : ورواه أهل السنن الأربعة من حديث عبد الملك ابن عمير ، عن عطية القرظى ، نحوه .

هَبْ لى رفاعة ، فإنه زعم أنه سيصلى ويأكل لحم الجمل . فوهبه لها فاستحيَتْه .

[قسمة الغنائم]

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قسم أموالَ بنى قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين ، وأعْلَمَ فى ذلك اليوم سُهمان الخيل وسهمان الرجال وأخرج منها الخُمس ، فكان للفارس ثلاثة أسهم ، للفرس سهمان ولفارسه سهم ، وللراجل ومن ليس له فرسٌ سهم . فكانت الخيل يوم بنى قريظة ستة وثلاثين فرسا ، وكان أول فَىْء وقعت فيه السهمان وأُخرج منه[1] الخمس ، فعلى سُنّتها وما مضى من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها وقعت المَقَاسم ومضت السُّنة فى المغازى .

ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سعد بن زيد الأنصارى الأشهلى بسبَايا من سبايا بنى قريظة إلى نَجْد فابتاع له بهم خيلا وسلاحا .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اصطفى لنفسه من نسائهم ريحانة بنت عمرو بن خُنَافة من بنى عمرو بن قريظة ، فكانت عنده حتى توفى عنها وهى فى ملكه ، وكان عرض عليها أن يتزوجها ويضرب عليها الحجاب فقالت يا رسول الله بل تتركنى فى ملكك فهو أخفّ علىّ وعليك فتركها . وكانت حين سبَاها قد تعصَّت بالإسلام وأبت إلا اليهودية ، فعزَلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجد فى نفسه لذلك من أمرها ، فبينا هو مع أصحابه إذ سمع وَقْع نعلين خلفه فقال : إن هذا لثعلبة بن سَعْية يبشرنى بإسلام ريحانة . فجاءه فقال : يارسول الله قد أسلمتْ ريحانة . فسَرّه ذلك من أمرها .

---

(١) ابن هشام : وأخرج منها .

[ما نزل فى غزوة الخندق]

وأنزل الله عز وجل فى أمر الخندق وبنى قريظة القصة فى سورة الأحزاب يذكر فيها ما نزل بهم من البلاء، ويذكر نعمته عليهم وكفايته إياهم حين فرج عنهم ذلك.

«يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمةَ الله عليكم إذ جاءتكم جنودٌ فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً، إذ جاءوكم من فَوْقكم ومن أسفلَ منكم وإذ زاغت الأبصارُ وبلغت القلوبُ الحناجِر وتظنّون بالله الظنونا، هنالك ابتُلى المؤمنون وزُلْزِلوا زلزالاً شديداً، وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرضٌ ما وعَدنا الله ورسوله إلا غروراً» فى آيات استوفى فيها تعالى ذكر ما شاء من قصتهم.

ثم قال سبحانه: «وردَّ الله الذين كفرو بغَيْظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قَوِيًّا عزيزا وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صَيَاصيهم وقذَف فى قلوبهم الرعب فريقاً تَقْتلون وتأْسرون فريقا. وأورثكم أرضَهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطأوها وكان الله على كل شىء قديراً».

[وفاة سعد بن معاذ]

فلما انقضى شأن بنى قريظة انفجر بسعد بن معاذ جرحه فمات شهيداً يرحمه الله.

فذكروا أن جبريل أتى رسولَ الله صلى عليه وسلم حين قبض سعد من جوف الليل معتجرا بعمامة من استبرق فقال: يامحمد من هذا الميت الذى فتحت

له أبواب السماء واهتز له العرش[1] ؟! فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم سريعا يجرّ ثوبه إلى سعد بن معاذ فوجده قد مات .

وقد كان سعد رجلا بادِنا فلما حمله الناس وجدوا له خِفّة فقال رجل من المنافقين : والله إنْ كان لَبادنا، وما حملنا من جنازة أخفّ منه . فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « إن له حملةً غيركم ، والذى نفس محمد بيده لقد استبشرت الملائكة بروح سعد واهتز له العرش » .

وقالت عائشة رضى الله عنها لأُسَيْد بن حُضَيْر، وهو قافل معها من مكة وبلغه موت امرأة له فحزن عليها بعض الحزن : يغفر الله لك يا أبا يحيى ، أتحزن على امرأة وقد أُصِبت بابن عمك وقد اهتز له العرش ؟ تعنى سعدا .

وقال جابر بن عبد الله : لما دفن سعد ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبّح رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبّح الناس معه وكبّر فكبر الناس معه فقالوا : يارسول الله مم سبحت ؟ قال : لقد تضايق على هذا الرجل الصالح قبره حتى فرجه الله عنه . ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن للقبر لضمةً لو كان أحدٌ منه ناجياً لكان سعد بن معاذ .

ولسعد يقول رجل من الأنصار :

وما اهتزّ عرشُ الله من موتِ هالكٍ   سمعنا به إلا لسعدٍ أبى عمرِو

وقالت أم سعد حين احتُمل نعشه وهى تبكيه :

---

(١) انظر الروايات التى ذكرها ابن كثير فى سيرته ٣ / ٢٤٥ ــ ٢٤٨ لهذا الحديث ، عن البيهقى فى الدلائل وأحمد فى مسنده ، والبخارى ومسلم فى صحيحيهما .
وفى بعضها : اهتز السرير بدلا من العرش .
وانظر ما قاله السهيلى فى آراء العلماء فى هذا الحديث . فى الروض الأنف .

ويلُ أمِّ سعد ، سعدًا صرامة وحدًّا
وسؤددا ومجدًا وفارسا معدًّا
سُدَّ به مسدًّا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل نائحة تكذب إلا نائحة سعد ابن معاذ » .

* * *

وقال حسان بن ثابت يبكى سعداً :

لقد سجمت(١) من فيض عينى عَبْرةٌ وحقّ لعينى أن تفيض على سعدِ
قتيل ثوى فى معرك فُجعت به عيونٌ ذوارى(٢) الدمع دائمة الوجْدِ
على ملة الرحمن وارث جنّةٍ مع الشهداء وَفْدها أكرمُ الوفدِ
فإن تك قد ودّعتنا وتركتنا وأمسيتَ فى غبراء مظلمة اللحدِ
فأنت الذى يا سعد أُبْتَ بمشهدٍ كريم وأثواب المكارم والحمدِ
بحكمك فى حيَّىْ قريظة بالذى قضى الله فيهم ما قضيتَ على عمدِ
فوافق حكمَ الله حكمُك فيهمُ ولم تَعْفُ إذ ذُكِّرتَ ما كان من عهدِ
فإن كان رَيْبُ الدهر أمضاك فى الأُلَى
شرَوْا هذه الدنيا بجناتها الخلدِ
فنعم مصير الصادقين إذا دُعوا إلى الله يوماً للوجاهة والقصدِ

وقال حسان يبكى سعداً ورجالاً من الشهداء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ألا يا لقومى هل لما حُمّ دافعُ وهل ما مضى من صالح العيش راجعُ

---

(١) سجمت : فاضت .

(٢) ذوارى الدمع : غزيرته .

تذكرتُ عصرًا قد مضى فتهافتتْ ... بنات الحشَا وانهلّ منّى المدامعُ

صبابةُ وَجْد ذكّرتنِىَ إخوةً ... وقتلَى مضَى فيها طفيلٌ ورافعُ

وسعد فأضحَوْا فى الجِنَان وأوحشت ... منازلهم فالأرض منهم بلاقعُ[1]

وفَوْا يومَ بدرٍ للرسول وفوقهم ... ظلالُ المنايا والسيوف اللوامعُ

دعا فأجابوه بحقّ وكلهم ... مطيعٌ له فى كل أمرٍ وسامعُ

فما نكّلوا حتى توالَوا[2] جماعة ... ولا يقطع الآجالَ إلا المصارعُ

لأنهم يَرْجون منه شفاعةً ... إذا لم يكن إلا النبيون شافعُ

فذلك يا خيرَ العباد ملاذُنا ... إجابتنا لله والموت ناقعُ

لنا القدَم الأولى إليك وخَلْفنا ... لأوّلنا فى ملة الله تابعُ

ونعلم أن الملكَ لله وحدَه ... وأن قضاء الله لابد واقعُ

[شهداء المسلمين فى الخندق]

ولم يستشهد من المسلمين يوم الخندق إلا ستة نفر كلهم من الأنصار : سعد بن معاذ ، وأنس بن أوس بن عَتِيك ، وعبد الله بن سَهل الأشهليون ، والطُّفيل بن النعمان ، وثعلبة بن غَنمة الجُشَميّان . ومن بنى دينار بن النجار كعب بن زيد ، أصابه سهمٌ غَرْب فقتله . رحمة الله عليهم .

واستشهد يوم بنى قريظة من المسلمين خَلاّد بن سويد من بنى الحارث ابن الخزرج ، طُرحت عليه رحى فشدختْه شَدْخاً شديداً ، فزعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن له لأجر شهيدين » .

---

(١) البلاقع : المقفرة .

(٢) عند ابن كثير : «حتى توالوا» .

ومات أبو سِنَان بن مِحْصَن أخو عُكَّاشة بن مِحْصَن ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم محاصر بنى قريظة .

* * *

ولما انصرف أهلُ الخندق عن الخندق قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لن تغزوكم قريشٌ بعد عامكم هذا ، ولكنكم تغزونهم » . فكان كذلك لم تغزهم قريش بعد ذلك وهو صلى الله عليه وسلم يغزوهم حتى فتح الله عليه مكة .

[ما قيل من الشعر فى غزوة الخندق]

وقال حسّان بن ثابت فى يوم الخندق يجيب عبد الله بن الزِّبَعْرَى شاعر قريش عن كلمة قالها فى ذلك :

هل رَسْم دارِسة المقام يَبَاب ... متكلم لمحاورٍ بجوابِ
قَفْر عفارِمُ السحاب رسومَه ... وهبوب كلّ مُظِلة مِرْبابِ[1]
ولقد رأيت بها الحلولَ يَزِينهم ... بيضُ الوجوه ثواقبُ الأحسابِ
فدَعِ الديار وذِكْرَ كلِّ خريدةٍ ... بيضاء آنسة الحديث كَعابِ
واشكُ الهموم إلى الإله وما ترى ... من مَعْشر ظلموا الرسولَ غضابِ
ساروا بجمعهمُ إليه وألَّبُوا ... أهلَ القرى وبوادىَ الأعرابِ
جيشُ عُيَيْنة وابن حَرْب فيهم ... متخطّمين بحَلْبة الأحزابِ[2]
حتى إذا وردوا المدينةَ وارتجوا ... قتلَ الرسولِ ومَغْنم الأسلابِ
وغدوا علينا قادرين بأيْدهم ... رُدُّوا بغيظهم على الأعقابِ

---

(١) الرهم : جمع رهمة ، وهو المطر الضعيف الدائم . والمظلة : السحابة . وفى ابن هشام : مطلة . بالطاء . والمرباب : الدائمة .

(٢) كذا بالأصل . وفى ابن هشام وابن كثير : متخمطون بحلبة الأحزاب . والمتخطم : من وضع الخطام فى أنفه . ولعل رواية الكلاعى هنا أصح وأوضح .

بهبوب مُعْصفة تفرّق جَمْعهم ... وجنود ربك سيّد الأربابِ

وكفى[1] الإله المؤمنين قتالَهم ... وأثابهم فى الأجر خيرَ ثوابِ

من بعد ما قَنطوا ففرّق جمعهم ... تنزيل نصر مليكنا الوهابِ

وأقرّ عين محمدٍ وصحابه ... وأذلّ كلّ مكذّبٍ مرتابِ

عاتى الفؤادِ موقّعٍ ذى ريبةٍ ... فى الكفر ليس بطاهرِ الأثوابِ

علِق الشقــاء بقلبه ففؤاده ... فى الكفر آخر هذه الأحقابِ

* * *

وقال كعب بن مالك فى ذلك أيضاً يجيب ابن الزبعرى عن كلمته :

أبقَى لنا حدث الحروب بقيةً ... من خير نِحْلة ربنا الوهاب

بيضاء مُشْرِفة الذُّرَى ومعاطنًا ... حُمُ الجذوع غزيرةَ الأحلاب[2]

كاللُّوب يبذل جَمّها وحَفِيلها ... للجار وابن العم والمنتــاب[3]

ونزائعاً مثل السِّراج نَمَى بها ... علفُ الشعير وجِزّة المِقضَابِ[4]

---

(١) ابن هشام : فكفى .

(٢) المعاطن : قال السهيلى : يعنى منابت النخل عند الماء شبهها بمعاطن الإبل وهى مباركها عند الماء . وقوله : حم الجذوع وصفها بالحمة وهى السواد لأنها تضرب إلى السواد من الخضرة والنعمة . وشبه مايجتنى منها بالحلب فقال : غزيرة الأحلاب . الروض ٢/٢٠٤ .

(٣) اللوب : جمع لوبة وهى الحرة ، وهى أرض ذات حجارة سود . واللوب أيضا : النحل ، ويجوز أن يكون شبهها بالنحل فى كثرتها ، وجمها وحفيلها : أراد الكثير منها . والمنتاب : الزائر الملم .

(٤) النزائع : الخيل التى تجلب إلى غير بلادها ، يريد أنهم استلبوها من الأعداء . والمقضاب : مزرعة . كما قال السهيلى وجزتها : ما يجز منها للخيل .

والسراج : كذا بالأصل بالجيم . وفى ابن هشام : مثل السراح بالحاء . أى الذئاب كما قال شراح الكتاب .

عرّى الشَّوَى منها وأردف نَحْضَها جُرْدُ المتون وسار فى الآرابِ[1]

قُودًا تُراح إلى الصِّيَاح إذا غدَتْ فعلَ الضِّراء تُراح فى الكُلّابِ[2]

وتحوط سائمةَ الدِّمار وتارةً تُرْدِي العِدَى وتؤوب بالأسلابِ[3]

يَعْدُون بالزَّغْف المضاعفِ شَكُّه وبمُتْرِصات فى الثِّقاف صِيَابِ[4]

وصوارم نزع الصياقلُ عَلْبَهَا وبكلِّ أَرْوَعَ ماجد الأنسابِ[5]

يصل اليمين بمارنٍ متقارب وكلت وقيعته إلى خَبَّابِ[6]

وكتيبةٍ يَنْفِى القرانَ قَتِيرُها وترد حَدَّ قَوَاحِزِ النُّشَّابِ[7]

أعيتْ أبا كَرِبٍ وأعيت تُبَّعًا وأبتْ بسالتُها على الأعرابِ[8]

ومواعظ من ربنا نُهْدَى بها بلسان أزهر طيب الأثوابِ

عُرضت علينا فاشتهينا ذِكرها من بعد ما عُرضت على الأحزابِ

حِكَمًا يراها المجرمون بزعمهم حَرَجًا ويفهمها ذوو الألبابِ

---

(١) الشوى : القوائم والنحض : اللحم . الاراب : المفاصل . وحدها إرب .

وفى ابن هشام : وسائر الآراب .

(٢) القود : الطوال الأعناق . والضراء : الكلاب الضارية . والكلاب : جمع كالب وهو صاحب الكلاب الذى يصيد بها .

(٣) كذا بالأصل . وفى ابن هشام وتحوط سائمة الديار . . الخ . والسائمة : الماشية المرسلة فى المرعى إبلا كانت أو غيرها . وتردى : تهلك .

(٤) يعدون . كذا بالأصل . وهو من العدو وهو الجرى . وفى ابن هشام : يغدون . الزغف : الدروع الواسعة . والشك : الخلق والنسج . والمترصات : المحكمة ، يعنى الرماح المثقفة . والصياب : المصيبة .

(٥) علبها : خشونتها وتثلمها .

(٦) المارن : اللين . ووقيعته : صقله . وخباب : اسم صيقل .

(٧) القران : اقتران النبل واجتماعه . والقتير : رءوس مسامير الدرع . والقواحز : قحز السهم إذا رماه فوقع بين يديه . وفى ط . تنفى القران .

(٨) أبو كرب وتبع : من ملوك اليمن قبل الإسلام .

جاءت سَخِينة كى تغالبَ ربَّها وليُغْلَبَنّ[1] مُغالِب الغَلاّبِ

ولما قال كعب بن مالك هذا البيت : « جاءت سخينة » إلى آخره . قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد شكرك الله يا كعب على قولك هذا .

* * *

وقال كعب أيضاً :

لقد عَلِمَ الأحزابُ حين تألَّبوا علينا وراموا دِينَنا ما نوادِعُ

أضاميم من قيس بن عَيْلان أصفقَتْ وخِنْدِف لم يَدْروا بما هو واقعُ[2]

يذودوننا عن ديننا ونَذُودهم عن الكفر والرحمٰن راءٍ وسامعُ

إذا غايَظونا فى مقامٍ أعاننا على غيظهم نصرٌ من الله واسعُ

وذلك حفظ الله فينا وفضلُه علينا ومن لم يحفظ الله ضائعُ

هدانا لدين الحق واختاره لنا ولله فوق الصانعين صنائعُ

وقال كعب أيضاً :

ألا أبلغ قريشاً أن سَلْعا وما بين العُرَيْض إلى الصِّمادِ[3]

نواضح فى الحروب مُدَرَّبات وخوص بُقِّيَتْ من عهد عادِ[4]

رَوَاكد يزجر المرّانُ فيها فليست بالجِمام ولا الثِّمادِ[5]

---

(١) ابن هشام : فليغلبن . ومراده بسخينة : قريش ، وإنما كانت العرب تسميهم بذلك لكثرة أكلهم للطعام السخن الذى لا يتهيأ لغيرهم غالبا من أهل الوادى .

(٢) الأضاميم : واحدتها أضمامة ، وهو كل شيء مجتمع . وأصفقت : اجتمعت .

(٣) سلع : جبل بسوق المدينة . والعريض : واد بالمدينة . والصماد : جبل .

(٤) نواضح : يعنى حدائق نخل تسق بالنضح والخوص : الآبار . وبقيت : بقيت ، وفى ابن هشام : ثقبت .

(٥) المران : شجر ، وهو كذلك الرماح الصلبة اللدنة ، الواحدة : مرانة . والجمام : الماء الكثير . والثماد : الماء القليل .

والرواية فى ابن هشام : روا كد يزخر المرار فيها.

بلادٍ لم تُثَر إلا لكَيْمـا ... نجالد إن نشطتم للجـلادِ[1]

أثَرْنا سِكَّة الأنباط فيها ... فلم تر مثلها جَلَهاتِ وادِى[2]

قَصَرْنا كل ذى حُضر وطول ... على الغايات مقتدر جوادِ[3]

أجيبونا إلى ما نجتديكم ... من القول المبيّن والسَّدادِ[4]

وإلا فاصبروا لِجلاد يوم ... لكم منا إلى شَطْر المذادِ[5]

نصبحكم بكل أخى حروب ... وكل مُطَهَّم سَلِس القيادِ[6]

وكل طِمِرَّة خَفِق حشَـاها ... تدفّ دَفيفَ صفراء الجرادِ[7]

وكل مقلّص الآراب نَهْد ... تَميم الخلق من أُخُر وهادِى[8]

خيولٌ لا تضاع إذا أُضيعت ... خيول الناس فى السَّنة الجمادِ

ينازعن الأعنة مُصْغيات ... إذا نادى إلى الفَزع المنادِى

إذا قالت لنا النُّذر استعدّوا ... توكَّلنا على رَبّ العبادِ

وقلنا لن يُفرّج ما لقينا ... سوى ضَرْب القوانس والجهادِ[9]

ولم نر عصبة فيمن لقينا ... من الأقوام من قارٍ وبادِ[10]

---

(١) تثر : تحرث . والجلاد : القتال .

(٢) السكة : الصف من النخل ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « خير المال سكة مأبورة » . وقيل : هى الحديدة التى تشق بها الأرض . والجلهات . جمع جلهة ، وهى ما كشفه السيل .

(٣) الحضر : ارتفاع الفرس فى عدوه . وفى الأصل : حصر : وما أثبته عن ابن هشام

(٤) نجتديكم : نسألكم إياه . وفى ط : نجتذيكم .

(٥) شطر المذاد : الشطر : الجهة والناحية . والمذاد : موضع بالمدينة حيث حفر الخندق

(٦) المطهم من الخيل : الفرس التام الخلق .

(٧) الطمرة : الفرس الجواد . وخفق حشاها : أى ضامرة .

(٨) المقلص : المرتفع . والآراب : الأعضاء . والنهد : الغليظ . والأخر : العجز . والهادى : العنق .

(٩) القوانس : جمع قونس وهو أعلى بيضة الحديد .

(١٠) القار : المقيم . والبادى : المتنقل .

أشدّ بسالة منّا إذا ما أردناه وألين في الودادِ

إذا ما نحن أشرجنا عليها جيادَ الجُدْل في الأُرَب الشدادِ[١]

قذفنا في السوابغ كل صقْر كريم غير معتلثِ الزنادِ[٢]

ليظهر[٣] دينُك اللهم إنا بكفّك فاهدنا سبلَ الرشادِ

* * *

وقال حسان بن ثابت يذكر بني قريظة :

تفاقدَ[٤] معشرٌ نصروا قريشاً وليس لهم ببلدتهم نصيرُ

همُ أوتوا الكتاب فضيّعوه وهم عُمْى من التوراة بُورُ

كفرتم بالقُران وقد أُتيتم بتصديق الذى قال النذيرُ

فهان على سَراة بنى لؤيّ حريقٌ بالبُوَيْرة[٥] مستطيرُ

ولما سمع ذلك أبو سفيان بن الحارث قال :

أدامَ الله ذلك من صنيع وحرّق في طوائفها السعيرُ

في أبيات ذكرها ابن إسحٰق لم يأْل قائلها أن صدّق حسان .

وقال في ذلك أيضا جبل بن جَوّال الثعلبي ، وبكى النضير وقريظة ونعى

---

(١) أشرجنا : ربطنا . والجدل : الدروع المحكمة . والأرب : جمع أربة وهى العقدة المحكمة .

(٢) المعتلث : هو الذى لا يدرى من أى خشب هو .

(٣) ابن هشام : لتظهر دينك .

(٤) تفاقد : فقد بعضهم بعضا .

(٥) البويرة : موضع بنى قريظة .

على سعد بن معاذ إسلامه مواليه منهم خلاف ما فعله عبد الله بن أُبَىّ فى بنى قينقاع :

ألا يا سعد سعد بنى معاذٍ   لمَا لقيتْ قريظةُ والنضيرُ

لَعَمْرك إن سعد بنى معاذٍ   غداةَ تحمّلوا لهو الصبورُ

فأما الخزرجى أبو حُبَاب   فقال لقينقاع لا تسيروا

ويقول فى آخرها :

تركتم قِدْركم لا شىء فيها   وقِدْر القومِ حامية تَفُورُ

فقال سعد حين بلغه هذا الشعر : من لقيهم فليحدّثهم أنهم خانوا الله ورسوله فأخزاهم الله .

مقتل سلام بن أبى الحقيق

وكان سَلاَّم بن أبى الحقيق أبو رافع فيمن حزّب الأحزابَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان مما صنع الله به لرسوله أن هذين الحيّين من الأنصار الأوس والخزرج كانا يتصاولان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تصاول الفحلين، لا تصنع الأوس شيئاً فيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم غَناء إلا قالت الخزرج: والله لا يذهبون بهذه فضلا علينا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى الإسلام. فلا ينتهون حتى يوقعوا مثلها وإذا فعلت الخزرجُ شيئاً قالت الأوس مثل ذلك.

وكانت الأوس قبل أحد قد قتلت كعبَ بن الأشرف فى عداوته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتحريضه عليه، فقالت الخزرج: والله لا يذهبون بها فضلا علينا أبداً. فتذاكروا بعد أن انقضى شأن الخندق وبنى قُرَيظة: من رجلٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى العداوة كابن الأشرف؟ فذكروا ابن أبى الحُقَيق وهو بخيبر، فاستأذنوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فى قتله [فأذن لهم[1]]. فخرج إليه من الخزرج من بنى سَلِمة خمسة نفر: عبد الله بن عَتِيك، ومسعود بن سِنَان، وعبد الله بن أُنَيْس، وأبو قتادة الحارث بن رِبْعى، وخُزاعى بن أسود حليف لهم من أسْلم.

فخرجوا، وأمّر عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عبدَ الله بن عَتِيك ونهاهم أن يقتلوا وليداً أو امرأة.

---

(١) من ابن هشام.

فخرجوا حتى إذا قدموا خيبر أتوا دار ابن أبى الحقيق ليلا ، فلم يدَعوا بيتا فى الدار إلا أغلقوه على أهله ، وكان فى عُلِّية له إليها عِجْلة[١] فأسندوا فيها حتى قاموا على بابه ، فاستأذنوا ، فخرجت عليهم امرأة فقالت من أنتم ؟ فقالوا : أناس من العرب نلتمس الميرة . قالت : ذاكم صاحبكم فادخلوا إليه . قال : فلما دخلنا أغلقنا علينا وعليها الحجرة تخوّفا أن يكون دونه مُجادلة تحول بيننا وبينه . قال : وصاحت امرأته فنوّهت بنا ، وابتدرناه وهو على فراشه بأسيافنا ، والله ما يدلّنا عليه فى سواد الليل إلا بياضه كأنه قُبطية[٢] ملقاة . ولما صاحت بنا امرأته جعل الرجل منا يرفع عليها سيفه ثم يذكر نَهْىَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فيكفّ يده ، ولولا ذلك لفرَغنا منها بليل ، فلما ضربناه تحامل عليه عبد الله بن أُنَيْس بسيفه فى بطنه حتى أنفذه وهو يقول : قَطْنى قَطْنى ، أى حَسْبى حسبى .

قال : وخرجنا وكان عبد الله بن عتيك رجلا سيء البصَر ، فوقع من الدرجة فوثئت يدُه وثئاً[٣] شديدا . قال ابن هشام : ويقال رجله . وحملناه حتى نأتى مَنْهرا من عيونهم فندخل فيه . قال : وأوقدوا النيران واشتدوا فى كل وجه يطلبون[٤] ، حتى إذا يئسوا رجعوا إلى صاحبهم فاكتنفوه وهو يَقْضى بينهم . فقلنا كيف لنا بأن نعلم أن عدو الله قد مات ؟ فقال رجل منا : أنا أذهب فأنظر لكم . فانطلق حتى دخل فى

(١) العلية : الغرفة . والعجلة : الدرج من النخل .
(٢) القبطية : ثياب بيض كانت تصنع بمصر .
(٣) وثئت : فكت ، أو أبها وجع بلا كسر .
(٤) ابن هشام : يطلبوننا .

الناس قال : فوجدتُها[1] ورجال يهود حوله وفى يدها المصباح تنظر فى وجهه وتحدثهم وتقول : أمَا والله لقد سمعت صوت ابن عَتِيك ثم أكذبت[2] وقلت أنَّى ابنُ عَتِيك بهذه البلاد. ثم أقبلت عليه تنظر فى وجهه ثم قالت : فاظَ وإله يهود . فما سمعت من كلمة كانت ألذَّ إلى نفسى منها .

ثم جاءنا فأخبرنا الخبر فاحتملنا صاحبنا فقدِمْنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرناه بقتل عدو الله واختلفنا عنده فى قتله ، كلنا ندعيه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هاتوا أسيافكم . فجئناه بها فنظر إليها فقال لسيف عبد الله بن أنيس : هذا قتله أرى فيه أثرَ الطعام[3] .

وقال حسان بن ثابت يذكر قتل كعب بن الأشرف وقتل سلام ابن أبى الحقيق :

لله دَرُّ عصابة لاقيتَهم	يابن الحقَيق وأنت يابن الأشرفِ
يَسْرون بالبيض الخِفاف إليكم	مرحاً كأسْد فى عرين مُغْرِف[4]
حتى أتوكم فى محلِّ بلادكم	فسقَوكم حَتْفاً ببيض ذُفَّفِ
مُسْتنصرين[5] لنصر دين نبيهم	مستصغرين لكل أمرٍ مُجْحِفِ

---

(١) وجدتها : يعنى امرأته .

(٢) ابن هشام : ثم أكذبت نفسى .

(٣) انظر رواية البخارى فى مقتل ابن أبى الحقيق فى صحيحه ٢ / ٢١٤ ط الأميرية (سنة ١٢٨٠ هـ) .

(٤) مغرف : ذو شجر كثير ملتف .

(٥) فى رواية لسيرة ابن هشام : مستبصرين .

ذكر إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد

رضى الله عنهما

حدَّث عمرو بن العاص رحمه الله قال : لمّا انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق جمعتُ رجالا من قريش كانوا يرون رأيي ويسمعون منى فقلت لهم : تعلّموا والله إنى أرى أمر محمد يعلو الأمور علوًّا منكَرا ، وإنى قد رأيت أمرا فما ترون فيه ؟ قالوا : وماذا رأيت ؟ قال رأيت أن نلحق بالنجاشى فنكون عنده ، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشى ، فإنا أن نكون تحت يديه أحب إلينا أن نكون تحت يدى محمد ، وإن ظهر قومنا فنحن من قد عرفوا فلن يأتينا منهم إلا خير . قالوا : إن هذا الرأى . قلت : فاجمعوا ما نهدى له ، وكان أحب ما يهدى إليه من أرضنا الأدَم[1] فجمعنا له أدما كثيرا ، ثم خرجنا حتى قدمنا عليه ، فوالله إنا لعنده إذ جاءه عمرو بن أمية الضَّمْرى بعثه إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شأن جعفر وأصحابه قال فدخل عليه ثم خرج من عنده فقلت لأصحابى : هذا عمرو بن أمية لو قد دخلت على النجاشى سألته إياه فأعطانيه فضربت عنقه ، فإذا فعلتُ ذلك رأت قريش أنى قد أجزأت عنها حين قتلتُ رسولَ محمد قال : فدخلتُ عليه فسجدت له كما كنت أصنع فقال لى : مرحبا بصديقى ، أهديتَ لى من بلدك شيئا ؟ قلت نعم أيها الملك ، قد أهديت لك أدَما كثيرا . ثم قربتُهُ إليه فأعجبه واشتهاه ثم

---

(١) الأدم : الجلد . أو أحمره أو المصبوغ منه .

قلت له : أيها الملك : إنى قد رأيت رجلا خرج من عندك وهو رسول رجل عدوّ لنا فأعطينيه لأقتله فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا . قال : فغضب ثم مد يده وضرب بها أنفه ضربةً ظننت أنه قد كسره ، فلو انشقت الأرض لدخلت فيها فَرَقًا منه ثم قلت له : أيها الملك والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتكه ، قال : أتسألنى أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموسُ الأكبر الذى كان يأتى موسى لتقتله ؟! قلت : أكذلك هو أيها الملك ؟ قال : ويحك عمرو أطِعْنى واتبعه فإنه والله لعلى الحق ولَيظهرنّ على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده . قلت : أفتبايعنى له على الإسلام ؟ قال : نعم . فبسط يده فبايعتُه على الإسلام .

ثم خرجت إلى أصحابى وقد حال رأيى عما كنت عليه ، وكتمت أصحابى إسلامى ، ثم خرجت عامداً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأُسلم ، فلقيتُ خالدَ بن الوليد وذلك قبيل الفتح ، وهو مُقْبل من مكة ، فقلت : أين يا أبا سليمان ؟ قال : والله لقد استقام المَنْسِم (١) وإنّ الرجل لَنبيّ ، أذهب والله فأُسْلم ، حتى متى ؟! قلت : والله ما جئتُ إلا لأُسلم .

فقدمنا المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فتقدم خالدُ بن الوليد فأسلَمَ وبايعَ ثم دنوت فقلت : يارسول الله إنى أبايعك على أن يُغفر لى ما تقدم من ذنبى ولا أذكر ما تأخر . فقال رسول الله صلى الله عليه

---

(١) هامش ط : خ : المنسم . والميسم : المكواة ، وهو أثر الحسن أيضا . ومعنى استقام المنسم : تبين الطريق ووضح .

وسلم : « ياعمرو بايع فإن الإسلام يجُبّ ما كان قبله ، وإن الهجرة تجب ما كان قبلها » قال فبايعته وانصرفت .

وذكر ابن إسحق عمن لا يُتهم أن عثمان بن طلحة بن أبي طلحة أخا بني عبد الدار كان معهما أسلَم حين أسلما .

وذكر غيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حين رآهم : رمَتْكم مكة بأفلاذ كبدها .

وحدّث الواقدى بإسناد له قال : قال عثمان بن طلحة : لقيني رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة قبل الهجرة فدعاني إلى الإسلام فقلت : يامحمد العجب لك حين تطمع أن أتبعك وقد خالفتَ قومك وجئت بدين مُحدَث ففرّقت جماعتهم وألفتهم وأذهبت بهاءهم . فانصرف ، وكنا نفتح الكعبة فى الجاهلية يوم الاثنين والخميس ، فأقبل يوماً يريد أن يدخل الكعبة مع الناس فغلُظت عليه ونلت منه وحَلُم عنّى ثم قال : ياعثمان لعلك سترى هذا المفتاح يوماً بيدى أضعه حيث شئت . فقلت : لقد هلكت قريش يومئذ وذلّت . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل عمرت وعَزّت يومئذ . فوقعت كلمته منى موقعاً ظننت أن الأمر سيصير إلى ما قال . فأردتُ الإسلام فإذا قومى يَزْبروني [1] زبراً شديداً ويُزْرون برأيي ، فأمسكتُ عن ذكره . فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة جعلتْ قريش تُشْفق من رجوعه عليها ، فهم على ما هم عليه

---

(١) يزبروني : ينهوني ويمنعوني .

حتى جاء النفير إلى بَدْر ، فخرجت فيمن خرج من قومنا وشهدت المشاهد كلها معهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما دخل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مكة عام القضية غيّر الله قلبي عمّا كان عليه ودخلني الإسلام وجعلت أفكر فيما نحن عليه وما نعبد من حجر لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر ، وأنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وظَلَف[1] أنفسهم عن الدنيا فيقع ذلك منى فأقول : ما عملَ القومُ إلا على الثواب لما يكون بعد الموت . وجعلت أحب النظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى أن رأيته خارجا من باب بنى شَيْبة يريد منزله بالأبْطَح فأردت أن آتيه وآخذ بيده وأسلّم عليه فلم يُعْزَم لى على ذلك ، وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعاً إلى المدينة ، ثم عزم لى على الخروج إليه ، فأدلجت إلى بطن يأجَج[2] فألقَى خالد بن الوليد ، فاصطحبنا حتى نزلنا الهدَة[3] فما شعرنا إلا بعمرو بن العاص فانقمعْنا عنه وانقمع منا ، ثم قال : أين يريد الرجلان ؟ فأخبرناه فقال : وأنا أريد الذى تريدان .

فاصطحبْنا جميعاً حتى قدِمْنا المدينةَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم فبايعته على الإسلام وأقمت حتى خرجت معه فى غزوة الفتح ودخل مكة فقال لى : ياعثمان ايت بالمفتاح ، فأتيته به فأخذه منى ثم دفعه إلىّ وقال :

---

(١) الظلف : الزهد والامتناع .

(٢) يأجج : موضع بمكة .

(٣) الهدة : موضع بين عسفان ومكة .

خذوها تالدةً خالدةً ولا يَنزعها منكم إلا ظالم ، ياعثمان إن الله استأمنكم على بيته فكلُوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف .

قال عثمان : فلما ولّيت نادانى فرجعت إليه فقال : ألم يكن الذى قلت لك ؟ فذكرت قوله لى قبل الهجرة بمكة : « لعلك سترى هذا المفتاحَ يوماً بيدى أضعه حيث شئتُ » فقلت : بلى ، أشهد أنك رسولُ الله !

قال الواقدى : فهذا أثبت الوجوه فى إسلام عثمان .

غزوة بنى لحيان

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأس ستة أشهر من فتح بنى قريظة إلى لحيان يطلبهم بأصحاب الرّجيع خُبَيْب وأصحابه ، وأظهر أنه يريد الشام ليصيب من القوم غِرّة .

فلما انتهى إلى منازلهم بغُرَان وهو واد بين أمج وعُسفان وجدهم قد حذروا وتمنّعوا فى رءوس الجبال . فلما أخطأه من غرتهم ما أراد قال : لو أنا هبطنا عُسفان لرأى أهلُ مكة أنا قد جئنا مكة . فخرج فى مائتى راكب من أصحابه حتى نزل عسفان ثم بعث فارسين من أصحابه حتى بلغا كُرَاع الغَمِيم[1] ثم كرّا وراح رسول الله صلى الله عليه وسلم قافلا .

فكان جابر بن عبد الله يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول حين وجّه راجعًا : « آيبون تائبون إن شاء الله ، لربنا حامدون ، أعوذ بالله من وَعْثاء السَّفَر وكآبة المنقلب وسوء المنظر فى الأهل والمال » .

غارة عُيَيْنة بن حِصْن على سَرْح المدينة

وخروج النبى صلى الله عليه وسلم فى أثره ، وهى غزوة ذى قَرَد

ولما قدم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المدينةَ من غزوة بنى لحيان لم يُقم بالمدينة إلا ليالى قلائل ، حتى أغار عُيَيْنة بن حِصْن فى خيل من غَطَفان على لِقاح رسول الله صلى الله عليه وسلم بالغابة ، وفيها رجل من بنى غفار وامرأة له ، فقتلوا الرجلَ واحتملوا المرأة فى اللِّقاح .

---

(١) كراع الغميم : موضع على ثلاثة أميال من عسفان .

وكان أول أول من نَذِر بهم سلمة [بن عمرو[1]] بن الأكوع الأسلمي ، غدا يريد الغابة متوشحاً سيفه[2] ونَبْله ومعه غلام لطلحة بن عبيد الله معه فرس يقوده ، حتى إذا علا ثنيّة الوَداع نظر إلى بعض خيولهم فأشرف ناحية سَلْع ثم صرخ : واصباحاه . ثم خرج يشد في آثار القوم وكان مثل السبع ، حتى لحق القوم فجعل يردّهم بالنبل ويقول إذا رمى :

خُذْها وأنا ابن الأكوع اليومَ يوم الرُّضَّع[3]

فإذا وجهت الخيل نحوه انطلق هارباً ثم عارضهم فإذا أمكنه الرمى رمى ثم قال :

خذها وأنا ابن الأكوع اليوم يوم الرضع

فيقول قائلهم : أأُكَيِّعنا[4] هو أولَ النهار .

وبلغ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم صياحُ ابن الأكوع فصرخ بالمدينة الفَزع الفزع . فترامت الخيلُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان أول من انتهى إليه من الفرسان المِقْداد بن عمرو ، وهو الذي يقال له المقداد ابن الأسود . ثم كان أول فارس وقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد المقداد من الأنصار عبادُ بن بشر وسعد بن زيد الأشهليان وأُسَيْد بن ظُهَيْر الحارثيّ ، يُشكّ فيه ، وعُكّاشة بن مِحْصَن ، ومُحْرز بن نَضْلة الأسديان وأبو قَتادة السَّلَمِيّ وأبو عَيّاش الزُّرَقي .

---

(١) من ابن هشام وابن كثير .

(٢) ابن هشام وابن كثير : متوشحا قوسه .

(٣) الرضع : جمع راضع وهو اللئيم . أي يوم هلاك اللئام .

(٤) كذا في الأصل . وفي ابن كثير : أو يكعنا . بهمزة استفهام وواو . ومعناها : يخوفنا أو يصرفنا عن غايتنا . أما محققو سيرة ابن هشام فقد ضبطوها بالتصغير بضم الهمزة وفتح الواو وسكون الياء . ولا معنى لها . ولعل ما أثبته الكلاعي هنا هو الصواب في التصغير ، إذ هو تصغير الأكوع .

فلما اجتمعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمَّر عليهم سعدَ بن زيد وقال : اخرج فى طلب القوم حتى ألحقك فى الناس . وقال لأبى عيّاش : يا أبا عياش لو أعطيتَ هذا الفرسَ رجلاً هو أفرس منك فلحق بالناس . قال أبو عياش : فقلت يا رسول الله أنا أفرس الناس . ثم ضربت الفرس فو الله ما جرى بى خمسين ذراعاً حتى طرحنى ، فعجبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لو أعطيته أفرسَ منك وأقول : أنا أفرس الناس ! فأعطى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فرسَ أبى عياش هذا فيما زعموا ، معاذَ بن ماعص أو عائذ بن ماعص ، فكان[1] ثامنا .

فخرج الفرسانُ فى طلبَ القوم حتى تلاحقوا ، وكان أول فارس لحق بالقوم مُحرْز بن نَضْلة الأخرم ، ويقال له أيضاً قمير ، ولمّا كان الفزَعُ جال فرسٌ لمحمود بن مَسْلمة فى الحائط وهو مربوط بجذع نخل حين سمع صاهلة الخيل ، وكان فرسا صنيعا جامّا[2] فقال بعض نساء بنى عبد الأشهل : يا قُمَيْر هل لك فى أن تركب هذا الفرس فإنه كما ترى ، ثم تلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم وبالمسلمين ؟ قال : نعم فأعطينه إياه. فخرج عليه فلم يلبث أن بزَّ الخيلَ بجمامه حتى أدرك القومَ ، فوقَف لهم بين أيديهم ثم قال قفوا بنى اللَّكيعة حتى يلحق بكم مَن وراءكم من المهاجرين والأنصار ، وحمل عليه رجلٌ منهم ، وجال الفرسُ فلم يقدر عليه حتى وقف على آرِيّه[3] فى بنى عبد الأشهل .

---

(١) ابن هشام : وكان ثامنا .

(٢) الفرس الصنيع : الذى يخدمه أهله ويقومون عليه والجام : المستريح .

(٣) وقف على آريه : أى رجع إلى مربطه الذى كان فيه من المدينة .

فقيل لم يُقتل من المسلمين يومئذ غيره وقد قيل إنه قُتل معه وَقَّاص بن مُحْرز [(١)] المدْلِجىّ .

ولما تلاحقت الخيل قتل أبو قتادة حبيبَ بن عُيَيْنة بن حصن وغشّاه بُرْده ثم لحق بالناس ، وأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسلمين فإذا حبيب مُسَجّى ببرد أبى قتادة ، فاسترجع الناس وقالوا : قُتل أبو قتادة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس بأبى قتادة ، ولكنه قتيل لأبى قتادة وضع عليه برده ليعرفوا أنه صاحبه .

وأدرك عُكّاشة بن مِحْصن أوْباراً وابنه عمرو بن أوبار وهما على بعير واحد فانتظمهما بالرمح فقتلهما جميعاً ، واستنقذوا بعضَ اللِّقاح .

وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل بالجبل من ذى قَرد وتلاحق به الناس ، وأقام عليه يوماً وليلة ، وقال له أبو سلَمَة بن الأكوع : يارسول الله لو سرّحتنى فى مائة رجل لاستنقذت بقية السّرْح وأخذتُ بأعناق القوم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنهم الآن لَيُغْبَقُون [(٢)] فى غطفان .

فقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم : فى أصحابه فى كل مائة رجل جزوراً . وأقاموا عليها ثم رجع قافلا إلى المدينة .

وأفلتت امرأة الغفَارى على ناقة من إبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قدمت عليه فأخبرته الخبر ، فلما فرغت قالت يارسول الله إنى قد نذرت لله أن أنحرها إن نجّانى الله عليها ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : بئس

---

(١) محرز : كذا بالأصل . وفى سيرة ابن كثير : ٣ / ٢٨٨ : مجزز ، وهو كذلك فى الاستيعاب لابن عبد البر والمشتبه للذهبى .

(٢) يغبقون : يشربون الغبوق ، وهو ما يشرب بالعشى .

ما جزيتها أن حملك الله عليها ونجاك بها ثم تنحرينها ، إنه لانذر فى معصية الله ولا فيما لاتملكين ، إنما هى ناقة من إبلى ارجعى إلى أهلك على بركة الله .

فهذا حديث ابن إسحق عن غزوة ذى قرد .

وخرج مُسْلم بن الحجّاج رحمه الله حديثاً فى صحيحه[1] بإسناده إلى سلمة ابن الأكوع فذكر حديثاً طويلا خالف به حديث بن إسحق فى مواضع منه ، فمن ذلك : أن هذه الغزوة كانت بعد انصراف الرسول صلى الله عليه وسلم من الحديبية وجعلها ابن إسحق قبل ذلك ، وكذلك فعل ابنُ عُقبة .

وفيه أن سلمة بن الأكوع استنقذ سَرْحَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بجملته ، قال سلمة : فوالله ما زلت أرميهم وأعقر بهم فإذا رجع إلىّ فارس أتيتُ شجرةً فجلست فى أصلها ثم رميته فعقرت به حتى إذا تضايق الجبلُ فدخلوا فى تضايقه علوتُ الجبلَ فجعلت أرَدِّيهم[2] بالحجارة . فما زلت كذلك أتبعهم حتى ماخلق الله من بعير من ظَهْر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا خلفته وراء ظهرى وخلوا بينى وبينه ، ثم اتبعتهم أرميهم حتى ألقوا أكثر من ثلاثين بُردة وثلاثين رمحاً يستخفّون ، ولا يطرحون شيئاً إلا جعلت عليه آراماً[3] من الحجارة يعرفها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حتى أتوا متضايقاً من ثنّية [فإذا هم قد[4]] أتاهم فلان بن بدر الفزارى ، فجلسوا يتضحّون أى يتغدون وجلست على رأس قَرْن . قال الفزارى : ماهذا الذى أرى قالوا لقينا من هذا

---

(١) صحيح مسلم كتاب الجهاد باب غزوة ذى قرد وغيرها ٥ /٨٩ (ط استامبول)

(٢) أرديهم : أرميهم بالحجارة من أعلى الجبال فتسقطهم وتهورهم.

(٣) الآرام : حجارة تجمع وتنصب فى المفازة يهتدى بها ، واحدها إرم ، كعنب وأعناب

(٤) من صحيح مسلم .

البَرْح [١] ، والله ما فارقنا منذ غلَس يرمينا حتى انتزع كل شيء في أيدينا . قال فليقم إليه نفرٌ منكم أربعة ، قال : فصعد إليّ منهم أربعة في الجبل ، فلما أمكنوني من الكلام قلت : هل تعرفونني ؟ قالوا : لا ومن أنت ؟ قلت : أنا سلمة بن الأكوع والذي كرّم وجه محمد صلى الله عليه وسلم لا أطلب رجلاً منكم إلا أدركتهُ ولا يطلبني فيدركني . قال أحدهم : أنا أظن ذلك فرجعوا .

فما برحتُ مكاني حتى رأيت فوارسَ رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخللون الشجر [٢] ، فإذا أولهم الأخرم الأسدي ، على إثْره أبو قتادة الأنصاريّ وعلى أثره المقداد بن الأسود الكنْدي فأخذت بعنان الأخرم فولوا مدبرين قلت: يا أخرم احذرهم لا يقتطعوك [٣] حتى يلحق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه قال : ياسلمة إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر وتعلم أن الجنة حق والنار حق فلا تحُلْ بيني وبين الشهادة . قال: فخلّيته فالتقى هو وعبدالرحمن قال : قال فعقر بعبد الرحمن فرسه وطعنه عبد الرحمن فقتله ، وتحوّل على فرسه . ولحق أبو قتادة فارس رسول الله صلى الله عليه وسلم بعبد الرحمن فطعنه فقتله ، فوالذي كرّم وجه محمد لتتبعتهم أعدو على رجليّ حتى ما أرى من ورائي من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ولا غبارهم شيئاً ، حتى يعْدلوا قبل غروب الشمس إلى شِعْب فيه ماء يقال له ذو قَرَد ليشربوا منه وهم عِطَاش ، فنظروا إليّ أعدو وراءهم فَحلّأتُهم [٤] عنه . فما ذاقوا منه قطرة ، ويخرجون فيشتدون في ثنية فأعدو

---

(١) البرح : الشدة . (٢) يتخللون الشجر : يمرون من خلاله .

(٣) لا يقتطعوك : لا يأخذوك وينفردوا بك فيفصلوك عن أصحابك .

(٤) حلأتهم : منعتهم منه . والرواية في صحيح مسلم : فحليتهم بقلب الهمزة ياء على غير قياس وفسره في الصحيح بأن معناه : أجليتهم عنه .

فألحق رجلاً منهم فأمسكه بسهم فى نُغْض كتفه (١) قلت :

خذها وأنا ابن الأكوع ... واليوم يوم الرُّضَّعْ

قال يا ثكلته أمه ! أ أكوَعه بكرة ؟ (٢) قلت : نعم يا عدو نفسه أكوَعه (٣) بكرة .

قال : وأرْدَوْا (٤) فرسين على ثنية فجئت بهما أسوقهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولحقنى عامر بسطيحة فيها مَذْقة (٥) من لبن وسطيحة فيها ماء فتوضأت وشربت ثم أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على الماء الذى حلأتهم عنه قد أخذ تلك الإبل وكل شىء استنقذته من المشركين وكلَّ رمح وكل بُرْدة ، وإذا بلالٌ نحر ناقةً من الإبل التى استنقذت من القوم ، وإذا هو يَشْتوى (٦) لرسول الله صلى الله عليه وسلم من كبدها وسنامها ، قلت : يا رسول الله خلِّنى فأنتخب من القوم مائة رجل فأتبع القوم فلا يبقى منهم مُخْبر إلا قتلته . فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدتْ نواجذه فى ضوء النار قال : ياسلمة أتراك كنتَ فاعلًا ؟ قلت : نعم ، والذى أكرمك ، قال : إنهم الآن ليُقرَون بأرض غطفان . قال : فجاء رجل من غطفان فقال : نحر لهم فلان جزوراً فلما كشطوا جلدها رأوا غباراً فقالوا : أتاكم القوم فخرجوا هاربين .

* * *

(١) النغض : الرقيق اللين من عظم الكتف .

(٢) أ كوعه بكرة : أى هذا الأكوع الذى كان يرتجز لنا به صباح هذا النهار قد عاد يرتجز لنا به آخره .

(٣) رواية الصحيح : أكوعك بكرة .

(٤) أردوا فرسين : أتعبوهما وأجهدوهما .

(٥) السطيحة : نوع من المزاود . والمذقة : اللبن الممزوج بالماء .

(٦) صحيح مسلم : يشوى .

فلما أصبحنا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كان خير فرساننا اليوم أبو قتادة ، وخير رجالنا سلَمة . ثم أعطانى رسول الله صلى الله عليه وسلم سهمين سهم الفارس وسهم الراجل فجمعهما لى جميعاً .

وذكر الزبير بن أبى بكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ فى غزوة ذى قرَد هذه على ماء يقال له بيسان فسأل عنه فقيل اسمه يا رسول الله بيسان وهو مالح فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا بل اسمه نعمان وهو طيب . فغير رسول الله صلى الله عليه وسلم الاسم وغير الله تعالى الماء . فاشتراه طلحة ابن عبيد الله ثم تصدّق به وجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أنت يا طلحة إلا فيّاض . فسمى طلحة الفياض .

* * *

وكان مما قيل من الشعر فى يوم ذى قرَد قول حسان بن ثابت :

أظَنّ عُيَيْنة إذ زارها   بأنْ سوف يَهْدم منها[1] قصورَا
فأكْذبتَ ما كنت صدّقته   وقلتم سنَغْنم أمراً كبيرَا
فَعِفْتَ المدينة إذ زُرْتها   وآنستَ للأُسْد فيها زئيرَا
وولّوْا سراعاً كشَدّ النعام   ولَم يكشفوا عن مُلِطّ حصيرَا[2]
أميرٌ علينا رسولُ المليك   أحببْ بذاك إلينا أميرَا
رسولٌ نصدّق ما جاءه   ونتلو[3] كتاباً مضيئاً منيرَا

---

(١) ابن هشام : فيها .
(٢) الملط : الناقة ، من قولهم : ألطت الناقة بذنبها إذا أدخلته بين رجليها . والحصير : ما يكتنف به حول الإبل من عيدان الحظيرة .
(٣) ابن هشام : ويتلو .

وقال كعب بن مالك :

أيَحْسب أولادُ اللقيطة أننــا على الخيل لسنا مثلهم فى الفوارسِ
وإنّا أناسٌ لا نرى القتل سُبّة ولا نَنْثنى عند الرماح المَدَاعسِ[١]
وإنا لنَقْرِى الضيف من قَمعِ الذُّرى
ونضرب رأسَ الأبلج المتشــاوسِ[٢]
نردّ كُماةَ المُعْلَمين إذا انتحوا بضرب يسلّى نخوة المتقاعِسِ[٣]
بكل فتى حامى الحقيقة ماجدٍ كريم كسِرْحان الغَضاة مُخالِسِ[٤]
يَذُودون عن أحسابهم وتِلادِهم ببيضٍ تقدُّ الهامَ تحت القَوانسِ[٥]
فسائلْ بنى بَدْر إذا ما لقيتهم بما فعل الإخوانُ يومَ التّمارسِ[٦]
إذا ما خرجتم فاصدُقوا من لقيتمُ ولا تكتموا أخباركم فى المجالسِ
وقولوا زَلَلْنا عن مَخالب خَادرٍ به وحَرٌ فى الصّدر ما لم يمارسِ[٧]

وقال شدّاد بن عارض الجُشَمى فى يوم ذى قَرَد لعُيَيْنة بن حصن وكان عيينة يكنى أبا مالك :

فهلاّ كَرَرْت أبا مالكٍ وخيلك مُدْبِرة تُقْتَــلُ

---

(١) المداعس : الرماح التى لا تنثنى .
(٢) القمع : جمع قمعة . وهى أعلى سنام البعير . والأبلج : المشرق . والمتشاوس : المتكبر . وفى ابن هشام : الأبلخ .
(٣) الكماة : الفوارس . والمتقاعس : الذى لا يلين .
(٤) السرحان : الذئب . والغضاة : شجرة وجمعها غضى . وتروى : العضاه . وهو شجر ضخم .
(٥) القوانس : أعالى بيض الحديد .
(٦) التمارس : المجالدة فى الحرب .
(٧) الخادر : الأسد الذى يلزم أجمه . والوحر : الحقد .

ذكرتَ الإيابَ إلى عَسْجد وهيهات قد بَعُدَ المُقفَلُ[(١)]

وضمّنت نَفْسَك ذا مَيْعة مِسَحٌّ الفضاء إذا يرسَلُ[(٢)]

إذا قبَّضَتْه إليك الشّمال جاشَ كما اضطرمْ المِرْجَلُ

فلما عرفتم عبادَ الإله لم ينظر الآخرَ الأولُ

عرفتم فوارس قد عُوّدوا طِرَادَ الكماة إذا أسْهلوا[(٣)]

إذا طردوا الخيل تشقى بهم فضاحًا وإن يُطردوا ينزلوا[(٤)]

فيَعْتصموا في سواء المقا م بالبيض أخْلصها الصيقلُ[(٥)]

---

(١) عسجد : موضع . وفى ابن هشام : عسجر . بالراء .

(٢) ذو ميعة : يريد فرساً ذا نشاط وقوة . والمسح : السريع الجرى .

(٣) أسهلوا : نزلوا بالسهل .

(٤) فضاحا : فاضحة .

(٥) أخلصها الصيقل : جلاها .

غزوة بنى المصطلق

وهى غزوة المُرَيْسِيع

وغزا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بنى المصطلق من خزاعة فى شعبان سنة ست ، وكان بلغه أنهم يجمعون له ، وقائدهم الحارث بن أبى ضرار أبو جوَيْرِية زوج النبى صلى الله عليه وسلم .

فلما سمع بهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم خرج إليهم حتى لقيهم على ماء من مياههم يقال له المُرَيْسِيع فتزاحف الناسُ واقتتلوا ، فهزم الله بنى المصطلق وقتل من قتل منهم ونفّل رسولَه أبناءهم ونساءهم وأموالهم .

وكان شعار المسلمين فى ذلك اليوم : يامنصور أمِتْ أمت .

وأصاب يومئذ رجلٌ من الأنصار من رهط عبادة بن الصامت رجلا من المسلمين من بنى كلب بن عوف بن عامر بن أمية بن ليث بن بكر يقال له هشام ابن صُبَابة وهو يرى أنه من العدو فقتله خطأ .

[من كيد المنافقين]

فبَيْنا الناسُ على ذلك الماء وردت واردةُ الناس ومع عمر بن الخطاب أجير له من غِفَار يقال له جَهْجاه بن مسعود يقود فرسه فازدحم جهجاه وسِنَانَ بن وبَر الجهنى حليف بنى عوف من الخزرج على الماء فاقتتلا ، فصرخ الجهنى : يامعشر الأنصار . وصرخ جهجاه : يامعشر المهاجرين . فغضب عبدُالله بن أُبَىّ ابن سلُول وقال : أقد فعلوها ؟ قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا ، والله ما أعدُّنا وجَلاَبيب قريش هؤلاء إلا كما قال الأول : سَمِّن كلبك يأكلك أمَا والله لئن

رجعنا إلى المدينة لَيُخرِجن الأعزُّ منها الأذلَّ . ثم أقبل على من حضره من قومه وفيهم زيد بن أرقم غلام حدَث فقال : هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادَكم وقاسمتموهم أموالكم ، أمَا والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا إلى غير داركم .

فمشى زيدُ بن أرقم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبرَ ، وذلك عند فراغه من عدوّه ، وعنده عمر بن الخطاب فقال له مُرْ به عبّاد بن بِشْر فليقتله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فكيف ياعمر إذا تحدَّث الناسُ أن محمداً يقتل أصحابه ، لا ولكن أذِّن بالرحيل . وذلك في ساعة لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرتحل فيها .

فارتحل الناسُ وقد مشى عبدالله بن أبيّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بلغه أن زيداً بلّغه ما سمع منه فحلف بالله ما قلتُ ما قال ولا تكلمت به . وكان في قومه شريفاً عظيما ، فقال من حضر من الأنصار من أصحابه : يارسول الله عسى أن يكون الغلام أوهَم في حديثه ولم يحفظ ما قاله الرجل . حَدباً على ابن أبيّ ودفعا عنه .

فلما استقل رسول الله صلى الله عليه وسلم وسار لقيه أُسَيد بن حُضير فحيّاه بتحية النبوة وسلم عليه ثم قال : يانبي الله والله لَرُحتَ في ساعة منكَرة ما كنت تروح في مثلها . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أوَ ما بلغك ما قال صاحبكم ؟ قال وأيّ صاحب يارسول الله ؟ قال : عبدُالله بن أبيّ . قال : وماقال؟ قال : زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعزُّ منها الأذلَّ .

قال : فأنت والله يارسول الله تخرجه إن شئت ، هو والله الذليل وأنت

العزيز . ثم قال : يارسول الله صلى الله عليك ارفق به ، فوالله لقد جاء الله بك وإنَّ قومه لينظِمون له الخرَز ليتوّجوه فإنه ليرى أنْ قد استلبتَه مُلْكاً !

ثم مشى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بالناس يومَهم ذلك حتى أمسى وليلتهم حتى أصبح ، وسار[1] يومهم ذلك حتى آذتهم الشمسُ ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مسّ الأرض فوقعوا نياماً ، وإنما فعل ذلك ليشغل الناسَ عن الحديث الذى كان بالأمس ثم راح بالناس ، فهبّت عليهم ريحٌ شديدة آذتهم وتخوفوها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تخافوها فإنما هبّت لموت عظيم من الكفار . فلما قدموا المدينة وجدوا رفاعة بن زيد بن التابوت أحد بنى قينقاع وكان من عظماء يهود وكهفاً للمنافقين مات فى ذلك اليوم .

ونزلت السورة التى ذكر الله فيها المنافقين فى عبد الله بن أبىّ ومن كان على مثل أمره . فلما نزلت أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأذن زيد بن أرقم ثم قال : هذا الذى أوفى الله بأذنه .

وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبىّ الذى كان من أمر أبيه ، فأتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله إنه بلغنى أنك تريد قتلَ عبد الله بن أُبىّ فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلا فمرنى فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرجُ ما كان بها من رجل أبرّ بوالده منى ، إنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبىّ يمشى فى الناس فأقتله فأقتل مؤمنا بكافر فأدخل النار .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل نترفّق به ونحسن صُحبته ما بقى معنا .

---

(١) ابن هشام : وصدر يومهم ذلك .

وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدَث كان قومُهم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنِّفونه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم : كيف ترى ياعمر ؟ أمَا والله لو قتلتُه يومَ قلت لى اقتله لأُرْعدت له آنُفٌ لو أمرتها اليومَ بقتله لقتلتْه ! فقال عمر : قد والله علمتُ لأمرُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظمُ بركةً من أمرى .

* * *

وقدم مِقْيَس بن صُبَابة من مكة متظاهرا بالإسلام فقال : يارسول الله جئتك مُسْلما ، وجئتك أطلب دية أخى قتل خطأ فأمر له رسول الله صلى الله عليه وسلم بدية أخيه هشام بن صُبَابة ، فأقام عند رسول الله صلى الله عليه وسلم غير كثير ثم عدَا على قاتل أخيه فقتله . ثم خرج إلى مكة مرتدًا وقال فى شعر له :

شفَى النفسَ أن قد بات بالقاع مُسْنِدا
تضرِّج ثوبيـــــه دماء الأخادعِ (١)

وكانت همومُ النفس من قبل قتله
تلمّ فتحميني وِطاء المضـــاجعِ (٢)

حللتُ به وِترى وأدركت ثُؤرتى
وكنت إلى الأوثانِ أولَ راجعِ

ثأرْتُ به فِهْرا وحمَّلت عَقْلَه
سراةَ بنى النجار أربابَ فارعِ

(١) الأخادع : جمع أخدع ، وهو عرق فى المحجمتين ، وهو شعبة من الوريد .
(٢) تحميني وطاء المضاجع : تسهدنى وتمنعنى النوم .

وقال أيضاً :

جللته ضربة بانت لها وشل

من ناقع الجوف يعلوه وينصرم[1]

فقلت والموت يغشاه أسرته

لا تأمنن بنى بكر إذا ظلموا[2]

وأصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من بنى المصطلق سبياً كثيرا ، فشا قسمه في المسلمين ، وكان فيمن أصاب يومئذ من السبايا جُوَيْرِيَة بنت الحارث ابن أبى ضرار ، فوقعت فى السهم لثابت بن قيس بن الشماس أو لابن عم له ، فكاتبته على نفسها .

قالت عائشة رضى الله عنها : كانت ، تعنى جُوَيْرِيَة ، امرأة حلوة مُلاّحة[3] لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه ، فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم تستعينه فى كتابتها ، فوالله ماهو إلا أن رأيتها على باب حجرتى فكرهتها[4] وعرفتُ أنه سيرى منها مارأيت ،فدخلت عليه فقالت : يارسول الله أنا جويرية بنت الحارث ابن أبى ضرار سيد قومه ، وقد أصابنى من البلاء مالم يَخْفَ عليك فوقعتُ فى السهم لثابت بن قيس بن الشماس أو لابن عم له ، فكاتبته على نفسى فجئتك أستعينك على كتابتى . قال : فهل لك فى خير من ذلك ؟ قالت : وما هو يارسول الله ؟ قال أقضى كتابتك وأتزوجك . قالت : نعم يارسول الله . قال :

---

(١) كذا بالأصل . وفى الطبرى وابن هشام : بانت ، والوشل : القطر : أى دم يسيل ويقطر، وناقع الجوف . الدم . وينصرم : ينقطع .

(٢) الأسرة : العلامات والدلائل . وفى ابن هشام : تغشاه .

(٣) الملاحة : الشديدة الملاحة ، وهى الجمال .

(٤) الطبرى : كرهتها .

قد فعلتُ . وخرج الخبرُ إلى الناس : أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تزوج جويرية . فقال الناس : أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأرسلوا ما بأيديهم قالت فلقد أعتق بتزوّجه[1] إياها مائة أهل بيت من بنى المصطلق ، فما أعلم امرأةً كانت أعظم بركةً على قومها منها .

[خبر الوليد بن عقبة]

وبعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد إسلامهم الوليد بن عقبة بن أبى مُعَيط ، فلما سمعوا به ركبوا إليه فلما سمع بهم هابَهم فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره أن القوم همُّوا بقتله ومنعوه ما قِبلَهم من صدقتهم ، فأكثر المسلمون فى ذكر غزوهم حتى همّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يغزوهم ، فبينماهم فى ذلك قدِم وفدُهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يارسول الله سمعنا برسولك حين بعثته إلينا ، فخرجنا إليه لنكرمه ونؤدى إليه ماقِبَلنا من الصدقة ، فانشمر راجعاً ، فبلغنا أنه زعم لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنا خرجنا إليه لنقتله ووالله ما جئنا لذلك . فأنزل الله فيه وفيهم : « يا أيها الذين آمنوا إنْ جاءكم فاسق بنبأ فتبيَّنُوا أنْ تُصيبوا قوماً بجهالة فتُصْبِحوا على مافعلتم نادمين »[2] .

هكذا ذهب ابن إسحق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى بنى المصطلق بعد إسلامهم الوليد بن عُقْبة ولم يعيّن مدة توجيهه إياه إليهم وقد يُوهِم ظاهره أن ذلك كان بحدثان إسلامهم ، ولا يصح ذلك ، إذ الوليد من مُسْلمة

(١) ابن هشام والطبرى : بتزويجه . وما هنا أدق .

(٢) سورة الحجرات .

الفتح وإنما كان الفتح فى سنة ثمان بعد غزوة بنى المصطلق وإسلامهم بسنتين ، فلا يكون هذا التوجيه إلا بعد ذلك ولا بد .

وقد قال أبو عمر بن عبد البر : لاخلاف بين أهل العلم بتأويل القرآن فيما علمت أن قوله عز وجل : « إن جاءكم فاسق بنبأ » نزلت فى الوليد بن عقبة حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بنى المصطلق مصدقًا والله سبحانه أعلم .

[حديث الإفك]

وأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفره ذلك حتى إذا كان قريباً من المدينة قال أهلُ الإفك فى الصِّدِّيقة المبرَّأة المطهرة عائشة بنت الصديق رضى الله عنهما ما قالوا .

فحدثت يرحمها الله قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفراً أقْرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمُها خرج بها معه . فلما كانت غزوة بنى المصْطَلِق أقْرَع بين نسائه كما كان يصنع فخرج سهمى عليهن معه فخرج بى صلى الله عليه وسلم : وقالت كان النساء إذ ذاك إنما يأكلن العُلَق [1] لم يُهَبِّجهن اللحم، وكنت إذا رُحّل [2] لى بعيرى جلست فى هودجى ثم يأتى القومُ الذين يرحلون لى ويحملوننى فيأخذون بأسفل الهودج فيرفعونه فيضعونه على ظهر البعير فيشدّونه بحباله ثم يأخذون برأس البعير فينطلقون به .

فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفره ذلك وجّه قافلا حتى إذا كان قريباً من المدينة نزل منزلا فبات به بعض الليل ثم أذّن فى الناس بالرحيل ، فارتحل الناس وخرجت لحاجتى وفى عنقى عقد لى فيه جَزْع ظَفار [3] فلما فرغتُ انسلّ من عنقى ولا أدرى ، فلما رجعت إلى الرَّحْل ذهبت ألتمسه فى عنقى فلم أجده وقد أخذ الناس فى الرحيل ، فرجعت إلى مكانى الذى ذهبت إليه فالتمسته حتى وجدته ، وجاء خلاف القومُ الذين يرحلون لى البعير وقد فرغوا من رحلته

---

(١) العلق : جمع علقة وهى ما يتبلغ به من العيش . ويهبجهن : يضخمهن ، هبجه تهبيجا : ورمه .

(٢) رحل : وضع عليه الرحل .

(٣) الجزع : الخرز وظفار : بلد باليمن قرب صنعاء إليه ينسب الجزع .

فأخذوا الهَوْدج وهم يظنون أنى فيه كما كنت أصنع ، فاحتملوه فشدُّوه على البعير ولم يشكوا أنى فيه، ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به ورجعت إلى العسكر وما فيه داع ولا مجيب قد انطلق الناسُ ، قالت : فتلفَّفت بجلبابى ثم اضطجعت فى مكانى وعرفت أنه لو افتُقِدتُ لرجع (١) إلىّ .

فوالله إنى لمضطجعة إذ مرّ بى صفوان بن المعطّل السُّلَمى ، وكان تخلف عن العسكر لبعض حاجته فلم يبتْ مع الناس (٢) ، فرأى سوادى ، فأقبل حتى وقف ، وقد كان يرانى قبل أن يضرب علىّ الحجاب ، فلما رآنى قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ! ظعينة (٣) رسول الله صلى الله عليه وسلم ! وأنا متلففة فى ثيابى . قال : ماخلّفك رحمك الله ؟ قالت : فما كلّمْته ، ثم قرّب البعيرَ فقال اركبى . واستأخر عنى ، فركبت وأخذ برأس البعير فانطلق سريعاً يطلب الناسَ ، فوالله ما أدركنا الناسَ وما افتُقِدت حتى أصبحت ، ونزل الناس فلما اطمأنوا طلع الرجل يقودنى ، فقال أهلُ الإفك ما قالوا . فارتعج (٤) العسكر ، والله (٥) ما أعلم بشىء من ذلك .

ثم قدمنا المدينة فلم ألبث أن اشتكيت شكواً شديداً لا يبلغنى من ذلك شىء ، وقد انتهى الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أبوىّ لا يذكرون لى منه لا قليلا ولا كثيرا ، إلا أنى قد أنكرتُ من رسول الله

---

(١) الطبرى : أن لوقدا فتقدونى قد رجعوا إلى .
(٢) زاد الطبرى : فى العسكر .
(٣) الطبرى : أظعينة رسول الله .
(٤) ارتعج : تحرك واضطرب . وفى الطبرى : ارتج .
(٥) ابن هشام : ووالله .

صلى الله عليه وسلم بعض لُطْفه لى ، كنت إذا اشتكيت رحمنى ولطف بى فلم يفعل ذلك فى شكْوِى[1] ذلك فأنكرتُ ذلك منه ، كان إذا دخل علىّ وعندى أمى عرّضنى قال : كيف تيكم ، لا يزيد على ذلك حتى وجدتْ نفسى[2] حين رأيت ما رأيت من جفائه لى . فقلت : يا رسول الله لو أذِنت لى فانتقلت إلى أمى فتمرضنى ؟ قال : لا عليك .

فانتقلت إلى أمى ولا علم لى بشىء مما كان ، حتى نقهْتُ من وجعى بعد بضع وعشرين ليلة ، وكنا قوماً عرباً لا نتخذ فى بيوتنا هذه الكنف التى تتخذ الأعاجم نعافها ونكرهها ، إنما كنا نذهب[3] فى فسح المدينة ، وإنما كان النساء يخرجن كل ليلة فى حوائجهن ، فخرجت ليلة لبعض حاجتى ومعى أم مِسطح بنت أبى رُهم بن المطلب بن عبد مناف ، وكانت أمها خالة أبى بكر الصديق ، فوالله إنها لتمشى معى إذ عثرتْ فى مِرْطها فقالت : تعِس مسطح . قلت : بئس لعمر الله ماقلتِ لرجل من المهاجرين قد شهد بَدْراً . قالت : أوَ ما بلغكِ الخبر يابنت أبى بكر ؟ قلت : وما الخبر ؟ فأخبرتنى بالذى كان من قول أهل الإفك . قلت : أوقد كان هذا ؟ قالت : نعم والله لقد كان .

فوالله ما قدرْت على أن أقضى حاجتى ورجعت ، فوالله ما زلت أبكى حتى ظننت أن البكاء سيَصْدع كبدى . وقلت لأمى : يغفر الله لك ! تحدّث

---

(١) ابن هشام والطبرى : فى شكواى تلك .

(٢) ابن هشام والطبرى : فى نفسى .

(٣) الطبرى : نخرج .

الناسُ بما تحدثوا به ولا تذكرين من ذلك شيئاً ؟ قالت : أيْ بنية خفّضى عليك الشأن ، فو الله لقلّ ما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كثّرن وكثر الناسُ عليها .

قالت : وقد قام رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى الناس فخطبهم ولا أعلم بذلك ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى ويقولون عليهم غير الحق ، والله ما علمت منهم إلا خيراً ، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمتُ منه إلا خيراً وما يدخل بيتاً من بيوتى إلا وهو معى . قالت : وكان كِبر[1] ذلك عند عبد الله بن أبّى فى رجال من الخزرج مع الذى قال مِسْطح وحَمنة بنت جَحْش ، وذلك أن أختها زينب كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن من نسائه امرأة تُناصينى[2] فى المنزلة عنده غيرها ، فأما زينب فعصمها الله بدينها فلم تقل إلا خيراً ، وأما حَمنة فأشاعت من ذلك ما أشاعت تضادّنى[3] لأختها ، فشقيتْ بذلك .

فلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك المقالة قال أسيد بن حُضَير يا رسول الله إن يكونوا من الأوس نكفيكهم ، وإن يكونوا من إخواننا من الخزرج فمرنا بأمرك فوالله إنهم لأهلٌ أن تضرب أعناقهم . فقام سعد بن عُبادَة فقال : كذَبْتَ لعمر الله لا تضرب أعناقهم ، أما والله ما قلتَ هذه المقالة إلا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج ، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا .

---

(١) الكبر : الإثم الكبير . ومعظم الشىء .

(٢) تناصينى : تساوينى . من المناصاة وهى المساواة . وهذه الرواية هى الأصح كما قال السهيلى فى الروض . وتروى : تناصبنى .

(٣) الطبرى : تضارنى.

فقال أُسيد : كذبت لعمر الله ولكنك منافق تجادل عن المنافقين . قالت : وتثاور الناس حتى كاد يكون بين هذين الحيّين من الأوس والخزرج شرّ.

ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعا عليّ بن أبى طالب وأسامة ابن زيد فاستشارهما ، فأما أسامة فأثنى خيراً ثم قال : يا رسول الله أهلك ولا نعلم منهم [1] إلا خيراً ، وهذا الكذب والباطل . وأمّا عليّ فقال : يارسول الله إن النساء لكثير وإنك لتَقْدِر أن تستخلف [2] وَسَلِ الجارية فإنها ستصْدقك . فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بَرِيرة ليسألها ، فقام إليها عليّ فضربها ضربا شديداً ويقول [3] : اصدقى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتقول : والله ما أعلم إلا خيراً ، وما كنت أعيب على عائشة شيئاً إلا أنى كنت أعجن عجينى فآمرها أن تحفظه فتنام عنه فتأتى الشاة فتأكله .

قالت : ثم دخل علىّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وعندى أبواى وعندى امرأة من الأنصار فأنا أبكى وهى تبكى معى ، فجلس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا عائشة إنه قد كان ما بلغَكِ من قول النــاس ، فاتقى الله وإن كنت قارفتِ سُوءا مما يقول الناس فتوبى إلى الله فإن الله يقبل التوبة عن عباده . قالت : فو الله إن هو إلاأن قال لى ذلك فقلَص [4] دمعى حتى ماأحس منه شيئاً . وانتظرتُ أبوىّ أن يجيبا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فلم يتكلما .

قالت : وأيم الله لأنا كنت أحقر فى نفسى وأصغر شأناً من أن ينزل الله فىّ قرآناً يقرأ به فى المسجد ويصلّى به ، ولكنى كنت أرجو أن يرى رسول الله

---

(١) الطبرى : ولا نعلم عليهن إلا خيرا .
(٢) ابن هشام والطبرى : لقادر على أن تستخلف .
(٣) الطبرى : وهو يقول .
(٤) قلص : ارتفع .

صلى الله عليه وسلم فى منامه شيئًا يكذِّب الله به عنّى لما يعلم من براءتى أو يخبر خبرًا ، فأما قرآن ينزل فىّ فوالله لنفسى كانت أحقر عندى من ذلك .

قالت : فلما لم أر أبوىّ يتكلّمان قلت لهما : ألا تجيبان رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالا : والله ما ندرى بماذا نجيبه . قالت : ووالله ما أعلم أهلَ بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبى بكر فى تلك الأيام . قالت : فلما استعجما علىّ استعبَرْتُ فبكيت ثم قلت : والله لا أتوب إلى الله مما ذكرتَ أبداً ، والله إنى لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس والله يعلم أنى منه بريئة لأقولنّ ما لم يكن ، ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدّقوننى ، ثم التمستُ اسمَ يعقوب فما أذكره فقلت : ولكنى سأقول[1] كما قال أبو يوسف : « فصبرٌ جميل والله المستعان على ما تصفون » .

قالت : فوالله ما بَرِح رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مجلسَه حتى تغشّاه من الله ما كان يتغشاه ، فسجّى بثوبه ووضعت له وسادة من أدَم تحت رأسه ، فأمّا أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت فوالله ما فزِعت ولا باليتُ ، قد عرفت أنى بريئة وأن الله غير ظالمى ، وأما أبواى فوالذى نفس عائشة بيده ما سرِّى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ظننت لتخرجن أنفسهما فَرَقاً من أن يأتى من الله تحقيقُ ما قال الناسُ . ثم سرّى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجلس وإنه ليتحدّر منه مثل الجُمَان وفى يوم شاتٍ ، فجعل يمسح العَرق عن جبينه ويقول : « أبشرى يا عائشة فقد أنزل الله براءتك » . قلت : بحمد الله[2] .

---

(١) الطبرى : ولكنى أقول .

(٢) الطبرى : بحمد الله وذمكم .

ثم خرج إلى النـاس فخطبهم وتلا عليهم ما أنزل الله عليه من القرآن في ذلك ثم أمر بمسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش وحسان بن ثابت ، وكانوا ممن أفصح بالفاحشة فضربوا حدهم .

قالت : فلما نزل القرآن ذكر من قال من الفاحشة ما قال من أهل الإفك فقال : « إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ[1] » قيل إنه حسان بن ثابت وأصحابه ويقال : عبد الله بن أبي وأصحابه .

ثم قال : « لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ » أي هلا قلتم إذ سمعتموه كما قال أبو أيوب الأنصاري وصاحبته أم أيوب ، وذلك أنها قالت لزوجها : يا أبا أيوب ألا تسمع ما يقول الناس في عائشة ؟ قال : بلى وذلك الكذب ، أكنت يا أم أيوب فاعلته ؟ قالت : لا والله ما كنت فاعلته . قال : فعائشة والله خير منك .

ثم قال تعالى : « إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ » .

فلما نزل هذا في عائشة وفيمن قال لها ما قال قال أبو بكر رحمه الله ، وكان ينفق على مسطح لقرابته وحاجته : والله لا أنفق على مسطح أبداً ولا أنفعه بنفع أبداً بعد الذي قال لعائشة وأدخل علينا . قالت : فأنزل الله

---

(١) سورة النور ١١ .

فى ذلك « ولا يأتَلِ أولو الفضل منكم والسّعة أن يُؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم » قالت : فقال أبو بكر : بلى والله إنى لأحب أن يغفر الله لى . فرجع إلى مسطح نفقته التى كان ينفق عليه وقال : والله لا أنزعها منه أبدا .

* * *

وذكر ابن إسحق أن حسان بن ثابت مع ما كان منه فى صفوان بن المعطّل من القول السيء قال مع ذلك شعرا يعرض فيه بصفوان ومن أسلم من مُضر يقول فيه :

أمْسَى الجلابيبُ قد عزُّوا وقد كثروا
وابن الفُريْعة أمسَى بَيْضَةَ البلدِ[1]

فلما بلغ ذلك ابنَ المعطل اعترض حسانَ بن ثابت فضربه بالسيف ثم قال :

تلقَّ ذُباب السيفِ عنى فإننى غلامٌ إذا هُو جيتُ لستُ بشاعرِ

فوثب عند ذلك ثابت بن قيس بن شمّاس على صفوان فجمع يديه إلى عنقه بحبل ثم انطلق به إلى دار بنى الحارث بن الخزرج ، فلقيه عبد الله بن رَوَاحة فقال : ما هذا ؟ قال : أما أعجبك ضرب حسان بالسيف ؟ والله ما أراه إلا قد قتله . فقال له ابن رواحة : هل علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء مما صنعت ؟ قال لا والله . قال : لقد اجترأتَ ، أطلقْ الرجلَ . فأطلقه .

ثم أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكروا ذلك له ، فدعا حسان وصفوان فقال صفوان : يا رسول الله آذانى وهجانى فاحتملنى الغضب

---

(١) أتم ابن هشام والطبرى ذكر أبيات حسان انظر ابن هشام ٣/٣٠٤ . والطبرى ١٥٢٦ ط أوربا .

فضربته . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسان : يا حسان أتشوهت على قومي أن هداهم الله للإسلام ؟ ثم قال : أحسنْ ياحسان في الذي أصابك . قال: هي لك . فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم عوضاً منها بئر حاء[1] ماء كان لأبي طلحة بالمدينة فتصدق به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليضعه حيث شاء فأعطاه حسانَ في ضربته ، وأعطاه « سيرين » أمَةً قبطية ولدت له ابنه عبد الرحمن .

وقد روى من وجوه أن إعطاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إياه سيرين إنما كان لذبّه بلسانه عن النبي صلى الله عليه وسلم . والله تعالى أعلم .

وكانت عائشة رحمها الله تقول : لقد سئل عن ابن المعطّل فوجدوه حَصُوراً لا يأتي النساء ثم قتل بعد ذلك شهيدا .

وقال بعد ذلك حسان يمدح عائشة رضى الله عنها ويعتذر من الذي كان في شأنها :

حَصَان رَزَان ما تُزَنُّ بريبةٍ ... وتصبح غرثَى من لُحوم الغوافلِ[2]
عقيلة حيٍّ من لُؤَىّ بن غالبٍ ... كرام المساعى مجدهم غير زائلِ[3]
مهذَّبة قد طيّب الله خِيمها ... وطهّرها من كل سوء وباطلِ
فإن كنت قد قلتُ الذي قد زعمتُمُ ... فلا رفعتْ سَوْطى إلىّ أناملى
وكيف وودّى ما حييتُ ونُصرتى ... لآلِ رسول الله زَيْنِ المحافلِ
له رتبٌ عالٍ على الناس كلهم ... تقاصَرُ عنه سَورة المتطاولِ
فإنّ الذي قد قيل ليس بلائطٍ ... ولكنه قول امرئٍ بِىَ ماحِلِ[4]

(١) حاء اسم رجل أضيفت إليه البئر . وفى ابن هشام : وهى قصر بنى حديلة اليوم بالمدينة .

(٢) الحصان : العفيفة . والرزان : الوقورة . وتزن : تتهم . والغرثى : الجائعة ، أى تمسك لسانها عن الأعراض .

(٣) ط : غير ذابل .

(٤) لائط : لاصق . والماحل : الواشى.

وقال قائل من المسلمين فى ضرب حسان وصاحبيه فى فريتهم على عائشة رضى الله عنها :

لقد ذاق حسانُ الذى كان أهلَه وحَمْنة إذ قالوا هَجِيرا ومِسْطح[(١)]

تعاطَوْا برَجْم الغيب زوجَ نبيّهم وسَخْطة ذى العرش الكريم فأتْرحوا[(٢)]

وآذوا رسولَ الله فيها فجُلّلوا مخازِىَ تبقَى عُمِّموها وفضِّحوا

وصُبّتْ عليهم مُحْصَدات كأنها شآبيب قَطْر من ذُرَى المُزْن تَسْفَحُ[(٣)]

وقد ذكر أبو عمر بن عبد البرّ الحافظ أن قوماً أنكروا أن يكون حسان خاض فى الإفك أو جُلد فيه ، ورووا عن عائشة رحمها الله أنها برّأته من ذلك. ثم ذكر عن الزبير بن بكّار وغيره أن عائشة كانت فى الطواف مع أم حكيم بنت خالد بن العاص وابنة عبد الله بن أبى ربيعة ، فتذاكرْن حسان فابتدرتاه بالسبّ فقالت لهما عائشة : ابنَ الفُرَيْعة تسبّان ؟ إنى لأرجو أن يدخله الله الجنة بذبّه عن النبى صلى الله عليه وسلم بلسانه ، أليس القائل :

هجوتَ محمداً فأجبتُ عنه وعند الله فى ذاك الجزاء

فإنّ أبى ووالده وعرضى لعرض محمدٍ منكم وِقاء

فقالتا لها : أليس ممن لعنه الله فى الدنيا والآخرة بما قال فيك ؟ قالت : لم يقل شيئاً ، ولكنه القائل :

حَصانٌ رزَانٌ ما تُزَنّ بريبة وتُصْبِح غَرْثَى من لحوم الغوافلِ

فإن كان ما قد قيل عنىَ قلته فلا رفعتْ سوطى إلىّ أناملى

(١) الهجير : الفاحش من القول .

(٢) أترحوا : أحزنوا ، من الترح .

(٣) المحصدات : السياط الشديدة الفتل . والشآبيب : جمع شؤبوب وهى الدفعة من المطر . والمزن : السحاب .

غزوة الحديبيـــــة

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذى القعدة من سنة ست معتمراً لا يريد حربا ، واستنفر العربَ ومن حوله من أهل البوادى من الأعراب ليخرجوا معه ، وهو يخشى من قريش الذى صنعوا[1] ، أن يعرضوا له بحرب أو يصدّوه عن البيت .

فأبطأ عليه كثير من الأعراب ، وخرج بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب ، وساق معه الهَدْى وأحْرم بالعمرة ليأمن الناسُ من حربه ، وليُعْلم أنه إنما خرج زائرا لهذا البيت ومعظما له .

حتى إذا كان بعُسْفان لقيه بُشْر[2] بن سفيان الكعبي فقال : يا رسول الله هذه قريش قد سمعتْ بمسيرك فخرجوا معهم العُوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمور وقد نزلوا بذى طُوًى يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبدا ، وهذا خالد بن الوليد فى خيلهم قد قدّموها إلى كُرَاع الغميم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا ويح قريش ! لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلّوا بينى وبين سائر العرب فإن هم أصابونى كان الذى أرادوا ، وإن أظهرنى الله عليهم دَخلوا فى الإسلام وافرين وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ؛ فما تظن قريش ؟ فو الله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يُظهره الله أو تنفرد هـــــذه السالفة[3] » .

ثم قال : من رجل يخرج بنا على غير طريقهم ؟ فقال رجل من أسْلم : أنا

---

(١) الطبرى : الذى صنعوا به .

(٢) ويقال له بشر . كما فى ابن هشام ٣/٣٠٩

(٣) السالفة : صفحة العنق ، وهى كناية عن الموت .

فسلك بهم طريقا وَعِراً أجْرَل(١) بين الشِّعاب ، فلما خرجوا منه وقد شق عليهم وأفضوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قولوا : نستغفر الله ونتوب إليه فقالوا ذلك ، فقال : والله إنها لَلْحِطّة التى عُرضت على بنى إسرائيل فلم يقولوها .

فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس فقال : اسلكوا ذات اليمين بين ظهرى الحَمض فى طريق تخرج على ثنية المرار ، مهبط الحُدَيْبية من أسفل مكة . فسلك الجيش ذلك الطريق فلما رأت خيلُ قريش قَترة(٢) الجيش قد خالفوا عن طريقهم ركضوا راجعين إلى قريش .

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا سلك فى ثنية المرَار بركت ناقته ، فقال الناسُ : خلأت(٣) . فقال : ما خلأت وما هو لها بخلق ولكن حبسها حابسُ الفيل عن مكة ، لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألون(٤) فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها » ثم قال للناس : انزلوا قيل يا رسول الله ما بالوادى ماء ننزل عليه . فأخرج صلى الله عليه وسلم سهماً من كنانته فأعطاه رجلا من أصحابه فنزل فى قَليب من تلك القُلُب فغرزه فى جوفه فجاشَ بالرَّواء حتى ضرب الناسُ عنه بعطَن(٥) .

[رسل قريش]

فلما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه بُدَيل بن وَرْقاء فى رجال من خُزاعة فكلموه وسألوه ما الذى جاء به ، فأخبرهم أنه لم يأت يريد حربا وإنما جاء زائرا للبيت

---

(١) الأجرل : الصلب الغليظ . وفى الطبرى : وعر حزن .

(٢) القترة : الغبار .

(٣) خلأت : حرنت وبركت من غير علة .

(٤) ابن هشام والطبرى : يسألوننى .

(٥) ضرب الناس بعطن : أناخوا حول الماء بعد السقى .

ومعظماً لحرمته ، ثم قال لهم نحواً مما قال لبُشر بن سفيان ، فرجعوا إلى قريش فقالوا : إنكم تَعْجلون على محمد ، إن محمدا لم يأت لقتال إنما جاء زائرا لهذا البيت . فاتهموهم وجبّهوهم وقالوا : إن كان جاء ولا يريد قتالا فوالله لا يدخلها علينا عَنْوة أبدا ولا تحدّث بذلك عنا العرب . ثم بعثوا إليه مِكْرَز بن حفص ابن الأخْيَف أخا بنى عامر بن لؤى ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم مقبلا قال : هذا رجل غادر . فلما انتهى إليه وكلمه قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم نحوا مما قال لبديل وأصحابه . فرجع إلى قريش فأخبرهم . ثم بعثوا إليه الحُلَيْس بن علقمة أو ابن زَبّان ، أحد بنى الحارث بن عبد مناة بن كنانة وكان يومئذ سيد الأحابيش ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن هذا من قوم يتألّهون فابعثوا الهَدْى فى وجهه حتى يراه . فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادى فى قلائده قد أكل أوباره من طول الحبس عن محله ، رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إعظاما لما رأى ؛ فقال لهم ذلك فقالوا له : اجلس . فإنما أنت أعرابى لا علم لك : فغضب الحلَيْس عند ذلك وقال : يا معشر القوم والله ما على هذا حالَفْناكم وما على هذا عاقَدْناكم ، أيُصَدّ عن بيت الله من جاء معظّماً له ؟ ! والذى نفس الحليس بيده لتُخلّن بين محمد وبين ما جاء له أو لأنفرنّ بالأحابيش نفرةَ رجل واحد . فقالوا له : كفّ عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به .

ثم بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عروة بن مسعود الثقفى فقال : يا معشر قريش إنى قد رأيتُ ما يلقى منكم من بعثتموه إلى محمد إذا جاءكم من التعنيف وسوء اللفظ ، وقد عرفت[1] أنكم والد وأنى ولد ، وكان لسُبَيْعة بنت عبد شمس ، وقد سمعتُ بالذى نابكم فجمعتُ من أطاعنى من قومى ثم

---

(١) ابن هشام : وقد عرفتم .

جئتكم حتى آسَيْتكم بنفسى . قالوا : صدقتَ ما أنت عندنا بمتهم . فخرج حتى أتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فجلس بين يديه ثم قال : يا محمد أجمعتَ أوْشاب الناس ثم جئت إلى بيضتك لتفضّها بهم؟ إنها قريش قد خرجت معها العُوذ المطافيل [1] قد لبسوا جلودَ النمور يعاهدون الله لا تَدْخلها عليهم عَنْوة أبداً ، وأيم الله لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك . فردّ عليه أبو بكر الصديق رضى الله عنه وقال : أنحن ننكشف عنه ! ثم جعل عروة يتناول لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يكلمه والمغيرة بن شُعبة واقف على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديد ، فجعل يَقْرع يده إذا فعل ذلك ويقول : اكفف يدك عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن لا تصل إليك . فيقول عروة : ويحك ما أفظّك وأغلظك . فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : من هذا يا محمد ؟ قال : هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة . قال : أى غُدَر هل غسلتَ [2] سَوأتَك إلا بالأمس ! يريد أن المغيرة كان قتل قبل إسلامه ثلاثة عشر رجلا من ثَقِيف فتهايَج الحيّان من ثقيف بنو مالك رهط المقتولين والأحلافُ رهط المغيرة ، فودَى عروةُ المقتولين ثلاث عشرة دية وأصلح ذلك الأمر .

وكلّم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عروةَ بنحو مما كلم به أصحابَه ، وأخبره أنه لم يأت يريد حرباً ، فقام من عنده وقد رأى ما يصنع به أصحابه ،

---

(١) العوذ المطافيل : النوق ذوات اللبن معها أولادها ، وهى كناية عن النساء معها الأطفال .

(٢) ابن هشام : وهل غسلت .

لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه ، ولا يبصق بصاقاً إلا ابتدروه[1] ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه ، فرجع إلى قريش فقال : يامعشر قريش إني قد جئتُ كسرى في مُلْكه وقيصر في مُلكه والنجاشي في ملكه ، وإني والله ما رأيت ملكا في قوم قط مثل محمد في أصحابه ! ولقد رأيت قوماً لا يُسْلمونه لشيء أبداً فرَوْا رأيكم .

[بعث الرسول إلى قريش]

ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم خِراش بن أمية الخزاعي فحمله على بعير له وبعثه إلى قريش ليبلّغ أشرافهم عنه ما جاء له ، فعقروا به الجملَ وأرادوا قتله فمنعته الأحابيش ، فخلّوا سبيله حتى أتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم .

وبعثت قريش أربعين رجلا أو خمسين وأمروهم أن يُطيفوا بعسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصيبوا لهم من أصحابه أحداً ، فأُخذوا أخذاً ، فأتى بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فخلّى سبيلهم .

ثم دعا عمرَ بن الخطاب ليبعثه إلى مكة فيبلغ عنه أشراف قريش ماجاء له فقال : يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي وليس بمكة من بني عديّ ابن كعب أحد يمنعني ، وقد عرفت قريشٌ عداوتي إياها وغِلظتي عليها ، ولكني أدلك على رجل أعزّ بها مني : عثمان بن عفان .

فدعا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عثمانَ فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب وإنما جاء زائرا لهذا البيت ومعظِّماً لحرمته ؛

---

(١) تحمل هذه الرواية على المبالغة في الحب والإجلال والتوقير ، ولكنها لا تتفق مع ما أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من وضاءة وطهر وتنزه .

فخرج عثمان إلى مكة فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها فحمله بين يديه ثم أجاره .

وقال له فيما ذكره غير ابن إسحق :

أقبلْ وأدبر ولا تخف أحداً   بنو سعيد أعزّة الحرَمِ

فانطلق عثمانُ حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أرسله به ، فقالوا له حين فرغ : إن شئت أن تطوف بالبيت فطفْ . قال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله صلى الله عليه وسلم . فاحتبسته قريش عندها فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين أن عثمان قد قُتل فقال حين بلغه ذلك : لا نَبرح حتى نناجز القوم .

[بيعة الرضوان]

ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناسَ إلى البيعة ، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة ، فكان الناس يقولون : بايَعهم على الموت . وكان جابر يقول : بايعنا على ألاّ نفرّ .

فبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس ولم يتخلف عنه أحد من المسلمين حضرها إلا الجدّ بن قيس لصق بإبط ناقته يستتر بها من الناس .

ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الذى كان من أمر عثمان باطل . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بايع لعثمان ، ضرب بإحدى يديه على الأخرى وقال : هذه يد عثمان .

[الصلح]

ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو وقالوا : إيت محمدا فصالحه ولا يكون فى

صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا ، فوالله لا تحدَّث عنا العرب أنه دخلها علينا عَنْوة أبدا .

فأتى سهيل فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم مقبلا قال : قد أراد القوم الصلح حين بعثوا إلينا هذا الرجل .

فلما انتهى إليه سهيل تكلم فأطال الكلام وتراجعا ، ثم جرى بينهم الصلح .

فلما التأم الأمرُ ولم يبق إلا الكتاب وثب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر فقال : يا أبا بكر أليس برسول الله ؟ قال : بلى . قال : أو لسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى . قال : أو ليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى . قال : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ! قال أبو بكر : ياعمر الزم غَرْزه[1] فإنى أشهد أنه رسول الله قال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله .

ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ألست برسول الله ؟ قال : بلى . قال : أو لسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى . قال : أو ليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى . قال : فعلام نعطى الدنيّة فى ديننا ؟ ! قال : « أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمرَه فيضيعنى[2] » فكان عمر يقول فازلت أتصدق وأصوم وأصلى وأعتق من الذى صنعتُ يومئذ مخافة كلامى الذى تكلمت به حين رجوت أنه يكون خيرا .

---

(١) الغرز : ركاب من جلد توضع فيه الرجل ، أى اتبع أمره ولا تخالفه .

(٢) كذا بالأصل . وفى ابن هشام والطبرى : ولن يضيعنى .

ثم دعا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه فقال « اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال سهيل بن عمرو : لا أعرف هـذا ولـكن اكتب : باسمك اللهم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اكتب باسمك اللهم . فـكتبها ثم قال : اكتب : هذ ما صالح عليه محمد رسول الله سهيلَ بن عمرو . فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ولـكن اكتب اسمك واسمَ أبيك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اكتب : « هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيلَ بن عمرو . اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكفُّ بعضهم عن بعض ، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردّوه عليه ، وأن بيننا عَيْبة مكفوفة [1] وأنه لا إسْلال ولا إغلال [2] وأنه من أحب أن يدخل فى عَقْد محمد وعهْده دخل فيه ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه » .

فتواثبت خزاعةُ فقالوا : نحن فى عقد محمد وعهده . وتواثبت بنو بكر فقالوا : نحن فى عقد قريش وعهدهم .

« وأنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة ، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنها فدخلتها بأصحابك فأقمت فيها ثلاثاً معك سلاحُ الراكب : السيوف فى القُرب لا تدخلها بغيرها » .

فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يكتب الـكتاب هو وسهيل بن عمرو إذ جاء أبو جَنْدل بن عمرو يَرْسُف فى الحديد قد انفلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) العيبة : موضع السر . ومكفوفة : مطوية .
(٢) الإسلال : السرقة الخفية . والإغلال : الخيانة .

وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا وهم لا يشكُّون في الفتح لرؤيا رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع وما يحمل (١) عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفسه دخل الناسَ من ذلك أمرٌ عظيم حتى كادوا يهلكون .

فلما رأى سهيلٌ أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وأخذ بتَلْبيبه ثم قال يا محمد قد لجّت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا . قال : صدقت . فجعل ينتره بتَلْبيبه ويجرّه ليردّه إلى قريش ، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أُرَدّ إلى المشركين يفتنوني في ديني ؟ ! فزاد الناسَ ذلك إلى ما بهم .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أبا جندل اصبر واحتسب ، فإن الله جاعلٌ لك ولمن معك من المسلمين فرجاً ومَخرجاً ، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صُلحا وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهدالله ، وإنا لا نغدرهم » .

فوثب عمرُ بن الخطاب مع أبي جندل يمشي إلى جنبه ويقول : اصبر يا أبا جندل، فإنما هم المشركون وإنما دمُ أحدهم دمُ كلب !

— ويُدْني قائمَ السيف منه — يقول عمر : رجوتُ أن يأخذ السيفَ فيضرب به أباه ، فضنّ الرجل بأبيه ونفذت القضية .

فلما فرغ من الكتاب أشهد رجالاً من المسلمين ورجالا من المشركين ، أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف وعبدالله بن سُهيل بن عمرو ، وسعد بن أبي وقاص ومحمود بن مَسْلمة ، ومِكْرز بن حفص وهو مشرك

---

(١) الطبري وابن هشام : وما تحمل .

وعلى بن أبى طالب وهو كان كاتب الصحيفة .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مُضْطَرِبا[1] فى الحل وكان يصلى فى الحرَم ، فلما فرغ من الصلح قام إلى هَدْيه فنحره ثم جلس فحلق رأسه وأهدى عامئذ فى هداياه جَملا لأبى جهل فى رأسه بُرَةَ من فضة ليغيظ بذلك المشركين . فلما رآه الناس قد نحر وحلق تواثبوا ينحرون ويحلقون ، وكان فيهم يومئذ من قصّر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يرحم الله المحلِّقين . قالوا : والمقصِّرين يا رسول الله ؟ قال : يرحم الله المحلقين . قالوا : والمقصرين يارسول الله ؟ قال : يرحم الله المحلقين . قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال : والمقصرين . فقالوا يارسول الله ، فلم ظاهرتَ الترحيم المحلقين دون المقصّرين ؟ قال لم يشكُّوا .

[سورة الفتح]

ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من وجهه ذلك قافلا ، حتى إذا كان بين مكة والمدينة نزلت سورة الفتح : « إنا فتَحْنا لك فتحاً مُبيناً . ليغفر لك اللهُ ما تقدّم من ذَنْبك وما تأخّر ويتمّ نعمته عليك ويَهْديك صراطاً مُسْتقيما » .

ثم ذكر القصة فيه وفى أصحابه ، حتى إذا انتهى إلى ذكر البيعة فقال « إنّ الذين يُبَايعونك إنما يُبَايعون الله يدُ الله فوق أيديهم ، فمن نَكَث فإنما يَنْكث على نفسه ومَنْ أوْفى بما عاهَد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما » . ثم ذكر من تخلّف عنهم من الأعراب فاستوفى قصتهم ثم قال : « لقد رَضى

---

(١) مضطربا : أى أقام خيامه فى الحل .

اللهُ عن المؤمنين إذْ يُبَايعونك تحت الشجرة فَعلِم ما فى قُلوبهم فأنزَل السَّكِينةَ عليهم وأثابهم فتحاً قريبا ومَغَانمَ كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حَكِيما ، وعدكم الله مغانم كثيرةً تأخذونها فعجّل لكم هذه وكفّ أيدىَ الناسِ عنكم ولتكون آيةً للمؤمنين ويهديكم صراطاً مُستقيما وأُخْرى لَمْ تَقْدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديرا » ثم قال : « وهو الذى كفّ أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أنْ أظفركم عليها وكان الله بما تعملون بَصيراً » يعنى الذين وجهت قريش بهم ليصيبوا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدا فلم ينالوا شيئا وأخِذوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم بجملتهم وسيقوا إليه فخلّى سبيلهم .

ثم قال بعد : « إذ جَعل الذين كفروا فى قلوبهم الحَمِيةَ حَمِيّة الجاهلية » يعنى سهيل بن عمرو حين حَمِى أن يكتب : بسم الله الرحمن الرحيم . وأن محمدا رسول الله « فأنزَل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزَمهم كلمة التقوى وكانوا أحقّ بها وأهلَها » أى التوحيد : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله .

ثم قال : « لقد صدَق الله رسولَه الرؤيا بالحق لتدْخُلنّ المسجدَ الحرامَ إن شاء الله آمنين محلِّقين رءوسكم ومقصّرين لا تخافون فعَلِم مالم تعلموا » أى لرؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم التى رأى أنه سيدخل مكة آمنا لا يخاف . وقد قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم لمّا قدِم المدينة بعضُ من كان معه : ألم تقل يارسول الله أنك تدخل مكة آمناً ؟ قال :

بلى ، فقلتُ مِن عامى هذا ؟ قالوا : لا قال فهو كما قال لى جبريل . فحقق له سبحانه من مَوْعده ما أنجزه له بعد وصدَّقه بقوله جل قوله « لَتَدْخُلن المسجدَ الحرامَ إنْ شاء الله آمنين محلِّقين رءوسكم ومقصِّرين » معه « فعَلِم ما لم تعْلموا فجعل من دُونِ ذلك فتحاً قَرِيباً » صلح الحديبية .

يقول الزُّهْرى : فما فُتِح فى الإسلام فتحٌ قبله كان أعظمَ منه ، إنما كان القتال حيث التقى الناس ، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب وأمِن الناسُ [كلهم[1]] بعضهم بعضاً والتقوا فتفاوضوا فى الحديث والمنازعة ، فلم يكلَّم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه ، فلقد دخل فى تينك السنتين مثلُ من كان فى الإسلام قبل ذلك وأكثر[2] .

قال ابن هشام : والدليل على ما قال الزهرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى الحديبية فى ألف وأربعمائة فى قول جابر بن عبد الله ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين فى عشرة آلاف .

وذكر ابن عُقْبة أنه لما كان صلح الحديبيـة قال رجال من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما هذا بفتح ، لقد صُدِدْنا عن البيت وصُدَّ هَدْيِنا . فبلغ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قول أولئك فقال : بئس الكلام هذا ، بل هو أعظم الفتوح ، قد رضى المشركون أن يدفعوكم بالراح[3] عن بلادهم ويسألوكم القضية ويرغبوا إليكم فى الأمان ، وقد رأوا

---

(١) ليست فى ابن هشام . (٢) ابن هشام : أو أكثر .
(٣) الراح : الأكف . أى بدلا من السلاح .

منكم ما كرهوا وأظفركم الله عليهم وردّكم سالمين مأجورين ، فهو أعظم الفتوح ، أتنسون يومَ أحد إذ تُصْعِدون ولا تلوون على أحــــد وأنا أدعوكم فى أخراكم ؟!

أنسيتم يومَ الأحزاب إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوبُ الحناجر وتظنون بالله الظنونا » ؟ فقال المسلمون: صدق الله ورسوله فهو أعظم الفتوح ، والله ما فكرنا فيما فكرت فيه ولأنت أعلم بالله وأمره منا .

وفى الصحيح من حديث سهل بن حُنَيْف أنه قال يوم صِفّين : يأيها الناس اتهموا رأيكم على دينكم ، فلقد رأيتنى يوم أبى جندل ولو أستطيع أن أردّ أمرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم لرددْته والله ورسوله أعلم[1] .

وخرّج البخارى من حديث البرَاء بن عازب قال : تعدّون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحاً ، ونحن نعدّ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية ، كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع عشرة مائة والحديبية بئر ، فنزحناها فلم نترك فيها قطرة ، فبلغ ذلك النبىّ صلى الله عليه وسلم فأتاها فجلس على شَفيرها ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ ثم مضمض ودعا ثم صبه فيها فتركناها غير بعيد ، ثم إنهــــا أصْدَرتنا ما شئنا نحن وركابنا[2] .

وعن سالم ابن أبى الجَعْد عن جابر بن عبد الله قال : عطش الناسُ

---

(١) صحيح البخارى ٤/٢١٥ .
(٢) صحيح البخارى ٣/٣٥ .

يومَ الحديبية ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين يديه رَكْوة فتوضأ منها ثم أقبل الناسُ نحوه فقالوا : يارسول الله ليس عندنا ماء نتوضأ به ولا نشرب إلا ما في رَكْوتك . قال : فوضع النبي صلى الله عليه وسلم يده في الركوة فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون . قال : فشربنا وتوضأنا فقلت لجابر : كم كنتم يومئذ ؟ قال : لو كنا مائة ألف لكفانا ، كنا خمس عشرة مائة[1] .

وذكر ابن عُقْبة عن ابن عباس قال : لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية كلمه بعض أصحابه فقالوا : جهدْنا وفي الناس ظَهْر فانحره لنا فلنأكل من لحومه ولندّهن من شحومه ولنَحْتَذِ من جلوده . فقال عمر : لا تفعل يارسول الله فإن الناس إن يكن فيهم بقية ظهر أمثَل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ابسطوا أنطاعكم وعَباءكم ففعلوا [ثم قال : من كان عنده بقية من زاد وطعام فلينثره ، ودعا لهم[2]] ثم قال لهم : قرّبوا أوعيتكم . فأخذوا ما شاءوا[3] .

[أمر أبي بصير]

قال ابن إسحق : ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة يعني من الحديبية أتاه أبو بصير عتبة بن أسيد بن جارية[4] ، وكان ممن حُبِس بمكة ، فكتب فيه أزهر بن عبد عوف والأخنس بن شَرِيق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعثا رجلا من بني عامر بن لؤيّ ومعه مولى

---

(١) صحيح البخاري ٣/٣٥ .
(٢) من الخصائص الكبرى ١/٣٨ .
(٣) الخصائص : ما شاء الله .
(٤) ط : ابن حارثة .

لهم ، فقدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكتاب فقال صلى الله عليه وسلم : «يا أبا بصير إنّا قد أعطينا هؤلاء القومَ ما قد علمتَ ولا يصلحُ لنا في ديننا الغدْر ، وإن الله جاعلٌ لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومَخْرجاً » .

فانطلق معهما حتى إذا كان بذى الحُلَيْفة جلس إلى جدار وجلس معه صاحباه ، فقال أبو بصير . أصارمٌ سيفك هذا يا أخا بنى عامر ؟ فقال : نعم . قال : أنظر إليه [قال] إن شئت فاستلّه أبو بصير ثم علاه به حتى قتله .

وذكر ابن عقبة أن الرجل هو الذى سلّ سيفه ثم هَزّه فقال : لأضربنّ بسيفى هذا فى الأوس والخزرج يوماً إلى الليل ، فقال له أبو بصير : وصارمٌ سيفك هذا؟ فقال : نعم فقال ناولنيه أنظر إليه فناوله إياه ، فلما قبض عليه ضربه به حتى بَرد . قال : ويقال بل تناول أبو بصير سيف الرجل بفيه وهو نائم فقطع إساره ثم ضربه به حتى برد ، وطلب الآخر ، فجمز[1] مرعوبا مستخفيا حتى دخل المسجدَ ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم جالس فيه يُطن[2] الحصباء من شدة سعيه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآه : لقد رأى هذا ذُعْراً . قال ابن إسحق : فلما انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ويحك مالك ؟ قال : قتل صاحبُكم صاحبى .

فوالله ما برح حتى طلع أبو بصير متوشّحاً السيف فقال : يا رسول الله ، وفَتْ ذِمتك وأدّى الله عنك ، أسلَمْتَنى بيد القوم وقد امتنعتُ بدينى أن

(١) جمز : أسرع .

(٢) يطن : يطير .

أفتن فيه أو يُبعث بى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « وَيْلِمِّهِ [1] مِحَشّ [2] حرب لو كان معه رجال ! »

ثم خرج أبو بصير حتى نزل العِيصَ من ناحية المَرْوَة على ساحل البحر بطريق قريش التى كانوا يأخذون إلى الشام ، وبلغ المسلمين الذين كانوا احتبسوا بمكة قولُ رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بصير : « وَيلمه محش حرب لو كان معه رجال » فخرجوا إلى أبى بصير بالعِيص ، فاجتمع إليه قريب من سبعين رجلا منهم .

وذكر موسى بن عُقْبة أن أبا جَنْدل بن سُهَيْل بن عمرو الذى رُدّ على قريش مُسكرِها يوم القضية هو الذى انفلت فى سبعين راكبا أسلموا وهاجروا فلحقوا بأبى بصير وكرهوا الثواء بين أظهر قومهم ، فنزلوا مع أبى بصير فى منزل كريه إلى قريش فقطعوا مادّتهم من طريق الشام . قال : وكان أبو بصير زعموا وهو فى مكانه ذلك يصلى لأصحابه ، فلما قدم عليهم أبو جندل كان هو يؤمّهم .

واجتمع إلى أبى جندل ناسٌ من غِفار وأسْلَمَ وجُهَيْنة وطوائف من العرب حتى بلغوا ثلاثمائة مقاتل وهم مسلمون ، فأقاموا مع أبى جندل وأبى بصير ، لا يمرُّ بهم عِير لقريش إلا أخذوها وقتلوا أصحابها . وقال فى ذلك أبو جندل فيما ذكره غير ابن عقبة :

---

(١) ويلمه : ويل أمه . وهى هنا كلمة مدح

(٢) محش حرب : موقدها ومسعرها . وتروى : مسعر حرب .

أبلغْ قريشاً عن أبي جَنْدلِ أنّا بذى المرْوة بِالساحلِ
في معشر تخفق أيمانهم بالبيض فيها والقنا الذابلِ
يأبَوْن أن يبقى لهم رفقة من بعد إسلامهم الواصلِ
أو يجعل الله لهم مَخرجا والحق لا يُغلب بالباطلِ
فيَسْلم المرء بإسلامه أو يُقتل المرء ولم يأتلِ

فأرسلت قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا سفيان بن حرب يسألونه ويتضرعون إليه أن يبعث إلى أبي بصير وإلى أبي جندل بن سُهَيل ومن معهم فيقدموا عليه وقالوا : من خرج منا إليك فأمسكه في غير حَرَج فإنّ هؤلاء الركب قد فتحوا علينا بابا لا يصلح إقراره .

فلما كان ذلك من أمرهم علم الذين كانو أشاروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يمنع أبا جندل من أبيه بعد القضية أن طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرٌ فيما أحبوا وفيما كرهوا ، وأن رأيه أفضل من رأيهم ومِنْ رأى من ظن أن له قوة ورأيا ، وعلم أن ما خصّ الله به نبيه من العون والكرامة أفضل .

وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبي جندل وأبي بصير يأمرهم أن يرجعوا إلى بلادهم وأهليهم ولا يَعْرضوا لأحد مرّ بهم من قريش وعيراتها ، فقدم كتابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، زعموا ، على أبي جندل وأبي بَصير وأبو بصير يموت ، فمات وكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في يده يقرئه . فدفنه أبو جندل مكانه وجعل عند قبره مسجدا .

وقدم أبو جندل على رسول الله صلى الله عليه وسلم معه أناس من أصحابه

ورجع سائرهم إلى أهليهم وأمنت عيرات قريش .

فلم يزل أبو جَنْدل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهد ما أدرك من المشاهد بعد ذلك وشهد الفتح ، ورجع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يزل معه بالمدينة حتى توفى صلوات الله عليه وسلامه وقدم أبوه سهيل بن عمرو المدينة أول إمارة عمر بن الخطاب رضى الله عنه فمكث بها أشهراً ثم خرج مجاهداً إلى الشام وخرج معه ابنه أبو جندل فلم يزالا مجاهدين حتى ماتا جميعاً هناك يرحمهما الله .

[المهاجرات بعد الحديبية]

وهاجرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تلك المدة أم كلثوم بنت عقبة ابن أبى مُعَيْط ، فخرج أخواها عمارة والوليد ابنا عقبة حتى قدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألانه أن يردّها عليهما بالعهد الذى بينه وبين قريش فى الحديبية ، فلم يفعل ، أبى الله ذلك وأنزل فيه على رسوله « يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمناتُ مهاجراتٍ فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن ، فإن علمتموهن مُؤْمناتٍ فلا ترجعوهن إلى الكفّار لاهن حِلٌّ لهم ولاهُمْ يَحِلُّون لهن ، وآتوهم ما أنفقوا ، ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن ولا تمسكوا بعصَم الكوافر واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ، ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم[1] » .

---

(١) سورة الممتحنة ١٠.

غزوة خيبر

ولما قدم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المدينة من الحديبية مكث بها ذا الحجة مُنْسلخ سنة ست ، وبعض المحرم من سنة سبع .

ثم خرج في بقية منه إلى خيبر غازياً .

وكان الله وعده إياها وهو بالحديبية بقوله عز من قائل : «وعدكم الله مَغانمَ كثيرة تأخذونها فعجّل لكم هذه» يعني بالمعجل صلح الحديبية ، والغنائم الموعود بها فتح خيبر .

فخرج إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم مستنجزاً ميعاد ربه وواثقاً بكفايته ونصره ، ودفع الراية إلى علي بن أبي طالب وكانت بيضاء ، فسلك على عِصْر[1] فبنى له فيها مسجداً ، ثم على الصهباء . ثم أقبل بجيشه حتى نزل به بواد يقال له الرَّجيع فنزل بينهم وبين غطفان ليحول بينهم وبين أن يمدّوا أهل خيبر وكانوا لهم مظاهرين على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكر أن غطفان لما سمعت بمنزله من خيبر جمعوا ثم خرجوا ليظاهروا يهود عليه حتى إذا ساروا مَنْقلة[2] سمعوا خلفهم في أموالهم وأهليهم حسّاً ظنوا أن القوم قد خالفوا إليهم ، فرجعوا على أعقابهم فأقاموا في أهليهم وأموالهم وخلوا بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وخيبر .

قال أبو معتب بن عمرو : لما أشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم على خيبر قال لأصحابه وأنا فيهم : قفوا . ثم قال : « اللهم ربّ السموات السبع وما

---

(١) عصر : جبل بين المدينة ووادي الفرع .

(٢) المنقلة : المرحلة من الطريق .

أظللن ورب الأرضين السبع وما أقللن ورب الشياطين وما أضللن ورب الرياح وما أذرين فإنا نسألك خيرَ هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها ونعوذ بك من شرّها وشر أهلها وشر ما فيها » ثم قال : « أقدموا بسم الله » قال : وكان يقولها لكل قرية دخلها .

وقال أنس بن مالك : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غزا قوماً لم يُغِرْ عليهم حتى يصبح ، فإن سمع أذاناً أمسك وإن لم يسمع أذاناً أغار ، فنزلنا خيبر ليلا فبات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا أصبح لم يسمع أذاناً فركب وركبنا معه ، فركبت خلف أبي طلحة وإن قدمي لتمسّ قدَم رسول الله صلى الله عليه وسلم واستقبلنا عمال خيبر غادين قد خرجوا بمساحيهم ومكاتلهم ، فلما رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم والجيش قالوا : محمد والخميس معه . فأدبروا هرابا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الله أكبر خربت خيبر ! إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباحُ المنذَرين » .

قال ابن إسحق : وتدنّى[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم الأموالَ يأخذها مالا مالا ويفتحها حصنا حصنا ، فكان أول حصونهم افتتح حصن ناعم ، وعنده قُتل محمود بن مَسْلمة أُلقيت عليه رحىً منه فقتلته ، ثم القموص حصن أبي الحقيق[2] وأصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم

---

(١) تدنى : جعل يأخذ الأدنى فالأدنى .

(٢) الطبرى : حصن ابن أبي الحقيق . وابن هشام : حصن بني أبي الحقيق .

سبايا منهن صفية بنت حُيَيّ بن أخطب ، وكانت عند كنانة بن الربيع ابن أبي الحُقَيْق وبنتى عم لها ، فاصطفى صفية لنفسه بعد أن سأله إياها دِحْية الكلبي ، فلما اصطفاها لنفسه أعطاه ابنتى عمها ، وكان بلال هو الذى جاء بصفية وبأخرى معها فمرّ بهما على قتلى من قتلى يهود ، فلما رأتهم التى مع صفية صاحت وصكّت وجهها وحثت التراب على رأسها ، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أغربوا عنى هذه الشيطانة وأمر بصفية فحِيزتْ خلفه وألقى عليها رداؤه ، فعرف المسلمون أنه قد اصطفاها لنفسه فذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لبلال حين رأى بتلك اليهودية ما رأى : « أنُزِعت منك الرحمة يا بلال حين تمرّ بامرأتين على قتلى رجالها ؟ ! » .

وكانت صفية قد رأت فى المنام وهى عروس بكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق أن قمراً وقع فى حِجْرها ، فعرضت رؤياها على زوجها فقال : ما هذا إلا أنك تمنين ملك الحجاز محمداً ! فلطم وجهها لطمة خَضَّر عينها منها . فأتى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وبها أثر منه فسألها ما هو فأخبرته الخبر .

ولما أعرس بها رسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر أو ببعض الطريق وبات بها فى قُبة له ، بات أبو أيوب الأنصارى متوشحاً السيفَ يحرسه ويطيف بالقبة حتى أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأى مكانه قال : مالك يا أبا أيوب ؟ قال : يا رسول الله خِفْت عليك من هذه المرأة ، وكانت امرأةً قد قتلت أباها وزوجها وكانت حديثة عهد بكفر

فحفظتُها عليك . فزعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظنى » .

وأُتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكنانة بن الربيع وكان عنده كنز بنى النضير فسأله عنه فجحد أن يكون يعلم مكانه ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل من يهود فقال : إنى رأيت كنانة يطيف بهذه الخربة كلَّ غَداة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكنانة : أرأيت إن وجدناه عندك أقتلك ؟ قال : نعم . فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخربة فحفرت فأخرج منها بعض كنزهم ثم سأله ما بقى فأبى أن يريه ، فأمر به الزبير بن العوام فقال : عذِّبه حتى تستأصل ما عنده . فكان الزبير يقدح بزند فى صدره حتى أشرف على نفسه ثم دفعه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى محمد بن مَسْلمة فضرب عنقه بأخيه محمود ابن مسلمة .

[تحريم الحمر الأهلية]

وفشت السبايا من خيبر فى المسلمين وأكل المسلمون لحومَ الحُمُر من حمرها .

قال ابن عقبة : كانت أرضا وخيمة شديدة الجهد ، فجهد المسلمون جهداً شديدا وأصابتهم مَسْغبة شديدة فوجدوا أحمرة إنسية ليهود لم يكونوا أدخلوها الحصن فانتحروها ، ثم وجدوا فى أنفسهم من ذلك ، فذكروها لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنهاهم عن أكلها .

قال أبو سليط فيما ذكر ابن إسحق : أتانا نَهْى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكل لحوم الحمر الإنسية والقدور تفور بها فكفأناها على وجوهها .

وذكر أيضا أن رسول صلى الله عليه وسلم قام يومئذ فى الناس فنهاهم عن أمور سماها لهم ، قال مكحول : نهاهم يومئذ عن أربع : إتيان الحبالى من النساء[1] ، وعن أكل الحمار الأهلى ، وعن أكل كل ذى ناب من السباع ، وعن بيع المغانم حتى تقسم .

وحدّث جابر بن عبد الله ولم يشهد خيبر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نهى الناس عن أكل لحوم الحمر أذن لهم فى لحوم الخيل .

وافتتح رُوَيْفع بن ثابت قرية من قرى المغرب يقال لها جِرَبة[2] فقام خطيبا فقال : يا أيها الناس إنى لا أقول لكم إلا ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فينا يوم خيبر ، قام فينا فقال :

« لا يحلّ لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يصيب امرأة من السبي حتى يستبرئها ، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيع مَغْنما حتى يُقْسم ، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يركب دابة من فَىْء المسلمين حتى إذا أعجفها ردّها فيه ، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يلبس ثوبا من فىء المسلمين حتى إذا أخْلَقه رده فيه » .

---

(١) أى من السبايا قبل استبرائهن بالوضع .

(٢) جربة : جزيرة بالمغرب من ناحية قابس .

وقال عبادة بن الصامت : نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر أن نبيع أو نبتاع تِبْر الذهب بالذهب العَيْن ، وتبر الفضة بالورق العين ، وقال : « ابتاعوا تِبر الذهب بالورق العين ، وتبر الفضة بالذهب العين » .

ولما أصاب المسلمين بخيبر ما أصابهم من الجهد أتى بنو سَهْم من أسلم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم . فقالوا : يا رسول الله لقد جُهِدْنا وما بأيدينا من شيء. فلم يجدوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً يعطيهم إياه فقال : اللهم إنك قد عرفت حالهم وأن ليست بهم قوة وأن ليس بيدى شيء أعطيهم إياه فافتح عليهم أعظم حصونها عنهم غناء وأكثرها طعاما ووَدَكا . فغدا الناسُ وفتح الله عليهم حصن الصَّعْب بن معاذ ، وما بخيبر كان أكثر طعاما وودكا منه .

[المبارزة]

ولما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم من حصونهم ما افتتح وحاز من الأموال ما حاز انتهوا إلى حصنيهم « الوطيح » و « السّلاَلم » وكانا آخر حصون أهل خيبر افتتاحا ، فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بضع عشرة ليلة ، وخرج مَرْحب اليهودى من حصنهم قد جمع سلاحه وهو ينادى من يبارز ويرتجز :

قد علمت خيبر أنى مَرْحبُ   شاكى السلاح بطل مجرّبُ
أطعنُ أحيانا وحينا أضربُ   إذا الليوث أقبلت تحرّبُ
إنّ حِمَاى للحمى لا يُقْربُ

فأجابه كعب بن مالك فقال :

قد علمتْ خيبرُ أنى كعبُ ... مفرِّجِ الغمَّا جرىء صُلْبُ

حين تشبّ الحربُ ثم الحرب ... معى حُسامٌ كالعَقيق عَضْبُ

نطؤُكمُ حتى يذلّ الصعبُ ... نعطى الجزاء أو يفَاء النهبُ

بكفّ ماضٍ ليس فيه عَتْب

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من لهذا ؟ قال محمد بن مسْلمة : أنا له يا رسول الله ، أنا والله الموتور الثائر قتل أخى بالأمس . قال : فقم إليه اللهم أعِنْه عليه . فلما دنا أحدهما من صاحبه دخلت بينهما شجرة عُمْرية[3] من شجر العُشر[4] فجعل أحدهما يلوذ بها من صاحبه كلما لاذ بها منه اقتطع صاحبه بسيفه مادونه منها حتى برز كل واحد منهما لصاحبه وصارت بينهما كالرجل القائم ما فيها فَنَن ، ثم حمل مرحب على محمد بن مسلمة فاتقاه بدَرَقته فوقع سيفه فيها فعضّت به فأمسكته ، وضربه محمد بن مسلمة حتى قتله .

ثم خرج بعد مَرْحب أخوه ياسر وهو يقول : من يبارز ؟ فخرج إليه الزبير بن العوام ، فيما ذكر هشام بن عروة ، فقالت أمه صفية بنت عبد المطلب : يقتل ابنى يا رسول الله ؟ قال : بل ابنك يقتله إن شاء الله . فخرج الزبير فالتقيا فقتله الزبير .

(١) ابن هشام : إذ شبت الحرب تلتها الحرب .

(٢) ابن هشام : أو يفىء النهب . وما هنا أدق .

(٣) عمرية : قديمة معمرة .

(٤) العشر : شعر فيه حراق لم يقتدح الناس فى أجود منه .

[علىّ يحمل الراية]

وحدّث سلمة بن عمرو بن الأكوع قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يومَ خيبر : « لأعطينّ الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله يفتح الله على يديه ليس بفرّار » فدعا علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه وهو أرمَد فتفل فى عينه ثم قال : خذ هذه الراية فامضِ بها حتى يفتح الله عليك . فخرج وهو يهرول بها هرولةً وإنا لخلفه نتبع أثره ، حتى ركز رايته فى رَضْم من حجارة تحت الحصن ، فاطلع إليه يهودى من رأس الحصن فقال : من أنت ؟ قال : أنا على بن أبى طالب . قال اليهودى : علوتم وما أُنزل على موسى . أو كما قال . فما رجع حتى فتح الله على يديه .

وقال أبو رافع ، مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم : خرجنا مع على رضى الله عنه حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم برايته ، فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم فضربه رجل من يهود فطرح ترسه من يده ، فتناول علىّ باباً كان عند الحصن فترّس به عن نفسه ، فلم يزل فى يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه ثم ألقاه من يده حين فرغ ، فلقد رأيتنى فى نفر معى سبعة ثامنهم نجهد على أن نقلب ذلك الباب فما نقلبه .

وحدث أبو اليسر كعب بن عمرو قال : إنا لمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر ذات عشية إذ أقبلت غنم لرجل من يهود تريد حصنهم ونحن محاصروهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من رجل يُطعمنا من هذه الغنم ؟ فقال أبو اليسر : أنا يا رسول الله : قال : فافعل قال : فخرجت أشتد مثل الظليم ، فلما رآنى رسول الله صلى الله عليه وسلم مولّيا قال : اللهم أمتعنا

---

(١) قال ابن كثير : وفى هذا الخبر جهالة وانقطاع ظاهر . السيرة ٣/٣٠٩ .

به ! قال : فأدركتُ الغنم وقد دخلت أولاها الحصن فأخذت شاتين من أخراها فاحتضنتهما تحت يدى ثم أقبلت بهما أشتد كأنه ليس معى شىء حتى ألقيتهما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فذبحوهما فأكلوهما . فكان أبو اليسر من آخر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم موتاً ، فكان إذا حدّث هذا الحديث بكى ثم قال : أُمتِعوا بى لعَمْرى حتى كنت من آخرهم !

[استسلام يهود]

وحاصر رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل خيبر فى حصنيهم « الوَطيح » و « السُّلاَلم » حتى إذا أيقنوا بالهلكة سألوه أن يسيِّرهم وأن يحقن لهم دماءهم ففعل . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حاز الأموال كلها الشق ونَطَاة والكتيبة ؛ وجميع حصونهم إلا ما كان من ذَيْنك الحصنين ، فلما سمع بهم أهل فدك قد صنعوا ما صنعوا بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسيِّرهم وأن يحقن لهم دماءهم ويخلّوا له الأموال ففعل .

فلما نزل أهل خيبر على ذلك سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعاملهم فى الأموال على النصف ، وقالوا نحن أعلم بها منكم وأعمر لها ، فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على أنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجنا كم فصالحه أهل فَدك على مثل ذلك ، فكانت خيبر فيئاً بين المسلمين .

وكانت فدك خالصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأنهم لم يُجلبوا عليها بخيل ولا ركاب .

[سم اليهودية]

فلما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهدت له زينب بنت الحارث

امرأة سلاّم بن مِشْكم شاة مَصْلية[1] . وقد سألت أيّ عضو من الشاة أحبّ إليه ؟ فقيل لها الذراع . فأكثرت فيه من السم. ثم سمّت سائر الشاة، ثم جاءت بها فلما وضعتها بين يديه تناول الذراع فلاك منها مضغة فلم يُسغْها ومعه بشر ابن البراء بن مَعْرور قد أخذ منها كما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأما بشر فأساغها وأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فلفظها ثم قال : إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم . ثم دعا بها فاعترفت فقال : ما حملك على ذلك ؟ قالت : بلغْتَ من قومي ما لم يخفَ عليك فقلت : إن كان ملكا استرحت منه ؛ وإن كان نبياً فيخبر . فتجاوز عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومات بشر بن البراء من أكلته التي أكل .

وذكر ابن عقبة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تناول الكتف من تلك الشاة فانتهش منها وتناول بشر عظما فانتهش منه ؛ فلما استَرَط[2] رسول الله صلى الله عليه وسلم لقمته اشترط بشرما في فيه فقال رسول الله صلى الله عليه سلم : ارفعوا أيديكم فإن كتف هذه الشاة يخبرني أني نُعيت فيها . فقال بشر بن البراء : والذى أكرمك لقد وجدت ذلك في أكلتي التي أكلت فما منعني أن ألفظها إلا أني أعظمت أن أنغصك طعامك ، فلما أسغْتَ مافي فيك لم أكن أرغب بنفسي عن نفسك ، ورجوت أن لا تكون استرطتها وفيها نَعِيٌ .

فلم يقم بشر من مكانه حتى عاد لونه مثل الطيلسان وماطله وجعه حتى كان لا يتحول إلا ما حوِّل .

---

(١) مصلية : مشوية .

(٢) استرط : ابتلع .

قال جابر بن عبد الله : واحتجم رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ على الكاهل ، حجمه أبو طَيْبة مولى بنى بياضة . وبقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعده ثلاث سنين حتى كان وجعه الذى توفى منه فدخلت عليه أم بشر بنت البراء بن معرور تعوده فيما ذكر ابن إسحق فقال لها : يا أم بشر إن هذا لأوان وجدتُ انقطاع أَبْهرى من الأُكلة التى أكلت مع ابنك بخيبر .

قال : فإن كان المسلمون ليرون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات شهيداً مع ما أكرمه الله به من النبوة .

[غزوة وادى القرى]

ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من خيبر انصرف إلى وادى القُرَى فحاصر أهله ليالى ثم انصرف راجعا إلى المدينة .

قال أبو هريرة : لما انصرفنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن خيبر إلى وادى القرى نزلناها أُصُلاً[1] مع مغرب الشمس ، ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم غلام أهداه له رفاعة بن زيد الجُذَامى ثم الضُّبَيْبِىّ ، فوالله إنه ليضع رَحْلَ رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أتاه سَهْمٌ غَرْبٍ فأصابه فقتله ، فقلنا : هنيئا له الجنة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كلاّ والذى نفس محمد بيده إن شَمْلته الآن لتُحْرق عليه فى النار كان غلّها من فَىْء المسلمين يوم خيبر . فسمعها رجل من أصحاب رسول الله

---

(١) ابن هشام : أصيلا .

صلى الله عليه وسلم فأتاه فقال له : يارسول الله أصبتُ شراكين لنعلين لى . فقال : يُقَدّ لك مثلهما من النار .

وخرّج مسلم فى صحيحه من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لما كان يوم خيبر أقبل نفر من صحابة النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا : فلان شهيد وفلان شهيد حتى مرّوا على رجل فقالوا : فلان شهيد . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كلا إنى رأيته فى النار فى بُرْدة غلّها أو عباءة . ثم قال : يا بن الخطاب اذهب فنادِ فى الناس إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون . قال : فخرجت فناديت ألا إنه لايدخل الجنة إلا المؤمنون[1] .

[خروج النساء]

وشهد خيبر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نساء من نساء المسلمات فرضَخ لهن عليه السلام من الفىء ولم يضرب لهن بسهم . حدثت بنت [أبى] الصَّلْت[1] عن امرأة غِفارية سمّتْها قالت : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نسوة من بنى غفار وهو يسير إلى خيبر فقلنا : يارسول الله قد أردنا الخروج معك إلى وجهك هذا فنداوى الجرحى ونعين المسلمين بما استطعنا . فقال : على بركة الله . قالت : فخرجنا معه

---

(١) صحيح مسلم كتاب الإيمان حديث رقم / ١٨٢

(٢) هى أمية بنت قيس بن أبى الصلت الغفارية ، مختلف فى حديثها . أسد الغابة ٥/٤٠٥ وقد روى خبرها هذا الواقدى وأبو داود فى سننه وابن كثير فى سيرته . وفى ابن هشام (ط الحلبى) : أمية بن أبى الصلت . محرفة .

فلما افتتح خيبر رضَخ لنا من الفىء وأخذ هذه القلادة التى ترين فى عنقى فأعطانيها وعلّقها بيده فى عنقى ، فوالله لا تفارقنى أبدا . قالت : فكانت فى عنقها حتى ماتت ثم أوصت أن تُدفن معها .

[الشهداء]

واستشهد بخيبر من المسلمين نحو من عشرين رجلا منهم عامر بن الأكوع عم سلمة بن عمرو بن الأكوع ؛ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال له فى مسيره إلى خيبر : انزل يابن الأكوع فخذ لنا من هَنَاتك[1] ! فنزل يرتجز برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

والله لولا الله ما اهتدَيْنا ... ولا تصدّقْنا ولا صلّيْنا

إنا إذا قومٌ بغَوْا علينا ... وإن أرادوا فتنة أبَيْنا

فأنزِلَنْ سكينةً علينا ... وثبِّت الأقدامَ إن لاقينا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يرحمك الله . فقال عمر بن الخطاب : وجبتْ والله يارسول الله لو أمتعتنا به ! فقتل يوم خيبر شهيدا ، وكان قَتْله أن سيفه رجع عليه وهو يقاتل فكلمه كلْما شديدا فمات منه ، فكان المسلمون قد شكُّوا فيه وقالوا : إنما قتله سلاحه ، حتى سأل ابنُ أخيه سلمة رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك وأخبره بقول الناس فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه لشهيد وصلى عليه . فصلى عليه المسلمون .

---

(١) هناتك : أشعارك أو أحاديثك .

ومنهم الأسود الراعي من أهل خيبر ، وكان من حديثه أنه أتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وهو محاصر لبعض حصون خيبر ومعه غنم كان فيها أجيرا لرجل من يهود ، فقال : يارسول الله اعرض عليّ الإسلام فعرضه عليه فأسلم . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يَحْقِر أحداً أن يدعوه إلى الإسلام ويعرضه عليه ، فلما أسلم قال : يارسول الله إنى كنت أجيراً لصاحب هذه الغنم وهي أمانة عندى فكيف أصنع بها ؟ قال اضرب وجوهها فإنها سترجع إلى ربّها . أو كما قال . فقام الأسود فأخذ حفنة من الحصباء فرمى بها في وجوهها وقال : ارجعى إلى صاحبك فوالله لا أصحبك . وخرجت[1] مجتمعة كأن سائقا يسوقها حتى دخلت الحصن ثم تقدم الأسود إلى ذلك الحصن ليقاتل مع المسلمين فأصابه حجر فقتله ، وما صلى لله صلاةً قط ، فأُتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضع خلفه وسجّى بشملة كانت عليه فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه نفر من أصحابه ثم أعرض عنه فقالوا : يارسول الله لم أعرضت عنه ؟ قال : إن معه الآن زوجتيه من الحور العين !

وذكر ابن إسحق عن عبيد الله بن أبي نَجيح أن الشهيد إذا ما أصيب نزلت زوجتاه من الحور العين عليه ينفضان التراب عن وجهه ويقولان : ترّب الله وجه من ترّبك وقتل من قتلك .

[أمر الحجاج بن علاط]

قال : ولما افتتحت خيبر كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم الحجاج بن

---

(١) ابن هشام : فخرجت .

عِلاَط السُّلمى ثم البَهْزى فقال : يارسول الله إن لى بمكة مالا عند صاحبتى أم شيبة بنت أبى طلحة ومالا متفرقا فى تجار أهل مكة فَأْذن لى يارسول الله . فأذن له قال : إنه لا بد لى يا رسول الله من أن أقـــــول.[1] قال : قل .

قال الحجاج : فخرجت حتى إذا قدمت مكة وجدت بثنيّة البيضاء رجالاً من قريش يتسمّعون الأخبار ويسألون عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد بلغهم أنه سار إلى خيبر وعرفوا أنها قرية الحجاز ريفـاً ومنعة ورجالاً ، فهم يتحسّسون الأخبار ويسألون الركبان ، فلما رأونى ولم يكونوا علموا بإسلامى قالوا : الحجـاجُ بن علاط ؟ عنـده والله الخبر ، أخبرنا يا أبا محمد فإنه قد بلغنا أن القاطع سار إلى خيـبر وهى بلد يهود وريف الحجاز . قلت : قد بلغنى ذلك وعندى من الخـبر ما يسرّكم . قال : فالتبطوا[2] بجنبَىْ ناقتى يقولون : إيه ياحجاج ؟ قلت : هُزم هزيمة لم يسمعوا بمثلها قط وقُتل أصحابه قتلا لم تسمعوا بمثله قط وأسر محمدٌ أسراً، وقالوا : لا نقتله حتى نبعث به إلى مكة فيقتلونه بين أظهرهم بمن كان أصاب من رجالهم . قال : فقاموا وصاحوا بمكة وقالوا : قد جاءكم الخبر وهذا محمد إنما تنتظرون أن يُقْدم به عليكم فيقتل بين أظهركم .

قال : فقلت أعينونى على جمع مالى بمكة على غرمائى فإنى أريد أن

---

(١) أقول : أى احتال عليهم بكلام لا أعتقده .

(٢) التبطوا : مشوا بجانبها .

أقدم خيبر فأصيب به من أهل[1] محمد وأصحابه قبل أن يسبقنى التجار إلى ما هنالك . فقاموا فجمعوا إلىّ مالى كأحثّ جمعٍ سمعت به وجئت صاحبتى فقلت : مالى . وقد كان لى عندها مال موضوع لعلّى ألحق بخيبر فأصيب من فُرَص البيع قبل أن يسبقنى التجار .

قال : فلما سمع العباس بن عبد المطلب الخبر وجاءه عنى أقبل حتى وقف إلى جنبى وأنا فى خيمة من خيام التجار فقال : ياحجاج ما هذا الذى جئتَ به ؟ قلت : وهل عندك حِفْظ لما وضعتُ عندك ؟ قال : نعم . قلت : فاستأخرْ عنى حتى ألقاك على خلاء فإنى فى جمع مالى كما ترى فانصرف عنى حتى أفرغ . قال : حتى إذا فرغت من جمع كل شىء كان لى بمكة وأجمعت الخروج لقيتُ العباس فقلت : احفظ علىّ حديثى يا أبا الفضل ، فإنى أخشى الطلب ثلاثا ثم قل ماشئت . قال : أفعل . قلت : فإنى والله لقد تركت ابن أخيك عروسا على بنت ملكهم يعنى صفية بنت حيى ، ولقد افتتح خيبر وانتثل[2] ما فيها وصارت له ولأصحابه . قال : ما تقول ياحجاج ؟ قلت : إى والله فا كتم عنى ولقد أسلمتُ وما جئت إلا لآخذ مالى فرقاً من أن أغلَب عليه ، فإذا مضت ثلاث فأظهرْ أمرك فهو والله على ما تحب .

قال : حتى إذا كان اليوم الثالث لبس العباس حلة له وأخذ عصاه

---

(١) كذا بالأصل ، وفى الطبرى و ابن هشام : من فل محمد وأصحابه. وما هنا أوضح . والفل : الجيش المنهزم .

(٢) انتثل : استخرج .

ثم خرج حتى أتى الكعبة فطاف به فلما رأوه قالوا : يا أبا الفضل هذا والله التجلّد لحرّ المصيبة ! قال : كلاّ والله الذى حلفتم به لقد افتتح محمد خيبرَ وتُرِك عروساً على ابنة ملكهم وأحرز أموالهم وما فيها فأصبحتْ له ولأصحابه . قالوا : ما جاءك[1] بهذا الخبر ، قال : الذى جاءكم بما جاءكم به ، ولقد دخل عليكم مُسْلما وأخذ ماله فانطلق ليلحق بمحمد وأصحابه فيكون معه . قالوا : يالَ عباد الله ! انفلت عدو الله ، أما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن . ولم ينشبوا أن جاءهم الخبر بذلك .

وقال كعب بن مالك الأنصارى فى يوم خيبر :

ونحن وردْنا خيبرا وفُروضه
بكل فتىً عارِى الأشاجع مِذْوَدِ[2]

جوادٍ لدَى الغايات لاواهنِ القُوَى
جرىء على الأعداء فى كل مَشْهدِ

عظيم رَمَاد القِدر فى كل شَتْوة
ضَرُوب بنَصْل المشرفىّ المهنَّدِ

يرى القتل مَدْحا إن أصاب شهادة
من الله يرجوها وفوزاً بأحمدِ

---

(١) ابن هشام والطبرى : من جاءك .

(٢) الفروض : مواضع الشرب من الأنهار ، والأشاجع : عروق ظهر الكف . والمذود : المحامى والمدافع .

يذود ويحمى عن ذِمَار محمدٍ
ويَدْفع عنه باللسان وباليدِ
وينصره من كلِّ أمرٍ يريبه
يجود بنفسٍ دونَ نفس محمدِ

وذكر ابن عُقْبة أن بنى فَزَارة قدِموا على أهل خيبر فى أول أمرهم ليعينوهم فراسلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يعينوهم وأن يخرجوا عنهم على أن يعطيهم من خيبر شيئا سماه لهم ، فأبوا عليه وقالوا : جيراننا وحلفاؤنا . فلما فتح الله خيبر أتاه من كان هنالك من بنى فزارة فقالوا : الذى وعدتنا ؟ فقال : لكم ذو الرقيبة ، لجبل من جبال خيبر . قالوا : إذن نقاتلك قال : موعدكم جَرْفاء[1] . فلما سمعوا ذلك من رسول الله خرجوا هاربين .

[تقسيم الغنائم]

قال ابن إسحق : وكانت المقاسم على أموال خيبر على الشّقّ ونَطاة والكَتيبة ، وكانت الشق ونطَاة فى سُهمان المسلمين ، وكانت الكتيبة خمس الله وسَهْم النبى صلى الله عليه وسلم وسهم ذوى القربى والمساكين[2] وطُعْم أزواج النبى صلى الله عليه وسلم وطعم رجال مشوا بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أهل فَدَك بالصلح .

---

(١) جرفاء : قال فى معجم البلدان : ويوم جرفاء من أيام العرب ، ولعله موضع .

(٢) زاد الطبرى : وابن السبيل .

وقُسمت خيبر على أهل الحديبية من شهد خيبر ومن غاب عنهـا ، ولم يغب عنها إلا جابر بن عبد الله بن عمرو بن حَرام ، فقسم له رسول الله صلى الله عليه وسلم كسهم من حضرها . وفى هذه الغزوة بيّن رسول الله صلى الله عليه وسلم سهمان الخيل والرجال ، فجعل للفرس سهمين ولفارسه سهما وللراجل سهما ، فجرت المقاسم على ذلك فيما بعد ، ويومئذ عرّب العربى من الخيل وهجّن الهجين .

[قدوم المهاجرين إلى الحبشة]

وذكر ابن عقبة أنه قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر نفر من الأشعريين فيهم أبو عامر الأشعرى قدموا إلى المدينة مع مهاجرة الحبشة ورسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر فمضوا إليه وفيهم أبان بن سعيد بن العاص والطفيل يعنى ابن عمرو الدّوْسى ذا النور ، وأبو هريرة ونفر من دوس فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأيه الحق أن لا يخيب مَسِيرهم ولا يبطل سفرهم فشركهم فى مقاسم خيبر وسأل أصحابه ذلك فطابوا به نفساً .

ولم يذكر ابن عقبة جعفر بن أبى طالب فى هؤلاء القادمين على رسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر من أرض الحبشة وهو أولهم وأفضلهم ، وما مثل جعفر يتخطّى ذكره ، ومن البعيد أن يغيب ذلك عن ابن عقبة ، فالله أعلم بعـــذره .

وقد ذكر ابن إسحق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان بعث عمرو بن أمية الضَّمْرى إلى النجاشى فيمن كان أقام بأرض الحبشة من أصحابه فحملهم فى سفينتين فقدم بهم عليه وهو بخيبر بعد الحديبية ، فذكر جعفراً أولهم وذكر معه ستة عشر رجلا قدموا فى السفينتين صحبته .

وذكر ابن هشام عن الشعبى أن جعفراً قدم على رسول الله صلى الله عليه

وسلم يوم فتح خيبر فقبّل رسول صلى الله عليه وسلم ما بين عينيه والتزمه وقال : ما أدرى بأيّهما أسرّ أبفتح خيبر أم بقدوم جعفر ؟

ولما جرت المقاسم فى أموال خيبر اتسع فيها المسلمون ووجدوا بها مرفقاً لم يكونوا وجدوه قبل ، حتى لقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما فيما خرج له البخارى فى صحيحه : ما شبعنا حتى فتحنا خيبر .

[اليهود فى خيبر]

وأقرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم يهودَ خيبر فى أموالهم يعملون فيها للمسلمين على النصف مما يخرج منها كما تقدم

قال ابن إسحق : فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث إلى أهل خيبر عبد الله بن رَواحة خارصاً بين المسلمين وبين يهود فيخرص عليهم فإذا قالوا تعدّيت علينا . قال : إن شئتم فلكم وإن شئتم فلنا . فتقول يهود : بهذا قامت السموات والأرض !

وإنما خَرص عليهم عبدُ الله عاما واحدا ثم أصيب بمؤتة يرحمه الله فكان جَبّار بن صخر أخو بنى سلمة هو الذى يخرص عليهم بعده .

فأقامت يهود على ذلك لا يرى بهم المسلمون بأساً فى معاملتهم حتى عدَوْا فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على عبد الله بن سهل أخى بنى حارثة فقتلوه ، فاتهمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون عليه وكتب إليهم أن يدوه أو يأذنوا بحرب . فكتبوا يحلفون بالله ما قتلوه ولا يعلمون له قاتلا ، فوداه رسول الله صلى الله عليه وسلم من عنده وأقرهم على ما سبق من معاملته إياهم .

فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرهم أبو بكر الصديق على مثل ذلك حتى توفى ، ثم أقرهم عمر صَدْراً من إمارته ، ثم بلغ عمر أن رسول الله

صلى الله عليه وسلم قال فى وجعه الذى قبضه الله فيه : « لا يجتمعنّ بجزيرة العرب دينان » . ففحص عمر عن ذلك حتى بلغه الثّبت فأرسل إلى يهود فقال إن الله قد أذن فى جلائكم ، قد بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يجتمعن بجزيرة العرب دِينان » فمن كان عنده عهد من رسول الله فليأتنى به أنفذه له ، ومن لم يكن عنده عهد من رسول الله فليتجهز للجلاء . فأجلى عمر منهم من لم يكن عنده عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال عبد الله بن عمر : خرجت أنا والزبير والمقداد بن الأسود إلى أموالنا بخيبر نتعاهدها ، فلما قدمنا تفرقنا فى أموال فَعُدِىَ علىّ تحت الليل فَفُدِعتْ يداى من مرفقى فلما أصبحت استصرخ علىّ صاحباي فأتيانى فأصلحا من يدى ؛ ثم قدما بى على عمر فقال : هذا عمل يهود ثم قام فى الناس خطيبا فقال : أيها الناس إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عامَل يهود خيبر على أنا نخرجهم إذا شئنا وقد عَدَوْا على عبد الله بن عمر ففدَعوا يديه كما بلغكم مع عَدْوتهم على الأنصارى قبله لانشك أنهم أصحابه ليس لنا هناك عدو غيرهم فمن كان له مال بخيبر فليلحق به فإنى مُخْرِج يهود . فأخرجهم .

ولما أخرج عمر رضى الله عنه يهود خيبر ركب فى المهاجرين والأنصار وخرج معه بجبار بن صخر وكان خارص أهل المدينة وحاسبهم ويزيد بن ثابت فهما قسما خيبر على أصحاب السهمان التى كانت عليها وذلك أن الشق والنطاة اللتين هما سهم المسلمين قسمت فى الأصل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ثمانية عشر سهماً : نطاة من ذلك خمسة والشق ثلاثة عشر سهماً ؛ ثم قسم كل قسم من هذه الثمانية عشر سهما إلى مائة سهم لكل رجل سهم ولكل فرس سهمان ؛ وكانت عدة الذين قسمت عليهم ألف رجل وأربع مائة رجل ومائتى فرس فذلك ألف سهم وثمان مائة سهم .

(١) فدعت يداه : اعوجت مفاصلها ، كأنها قد زالت عن مواضعها .

عمرة القضاء

وهى غزوة الأمن

قال ابن إسحق : ولما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من خيبر إلى المدينة أقام بها شهرى ربيع وما بعده إلى شوال ، يبعث فيما بين ذلك سراياه .

ثم خرج فى ذى القعدة فى الشهر الذى صدّه فيه المشركون معتمرا عُمْرة القضاء مكان عمرته التى صدّوه عنها ، وخرج معه المسلمون ممن كان صُدَّ معه فى عمرته تلك ، وهى سنة سبع . فلما سمع به أهلُ مكة خرجوا عنه .

قال ابن عُقْبة : وتغيّب رجالٌ من أشرافهم خرجوا إلى بوادى مكة كراهية أنه ينظروا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم غيظا وحنقا ونفاسة وحسداً .

وتحدثت قريش بينها فيما ذكر ابن إسحق : أن محمدا وأصحابه فى عُسْرة وجَهْد وشدة فصفُّوا له عند دار الندوة لينظروا إليه وإلى أصحابه .

فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد اضطبع بردائه وأخرج عضده اليمنى ثم قال : « رحم الله امرءاً أراهم اليومَ من نفسه قوة » ثم استلم الركن وخرج يُهَرْوِل ويهرول أصحابه معه ، حتى إذا واراه البيتُ منهم واستلم الركن اليمانى مشى حتى يستلم الركن الأسود ، ثم هَرْول كذلك ثلاثة أطواف ومشى سائرها فكان ابن عباس يقول : كان الناس يظنون أنها ليست عليهم وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما صنعها لهذا الحى من قريش الذى بلغه عنهم حتى حج حجة الوداع فلزمها فمضت السُّنة بها .

ولما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة فى تلك العُمْرة وعبد الله بن رَوَاحة يرتجز بين يديه:[1]

خَلُّوا بنى الكفارِ عن سبيله   خلُّوا فكلّ الخير فى رسوله
يارَبِّ إنى مؤمنٌ بقِيله   أعرفُ حقّ الله فى قَبُولِه[2]

[زواج الرسول بميمونة بنت الحارث]

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعث بين يديه جعفر بن أبى طالب إلى ميمونة بنت الحارث ابن حَزْن الهِلَالية ، فخطبها عليه فجعلت أمرها إلى العباس بن عبد المطلب وكانت أختها أم الفضل بنت الحارث ، وقيل جعلت أمرها إلى أم الفضل ، فجعلت أم الفضل أمرها إلى العباس فزوّجها العباسُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصْدَقها عنه أربعمائة درهم .

وقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم نُسُكه ، وأقام بمكة ثلاث ليال ، وكان ذلك أجَل القضية يوم الحديبية . فلما أصبح رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من اليوم الرابع أتاه سهيل بن عمرو وحُوَيْطب بن عبد العزّى . [فى نفر من قريش][3] ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى مجلس الأنصار يتحدث مع سعد بن عُبادة فصاح حويطب : نناشدك الله والعَقْد إلا خرجتَ من أرضنا فقد مضت الثلاث . فقال سعد : كذبتَ لا أم لك إنها ليست بأرضك ولا أرض أبيك

---

(١) الطبرى وابن هشام : وعبد الله به رواحة آخذ بخطام ناقته وهو يقول .
(٢) اختصر المؤلف هذا الرجز وهو بتمامه فى ابن هشام ٤/١٣ والطبرى ١٥٥٩ ط أوربا .
(٣) من ابن هشام والطبرى .

والله لا يخرج إلا راضياً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وضحك : ياسعد لا تؤذ قوماً زارونا فى رحالنا . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما عليكم لو تركتمونى فأعرست بين أظهركم وصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه ؟ قالوا : لاحاجة بنا لطعامك فاخرج عنا .

فأمر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أبا رافع مولاه فأذّن بالرحيل ، وخلّف أبا رافع على ميمونة حتى أتاه بها بسَرِف وقد لقيت ومن معها عناءاً وأذى من سفهاء المشركين وصبيانهم ، فبنى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم بسَرِف[1] ثم أدلج فسار حتى قدم المدينة . ثم كان من قضاء الله سبحانه أن ماتت ميمونة بسرف بعد ذلك بحين ، فتوفيت حيث بنى بها .

قال موسى بن عقبة : وذكر أن الله تعالى أنزل فى تلك العمرة : « الشهرُ الحرام بالشهر الحرام والحرماتُ قِصاص[2] » .

وذكر ابن هشام أنها يقال لها « عمرة القصاص » لأنهم صدّوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن العمرة فى ذى القعدة فى الشهر الحرام من سنة ست فاقتص منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل مكة فى ذى القعدة فى الشهر الحرام الذى صدّوه فيه من سنة سَبْع .

---

(١) سرف : موضع قرب التنعيم .

(٢) سورة البقرة ١٩٤ .

غزوة مؤتة من أرض الشام

ولما صدَر رسول الله صلى الله عليه وسلم من عمرة القضاء إلى المدينة أقام بها نحوا من ستة أشهر ثم بعث إلى الشام فى جمادى الأولى من سنة ثمان بَعْثَهُ الذين أصيبوا بمؤتة واستعمل عليهم زيد بن حارثة وقال : إن أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب على الناس ، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة .

فتجهز الناس ثم تهيأوا للخروج ، وهم ثلاثة آلاف ، فلما حضر خروجهم ودّع الناسُ أمراء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما ودّع عبدُ الله بن رواحة بكى فقال:ما يبكيك يابن رواحة ؟ فقال : والله مابى حب الدنيا ولاصبابة بكم ، ولكنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار « وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا (١) » فلست أدرى كيف لى بالصَّدَر بعد الورود ؟ ! فقال المسلمون : صحبكم الله ودفع عنكم وردّكم إلينا صالحين . فقال عبد الله بن رواحة :

لكننى أسأل الرحمنَ مغفرةً ... وضربةً ذاتَ فَرْغٍ تقذف الزبدَا (٢)
أو طعنةً بيدىْ حرّان (٣) مجهزة ... بحربة تُنْفِذ الأحشاء والكبِدَا (٣)
حتى يقال إذا مرّوا على جدَثى ... ما أرشدَ اللهُ من غازٍ وقد رشدَا (٤)

---

(١) سورة مريم ٧١.

(٢) ذات فرغ : ذات سعة

(٣) الحران : الشديد .

(٤) ابن هشام : أرشده الله . والطبرى : أرشدك الله . وفى شرح المواهب : يا أرشد الله .

ثم إن القوم تهيأوا للخروج فأتى عبدُ الله بن رواحة رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فودّعه ثم قال :

أنت الرسولُ فمن يُحرَم نوافله والوجهَ منه فقد أزرى به القدرُ
فثبّت الله ما آتاك من حسَنٍ في المرسَلين ونصراً كالذي نُصروا
إني تفرّستُ فيك الخيرَ نافلةً فراسةً خالفتْ فيك الذي نظرُوا

يعني المشركين .

ثم خرج القومُ ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يشيّعهم ، حتى إذا ودعهم وانصرف عنهم قال عبد الله بن رواحة :

خَلَفَ السلام على امرئ ودّعته في النخل خَيْرَ مشيّعٍ وخليلِ

وحدّث زيد بن أرقم قال : كنت يتيما لعبد الله بن رواحة في حِجْره ، فخرج بي في سفره ذلك مُرْدِفي على حقيبة رَحْله ، فوالله إنه ليسير ليلة إذ سمعته ينشد أبياته هذه :

إذا أدْنَيْتِني وحملت رَحْلي مسيرةَ أربعٍ بعدَ الحِساء[1]
فشأنَكِ فانْعَمي[2] وخلاكِ ذمٌّ ولا أرجعْ إلىّ أهلي ورائي
وجاء المسلمــون وغادروني بأرض الشام مُشْتهِيَ الثَّواء[3]
وردّكِ كلّ ذي رحم قَريب إلى الرحمن منقطع الرجاء[4]

---

(١) الحساء : سهل من الأرض يستنقع فيه الماء أو غائظ فوقه رمل يجمع ماء المطر .

(٢) ابن هشام والطبرى وابن كثير : فشأنك أنعم ولا أرجع : مجزوم على الدعاء .

(٣) مشتهى الثواء : لا يريد رجوعا . وقد روى : مستنهى الثواء . قال السهيلي : وهو مستفعل من النهاية والانتهاء ، أي حيث انتهى مثواه .

(٤) ابن هشام والطبرى وابن كثير : منقطع الإخاء .

هنالك لا أبالِى طَلْع بَعْـل ولا نَخْل أسافلها رواءِ[١]

فلما سمعتهن بكيتُ فخفقنى بالدِّرة وقال : وما عليك يا لُـكَع أن يرزقنى الله الشهادة وترجع بين شُعْبتى الرَّحْل ؟!

* * *

ثم مضى القومُ حتى نزلوا مُعَان من أرض الشام فبلغ الناسَ أن هرقل قد نزل مآب من أرض البَلْقاء فى مائة ألف من الروم وانضم إليه[٢] من لَخْم وجُذَام والقَين[٣] وبَهْرَاء وبَلِيّ مائة ألف منهم .

فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان ليلتين ينظرون فى أمرهم وقالوا : نـكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنخبره بعدد عدوّنا فإما أن يُمِدّنا بالرجال وإما أن يأمرنا بأمره فنمضى له . فشجّع الناسَ عبدُ الله بن رواحة فقال : يا قوم والله إنّ الذى تـكرهون للذى خرجتم تطلبون ، الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدَد ولا قوة ولا كثرة ، وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به فانطلقوا ، فإنما هى إحدى الحسنيين إما ظهور وإما شهادة . فقال الناس صدق والله ابن رواحة . فمضى الناس وقال عبد الله فى مجالسهم ذلك :

جلبنا الخيلَ من أجَأ وفرع تُغَرّ من الحشيش لها العُكومُ[٤]

---

(١) البعل : ما يشرب بعروقه من الأرض . ورواء بكسر الهمزة صفة لنخل .

(٢) ابن هشام : وانضم إليهم .

(٣) الطبرى : وبلقين .

(٤) أجأ : أحد جبلى طيء والآخر سلمى . وفرع : أطول جبل بأجأ وأوسطه . وتغر : تطعم وتشبع . والرواية عند السهيلى : تقر . بالقاف . وقال : تقر أى يجمع بعضها الى بعض . والعـكوم : جمع عكم وهو والجانب .

حذَوْناها من الصَّوان سَبْتاً
أزلّ كأنّ صفحته أديمُ (١)

أقامت ليلتين على مُعَانٍ
فأعقب بعد فَتْرتها جُمومُ (٢)

فرُحْنا والجيادُ مسوَّماتٌ
تنفّس في مناخرها السَّمُومُ

فلا وأبى مآب لنأتينْها
وإن كانت بها عَرَبٌ ورومُ

فعبَّأنا أعنّتها فجاءت
عوابسَ والغبار لها بَرِيمُ (٣)

بذى لجَبٍ كأن البِيض فيه
إذا برزت قَوَانِسُها النجومُ (٤)

فراضيَة المعيشة طلّقتها
أسنّتنا فتنكح أو تئيمُ (٥)

* * *

---

(١) حذوناها : جعلنا لها نعالا من حديد . والصوان : حجارة ملس . والسبت: النعال التى تصنع من الجلود المدبوغة . والأزل : الأملس . والأديم : الجلد .

(٢) معان : موضع بالشام . والفترة : السكون والضعف والجموم : اجتماع القوة .

(٣) البريم : كل ما فيه لونان مختلطان . والدمع المختلط بالاثمد .

(٤) اللجب : اختلاط الأصوات من كثرة الجيش . والقوانس : جمع قونس وهو أعلى بيضة الحديد .

(٥) راضية المعيشة : المعيشة اللينة المطمئنة . تئيم : تبقى دون زوج . يريد أنهم قد تجافوا عن الدعة والراحة .

ثم مضى الناس حتى إذا كانوا بتخوم البَلْقاء لقيتهم جموعُ هرقل من الروم والعرب بقرية من قرى البلقاء يقال لها مَشَارف . ثم دنا العدو وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها مُؤْتة فالتقى الناس عندها . فتعبىّ لهم المسلمون فجعلوا على ميمنتهم رجلا من بنى عُذْرة يقال له قُطْبة بن قَتَادة وعلى ميسرتهم رجلا من الأنصار يقال له عبَايَة بن مالك ويقال عُبَادة . ثم التقى الناسُ فاقتتلوا ، فقاتل زيدُ بن حارثة براية رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى شاط فى رماح القوم ، ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى إذا ألحمه القتال اقتحم عن فرس له شقراء . قال أحدُ بنى مرة بن عوف وكان فى تلك الغزوة : والله لكأنى أنظر إليه حين اقتحم عنها ثم عقرها ثم قاتل القوم حتى قُتل وهو يقول :

يا حبذا الجنةُ واقترابها ... طيّبة وباردٌ شرابُهـا
والرومُ رومٌ قد دنَا عذابُها ... علىّ إن لاقيتُها ضِرَابُها[1]

وكان جعفر أول من عقَر فى الإسلام فرسه .

ولما قُتل جعفر أخذ عبد الله بن رَواحة الرايةَ ثم تقدم بها وهو على فرسه فجعل يستنزل نفسه ويتردد بعض التردد ثم قال :

أقسمتُ يا نفس لتَنْزِلنّه ... لتَنْزلن[2] أو لتُكْرَهنّه
إن أجلَب الناسُ وشدُّوا الرنّه[3]
مالى أركِ تكرهين الجنــــة

(١) قال ابن كثير : هذا الحديث قد رواه أبو داود من حديث أبى إسحق ولم يذكر الشعر . السيرة ٣ / ٤٦١ .

(٢) الطبرى : طائعة أو لتكرهنه

(٣) الرنة : الصوت . النطفة : الماء القليل الصافى والشنة القربة القديمة .

قد طال ما قد كنت مطمئنة　　　هل أنت إلا نُطفة فى شنّة

وقال أيضاً :

يا نفسُ إلا تقتلى تموتى　　　هذا حِمامُ الموتِ قد صَليتِ
وما تمنّيتِ فقد أعطيت　　　إن تفعلى فِعلهما هُدِيتِ

يعنى صاحبيه زيدا وجعفرا . ثم نزل فأتاه ابنُ عم له بعِرْق من لحم فقال شُدَّ بهذا صُلْبك فإنك قد لقيت فى أيامك هـذه ما لقيت . فأخذه من يده فانتهس[1] منه نهسةً ثم سمع الحَطْمة[2] فى ناحية الناس فقال : وأنت فى الدنيا ! ثم ألقاه من يده ثم أخذ سيفه فتقـدم فقاتل حتى قتل .

ثم أخـذ الراية ثابت بن أرقم أخو بنى العَجْلان فقال : يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم . قالوا : أنتَ . قال ما أنا بفاعل فاصطلح القوم على خالد بن الوليد . فلما أخذ الراية دافع القومَ وخاشى بهم[3] ثم انحاز وانحِيز عنه ، حتى انصرف بالناس .

ولما أصيب القومُ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل بها حتى قُتل شهيدا ، ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى قتل شهيدا ثم صمت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تغيّرت وجوه

---

(١) انتهس : أخذ منه بفمه يسيرا .

(٢) الحطمة : النزال والمضاربة . وقال أبو ذر : الحطمة : الكسرة .

(٣) خاشى بهم : حجز بينهم وبين الروم .

الأنصار وظنوا أنه قد كان فى عبد الله بن رواحة بعض ما يكرهون ثم قال : ثم أخذها عبد الله بن رواحة فقاتل بها حتى قتل شهيدا . ثم قال : لقد رفعوا إلى الجنة فيما يرى النائم على سرر من ذهب فرأيت فى سرير عبد الله بن رواحة ازورارا عن سريرَىْ صاحبيه فقلت : عمَّ هـذا ؟ فقيل لى : مضَيا وتردَّد عبدُ الله بعضَ التردد ثم مضى .

وذكر ابن هشام أن جعفرا أخذ اللواء بيمينه فقُطعت ، فأخذه بشماله فقطعت ، فاحتضنه بعضديه حتى قُتل وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة فأثابه الله بذلك جناحين يطير بهما حيث شاء .

ويقال إن رجلا من الروم ضربه يومئذ فقطعه نصفين .

وذكر ابن عقبة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بالمدينـة لما أصيبوا ، قبل أن يأتيه نعيهم : مرَّ علىَّ جعفر بن أبى طالب فى الملائـكة يطير كما يطيرون له جناحان . قال : وقدم يعلى بن أميّة على رسول الله صلى الله عليه وسلم بخبر أهل مؤتة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن شئتَ فأخبرنى وإن شئت أخبرتك . قال : فأخـبرنى يا رسول الله فأخبره صلى الله عليه وسلم خبرهم كله ووصفه له فقال : والذى بعثك بالحق ما تركتَ من حديثهم حرفا واحداً لم تذكره ، وإنَّ أمرهم لـكما ذكرت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله رفع لى الأرض حتى رأيت مُعتركهم .

وحدثتْ أسماء بنت عُمَيْس امرأة جعفر قالت : لما أصيب جعفر وأصحابه دخل علىَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ايتينى ببنى جعفر . وقد كانت

غسلتهم ودهنتهم ونظفتهم . قالت فأتيته بهم فشمهم وذرفت عيناه فقلت :
يا رسول الله بأبي أنت ما يبكيك ؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء ؟ قال :
« نعم أصيبوا هذا اليوم » . قالت : فقمت أصيح واجتمع إليّ النساء . وخرج
رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهله فقال : لا تُغفلوا آل جعفر من أن
تصنعوا لهم طعاماً فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم .

وقالت عائشة رضي الله عنها : لما أتى نعيُ جعفر عرفنا في وجه رسول الله
صلى الله عليه وسلم الحزن .

[رجوع الجيش]

ولما انصرف خالد قافلا بالناس ودنوا من المدينة تلقاهم رسول الله صلى الله
عليه وسلم والمسلمون ، ولقيهم الصبيان يشتدون ورسول الله صلى الله عليه وسلم
مقبل مع القوم على دابة ، فقال : خذوا الصبيان فاحملوهم وأعطوني ابن جعفر .
فأتى بعبد الله بن جعفر فأخذه فحمله بين يديه وجعل الناس يَحثون على
الجيش التراب ويقولون : يا فُرّار فررتم في سبيل الله ! فيقول رسول الله صلى
الله عليه وسلم : « ليسوا بالفُرّار ولكنهم الكرّار إن شاء الله » .

وقالت أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم لامرأة سلمة بن هشام بن
المغيرة : مالي لا أرى سلمة يحضر الصلاة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟
قالت : والله ما يستطيع أن يخرج ، كلما خرج صاح به الناس : يا فرّار فررتم
في سبيل الله ! حتى قعد في بيته فما يخرج .

وقد قال فيما كان من أمر الناس وأمر خالد ومخاشاته بالناس وانصرافه

٣٤ — قيسُ بن المسحَّر اليعْمرى يعتذر مما صنع يومئذ وصنع الناس :

فوالله لا تنفكّ نفسى تَلومنى ... على موقفى والخيلُ قابعة قبلُ

وقفت بها لا مستحيزاً[1] فنافذاً ... ولا ما نعاً من كان حُمّ له القتلُ

على أننى آسيتُ نفسى بخالد ... ألَا خالدُ فى القوم ليس له مثلُ

وجاشت إلىّ النفسُ من نحو جعفر ... بمؤْتة إذ لا ينفع النابلَ النَّبْلُ

وضمّ إلينا حُجْزَتَيْهِم[2] كليهما ... مُهاجرة لا مشركون ولا عُزْلُ

فبيَّن قيس فى شعره ما اختلف الناس فيه من ذلك : أن القوم حاجزوا وكرهوا الموت وحقق انحياز خالد بمن معه .

[ما قيل من الشعر فى مؤتة]

وكان مما بُكى به أصحابُ مؤتة قولُ حسان بن ثابت :

تأوّبنى[3] ليلٌ بيثرب أعسَرُ ... وهمٌّ إذا ما هوّم الناسُ مُسْهِرُ

لذكرى حبيبٍ هيّجت لىَ عَبْرةً ... سَفُوحاً وأسبابُ البكاء التذكرُ

بلى إنّ فقدان الحبيب بليّة ... وكم من كريم يُبْتَلى ثم يَصْبِرُ

رأيتُ خيار المؤمنين تواردوا ... شَعُوبَ وخَلْفا بعدهم يتأخر[4]

فلا يُبْعِدنّ الله قَتْلى تباعدوا[5] ... جميعاً وأسبابُ المنية تَخْطِرُ

---

(١) ابن هشام : لا مستجيرا . ومستحيزا : متحيزا إلى طائفة .

(٢) حجزتيهم : جانبيهم .

(٣) تأوبنى : عاودنى وطال على .

(٤) شعوب : علم على المنية . والرواية فى ديوان حسان :

شعوب وقد خلفت فيمن يؤخر

(٥) ابن هشام : تتابعوا

غداةَ مضَوْا بالمؤمنين يقودهم ... إلى الموت ميمُون النقيبة أزْهَرُ

أغرُّ كضوء البَدْر من آل هاشم ... أبىّ إذا سِيم الظُّلامة يَجْسِر[1]

فطاعن حتى مال غير موسَّدٍ ... بمُعْترك فيه قَنا متكسِّرُ

فصار مع المستشهدين ثوابُه ... جِنانٌ وملتفّ الحدائق أخضرُ

وكنا نرى في جعفر من محمد ... وفاء وأمراً حازماً حين يأمرُ

وما زال في الإسلام من أهل هاشم ... دعائم عزّ لا يُزَلْن ومفْخَرُ

همُ جبلُ الاسلام والناسُ حولهم ... رِضام إلى طودٍ يَرُوق ويَقْهر[2]

بَهاليلُ منهم جعفرٌ وابن أمه ... علىّ ومنهم أحمد المتخيَّرُ

وحمزة والعباس منهم ومنهمُ ... عَقيلٌ وماء العود من حيث يُعصرُ

بهم تُفْرج اللأْواء فى كل مأزِق ... عماسٍ إذا ما ضاق بالناس مَصْدر[3]

هم أولياء الله أنزل حُكمه ... عليهم وفيهم ذا الكتابُ المطهَّرُ

* * *

وقال كعب بن مالك فى ذلك :

نام العيونُ ودَمْع عينك يَهْمُلُ ... سَحًّا كما وكَف الطِّبَابُ المخضَلُ[4]

فى ليلة وردتْ علىّ همومُها ... طَورًا أحِنّ وتارة أتَمَلْمَلُ

واعتادنى حُزْنٌ فبِتّ كأننى ... ببنات نَعْش والسِّمَاك مُوَكَّلُ[5]

---

(١) ابن هشام : مجسر .

(٢) الرضام : الحجارة المتراكمة . والطود : الجبل .

(٣) اللأْواء : الشدة والبأس . والعماس : الأمر لا يقام له ولا يهتدى لوجهه .

(٤) الطباب : السحاب جمع طبابة . والمخضل : الكثير ماؤه .

(٥) بنات نعش الكبرى : سبعة كواكب : أربعة منها نعش وثلاث بنات . وكذا الصغرى . والسماك الأعزل والرامح : نجمان .

وكأنما بين الجوانح والحشا ... مما تأوبني شهابٌ مُدْخَلُ
وجْدًا على النفر الذين تتابعوا ... يومًا بمؤتة أُسْنِدُوا لم يُنقلوا
صلى الإله عليهمُ من فتيةٍ ... وسقى عظامَهمُ الغَمامُ المسبلُ
صبروا بمؤتة للإله نفوسَهم ... حذر الردى ومخافةً أن ينكُلُوا
فمضوا أمام المسلمين كأنهم ... فُنُقٌ عليهن الحديدُ المرْفَلُ[1]
إذ يهتدون بجعفرٍ ولوائه ... قدّامَ أوّلِهم فنعم الأولُ
حتى تفرَّجتِ الصفوفُ وجعفرٌ ... حيث التقى وَعْثُ الصفوف مجدَّلُ[2]
فتغيّرَ القمرُ المنيرُ لفقده ... والشمس قد كسفت وكادت تأفِلُ[3]
قَرْمٌ علا بنيانُه من هاشمٍ ... فَرْعًا أشمَّ وسؤددًا ما يُنقَلُ[4]
قومٌ بهم عصمَ الإله عِبادَه ... وعليهمُ نزل الكتابُ المنزَلُ
فضلوا المعاشر عزةً وتكرُّمًا ... وتغمَّدتْ أحلامُهم من يجهلُ
لا يُطْلِقون إلى السفاه حِباهُمُ ... ويُرَى خطيبهم بحقٍّ يَفصِلُ
بيض الوجوه ترى بطونَ أكفهم ... تندَى إذا اعتذر الزمانُ الممحِلُ
وبهَدْيِهم رضيَ الإله لخلقه ... وبجَدِّهم نُصِر النبيُّ المرسَلُ

* * *

وقال حسان بن ثابت يبكي جعفرا :

ولقد بكيتُ وعزَّ مَهْلَكُ جعفرٍ ... حِبِّ النبيِّ على البريّة كلِّها

---

(١) الفنق : جمع فنيق وهو الفحل المكروم لا يؤذى لكرامته على أهله ولا يركب . والمرفل : السابغ .

(٢) الوعث : العسر والمشقة .

(٣) تأفل : تغرب .

(٤) القرم : السيد .

ولقد جزِعتُ وقلتُ حين نُعيتَ لي من للجِلادِ لدى العُقاب[1] وظِلِّها

بالبيض حين تُسَلّ من أغمادها ضرباً وإنهال الرماح وعَلّها[2]

بعد ابن فاطمة المبارَك جعفرٍ خير البريّة كلّها وأجلّها

رُزْءاً وأكرمها جميعاً مَحْتِداً وأعزّها متظلَّماً وأذلّها

للحق حين ينوب غير تنحُّلٍ كذباً وأنداها يداً وأقلّها

فُحْشاً وأكثرها إذا ما يُجتَدَى فضلاً وأنداها[3] يداً وأبلّها

بالعُرف غير محمّدٍ لا مثلُه حيٌّ من أحياء البريّة كلّها

* * *

وقال شاعر من المسلمين ممن رجع عن غزوة مؤتة :

كفى حزَناً أنّي رجعت وجعفرٌ وزيد وعبد الله في رَمْس أقبُرِ

قضوا نَحْبهم لما مضوا لسبيلهم وخُلِّفْتُ للبلوى مع المتغبِّرِ

واستشهد يوم مؤتة من المسلمين سوى الأمراء الثلاثة رضى الله عنهم من قريش ثم من بنى عدى بن كعب : مسعود بن الأسود بن حارثة . ومن بنى مالك بن حِسْل : وهب بن سعد بن أبى سَرْح . ومن الأنصار : عَبّاد ابن قيس من بنى الحارث بن الخزرج والحارث بن إساف من بنى غَنْم بن مالك بن النجار وسُرَاقة بن عمرو بن عطية بن خنساء من بنى مازن بن النجار ، وأبو كُلَيْب ويقال أبو كلاب وجابر ابنا عمرو بن زيد بن عوف بن مبذول وهما لأب وأم . وعمرو وعامر ابنا سعد بن الحارث بن عباد من بنى مالك ابن أفصَى . وهؤلاء الأربعة عن ابن هشام .

---

(١) العقاب : اسم راية الرسول صلى الله عليه وسلم

(٢) إنهال الرماح : سقيها من دماء الأعداء . وعلها : سقيها مرة بعد مرة .

(٣) ابن هشام : وأبذلها ندى .

غـــــزوة الفتح

وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد بعثه إلى مؤتة جمادى الآخرة ورجبا .

ثم عدَتْ بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة على خُزَاعة ، ولم يزالوا قبل ذلك مُتَمادين ، وكان الذى هاج ما بينهم أن حليفاً للأسود بن رَزْن الدِّيلى خرج تاجراً ، فلما توسط أرض خزاعة عدَوْا عليه فقتلوه وأخذوا ماله ، فعدت بنو بكر على رجل من خزاعة فقتلوه ، فعدت خزاعةُ قبيل الإسلام على بنى الأسود ابن رَزْن سَلْمى وكلثوم وذُؤَيْب وهم مَنْخر بنى كنانة وأشرافهم كانوا فى الجاهلية يودَوْن ديتين لفضلهم فى قومهم ، فقتلتهم خزاعة بعرفة عند أنصاب الحرم ثم حجزَ بينهم الإسلام وتشاغل الناسُ به .

فلما كان صلح الحديبية دخلت خزاعةُ فى عَقْد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودخلت بنو بكر فى عقد قريش . فلما كانت المدنة اغتنمتها بنو الدِّيل فخرجوا حتى بيَّتوا خزاعة على الوَتير ، ماء لهم ، فأصابوا منهم رجلاً وتحاجزوا واقتتلوا ورفدتْ قريشٌ بنى بكر بالسلاح وقاتل معهم من قريش من قاتل بالليل مستخفيا .

فلما تظاهرت بنو بكر وقريش على خزاعة ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم من العهد والميثاق بما استحلوا منهم وكانوا فى عَقْده وعهده ، خرج عمرو بن سالم الخزاعى الكعبى حتى قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فوقف عليه وهو جالس فى المسجد بين ظهرى الناس فقال :

يا ربِّ إني ناشدٌ محمدًا … حِلْف أبينا وأبيه الأتلدا[1]
قد كنتم ولدًا وكنا والدا … ثمّتَ أسلمنا فلم ننزعْ يدا
فانصر هداك الله نصرًا أعتدا[2] … وادعُ عبادَ الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجرّدا … [أبيض مثل البدر يسمو صعدا][3]
إن سيمَ خسفًا وجهه تربّدا[4] … في فيلق كالبحر يجري مُزبدا
إنّ قريشًا أخلفوك الموعدا … ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وجعلوا لي في كداء[5] رصدا … وزعموا أن لستُ أدعو أحدا
وهمْ أذلّ وأقلّ عددا … همْ بيّتونا بالوتير هُجّدا
وقتّلونا رُكّعًا وسُجّدا

يقول : قتلنا وقد أسلمنا .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نُصرْتَ يا عمرو بن سالم » ثم عرضَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم عنانٌ من السماء فقال : إن هذه السحابة لتستهلّ بنصر بني كعب . ثم خرج بُديل بن ورقاء في نفر من خُزاعة حتى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فأخبروه بما أصيب منهم ومظاهرة قريش بني بكر عليهم ثم انصرفوا راجعين إلى مكة .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم ليشدّ العقد وليزيد في المدة » .

---

(١) الأتلد : القديم .
(٢) الأعتد : الحاضر المهيأ .
(٣) ليست في ابن هشام .
(٤) تربد : تغير لونه .
(٥) كداء : موضع بأعلى مكة .

ومضى بُديل بن وَرْقاء فى أصحابه حتى لقوا أبا سفيان بعُسْفان قد بعثته قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليشدّ العقد ويزيد فى المدة وقد رَهِبوا الذى صنعوا ، فلما لقى أبو سفيان بديلا قال : من أين أقبلت يابديل ؟ وظن أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال : سِيّرت(١) فى خزاعة فى هذا الساحل وفى بطن هذا الوادى . قال : أوَما جئت محمدا ؟ قال : لا . فلما راح بديل إلى مكة قال أبو سفيان : لئن كان بديل جاء المدينة لقد عَلف بها النوَى. فأتى مَبْرك راحلته فأخذ من بعرها ففتّه فرأى فيه النوى فقال : أحلف بالله لقـــد جاء بديل محمدا .

ثم خرج أبو سفيان حتى قدم المدينة فدخل على ابنته أم حبيبة ، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم طوَتْه عنـه فقال : يابنية ما أدرى أرغبتِ بى عن هذا الفراش أم رغبت به عنى ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت رجل نجس مشرك ، فلم أحب أن تجلس عليه . قال : والله يا بنية لقد أصابك بعدى شر !

ثم خرج حتى أتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فـكلّمه فلم يردّ عليه شيئا ثم ذهب إلى أبى بكر فـكلمه أن يكلم له رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ما أنا بفاعل . ثم أتى عمر بن الخطاب فـكلمه فقال : أنا أشفع لـكم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فوالله لولم أجد إلا الذرّ(٢) لجاهدتـكم به . ثم خرج حتى دخل على علىّ بن أبى طالب وعنده فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه

---

(١) ابن هشام : تسيرت .

(٢) الذر : صغار النمل .

وسلم وعندها حسن بن علي غلام يدب بين يديها فقال : يا علي إنك أمس القوم بي رحما وإني قد جئت في حاجة فلا أرجعن كما جئت فاشفع لي ، قال ويحك يا أبا سفيان والله لقد عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه . فالتفت إلى فاطمة فقال : يا بنت محمد هل لك أن تأمري بنيك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر . قالت : والله ما بلغ بني ذلك أن يجير بين الناس ، وما يجير أحد على رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : يا أبا حسن إني أرى الأمور قد اشتدت علي فانصحني . قال : والله ما أعلم شيئاً يغني عنك . ولكنك سيد بني كنانة فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك قال : أو ترى ذلك مغنياً عني شيئاً ؟ قال : لا والله ما أظنه ولكني لا أجد لك غير ذلك . فقام أبو سفيان فقال : أيها الناس إني قد أجرت بين الناس . ثم ركب بعيره فانطلق . فلما قدم على قريش قالوا : ما وراءك ؟ قال : جئت محمدا فكلمته فوالله ما رد علي شيئاً ثم جئت ابن أبي قحافة فلم أجد فيه خيرا . ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أدنى العدو ويقال : أعدى العدو، ثم أتيت عليا فوجدته ألين القوم،وقد أشار علي بشيء صنعته فوالله ما أدري هل يغني شيئاً أم لا ؟ قالوا : وبم أمرك ؟ قال : أمرني أن أجير بين الناس ففعلت . قالوا : فهل أجاز ذلك محمد ؟ قال : لا . قالوا : ويلك ! والله مازاد الرجل على أن لعب بك فما يغني عنك ما قلت . قال لا والله ما وجدت غير ذلك .

[تجهز المسلمين]

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بالجهاز وأمر أهله أن يجهزوه فدخل أبو بكر على ابنته عائشة وهي تحرك بعض جهاز رسول الله صلى الله عليه

وسلم فقال : أىْ بنية أمَرَكم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تجهزوه ؟ قالت : نعم فتجهز . قال : فأين ترينه يريد ؟ قالت : لا والله ما أدرى .

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم الناس أنه سائر إلى مكة وأمرهم بالجدّ والتهيؤ وقال : « اللهم خذ العيونَ والأخبار عن قريش حتى نَبْغتها فى بلادها » فتجهز الناس .

[أمر حاطب]

وكتب حاطب بن أبى بَلْتعة عند ذلك كتابا إلى قريش يخبرهم بالذى أجمع عليه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من الأمر فى السير إليهم ثم أعطاه امرأة وجعل لها جُعْلا على أن تبلغه قريشاً . فجعلته فى رأسها ثم فتلتْ عليه قرونها ثم خرجت به . وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبرُ من السماء بما صنع حاطب فبعث علىّ بن أبى طالب والزبير بن العوام فقال : أدركا امرأة كتب معها حاطبٌ إلى قريش يحذرهم ما أجمعنا له فى أمرهم. فخرجا حتى أدركاها فاستنزلاها والتمسا فى رَحْلها فلم يجدا شيئاً فقال لها علىّ : أحلف بالله ما كذب رسولُ الله ولا كُذِبْنَا ولتُخْرِجِن هذا الكتاب أو لنكشفنك . فلما رأت الجد منه استخرجت الكتاب من قرون رأسها فدفعته إليه . فأتى به رسولَ الله صلى الله عليه وسلم . فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطبا فقال : يا حاطب ما حَملك على هذا ؟ قال : يا رسول الله أما والله إنى لمؤمن بالله ورسوله ما غيّرت ولا بدّلت ولكنى كنت امرأً ليس لى فى القوم من أصل ولا عشيرة ، وكان لى بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليه فقال عمر : يا رسول الله دَعْنى فلأضرب

عنقه فإن الرجل نافق[1] . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وما يدريك ياعمر لعل الله قد اطّلع على أصحاب بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم »

فأنزل الله فى حاطب : « يا أيها الذين آمنُوا لا تتّخِذوا عدوِّى وعدوّكم أولياء تُلقُون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق » الآيات كلها إلى قوله : « قد كان لكم أُسْوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنّا بُرَآء منكم ومما تَعْبدون من دون الله كَفَرْنا بكم وبَدا بيننا وبينكم العداوةُ والبَغْضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده » . إلى آخر القصة .

ثم مَضى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لسفره حتى نزل بمَرّ الظّهْران فى عشرة آلاف من المسلمين ، وقيل فى اثنى عشر ألفا ، فسبّعت سُلَيْم وقيل ألفت[2] وألّفت مُزَيْنة ، وفى كل القبائل عَدد وإسلام . وأوعب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المهاجرون والأنصار فلم يتخلف عنه منهم أحد .

[إسلام أبى سفيان بن الحارث]

وقد كان ابن عمه أبو سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب وابن عمته عبد الله ابن أبى أمية بن المغيرة لقياه بنِيق العُقَاب فيما بين مكة والمدينة ، فالتمسا الدخول عليه وكلمته أم سلمة فيهما وهى أخت عبد الله منهما فقالت : يا رسول الله ابن عمك وابن عمتك وصهرك قال : لا حاجة لى بهما ، أما ابن عمى فهتك عرضى وأما ابن عمتى وصهرى فهو الذى قال لى بمكة ما قال[3] . فلما خرج الخبر إليهما بذلك

---

(١) ابن هشام : قد نافق .

(٢) سبعت : صار منها فى الجيش سبعمائة . وألفت صار منها ألف .

(٣) قال له : « والله لا آمنت بك حتى تتخذ سلما إلى السماء فتعرج فيه وأنا أنظر ، ثم تأتى بصك وأربعة من الملائكة يشهدون أن الله قد أرسلك » . الروض الأنف ٢٦٧/٢ .

قال أبو سفيان ـ ومعه بُنَىٌّ له ـ والله ليأذنَنَّ لى أو لآخذن بيد بنى هذا ثم لنذهبن فى الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً . فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم رقّ لهما ثم أذن لهما فدخلا عليه فأسلما وأنشده أبو سفيان :

لَعَمْرك إنى يوم أحمل رايةً ... لتغلب خيلُ اللاتِ خيلَ محمدِ
لكالمدْلج الحيران أظلم ليلُه ... فهذا أوانى حين أُهْدَى وأهتدِى
هدانِىَ هادٍ غير نفسى وقادنى ... مع الله من طرّدْتُ كلّ مُطَرّدِ

فزعموا أنه لما أنشده هذا البيت ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صدره وقال : أنت طردتنى كلّ مطرد !

* * *

[إسلام أبى سفيان بن حرب]

وعميت الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على قريش ، فلا يأتيهم خبر عنه ولا يدرون ما هو فاعل .

وخرج فى تلك الليالى أبو سفيان بن حرب وحَكيم بن حِزام وبُدَيل بن ورقاء يتحسسون الأخبار . وكان العباس بن عبد المطلب قد لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعض الطريق مهاجراً بعياله ، وكان قبل ذلك مقيما بمكة على سِقَايته ورسول الله صلى الله عليه وسلم عنه راض .

قال العباس : فلما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ الظهران قلت : واصباح قريش والله لئن دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة عَنْوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر . فجلست على بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم البيضاء فخرجت عليها حتى جئت الأراك فقلت لعلّى أجد

بعض الحطّابة أو صاحب ابن أوذا حاجة يأتى مكة فيخبرهم مكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخرجوا إليه فيستأمنوه . فو الله إنى لأسير عليها والتمس ما خرجت له إذ سمعت كلام أبى سفيان وبُديل بن ورقاء وهما يتراجعان وأبو سفيان يقول : ما رأيت كالليلة نيرانا قط ولا عسكرا . قال يقول بديل : هذه والله خزاعة حَمَشْتها الحرب[1] فيقول أبو سفيان : خزاعة أقلّ وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها . قال : فعرفت صوته فقلت : يا أبا حنظلة فعرف صوتى فقال : أبو الفضل ؟ قلت : نعم . قال : مالك فداك أبى وأمى ؟! قلت : ويحك يا أبا سفيان هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الناس واصباح قريش والله. قال : فما الحيلة فداك أبى وأمى ؟ قلت : والله لئن ظفر بك ليضربنّ عنقك فاركب فى عجز هذه البغلة حتى آتى بك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فأستأمن لك . فركب خلفى ورجع صاحباه ، فجئت به كلما مرّ بنار من نيران المسلمين قالوا : من هذا ؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا عليها قالوا : عمّ رسول الله على بغلته . حتى مررتُ بنار عمر بن الخطاب فقال : من هذا ؟ وقام إلىّ ، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال : أبو سفيان عدوّ الله ! الحمد لله الذى أمكن منك بغير عَقْدَ ولا عهد . ثم خرج يشتد نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم وركضت البغلة فسبقته بما تسبق الدابة البطيئة الرجلَ البطىء فاقتحمتُ عن البغلة فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل عليه عمر فقال : يا رسول الله هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عهد ولا عقد فدعنى فلأضربْ عنقه . قلت يارسول الله إنى قد أجرْته

---

(٢) حمشتها الحرب . اشتدت عليها . وتروى : حشتها بالشين المعجمة .

ثم جلست إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذت برأسه فقلت : والله لا يناجيه الليلة رجل دونى . فلما أكثر عمر فى شأنه قلت : مهلا يا عمر فوالله لو كان من رجال عدىّ بن كعب ما قلت هذا ، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بنى عبد مناف . فقال : مهلا يا عباس فوالله لإسلامك يومَ أسلمت كان أحبَّ إلىَّ من إسلام الخطّاب لو أسلم ، وما بى إلا أنى عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من إسلام الخطاب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذهب به يا عباس إلى رَحْلك فإذا أصبحت فائتنى به فذهبت به إلى رَحلى فبات عندى ، فلما أصبحتُ غدوت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رآه قال : ويحك يا أبا سفيان ألم يَأن لك أن تعْلم أن لا إله إلا الله ؟ قال : بأبى أنت وأمى ما أحْلمك وأكرمك وأوصَلك والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنَى شيئًا بعدُ . قال : ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟ قال : بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأوْصَلك ، أمّا والله[1] هذه فإن فى نفسى منها شيئًا حتى الآن[2] . قال له العباس : ويحك أسْلم واشهد[3] أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله قبل أن تُضرب عنقك . قال : فشهد شهادة الحق وأسلم .

قال العباس : قلت : يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر ، فاجعل له شيئًا . قال : « نعم ، من دخل دارَ أبى سفيان فهو آمِن ، ومن أغلق عليه بابَه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن » .

---

(١) ابن هشام : أما هذه والله .
(٢) الطبرى : فنى النفس منها شىء .
(٣) الطبرى : ويلك تشهد شهادة الحق .

فلما ذهب لينصرف قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا عباس احبسه بمضيق الوادى عند خَطْمِ الجبل حتى تمرّ به جنودُ الله فيراها » قال فخرجت فحبسته حيث أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أحبسه ، فمرت القبائل على راياتها كلما مرت قبيلة قال : يا عباس من هذه ؟ فأقول : سُلَيم . فيقول : مالى ولسليم . ثم تمر القبيلة فيقول : من هؤلاء ؟ فأقول : مُزَيْنة . فيقول : مالى ولمزينة . حتى نفدت القبائل ما تمرّ قبيلة إلا سألنى عنها فإذا أخبرته بهم قال : مالى ولبنى فلان . حتى مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كتيبته الخضراء فيها المهاجرون والأنصار لا يُرَى منهم إلا الحَدَق من الحديد قال : سبحان الله يا عباس من هؤلاء ؟ : قلت هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المهاجرين والأنصار . قال : ما لأحد بهؤلاء قِبَل ولا طاقة ! والله يا أبا الفضل لقد أصبح مُلْك ابن أخيك الغداةَ عظيما . قلت يا أبا سفيان إنها النبوة . قال نعم إذن . قلت : النَّجاء إلى قومك . حتى إذا جاءهم صَرخ بأعلى صوته : يامعشر قريش هذا محمد قد جاءكم فيالا قِبَل لكم به ، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن . فقامت إليه هند بنت عُتْبة فأخذت بشاربه فقالت : اقتلوا الحميت[1] الدَّسِم الأَحْمَس قُبِّح من طليعة قوم . قال : ويحكم لا تغرّنكم هذه من أنفسكم ، فإنه قد جاءكم مالا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن . قالوا : قاتلك الله وما تُغْنى عنّا دارُك ؟ قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن . فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد .

---

(١) الحميت . الزق . أو وعاء السمن والدسم : السمين والأحمس : الكثير اللحم .

[الرسول يدخل مكة]

ولما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذى طوى وقف على راحلته مُعْتجراً بشقة بُرْد حِبَرَة حمراء، وإنه ليضع رأسه تواضعا لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح حتى إن عُثْنُونه[1] ليكاد يمسُّ وسط الرَّحْل.

ولما وقف هنالك قال أبو قحافة، وقد كُفَّ بصره، لابنة له من أصغر ولده أىْ بنية اظهرى بى على أبى قُبَيْس. فأشرفت به عليه فقال: أى بنية ماذا تَرَيْن؟ قالت: أرى سوادا مجتمعا قال: تلك الخيل. قالت: وأرى رجلا يسعى بين يدى السواد مُقْبلا ومدبراً. قال: أى بنيّة ذلك الوازع الذى يأمر الخيل ويتقدم إليها. ثم قالت: قد والله انتشر السواد. فقال: قد والله إذن دَفعت الخيلُ فأسرعى بى إلى بيتى. فانحطت به، وتلقاه الخيل قبل أن يصل إلى بيته وفى عنق الجارية طوْق من وَرِق فيلقاها رجل فيقتطعه من عنقها.

قالت: فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ودخل المسجد أتاه أبو بكر بأبيه يقوده، فلما رآه صلى الله عليه وسلم قال: هلاّ تركتَ الشيخ فى بيته حتى أكون أنا آتيه فيه! فقال أبو بكر: يا رسول الله هو أحقّ أن يمشى إليك من أن تمشى إليه. قال: فأجلسه بين يديه ثم مسح صدره ثم قال له: أسْلِم. فأسلم. ورآه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكأن رأسه ثغَامة[2] فقال: غيِّروا هذا من شعره. ثم قام أبو بكر فأخذ بيد أخته فقال: أنشد الله

---

(١) العثنون: اللحية أو ما فضل منها بعد العارضين.

(٢) الثغامة: واحدة الثغام. وهو نبت أبيض.

والإسلام طَوْق أختى فلم يجبه أحد فقال : أى أخَيّة احتسبى طوقك فوالله إن الأمانة اليوم فى الناس لقليل !

* * *

وأمر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حين فرق جيشه من ذى طُوَى الزبيرَ بن العوام أن يدخل فى بعض الناس من كُدَى وكان على المجنِّبة اليسرى وأمر سعدَ بن عبادة أن يدخل فى بعض الناس من كَدَاء . فذكروا أن سعدا حين وجّه داخلا قال :

اليومُ يومُ الملحمهْ اليوم تُستحل الحرمهْ

فسمعها رجل من المهاجرين ، قيل هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال يا رسول الله اسمعْ ما قال سعد ، ما نأمن أن تكون له فى قريش صَوْلة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى بن أبى طالب : أدركه فخذ الراية فكن أنت تدخل بها . ويقال إنه أمر الزبير بذلك وجعله مكان سعد على الأنصار مع المهاجرين . فسار الزبير حتى وقف بالحَجُون وغرز بها راية رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وذكر غير ابن إسحق أن ضِرار بن الخطاب قال يومئذ شعرا استعطف فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم على قريش حين سمع قول سعد ، وهو من أجود شعر قاله[1] :

(١) نسب السهيلى هذه الأبيات إلى ضرار بن الخطاب ، فى الروض ٢/٢٧١ . ولكن ابن كثير روى هذه القصة عن الحافظ بن عساكر فى تاريخ دمشق ، فى ترجمة يعقوب ابن إسحاق دينار ، عن موسى بن عقبة ونسب هذا الشعر إلى امرأة . سيرة ابن كثير ٣/٥٥٩ .

يابنيَّ الهُدَى إليك لجَاحَيٌّ قريشٍ ولاتَ حينَ لَجاَء
حين ضاقت عليهم سعة الأر ض وعاداهم إلهُ السماء
والتقت حَلْقَتَا البطان على القو م ونُودوا بالصَّيْلم الصَّلْعاء[1]
إنّ سعداً يريد قاصمةَ الظهـ رِ بأهل الحَجُون والبطحاء
خَزْرجيٌّ لو يستطيع من الغَيْـظِ رمانا بالنسر والعوّاء[2]
فانهيَنْه فإنه الأسد الأسْـ ودُ والليثُ والغٌ فى الدماء[3]
فلئن أقحم اللواء ونادَى يا حُماة اللواء أهل اللواء
لتكونَنَّ بالبطاح قريش فقعة القاع فى أكفّ الإماء[4]

فحينئذ انتزع رسول الله صلى الله عليه وسلم الراية من سعد بن عبادة فيما ذكروا . والله أعلم .

وأمر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد وكان على المجنّبة اليمنى فدخل من اللِّيط أسفلَ مكة فلقيته بنو بكر فقاتلوه فقتل منهم قريب من عشرين رجلا ومن هذيل ثلاثة أو أربعة انهزموا وقتلوا بالحَزْورة حتى بلغ قتلهم باب المسجد ، وهرب فَضَضهم[5] حتى دخلوا الدور ، وارتفعت طائفة منهم على الجبال واتبعهم المسلمون بالسيوف .

وأقبل أبو عبيدة بن الجراح بالصف من المسلمين ينصبُّ لمكة بين يدى

---

(١) الصيلم : الداهية . والصلعاء : المشهورة .

(٢) العواء : الكلب .

(٣) من الروض الأنف .

(٤) الفقعة : كمئة : الأبيض الرخو من الكمأة . ويقال للذليل : هو أذل من فقع بقرقرة لأنه لايمتنع على من اجتناه ، أو لأنه يوطأ بالأرجل . والقاع : الأرض السهلة .

(٥) الفضض : المتفرق المنتشر من كل شيء ، أى الرجال الذين تفرقوا بعد الهزيمة .

رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم من أَذَاخر فى المهاجرين الأولين حتى نزل بأعلى مكة وضُربت هناك قبته . ولما علا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ثنية كَدَاء نظر إلى البارقة على الجبل مع فضَض المشركين فقال : ما هذا وقد نَهيْت عن القتال ؟ فقال المهاجرون : نظن أن خالدا قوتل وبُدِئَ بالقتال فلم يكن بدّ من أن يقاتل من قاتله ، وما كان يا رسول الله ليعصيك ولا ليخالف أمرك . فهبط رسول الله صلى الله عليه وسلم من الثنيـة فأجاز على الحجُون .

واندفع الزبير بن العوام بمن معه حتى وقف بباب الكعبة .

وصُرِع رجلان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

[الذين أهدر النبى دماءهم]

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عهد إلى أمرائه من المسلمين حين أمرهم أن يدخلوا مكة أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم ، إلا أنه قد عَهِد فى نفر سمّاهم أمر بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة منهم : عبد الله بن سعد بن أبى سَرْح وكان قد أسلم وكتب الوحىَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ارتد مشركا ففر يومئذ إلى عثمان بن عفان وكان أخاه من الرضاعة فغيّبه حتى أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن اطمأن الناس فاستأمن له . فزعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صمت طويلا ثم قال : نعم . فلما انصرف عنه عثمان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن حوله من أصحابه : لقد صمت ليقوم إليه

بعضكم فيضرب عنقه . فقال رجل من الأنصار : فهلاّ أومأت يا رسول الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن النبي لا يقتل بالإشارة » . وفي رواية : « إن النبي لا ينبغي أن تكون له خائنة أعين [1] » .

ومنهم : عبد الله بن خَطَل ، رجل من بني تيم بن غالب كان مسلما فبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم مُصَدِّقاً [2] وكان معه رجل مسلم يخدمه فأمره أن يصنع له طعاما ونام ، فاستيقظ ولم يصنع له شيئاً فعدا عليه فقتله ثم ارتد مشركا وكانت له قَيْنتان [3] تغنيان بهجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمر بقتلهما فقتلت إحداهما وهربت الأخرى حتى استؤمن لها من رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمّنها .

وقيل يومئذ لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن ابن خَطل متعلق بأستار الكعبة فقال : اقتلوه . فقتله سعيد بن حُرَيْث المخزومي وأبو بَرْزة الأسلمي اشتركا في دمه .

ومنهم : الحُوَيْرث بن نُقَيْذ بن وهب بن عبد بن قصي وكان ممن يؤذي رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، ولما حمل العباسُ بن عبد المطلب فاطمةَ وأم كلثوم بنتي رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة يريد بهما المدينة نخس بهما الحويرث هذا فرمى بهما إلى الأرض ، فقتله يومَ الفتح عليٌّ بن أبي طالب .

---

(١) قال ابن هشام : وقد حسن إسلامه بعد ذلك وولاه عمر بعض أعماله ثم ولاه عثمان .

(٢) مصدقا : جابيا للصدقات .

(٣) اسم إحداهما : فرتنى .

ومنهم : مِقْيس بن صُبَابة الليثى ، وكان أخوه هشام بن صبابة قد قتله رجل من الأنصار خطأ فقدم مِقْيس بعد ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة مُظْهِرا الإسلام حتى إذا وجد غِرَّة من قاتل أخيه عدَا عليه فقتله ثم لحق بقريش مشركا . وقد تقدم ذلك[1] فلأجله أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله ، فقتله نُمَيْلة بن عبد الله رجل من قومه ، فقالت أخت مِقْيس فى ذلك :

لَعَمْرِى لقد أخزَى نُمَيلةُ رَهْطَه ... وفجَّع أضيافَ الشتاء بمِقْيس
فلله عَيْنًا من رأى مثل مِقْيَس ... إذا النُّفساء أصبحتْ لم تُخَرَّس[2]

ومنهم سارّة مولاة لبنى عبد المطلب ولعكرمة بن أبى جهل ، وكانت تؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستؤمن لها فأمّنها وبقيت حتى أوْطأها رجلٌ من الناس فرسا فى زمن عمر بن الخطاب بالأبطح فقتلها .

وكان صفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل وسُهَيْل بن عمرو قد جمعوا أناساً بالخَنْدَمة ليقاتلوا ، فيهم حِمَاس بن قيس بن خالد أخو بنى بكر ، وكان قد أعدّ سلاحا وأصلح منها فقالت له امرأته : لماذا تعدّ ما أرى ؟ قال لمحمد وأصحابه . قالت : والله ما أراه يقوم لمحمد شىء ! قال : والله إنى لأرجو أن أُخْدِمك بعضهم ! ثم قال :

إنْ يُقْبلوا اليوم فمالى عِلّه ... هذا سلاحٌ كامل وألّه[3]
وذو غِرَارَيْن سريع السَّلّه[4] .

---

(١) انظر ص   من هذا الجزء .
(٢) لم تخرس : لم يصنع لها طعام عند ولادتها ، وذلك من الشدة والجدب
(٣) الألة : جميع أداة الحرب .
(٤) الغرار : حد السيف والسهم يريد : سيفا .

ثم شهد الخَنْدمة ، فلما لقيهم المسلمون من أصحاب خالد بن الوليد ناوشوهم شيئا من قتال ، فقتل كرز بن جابر وخُنَيْس بن خالد كانا فى خيل خالد فشذّا عنه وسلكا طريقا غير طريقه فقتلا جميعاً وأصيب سلمة ابن المَيْلاء الجهنى من خيل خالد ، وأصيب من المشركين ناس ثم انهزموا فخرج حِماس منهزما حتى دخـل بيته وقال لامرأته : أغلقى علىّ بابى .

قالت : فأين ما كنت تقول ؟ فقال :

إنكِ لو شهدتِ يومَ الخَنْدَمه
إذ فرّ صفوانُ وفرّ عِكْرِمهْ
واستقبلتهم بالسيوفِ المسلمه
يَقْطعن كلّ ساعد وجُمْجمه
ضرباً فلا تسمع إلا غَمْغمه
لهم نَهيت خلفنا وهَمْهمه[1]
لم تَنْطق فى اللوم أدنى كلمه

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لخالد بن الوليد : لم قاتلت وقد نهيتك عن القتال ؟ قال هم بدأونا ووضعوا فينا السلاح وأشعرونا النَّبْلَ ، وقد كففتُ يدى ما استطعت . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قضاء الله خير .

---

(١) النهيت : الزئير . هذا وقد اختصر المؤلف هذا الرجز وتمامه فى ابن هشام ٢ /٤٠٨ .

[أمان رسول الله]

وفرّ يومئذ صفوان بن أمية عامدا للبحر وعكرمة بن أبى جهل عامداً لليمن ، فأقبل عُمَيْر بن وهب بن خلف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال . يانبى الله إن صفوان بن أميـة سيّد قومه وقد خرج هاربا منك ليقذف نفسه فى البحر فأمِّنْه صلى الله عليك فإنك قد أمّنت الأحمر والأسود . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أدرك ابنَ عمـك فهو آمِن قال : يارسول الله فأعطنى آيةً يعرف بها أمانك . فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم عمامته التى دخل فيها مكة . فخرج بها عمير حتى أدركه [بُجدّة](1) وهو يريد أن يركب البحر فقـال : يا صفوان فداك أبى وأمى ! الله الله فى نفسك أن تهلـكها فهذا أمان من رسول الله صلى الله عليـه وسلم قد جئتك به قال : ويلك اغرب عنى فلا تـكلمنى .

قال : أىْ صفوان فداك أبى وأمى ! أفضلُ الناس وأبرّ الناس وأحْلَم الناس وخير الناس ابنُ عمك ، عزّه عزك وشرفه شرفك ومُلْـكه ملـكك.

قال : إنى أخافه على نفسى . قال : هو أحْلَم من ذلك وأكرم . فرجع معه حتى وقف به على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صفوان : إنّ هذا يزعم أنك أمّنْتنى . قال : صدق قال : فاجعلنى فيه بالخيار شهرين .

---

(١) من الطبرى .

قال : أنت بالخيار أربعة أشهر .

وأقبلت أم حكيم بنت الحارث بن هشام وكانت تحت عكرمة بن أبي جهل وهي مسلمة يومئذ فقالت : يارسول الله آمِنْ زوجي وائذن لي في طلبه . فأذن لها وأمّنه فأدركته ببعض تهامة وقيل باليمن فأقبل معها وأسلم ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم وثب إليه فرحاً وما عليه رداء .

وكانت فاختة بنت الوليد تحت صفوان بن أمية ، وكانت أسلمت أيضا ، فلما أسلم عكرمة وصفوان أقرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كل واحدة منهما عند زوجها على النكاح الأول .

وقالت أم هانئ بنت أبي طالب وكانت عند هبيرة بن أبي وهب المخزومي : لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأعلى مكة فرّ إليّ رجلان من أحمائي من بني مخزوم فدخل عليّ أخي علي بن أبي طالب فقال : والله لأقتلنهما فأغلقت عليهما بيتي ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بأعلى مكة فوجدته يغتسل من جَفْنة إنّ فيها لأثر العجين وفاطمة ابنته تستره بثوبه ، فلما اغتسل أخذ ثوبه فتوشَّح به ثم صلى ثماني ركعات من الضحى ثم انصرف إليّ فقال : مرحبا وأهلا يا أم هانئ ، ما جاء بك ؟ فأخبرته خبر الرجلين وخبر علي فقال : قد أجَرْنا من أجرت يا أم هانئ وأمّنّا من أمّنت فلا يقتلهما .

قال ابن هشام : هما الحارث بن هشام وزهير بن أبي أمية ابن المغيرة .

[الرسول يدخل البيت]

ولما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة واطمأن الناس خرج حتى جاء البيت فطاف به سبعا على راحلته ليستلم الركن بمحجن فى يده ، فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له فدخلها فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم وقف على باب الكعبة فقال :

«لا إله إلا الله ، صدَق الله وَعْده ، ونصَرَ عبده ، وهزَم الأحزابَ وحده ، ألاَ كل مَأثرة أو دم أو مال يُدَّعى فهو تحت قدميّ هاتين إلا سَدَانة البيت وسِقَاية الحاج ، ألاَ وقتيلُ الخطأ شِبْه[1] العَمْد السوط والعصا ففيه الدِّية مُغلَّظة مائة من الإبل أربعون منها فى بطونها أولادها ، يامعشر قريش إنّ الله قد أذهب عنكم نَخْوة الجاهلية وتعظُّمها بالآباء ، الناسُ لآدم وآدم من تراب . ثم تلا هذه الآية :

« ياأيها الناسُ إنّا خَلَقْناكم من ذكَرٍ وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائلَ لِتَعارَفوا إنّ أكرمكم عندَ الله أتقاكم إن الله عليم خبير[2] » .

ثم قال : يامعشر قريش ما ترون أنى فاعل فيكم[3] ؟ قالوا : خيرا أخٌ كريم وابن أخ كريم . ثم قال : اذهبوا فأنتم الطُّلقاء[4] .

---

(١) الطبرى : مثل العمد .

(٢) سورة الحجرات ١٣ .

(٣) الطبرى : بكم .

(٤) قال الطبرى : وقد كان الله أمكنه من رقابهم عنوة ، وكانوا له فيئا ، فبذلك يسمى أهل مكة الطلقاء .

ثم جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد فقام إليه عليّ بن أبي طالب رضي الله ومفتاح الكعبة في يده فقال : يا رسول الله اجمعْ لنا الحِجَابة مع السِّقاية صلى الله عليك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أين عثمان بن طلحة» ؟ فدعى له فقال : «هاك مفتاحك يا عثمان ، اليوم يوم بِرّ ووفاء . ثم قال لعلي فيما حكى ابن هشام : « إنما أعطيكم ما تُرْزَأُون لا ما تَرْزأون»[1] .

وذكر ابن عُقْبة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قضى طوافه نزل فأخرجت الراحلة فركع ركعتين ثم انصرف إلى زمزم فاطلع فيها وقال : «لولا أن يُغلب بنو عبد المطلب على سقايتهم لنزعتُ منها بيدي» . ثم انصرف إلى ناحية المسجد قريباً من مقام إبراهيم وكان المقام لاصقا بالكعبة فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعا بسَجْل من ماء فشرب وتوضأ والمسلمون يبتدرون وضوءه يصبونه على وجوههم والمشركون ينظرون إليهم ويعجبون ويقولون : ما رأينا مَلِكاً قط بلغ هذا ولا سمعنا به !

وذكر ابن هشام أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل البيت يوم الفتح فرأى فيه صور الملائكة ، فرأى إبراهيم مصوّراً في يده الأزْلام يستقسم بها فقال : « قاتلهم الله ! جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام ؟ ! ما شأن إبراهيم والأزلام « ما كان إبراهيمُ يهودياً ولا نَصْرانياً ولكن كان حَنيفاً مُسْلماً وما كان من المشركين[2] » ثم أمر بتلك الصور كلها فطمست .

(١) أي أعطيتكم السقاية التي تحتاج إلى مؤن ، ولم أعطكم السدانة التي يرزأ لها الناس بالبعث إليها يعني كسوة البيت .

(٢) سورة آل عمران ٦٧ .

وعن ابن عباس قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح على راحلته فطاف عليها وحول البيت أصنام مشدودة بالرصاص فجعل النبي يشير بقضيب فى يده إلى الأصنام وهو يقول : « جاء الحقُّ وزهق الباطل إنّ الباطل كان زَهُوقا[1] » فما أشار إلى صنم منها فى وجهه إلا وقع لقفاه ولا أشار إلى قفاه إلا وقع لوجهه ، حتى ما بقى صنم إلا وقع . فقال تميم بن أسد الخزاعى :

وفى الأصنام مُعْتبر وعلمٌ   لمن يرجو الثوابَ أو العقابَا

[من معجزات الرسول]

وأراد فَضَالة بن عُمَير بن الملوّح الليثى قتلَ النبى صلى الله عليه وسلم وهو بالبيت عام الفتح ، فلما دنا منه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أفضالة ؟ قال : نعم فضالة يا رسول الله . قال : ماذا كنت تحدّث نفسك ؟ فقال : لا شىء كنت أذكر الله . فضحك النبى صلى الله عليه وسلم ثم قال : استغفر الله . ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه . فكان فضالة يقول : والله مارفع يدَه عن صدرى حتى ما من خَلْق الله شىء أحبّ إلىّ منه . قال فضالة : فرجعت إلى أهلى فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها فقالت : هلم إلى الحديث. فقلت لا . وانبعث فضالة يقول :

قالت هلمّ إلى الحديث فقلت لا   يَأبَى عليك اللهُ والإسلامُ

---

(١) سورة الإسراء ٨١.

أَوْ مارأيتِ محمـدا وقبيله   بالفَتْح يومَ تُـكسَّر الأصنامُ
لرأيتِ دِين الله أضحى بيِّنا   والشِّركَ يَغْشى وجهه الإظلامُ

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دخل الـكعبة عام الفتح بلالا أن يؤذن ، وكان دخل معه ، وأبو سفيان بن حرب وعَتَّاب بن أُسَيْد والحارث بن هشام جلوس بفناء الـكعبة فقال عتَّاب : لقد أكرم الله أسيـدا أن لا يكون سمع هذا فيسمع منه ما يغيظه . فقال الحارث : أما والله لوأعلم أنه مُحِقٌّ لاتبعته . وقال أبو سفيان : لا أقول شيئًا لو تـكلمت به لأخبرته عنى هـذه الحصباء ! فخرج عليهم النبى صلى الله عليه وسلم فقال : قد علمتُ الذى قلتم ثم ذكر ذلك لهم ، فقال الحارث وعتاب : نشهد أنك رسول الله و اللهما اطلع على هذا أحدٌ كان معنا فنقول أخبرك .

[الرسول والأنصار]

وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين افتتح مكة على الصفا يدعو وقد أحدقت به الأنصار ، فقالوا فيما بينهم : أترون رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها .

فلما فرغ من دعائه قال : ماذا قلتم ؟ قالوا : لا شىء يا رسول الله . فلم يزل بهم حتى أخبروه فقال : معاذا الله ! المحيْا مَحْياكم والممات مماتـكم[1] .

[حرمة مكة]

وعدتْ خزاعةُ الغدَ من يوم الفتح على رجل من هذيل يقال له ابن

(١) حديث الأنصار هذا يوم الفتح رواه الإمام أحمد فى مسنده ومسلم والنسائى . انظر سيرة ابن كثير ٣/٥٨١ .

الأثوع فقتلوه وهو مشرك برجل من أسلم يقال له أحمر بأساً[1] وكان رجلا شجاعاً وكان إذا نام غط غطيطاً منكراً لا يخفى مكانه فكان يبيت في حيه معتنزاً[2] ، فإذا بيت الحي صرخوا : يا أحمر . فيثور مثل الأسد لا يقوم لسبيله شيء . فأقبل عنزى من هذيل يريدون حاضره ، حتى إذا دنوا من الحاضر قال ابن الأثوع الهذلى : لا تعجلوا حتى أنظر فإذا كان في الحاضر أحمر فلا سبيل إليهم فإن له غطيطاً لا يخفى . فاستمع فلما سمع غطيطه مشى إليه حتى وضع السيف في صدره ثم تحامل عليه حتى قتله . ثم أغاروا على الحاضر فصرخوا : يا أحمر ولا أحمر لهم ! فلما كان الغد من يوم الفتح أتى ابن الأثوع الهذلى حتى دخل مكة ينظر ويسأل عن أمر الناس وهو على شركه فرأته خزاعة فعرفوه فأحاطوا به وهو إلى جنب جدار من جدر مكة يقولون أنت قاتل أحمر ؟ قال : نعم أنا قاتل أحمر فمه . إذ أقبل خراش بن أمية مشتملا على السيف فقال : هكذا عن الرجل . قال بعض من حضرهم : ووالله ما نظن إلا أنه يريد أن يفرج الناسَ عنه ، فلما تفرجوا حمل عليه فطعنه بالسيف في بطنه ، فوالله لكأني أنظر إليه وحشوته[3] تسيل من بطنه وإن عينيه لترنقان[4] في رأسه وهو يقول : أقد فعلتموها يا معشر خزاعة ! حتى انجعف[5] فوقع .

(١) أحمر بأسا : اسم مركب كتأبط شراً .
(٢) معتنزاً : متنحيا في جانب .
(٣) الحشوة : ما في البطن .
(٤) ترنقان : تتحركان .
(٥) انجعف : صرع .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمّا بلغه ما صنع خراش بن أمية : « إن خراشاً لقتّال » . يعيبه بذلك . وقام صلى الله عليه وسلم فى الناس خطيبا فقال : « ياأيها الناس إن الله حرّم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهى حرام من حرام [الله][1] إلى يوم القيامة ، فلا يحلّ لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يَسْفك فيها دما ولا يَعْضد فيها شجراً ، لم تحلِل لأحد كان قبلى ولا تحلّ لأحد يكون بعدى ، ولم تحلّ لى إلا هذه الساعة غضباً على أهلها ؛ ألا ثم قد رجعت كحرمتها بالأمس فليبلّغ الشاهد منكم الغائب ، فمن قال لكم : إن رسول الله قد قاتل . فقولوا : إن الله قد أحلّها لرسوله ولم يحلّها لكم . يامعشر خُزاعة ارفعو أيديكم عن القتل فقد كَثُر القتل إن نفع[2] لقد قتلتم قتيلا لأدِينّه ؛ فمن قُتل بعد مقامى هذا فهم بخير النظرين إن شاءوا فدمُ قاتله وإن شاءوا فعَقْله » .

ثم ودَى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك الرجل الذى قتلت خزاعة

وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة بعد فتحها خمس عشرة ليلة يَقْصر الصلاة . وكان فتحها لعشر ليال بقين من رمضان سنة ثمان .

[ما قيل من الشعر]

وكان مما قيل من الشعر فى فتح مكة قول حسان بن ثابت ، وذكر ابن هشام أنه قالها قبل الفتح :

(١) من ابن كثير . السيرة ٣/٥٧٩ .
(٢) ابن هشام : فلقد كثر إن نفع .

عفَتْ ذاتُ الأصابعِ فالجِواءُ ... إلى عَذْراء منزلها خَلاءُ[1]

ديارٌ من بني الحَسْحاس قَفْرٌ ... تعفّيها الروامسُ والسماءُ[2]

وكانت لايزال بها أنيسٌ ... خِلالَ مُروجها نَعَمٌ وشاءُ

فدَعْ هذا ولكن مَنْ لَطيفٍ ... يؤرّقني إذا ذهب العِشاءُ

لشَعْثاء التي قد تيّمَتْه ... فليس لقلبه منها شِفــاءُ

كأن سَبِيئَةً[3] من بيت رأس ... يكون مِزاجَها عسلٌ وماءُ

إذا ما الأشْربات ذُكِرْن يوماً ... فهن لطيّبِ الراحِ الفِداءُ

نولّيها الملامة إن أَلَمْنا ... إذا ما كان مَغْثٌ أو لِحاءُ[4]

ونشربها فتتركنا ملوكا ... وأُسْداً ما يُنَهْنِهنا[5] اللقاءُ

عدِمْنا خيلَنا إن لم تروْها ... تثير النَّقْع موعدها كَدَاءُ

ينازعن الأعِنّةَ مُصْغِيات ... على أكتافها الأسْدُ[6] الظِّماءُ

تظلّ جيــادنا متمطّرات ... يلطمهن بالخُمُر النساءُ[7]

---

(١) الجواء والعذراء : مواضع بالشام .

(٢) الروامس : الرياح . والسماء : المطر .

(٣) السبيئة : الخمر . ورواية ابن هشام : كأن خبيئة . وهى كذلك عند ابن كثير ٣ / ٥٨٧ .

(٤) ألمنا : فعلنا ما استحق عليه اللوم . والمغث : الضرب باليد . واللحاء : الملاحاة باللسان .

(٥) ينهنهنا : يردنا ويمنعنا .

(٦) كذا بالأصل . ورواية ابن هشام : الأسل الظماء . والأسل : الرماح .

(٧) متمطرات : مسرعات : تمطر الفرس مطراً ومطوراً : أسرع . ويلطمهن : أصلها من لطم بمعنى ضرب . والخمر : جمع خمار وهو ما تغطى به المرأة رأسها . قال السهيلى : وقال ابن دريد فى الجمهرة : كان الخليل رحمه الله يروى بيت حسان : « يطلمهن بالخمر » ، وينكر « يلطمهن » ويجعله بمعنى : ينفض النساء بخمرهن ما عليهن من غبار أو نحو ذلك .

فإمّا تُعْرِضوا عنا اعتمَرْنا ... وكان الفتحُ وانكشفَ الغطاء
وإلا فاصبروا لِجِلادِ يَوْمٍ ... يعزّ الله فيه من يشاء
وجبريلٌ رسول الله فينا ... وروحُ القدْس ليس له كِفاء
وقال الله قد أرسلتُ عبداً ... يقول الحقّ إنْ نَفَع البلاء
شهدتُ به فقوموا صدّقوه ... فقلتم : لا نقومُ ولا نشاء
وقال الله قد يسّرتُ جُنْداً ... هم الأنصارُ عُرْضتها اللقاء
لنا فى كل يومٍ مِن مَعدّ ... سِبَابٌ أو قتالٌ أو هِجَاء
فَنُحْكِم بالقَوافى من هجانا ... ونَضْرب حين تختلط الدماء
ألاَ أبلغْ أبا سفيان عنّى ... مُغَلْغَلَة (١) فقد بَرِحَ الخفاء
هجوتَ محمداً وأجبتُ عنه ... وعندَ الله فى ذاك الجزاء
أتَهْجوه ولستَ له بكفء ... فشرُّ كما لخيرِكما الفداء
هجوتَ مباركاً بَرّاً حنيفا ... أمين الله شيمته الوفاءُ
أَمَنْ يهجو رسول الله منكم ... ويمدحه وينصره سواءَ
فإنّ أبى ووالده وعِرْضى ... لعرض محمد منكم وقاءُ
لسانى صارمٌ لا عَيْب فيه ... وبحرى لا تكدّره الدِّلاء

وقول ابن هشام : إن حسان قال هذا الشعر قبل الفتح ظاهر فى غير ما شىء من مقتضياته ، ومن ذلك : مقاولته لأبى سفيان وهو ابن الحارث بن عبد المطلب ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد أسلم قبل الفتح فى

---

(٨) المغلغلة : الرسالة .

طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة كما تقدم .

وكذلك ذكر ابن عُقْبة أن حسان قاله فى مَخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دخل مكة نظر إلى النساء يَلْطمن الخيل بالخُمُر فالتفت إلى أبى بكر فتبسم لقول حسان فى ذلك : يلطّمهن بالخُمُر النساء .

* * *

وقال أنس بن زنيم الدِّيلى يعتذر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مما قال فيهم عمرو بن سالم الخزاعى :

أنت الذى تُهْدَى مَعَدٌّ بأمره	بل الله يَهْديهم وقال لك اشهدِ
وما حملتْ من ناقةٍ فوق رَحْلها	أبرّ وأوفى ذمةً من محمدِ
أحثّ على خير وأسبغ نائلا	إذا راح كالسيف الصّقيل المهندِ
وأكسى لبُرْد الخال قبل ابتذاله	وأعطى لرأس السابق المتجرِّدِ (١)
تعلّمْ رسولَ الله أنك مُدْرِكى	وأن وعيدًا منك كالأخذ باليدِ
تعلّم رسول الله أنك قادرٌ	على كل صِرْمٍ مُتْهِمين ومُنجدِ (٢)
تعلّم بأن الرّكب رَكْب عُوَيْمر	هم الكاذبون المُخْلِفوا كلّ مَوْعدِ
ونبّوْا رسولَ الله أنى هجوْتُه	فلا حملتْ سوْطى إلىّ إذاً يدى

---

(١) الخال : ضرب من برود اليمن ، وهو من رفيع الثياب . والسابق المتجرد : الفرس السريع النشيط .

(٢) الصرم : الطائفة من البيوت . والمتهم : من نزل تهامة . والمنجد : من نزل نجداً .

سوى أنني قلت وَيْلِمِّ فتية | أُصيبوا بنَحْسٍ لا يُطو بأَسْعَدِ[1]
ذؤيبٌ وكلثوم وسَلْمى تتابعوا | جميعاً فإن لا تَدْمع العينُ أكْمدِ
أصابهمُ من لم يكن لدمائهم | كفاء فعزّتْ عَبْرَتى وتبلّدى

وقال بُجَير بن زُهَير بن أبى سُلْمى فى يوم الفتح :

نفى أهل الحبلَّق كلَّ فج | مَزَيْنة غدوةً وبنو خُفافِ[2]
ضربناهم بمكة يومَ فتح النـ | ـبىِّ الخير بالبيض الخفافِ
صَبَحْناهم بسَبْعٍ من سُلَيم | وألف من بنى عثمان وافِ
نطأ أكتافهم ضرباً وطعنا | ورَشْقا بالمرِيَّشة[3] اللطافِ
ترى بَيْنَ الصفوفِ لها حَفِيفاً | كما انصاع الفُواق من الرصافِ[4]
فرُحْنا والجيادُ تجُول فيهم | بأرماحٍ مقوَّمة الثقافِ
فأبنا غانمين بما اشتهينا | وآبُوا نادمين على الخلافِ
وأعطينا رسول الله منّا | مواثيقا على حُسْنِ التصافى

---

(١) النحس : ضد السعد . واللاثط : اللاصق الملازم . والأسعد : شقاق كالجرب يأخذ البعير فيهرم منه .

هذا ورواية البيت فى ابن هشام والروض وابن كثير :

أصيبوا بنحس لا بطَلْق وأسعد

ولعل رواية الكلاعى أصوب وأوضح .

(٢) الحبلق : أرض يسكنها قبائل من مزينة وقيس . والحبلق أيضاً : الغنم الصغار . ولعله أراد أصحاب الغنم .

(٣) المريشة : السهام فيها الريش .

(٤) انصاع : ذهب . والفواق : قال السهيلى : أراد به الفوق وهو غريب . والرصاف : جمع رصفة وهى العقبة التى تلوى فوق مدخل سنخ النصل فى السهم .

وقد سمعوا مقالتهم فهمُّوا   غداةَ الرَّوْعِ منها بانصرافِ

* * *

وقال عباس بن مِرْداس السلمى فى فتح مكة :

مِنَّا بمكة يوم فَتْح محمدٍ   ألفٌ تسيل به البِطَاح مُسَوَّمُ
نَصروا الرسول وشاهدوا أيامه[1]   وشعارهم يوم اللقاء مقدَّمُ
فى منزل ثبتتْ به أقدامُهم   ضَنْك كأن الهامَ فيه الحنتمُ[2]،
جرَّت سنابكها بنجد قبلها   حتى استقاد لها الحجازُ الأدْهمُ[3]
الله مكّنـــــه له وأذّله   حكمُ السيوف لنا وجَدٌّ مِزحمُ[4]،

وقال بُجَيد بن عمران الخزاعى:

وقد أنشأ الله السحابَ بنصرنا   رُكَامَ سحاب الهَيْدب المتراكبِ[5]
وهِجرتنا فى أرضنا عندنا بها   كتاب أتى من خير مُمل وكاتبِ
ومن أجلنا حلّت بمكة حُرْمة   لندرك ثأراً بالسيوف القواضبِ

---

(١) رواية ابن كثير : وشاهدوا آبائه .
(٢) الهام : الرءوس . والحنتم : الحنظل .
(٣) رواية ابن كثير : حتى استقام لها .
(٤) المزحم : الغالب .
(٥) الهيدب : القريب .

[سرية خالد بن الوليد وما وقع فيها]

ولما فتح الله على رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة بعث السرايا فيما حولها يدعو إلى الله ، ولم يأمرهم بقتال .

وكان ممن بعث خالدُ بن الوليد ، وأمره أن يسير بأسفل تِهامة داعياً ولم يبعثه مقاتلاً ، ومعه قبائل من العرب ، فوطئوا بنى جَذِيمة بن عامر بن عبد مناة بن كنانة . فلما رآه القوم أخذوا السلاح ، فقال خالد : ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا . فقال رجل منهم يقال له جَحْدم : ويلكم يا بنى جذيمة إنه خالد ! والله ما بعد وَضْع السلاح إلا الإسار ، وما بعد الإسار إلا ضَرْب الأعناق ، والله لا أضع سلاحى أبدا . فأخذه رجال من قومه فقالوا : يا جَحْدم أتريد أن تسفك دماءنا ؟ إن الناس قد أسلموا ووضعت الحرب وأمِن الناس فلم يزالو به حتى نزعوا سلاحه ووضع القوم السلاح لقول خالد .

فلما وضعوه أمر بهم خالد عند ذلك فكُتِّفوا ثم عرضهم على السيف فقتل من قتل منهم . وقال لهم جحدم حين وضعوا سلاحه ورأى ما يُصنع بهم : يابنى جذيمة ضاع الضَّرْب ! قد كنت حذرتكم ما وقعتم فيه .

فلما انتهى الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رفع يديه إلى السماء ثم قال: « اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل انفلت منهم فأتاه بالخبر : هل أنكر عليه أحد ؟ فقال : نعم ، قد أنكر عليه رجل أبيض رَبْعة[1] فنهمَه خالد فسكت عنه ، وأنكر

---

(١) الربعة : بين الطويل والقصير . ونهمه : زجره .

عليه رجل أحمر مضطرب فراجعه فاشتدّت مراجعتهما . فقال عمر بن الخطاب أما الأول يا رسول الله فابني عبد الله ، وأما الآخر فسالم مولى أبي حُذيفة .

و ذكروا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « رأيتُ كأني لقمتُ لقمةً من حَيْس فالتذذتُ طعمها فاعترض في حَلْقي منها شيء حين ابتلعتها فأدخل عليٌّ يدَه فنزعه » . فقال أبو بكر : هذه سَرية من سَراياك تبعثها فيأتيك منها بعضُ ما تحبّ ويكون في بعضها اعتراض فتبعث عليًا فيسهّله .

ثم لما كان من خالد في بني جَذِيمة ما كان دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليّ بن أبي طالب فقال : « يا علي اخرج إلى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم واجعل أمرَ الجاهلية تحت قدميك» . فخرج عليّ حتى جاءهم ومعه مال قد بعث به رسول الله صلى الله عليه وسلم فودى لهم الدماء وما أصيب من الأموال حتى إنه ليَدِي لهم ميلغة الكلاب ، حتى إذا لم يبق شيء من دم ولا مال إلاوَدَاه بقيت معه بقية من المال فقال لهم علي حين فرغ منه : هل بقي دمٌ أو مال لم يودَ لكم ؟ قالوا : لا قال فإني أعطيكم هذه البقية من هذا المال احتياطا لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما لا يعلم ولا تعلمون .

[ففعل[1]] ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر فقال أصبْتَ وأحسنت .

ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستقبل القبلة قائمًا شاهرًا يديه حتى

(١) من ت .

إنه ليُرى ما تحت مَنْكبيه يقول : اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالدُ بن الوليد ثلاث مرات .

وقد قال بعض من يعذر خالدا : إنه قال : ما قاتلتُ حتى أمرنى بذلك عبدُ الله بن حُذافة السَّهمى وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أن تقاتلهم لامتناعهم من الإسلام .

* * *

وحدّث ابن أبى حَدرَد الأسلمىّ قال :

كنت يومئذ فى خيل خالد بن الوليد فقال لى فتى من بنى جَذِيمة وهو فى سنّى وقد جمعت يداه إلى عنقه برُمَّة[٢] ونسوةٌ مجتمعات غير بعيد منه يافتى . قلت : ما تشاء ؟ قال : هل أنت آخذٌ بهذه الرُّمَّة فقائدى إلى هؤلاء النسوة حتى أقضى إليهن حاجة ثم تردّنى بعدُ فتصنعوا بى ما بدا لكم ؟ قال

---

(١) ذكر الإمام أحمد رواية له أن خالد بن الوليد دعا بنى جذيمة إلى الإسلام فلم يحسنوا أن يقولوا : أسلمنا . فجعلوا يقولون : صبأنا صبأنا ! وخالد يأخذ بهم أسرا وقتلا .

كما ذكر ابن إسحق أنه كان بين خالد وبين عبد الرحمن بن عوف — فيما بلغه — كلام فى ذلك فقال له عبد الرحمن : عملت بأمر الجاهلية فى الإسلام ؟ فقال : إنما ثأرت بأبيك . فقال عبد الرحمن : كذبت ! قد قتلت قاتل أبى ، ولكنك ثأرت لعمك الفاكه بن المغيرة . حتى كان بينهما شر . فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « مهلا يا خالد ! دع عنك أصحابى ، فوالله لو كان لك أحد ذهبا ثم أنفقته فى سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابى ولا روحته » .

قال ابن كثير : « والمظنون بكل منهما — أى خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنهما — أنه لم يقصد شيئاً من ذلك وإنما يقال هذا فى وقت المخاصمة ، فإنما أراد خالد بن الوليد نصرة الإسلام وأهله ، وإن كان قد أخطأ فى أمرهم واعتقد أنهم ينتقصون الإسلام بقولهم صبأنا صبأنا . ولم يفهم عنهم أنهم أسلموا » .

(٢) الرمة : الحبل .

قلت : والله ليسير ما طلبت . فأخذتُ بِرُمّته بها حتى أوقفته عليهن فقال :
اسْلَمِى حُبَيْش على نَفَد[1] العيش .

أَرَيْتُكِ إذ طالبتكم فوجدتكم بحلية أو ألفيتكم بالخوانق[2]
ألم يكُ أهلاً أن يُنوّل عاشق
تكلّف إدلاجَ السُّرَى والودائقِ[3]
فلا ذَنْبَ لى قد قلتُ إذ أهْلُنا معاً
أثيبى بودٍّ قبل إحدى الصَّفائقِ[4]
أثيبى بودٍّ قَبلَ أن تشحَط النوى[5]
ويَنأى الأميرُ بالحبيب المفارقِ[7]

فقالت : وأنت فحُيِّيت سبعا وعشرا وِترا وثمانيا تترى . قال : ثم انصرفتُ به فضُربت عنقه . فحدّث من حضرها أنها قامت إليه حين ضُربتْ عنقه فما زالت تقبّله حتى ماتت عنده .

وخرّج النسائى هذه القصة فى مصنّفه فى باب « قتل الأسارى » من حديث ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم بعث سريّة فغنموا وفيهم رجل قال : إنى لست منهم عشقت امرأة فلحقتها فدعُونى أنظر إليها نظرةً ثم اصنعوا

---

(٣) ت : قبل نفد العيش . وفى ابن هشام (ط الحلبى) : على نفذ من العيش . والنفد : الفناء والذهاب والانقضاء .

(٤) حلية والخوانق : موضعان بتهامة .

(٥) السرى : سير عامة الليل . والودائق : جمع وديقة وهى شدة الحر فى نصف النهار .

(٦) الصفائق : الدواهى .

(٧) تشحط : تبعد .

(٨) ذكر ابن هشام بيتين بعد هذا البيت .

بى مابدًا لكم . قال فإذا امرأة طويلة أدْماء فقال . اسْلمى حُبَيْش على نَفد العيش وذكر بعض الشعر المتقدم وبعده : قالت : نعم فَدَيْتُك . قال فقدّموه فضربوا عنقه فجاءت المرأة فوقفت عليه فشهقت شهقة أو شهقتين ثم ماتت ، فلما قدِموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبروه الخبر فقال صلى الله عليه وسلم : « أما كان فيكم رجل رحيم ! » .

[هدم العُزى]

ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد إلى العُزّى وكانت بنخْلة ، وكان بيتاً تعظمه قريش وكِنانة ومُضر كلها ، وكان سَدَنتها وحُجّابها بنى شيبان من بنى سليم حلفاء بنى هاشم ، فلما سمع صاحبها السُّلَمى بسَيْر خالد إليها علّق عليها سيفه وأسندَ فى الجبل الذى هو فيه وهو يقول :

ياعُزّ شُدّى شدةً لا شوى[1] لها على خالد ألقى القِناع وشمّرى

يا عُزّ إن لم تَقْتلى المرء خالداً فبُوئى بإثم عاجلٍ أو تنصّرى

فلما انتهى إليها خالد هَدمها. ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم[2]

(١) الشوى : أن يصيب غير المقاتل ، يريد : أنها لا تبقى على شىء .

(٢) وكان هدم العزى — كما قال الطبرى — لخمس بقين من رمضان سنة ثمان .

غزوة حنين

ولما سمعت هَوازن برسول الله صلى الله عليه وسلم وما فتح الله عليه من مكة جمعها مالك بن عوف النَّصْرى[1] فاجتمع إليه مع هَوازن ثقيف كلها واجتمعت نَصْر وجُشَم كلها وسعد بن بكر وناس من بنى هلال وهم قليل ، ولم يشهدها من قيس عَيْلان إلا هؤلاء . وفى بنى جُشَم دُرَيْد بن الصِّمة شيخ كبير ليس فيه شىء إلا التيمُّن برأيه ومعرفته بالحرب ، وجِمَاعُ أمرِ الناس إلى مالك بن عوف . فلما أجمع السيرَ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حَطَّ مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم ، فلما نزل بأوطاس جتمع إليه الناس وفيهم دُرَيْد ابن الصِّمة فى شِجار[2] له يُقاد به . فلما نزل قال : فى أىّ وادٍ أنتم ؟ قالوا : بأوْطاس . قال : نعم مجال الخيل لاحَزْنٌ ضَرِس ولا سَهْل دَهْس[3] مالى أسمع رغاء البعير ونُهاق الحمير وبكاء الصغير ويُعار الشاء ؟ قالوا : ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم . قال : أين مالك ؟ فدعِى له فقال : يامالك إنك أصبحت رئيس قومك ، وإن هذا يومٌ له ما بعده ، مالى أسمع رُغاء البعير ونُهاق الحمير وبكاء الصغير ويُعار الشاء ؟ قال : سقتُ مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم أردتُ أن أجعل خلف كل رجل منهم أهلَه وماله ليقاتل عنهم قال : فانْقَضَ[4] به وقال[5] : راعى ضأنٍ والله ! وهل يردّ المنهزمَ شىء ؟

---

(١) ت : النضرى . عرفه .

(٢) الشجار : مركب شبه الهودج .

(٣) الحزن : ما غلظ من الأرض . والضرس : الخشن . والدهس : اللين .

(٤) انقض به : زجره .

(٥) ابن هشام والطبرى : ثم قال .

إنها إن كان لك لم ينفعك إلا رجلٌ بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فُضحتَ فى أهلك ومالك .

ثم قال : ما فعلتْ كعبٌ وكلاب ؟ قالوا : لم يشهدها منهم أحد . قال: غاب الحدُّو الجِدُّ لو كان يوم عَلاَء ورفعة لم تغب عنه كعب وكِلاَب ، لَوددْت أنكم فعلتم ما فعلتْ كعب وكلاب ، فمن شهدها معكم ؟ قالوا : عمرو بن عامر وعوف بن عامر . قال : ذانك الجَذْعان[1] لا ينفعان ولا يَضرّان ! يا مالك إنك لم تصنع بتقديم بَيْضة هَوازن إلى نحور الخيل شيئاً ارفعهم إلى مُتمنَّع بلادهم وعَلْياء[2] قومهم ثم الق الصُّبَّاء[3] على مُتون الخيل فإن كانت لك لحق بك من وراءك ، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك .

قال : والله لا أفعل ، إنك قد كبِرْتَ وقد كبر عقلك[4] والله لَتُطيعُنّنى يا معشر هَوازن أو لأتكئَنّ على هذا السيف حتى يخرج من ظهرى . وكره أن يكون لدُرَيْد فيها ذِكر أو رأى ، قالوا : أطعْناك .

فقال دريد : هذا يومٌ لم أشهده ولم يفتنى .

[يا ليتنى][5] فيها جَذَعْ أخُبُّ[6] فيها وأضَعْ

---

(١) الجذع : الشاب الحدث .

(٢) ابن هشام والطبرى : وعليا قومهم .

(٣) يريد الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه .

(٤) الطبرى : وقد كبر علمك .

(٥) سقطت من ت .

(٦) أخب : أسرع .

ثم قال مالك للناس : إن رأيتموهم فاكسروا جفون سيوفكم ثم شُدُّوا شدة رجل واحد .

وبعث مالكُ بن عوف عيوناً من رجاله فأتوه وقد تفرقت أوصالهم فقال : ويلكم ما شأنكم ؟ قالوا : رأينا رجالا بيضاً على خيل بُلْق والله ماتماسكْنا أن أصابنا ماترى .

فوالله ماردّه ذلك عن وجهه أن مضى على مايريد .

ولما سمع بهم نبي الله صلى الله عليه وسلم بعث إليهم عبدَ الله بن أبي حَدْرد الأسلميّ وأمره أن يدخل في الناس ويقيم فيهم حتى يعلم عِلمهم ثم يأتيه بخبرهم فانطلق ابنُ أبي حَدْرَد فدخَل فيهم حتى سمع وعلِم ما قد أجمعوا عليه من حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسمع من مالك وأمر هَوازن ماهم له [1] ثم أقبل حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر .

فلما أجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم السير إلى هَوازن ذُكر له أن عند صفوان بن أمية أدراعا وسلاحا فأرسل إليه وهو يومئذ مُشرك فقال : يا أبا أمية أعِرْنا سلاحك هذا نَلق فيه عدوّنا غداً فقال صفوان : أغَصبا يا محمد ؟ فقال : بل عارية مضمونة حتى نؤديها إليك قال : ليس بهذا بأس . فأعطاه مائة دِرع بما يكفيها من السلاح ، فزعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأله أن يكفيهم حَملها ففعل .

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم عامداً لحنين معه ألفان من

---

(١) ت : ما هم عليه .

أهل مكة وعشرة آلاف من أصحابه الذين فتح الله بهم مكة ، فكانوا اثنى عشر ألفا .

وذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حين فصَل من مكة إلى حنين ورأى كثرةَ من معه من جنود الله : « لن نُغلَبَ اليومَ من قِلّة ». وزعم بعض الناس أن رجلا من بنى بكر قالها .

واستعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم عَتّاب بن أَسِيد بن أبى العيص ابن أمية بن عبد شمس على مكة أميراً على من تخلّف عنه من الناس .

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على وجهه يريد لقاء هَوازن .

قال ابن عُقْبة : وكان أهل حُنَيْن يظنون حين دنا منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم — يعنى فى توجهه إلى مكة — أنه بادئ بهم ، وصنَع الله لرسوله ما هو أحسن من ذلك ، فتح له مكة فأقرّ بها عَيْنه وكَبَت بها عدوّه .

فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حُنَيْن خرج معه أهلُ مكة رُكْبانا ومشاةً ، حتى خرج معه النساء يمشين على غير دِين نُظّارا ينظرون ويرجون الغنائم ، ولا يكرهون أن تكون الصدمةُ برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه .

وحدّث أبو واقد اللّيْثى قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حنين ونحن حديثوا عهدٍ بالجاهلية ، وكانت لكفار قريش ومن سوَاهم من العرب شجرة خضراء عظيمة يقال لها ذات أنواط . يعلقون

عليها أسلحتهم ويذبحون عندها ويعكفون عليها يوما ، قال : فرأينا ونحن نسير معه سِدْرة خضراء عظيمة فتنادَيْنا من جَنبات الطريق : اجعل لنا ذاتَ أنْواط كما لهم ذات أنواط. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الله أكبر ! قلتم والذى نفس محمد بيده كما قال قوم موسى : «اجْعَل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، قال : إنكم قوم تجهَلون » فإنها السُّنن لتركبنّ سنن من كان قبلكم[1] » .

* * *

وحدَّث جابر بن عبد الله قال : لما استقبَلْنا وادى حنين انحدرنا فى وادٍ من أودية تِهامة أجْوف حَطُوط إنما ننحدر فيه انحدارا قال : وذلك فى عَمَاية الصبح ، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادى فكمنوا لنا فى شِعَابه وأجنابه[2] ومَضايقه ، قد أجمعوا وتهيأوا ، فوالله ماراعنا ونحن منحطّون إلا الكتائب قد شَدُّوا[3] علينا شَدّةَ رجل واحد ، وانشمر[4] الناسُ راجعين لا يَلْوِى أحد على أحد .

وانحاز رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ذات اليمين ثم قال : « أيها الناس هلم إلىّ

---

(١) روى هذا الحديث الترمذى فى صحيحه ، وقال : حسن صحيح ، والنسائى فى سننه . ورواه ابن أبى حاتم فى تفسيره وانظر سيرة ابن كثير ٣/٦١٦ .

(٢) ابن هشام والطبرى : وأحنائه .

(٣) الطبرى : لقد شدت .

(٤) انشمروا : فروا وانهزموا .

أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله » قال : فلا شيء ! حملت[1] الإبل بعضها على بعض وانطلق الناس ، إلا أنه قد بقي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نفرٌ من المهاجرين والأنصار وأهل بيته ، وفيمن ثبَت معه من المهاجرين : أبو بكر وعمر ومن أهل بيته عليّ بن أبي طالب والعباس وأبو سفيان بن الحارث وابنه والفضل بن عباس وربيعة بن الحارث وأسامة ابن زيد وأيمن بن عُبَيد وهو ابن أم أيمن قُتل يومئذ .

قال : ورجل من هَوازن على جمل له أحمر بيده راية سوداء فى رأس رمح طويل أمام هوازن وهم خلفه ، إذا أدْرَكَ طَعن برمحه وإذا فاته الناس رفع رمحه لمن وراءه فاتبعوه ، فبينا ذلك الرجل يصنع ما يصنع إذ أهوى له على بن أبي طالب ورجل من الأنصار يريدانه قال : فيأتى عليّ من خلفه فضرب عُرْقوبَىْ الجمل فوقع على عَجُزه ووثب الأنصارى على الرجل فضربه ضربةً أطنّ[2] قدمه بنصف ساقه فانجعف عن رَحْله .

* * *

[المنهزمون]

قال ابن إسحق : فلما انهزم الناسُ ورأى من كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من جُفاة أهل مكة الهزيمةَ تكلم رجالٌ منهم بما فى أنفسهم من الضِّغْن فقال أحدهم : لا تنتهى هزيمتهم دون البحر . وإنّ

---

(١) الطبرى : احتملت الإبل بعضها بعضا .

(٢) أطن : أطار .

الأزلام لمعه فى كنانته . وصرخ آخر منهم : ألاَ بطَل السِّحر اليوم !
فقال له صفوان بن أمية وهو يومئذ مشرك فى المدة التى جعل له رسول
الله صلى الله عليه وسلم : اسكت فضّ الله فاك ! فوالله لأن يَرُبَّنى[1]
رجلٌ من قريش أحبُّ إلى من أن يربنى رجلٌ من هَوَازن .

وقال شيبة بن عثمان بن أبى طلحة ، أخو بنى عبد الدار وكان أبوه
قُتل يوم أحد : قلت : اليوم أدْرِك ثأرى اليوم أقتل محمدا . قال فأدَرْت
برسول الله لأقتله فأقبل شىء حتى تغشّى فؤادى فلم أطق ذلك وعلمت
أنى ممنوع منه .

وذكر ابن أبى خَيْثمة حديث شيبة هذا ، قال : لمّا رأيت النبى
صلى الله عليه وسلم يوم حنين أعْرِى[2] ذَكرتُ أبى وعمى قتلهما حمزة ،
قلت : اليومَ أدرك ثأرى فى محمد[3] . فجئته عن يمينه فإذا أنا بالعباس
قائماً عليه دِرْع بيضاء ، قلت : عمّه لن يخذله . فجئته عن يساره فإذا أنا
بأبى سفيان بن الحارث ، قلت : ابن عمه لن يخذله ، فجئته من خلفه فدنوتُ
ودنوت حتى لم يبق إلا أن أسوّر سَوْرة[4] بالسيف فرفع إلىّ شُواظ من
نار كأنه البرق فنكصت على عقبى القهقرى . فالتفت رسولُ الله صلى

---

(١) يربنى : يملكنى .

(٢) أعرى : تفرق الناس من حوله . وفى رواية ابن كثير عن البيهقى : قد عرى .
وفى ت : أغزى . محرفة .

(٣) رواية البيهقى : من محمد .

(٤) أسور : أثب . وعند ابن كثير : أساوره سورة .

الله عليه وسلم فقال : ياشيبة ادْنُهْ . فدنوتُ فوضع يده على صدرى فاستخرج الله الشيطان من قلبي فرفعت إليه بصرى فلهو أحبّ إلىّ من سمعى وبصرى فقال لى : ياشيبة قاتل الكفار . فقاتلت معه صلى الله عليه وسلم .

[نداء النصر]

وحدّث العباس بن عبد المطلب قال : إنى لمع رسول الله صلى الله عليه وسلم آخذٌ بحَكَمة[1] بغلته البيضاء قد شَجَرتُها[2] بهـا وكنت امرءاً جَسِيما شديد الصوت ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول حين رأى ما رأى من أمر الناس : أين أيها الناس ؟ فلم أر الناس يَلْوون على شىء فقال : ياعباس اصرخ : يامعشر الأنصار يامعشر أصحاب السَّمُرَة . قال : فأجابوا : لبَّيك لبيك . قال : فيذهب الرجل لَيَثْنى بعيره فلا يقدر على ذلك فيأخذ درعه فيقذفها فى عنقه ويأخذ سيفه وترسه ويقتحم عن بعيره ويخلّى سبيله فيؤمُّ الصوت حتى ينتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة استقبلوا الناس فاقتتلوا ، فكانت الدعوى أول ما كانت للأنصار[3] ثم خلصت آخِرًا للخزرج وكانوا صُبُرًا عند الحرب ، فأشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ركائبه فنظر إلى مُجْتَلَد القوم فقال : الآن حَمِى الوَطِيس .

---

(١) الحكمة : ما أحاط بحنكى الفرس ونحوه .
(٢) شجر الدابة : ضرب لجامها فيكفها حتى فتحت فاها .
(٣) ت : بالأنصار .

قال جابر بن عبد الله فى حديثه : واجتلدَ الناسُ ، فوالله مارجعتْ راجعة الناس من هزيمتهم حتى وجد والأسارى مكتفين عند رسول الله صلى الله عليه وسلم !

قال : والتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبى سفيان بن الحارث وكان حسَن الإسلام وممن صبَر يومئذ معه وهو آخذ بثَفَر[1] بغلته فقال : من هذا ؟ قال : أنا ابن أمك يارسول الله .

وذكر ابن عقبة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما غَشِيَه القتال يومئذ قام فى الركابين وهو على البغلة . ويقولون نزل . فرفع يديه إلى الله يدعوه يقول : اللهم إنى أنشُدك ماوعدتنى ، اللهم لا ينبغى لهم أن يظهروا علينا . ونادى أصحابه فذَمَرهم[2] : يا أصحاب البَيْعة يومَ الحديبية ، يا أصحاب سورة البقرة ، يا أنصار الله ورسوله يابنى الخزرج . وقبض قبضة من الحصباء فحصب بها وجوه المشركين ونواحيهم كلها . وقال : شاهت الوجوه .

فهزم الله أعداءه من كل ناحية حصَبهم منها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واتبعهم المسلمون يقتلونهم وغنّمهم الله نساءهم وذراريهم وشاءهم وإبلهم ، وفر مالك بن عوف حتى دخل حصن الطائف فى ناس من أشراف قومه .

---

(١) الثفر : السير فى مؤخر السرج .

(٢) الأصل : فى الراكلتين . وماأثبته من سيرة ابن كثير ٣/٦٢٦ نقلا عن ابن عقبة .

(٣) ذمرهم : حضهم على القتال .

وأسلم عند ذلك ناس كثير من أهل مكة وغيرهم حين رأوا نَصْر الله ورسوله[1] وإعزازَ دينه .

وحدَّث جُبَيْر بن مُطعم قال : لقد رأيت قبل هزيمة القوم والناس يقتتلون مثل البِجَاد[2] الأسود أقبل من السماء حتى سقط بيننا وبين القوم ، فنظرت فإذا نَمْل أسود مَبْثوث قد ملأ الوادى ولم أشكّ أنها الملائكة ، فلم تكن إلا هزيمة القوم .

[شجاعة أم سليم]

والتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ فرأى أمّ سُلَيْم بنت مِلْحَان ، وكانت مع زوجها أبى طلحة وهى حازمةٌ وسطها ببُرْد لها وإنها لحامل بعبد الله بن أبى طلحة ، ومعها جمل أبى طلحة قد خشيت أن يَعُزّها[3] فأدنت رأسه منها فأدخلت يدها فى خِزَامته مع الخطام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أم سُلَيم ؟!

قالت : نعم بأبى أنت وأمى يارسول الله اقتلْ هؤلاء الذين ينهزمون عنك كما تقتل الذين يقاتلونك فإنهم لذلك أهلٌ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو يكفى الله يا أم سُلَيم .

وقال لها أبو طلحة : ما هذا الخنجر يا أم سليم ؟ لخنجر رآه عندها .

---

(١) الرواية عند ابن كثير : حين رأوا نصر الله رسوله وإعزازه دينه . السيرة ٤/٦٢٦

(٢) البجاد : كساء من صوف .

(٣) يعزها : يغلبها أو يفلت منها .

قالت : خنجر اتخذته إن دنا منى أحـد من المشركـين بعجته[1] به .
فقال أبو طلحة : ألا تسمع يارسول الله ما تقول أم سليم !

* * *

وحدّث أنس أن أبا طلحة استلب وحـــده يوم حنين عشرين رجلا .

وقال أبو قتادة : رأيت يوم حنين رجلين يقتتلان مسلما ومشركا ، فإذا رجل من المشركين يريد أن يُعين صاحبَه المشرك على المسلم فأتيته فضربت يده فقطعتهـا واعتنقنى بيـده الأخرى ، فوالله ما أرسلنى حتى وجدتُ ريحَ الدم . ويروى : ريحَ الموت . فلولا أن الدم نزّفه لقتلنى ، فسقط فضربته فقتلته وأجهضنى[2] عنه القتـال . فلـا وضعت الحرب أوزارها وفرغنا من القوم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قتل قتيلا فله سَلبه . فقلت : يا رسول الله والله لقد قتلت قتيلا ذا سلب فأجهضنى عنه القتال فما أدرى من استلبه . فقـال رجل من أهل مكة : صـدَق يارسول الله فأرْضـه عنى من سلَبه . فقـال أبو بكر : لا والله لا ترضيه منه تَعَمّـد إلى أسدٍ من أسد الله يقاتل عن دين الله تقاسمه سلبـه ! ارددْ عليه سلب قتيله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صدَق اردد عليه سلبه .

---

(١) بعجته : شققته .

(٢) أجهضنى : غلبني وأبعدنى

قال أبو قتادة : فأخذته منه فبعته فاشتريت بثمنه مِخْرَفاً[1] فإنه لأول مال اعتقدتُه[2] .

[هزيمة المشركين]

ولما انهزمت هوازن استحرّ القتل من ثقيف فى بنى مالك ، فقتل منهم سبعون رجلا تحت رايتهم ، منهم عثمان بن عبد الله بن ربيعة ومعه كانت راية بنى مالك .

وكانت قبله مع ذى الخِمار ، فلما قُتل أخذها عثمان فقاتل بها حتى قُتل ، فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قتله قال : أبعدَه الله فإنه كان يُبغض قريشا . وكانت راية الأحلاف مع قارب بن الأسود ، فلما انهزم الناس هرب هو وقومه من الأحلاف فلم يُقتل منهم غير رجلين يقال لأحدهما وهب وللآخر الجُلاَح ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بلغه قتل الجلاَح : قتل اليوم سيّد شباب ثقيف إلا ما كان من ابن هُنَيْدة . يعنى الحارث بن أويس .

ولما انهزم المشركون أتوا الطائف ومعهم مالك بن عوف وعسكر بعضهم بأوطاس وتوجّه بعضهم نحو نخلة ، وتبعت خيلُ رسول الله صلى الله عليه وسلم من سلك فى نخلة من الناس ولم تتبع من سلك الثنايا ، فأدرك ربيعة بن رُفَيع ــ وكان يقال له ابن الدُّغُنّة وهى أمه غلبت على اسمه

---

(١) المخرف : السكة بين صفين من النخل

(٢) كذا : ورواية البخارى ومسلم فإنه لأول مال تأثلته

أدرك دُرَيدَ بن الصِّمة فأخذ بخطام جمله وهو يظن أنه امرأة ، وذلك أنه كان فى شِجار له ، فأناخ به فإذا شيخ كبير وإذا هو دُرَيد ولا يعرفه الغلام ، فقال له دريد : ماذا تريد بى ؟ قال : أقتلك . قال : ومن أنت ؟ قال أنا ربيعة بن رُفَيع السُّلمى . ثم ضربه بسيفه فلم يُغن شيئاً فقال : بئس ما سلّحتك أمُّك ! خذ سيفى هذا من مؤخَّر الرحل ثم اضرب به وارفع عن العِظام واخفض عن الدماغ ، فإنى كذلك كنت أضرب الرجال ، ثم إذا أتيتَ أمك فأخبرها أنك قتلت دُرَيد بن الصِّمة فرُبَّ والله يومٍ قد منعتُ فيه نساءك .

فزعم بنو سليم أن ربيعة قال : لما ضربتُه فوقع تكشَّف فإذا عِجانه[1] وبطون فخذيه مثل القرطاس من ركوب الخيل أعراء . فلما رجع ربيعة إلى أمه أخبرها بقتله إياه فقالت : أما والله لقد أعتق أمهاتٍ لك ثلاثا .

وقالت عُمَيْرة[2] بنت دريد ترثى أباها :

قالوا قتلنا دُرَيْدا قلت قد صدَقوا ... فظل دمعى على السِّرْبال ينحدرُ[3]

لولا الذى قهر الأقوامَ كلهمُ ... رأتْ سُليمٌ وكعبٌ كيف يأتمرُ[4]

---

(١) العجان : ما بين المصية والدبر .

(٢) ابن هشام : عمرة

(٣) السربال : القميص

(٤) ت : نأتمر

[غزوة أوطاس]

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى آثار من توجّــه قِبَل أوطاس أبا عامر الأشعرى فأدرك بعضَ المنهزمة فناوشوه القتــال فرُمى بسهم فقتِلَ فأخـــذ الراية أبو موسى الأشعرى ففتح الله عليه وهزمهم الله .

ويزعمون أن سلمة بن دُرَيْد هو الذى رمى أبا عامر .

وذكر ابن هشام عمن يثق به أنه أبا عامر الأشعرى لقى يوم أوْطاس عشرة إخوة من المشركين ، فحمل عليه أحدُهم فحمل عليه أبو عامر وهو يدعوه إلى الإسلام ويقول اللهم اشهد عليه . فقتله أبو عامر ثم حمل عليه آخر فحمل عليه أبو عامر وهو يدعوه إلى الإسلام ويقول : اللهم اشهد عليه . فقتله أبو عامر ثم جعلوا يحملون عليه رجلاً بعد رجل ويحمل أبو عامر ويقول ذلك حتى قتل تسعة وبقى العاشر ، فحمل على أبى عامر وحمل عليه أبو عامر وهو يدعوه إلى الإسلام ويقول : اللهم اشهد عليه . فقال الرجل : اللهم لا تَشْهد علىّ . فـكفّ عنه أبو عامر فأفلت ثم أسْلَمَ بعدُ فحسُن إسلامــه فـكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رآه قال : هذا شَريد أبى عامر .

ورمَى أبا عامر يومئذ ، فيما ذكر ابن هشام ، أخـــوان من بنى جُشَم بن معاوية فأصاب أحدُهما قلبه والآخر ركبته فقتلاه ، ووَلِىَ الناس أبو موسى الأشعرى فحمل عليهما فقتلهما .

وذكر ابن إسحق أن القتل استحرّ في بني نَصْر بن رئاب ، فزعموا أن عبد الله بن قيس الذي يقال له ابنُ العَوْراء وهو أحد بني وهب ابن رئاب قال : يارسول الله هلكتْ بنو رئاب فزعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : اللهم اجْبُرْ مصيبتهم

* * *

وخرج مالك بن عوف عند الهزيمة فوقف في فوارس من قومه على ثَنِيّة من الطريق وقال لأصحابه : قفوا حتى يمضي ضعفاؤكم وتَلْحق أخراكم. فوقف هنالك حتى مضى من كان لحق بهم من مُنْهزمة الناس .

قال ابن هشام : وبلغني أن خيلاً طلعت ومالك وأصحابه على الثنيّة فقال لأصحابه : ماذا ترون ؟ قالوا : نرى قوما واضعي رماحهم بين آذان خيلهم طويلةً بَوادُهم[1] . فقال : هؤلاء بنو سُلَيم ولا بأس عليكم منهم فلما أقبلوا سلكوا بطن الوادي ، ثم طلعت خيلٌ أخرى تتبعها فقال لأصحابه : ماذا ترون ، قالوا : نرى أقواماً عارضي أرماحهم أغفالا على خيلهم . قال : هؤلاء الأوس والخزرج ولا بأس عليكم منهم ، فلما انتهوا إلى أصل الثنية سلكوا طريق بني سلَيم ثم اطلع فارسٌ فقال لأصحابه : ماذا ترون ؟ قالوا : نرى فارسا طويل البادّ واضعا رمحه على عاتقه عاصباً رأسه بملاءة حمراء . فقال : هذا الزبير بن العوّام وأحلف باللات ليخالطنكم فاثبتوا له . فلما انتهى الزبير إلى أصل الثنية أبصر القوم فصمد لهم فلم يزل يطاعنهم حتى أزاحهم عنها .

---

(١) كذا والبواد : جمع باد ، وهو باطن الفخذ .

[أخت الرسول من الرضاعة]

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ : إن قدرتم على بِجَاد ، رجل من بنى سعد بن بكر ، فلا يُفْلِتنكم وكان قد أحدَث حدثا . فلما ظفر به المسلمون ساقوه وأهلَه وساقوا معه الشَّيماء بنت الحارث بن عبد العُزّى أخت رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرضاعة ، فعَنُفوا عليها فى السِّيَاق فقالت للمسلمين : تعلَّموا والله أنى لأخت صاحبكم من الرضاعة . فلم يصدِّقوها حتى أتوا بها النبى صلى الله عليه وسلم فلما انتهوا بها إليه قالت : يارسول الله إنى أختك . قال : وما علامة هذا ؟ قالت : عَضَّة عضَضْتنيها فى ظهرى وأنا مُتَوَرِّكتُك فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم العلامة فبسط لها رداءه فأجلسها عليه وخيَّرها وقال : إذا أحببتِ فعندى مُحَبَّةً مكرّمة وإن أحببت أن أمتعك وترجعى إلى قومك فعلتُ .

قالت : بل تمتعنى وتردنى إلى قومى . فمتعها رسول الله صلى الله عليه وسلم وردها إلى قومها . فزعمت بنو سعد أنه أعطاها غلاما يقال له مكحول وجارية فزوجت أحدهما الآخر فلم يزل فيهم من نسلهما بقية .

[ما نزل من القرآن]

وأنزل الله تبارك وتعالى فى يوم حنين : « لقد نصركم الله فى مواطن

كثيرة ويوم حُنَيْن إذ أعْجبتكم كثرتكم فلم تُغْنِ عنكم شيئاً وضاقتْ عليكم الأرضُ بما رَحُبت ثم ولّيتم مُدْبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم ترَوْها وعذّب الذين كفروا وذلك جَزاء الكافرين[1] » .

[الشهداء]

واستشهد من المسلمين يوم حنين من قريش ثم من بنى هاشم : أيمن ابن عُبَيد مولاهم . ومن بنى أسد بن عبد العُزّى يزيد بن زَمْعة بن الأسود ابن الأسود بن المطلب ، جمح به فرس يقال له الجناح فقتل .

ومن الأنصار : سُرَاقة بن الحارث العَجْلانى . ومن الأشعريين أبو عامر الأشعرى .

* * *

ثم جمعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا حُنين وأموالها فأمر بها إلى الجِعْرانة فحبست بها حتى أدركها هنالك مُنْصرَفَه عن الطائف على ما يذكر بعد إن شاء الله تعالى .

[ما قيل من الشعر]

وقال عباس بن مِرْداس السُّلَمى فى يوم حنين :

---

(١) سورة التوبة ٢٥ ، ٢٦ .

عَفا مِجْدلٌ من أهله فتَالعُ فمِطْلاَ أريكٍ قد خلاَ فالمصانعُ[1]

ديارٌ لنـا ياجُمْلُ إذ جُلُّ عيشنا رَخِيٌّ وصَرْفُ الدهر للحيِّ جامعُ

حُبَيِّبـةُ ألْوَتْ بهـا غُرْبةُ النَّوَى

لَبَيْنٍ فهل ماضٍ من العيش راجـعُ

فإن تَبْتغِى[2] الكفار غـير مَلُومةٍ

فإنى وزيرٌ للنبيِّ وتابـعُ

دعانا إليـه خـيرُ وَفْدٍ علمتَم[3]

خُزَيْمـةُ والمرَّار منهم وواسعُ

فجئنا بألفٍ من سُلَيْم عليهم

لَبُوس لهم من نَسْج داود رائـعُ

نبايعـه بالأخشَبَيْن وإنمـا يد الله بين الأخشبين نبايعُ

فجسْنا مـع المهـدىّ مكة عَنْوةً

بأسيافنا والنَّقْـع كابٍ وساطـعُ[4]

علانيةً والخيل يَغْشى متونهـا

حَميمٌ وآنٌ من دم الجـوفِ ناقـعُ

(١) مجدل ومتالع : موضعان . والمطلا : يقصر ويمد : مسيل ضيق من الأرض . أو الأرض السهلة . وأريك : واد .

(٢) ابن هشام : فإن تبتغى . وفى ت : فإن يتبع . وما أثبته من ط .

(٣) كذا فى ط . وفى ت وابن هشام : علمتهم .

(٤) النقع : الغبار . والكابى : العالى . والساطع : المنتشر .

وَيومَ حُنَيْنٍ حين سارت هَوازنٌ
إلينا وضاقت بالنفوس الأضالعُ

صَبَرْنا مع الضَّحاكِ[1] لا يستفزُّنا
لواء كخُذْروف[2] السحابة لامعُ

عشية ضحّاك بن سفيان مُعْتصٍ[3]
بسيف رسول الله والموتُ كانعٌ[4]

نَذُود أخانا عن أخينا ولو نرَى
مِصالا لكنّا الأقربين نُتابعُ[5]

ولكنّ دِينَ الله دينُ محمد
رضينا به فيه الهُدَى والشرائعُ

أقام به بعدَ الضلالة أمْرنا
وليس لأمرٍ حمَّه الله دافعُ

* * *

---

(١) الضحاك : من أسماء الرسول صلى الله عليه وسلم ، سمى به لكثرة تبسمه .

(٢) الخذروف . برق لامع فى السحاب .

(٣) ت : معتص . عرفة . والمعتصى : الضارب .

(٤) الكانع : القريب .

(٥) يريد أنه من بنى سليم ، وسليم من قيس كما أن هوازن من قيس ، والمصال . مفعل من الصولة .

وقال عباس أيضا :

تقطَّع باقى وَصْلِ أمِّ مؤمِّل
بعاقِبَـةٍ واستبدلتْ نيَّةً خَلْفـا[1]

وقد حلفَتْ بالله لا تقطع النَّوى[2]
فما صدَقتْ فيـه ولا برَّتِ الحَلْفَا

خُفَافِيَّـةٌ بَطْنَ العَقِيق مَصِيفُهـا
وتحتـلُّ فى البـادِين وَجْرة[3] فالعُرْفَا

فإن تَتْبع الكفـارَ أمُّ مؤمّل
فقـد زَوّدَتْ قلبى على نأيها شَغْفَا

وسوف يُنَبِّيهـا الخبيرُ بأننـا
أَبَيْنا ولم نطلب سِوَى ربنا حَلْفَا

وإنا مـع الهـادى النبىِّ محمـد
وفينا ولم نستوفها[4] معشرٌ ألْفَا

بفتيـان صِـدْق من سُلَيْم أعزة
أطاعوا فما يَعْصون من أمره حَرْفَا

---

(١) نية : من النوى وهو البعد عنه .

(٢) ت : لا تقطع القوى . محرفة .

(٣) ت : رجوة . محرفة . والخفافية : نسبة إلى خفاف ، حى من سليم . والبادون المقيمون فى البادية . ووجرة والعرف : موضعان .

(٤) ابن هشام وابن كثير : ولم يستوفها .

خفَافٌ وَذَكْوان وعَوْف تخالهم
مَصَاعب زافَتْ في طَرُوقتها كُلْفَا[1]

كأن النَّسِيجَ الشُّهْبَ والبِيضُ مُلْبَس
أسوداً تلاقت في مَرَاصدها غُضْفَا[2]

بنا عَزَّ دين الله غير تَنَحُّل
وزِدْنا على الحقِّ الذي معه ضِعْفَا

بمكة إذ جئنا كأن لواءنا
عُقَاب أرادت بعد تحليقها خَطْفَا

على شخّص الأبصار تحسب بينها
إذا هي جالت في مواردها عزْفَا[3]

غداة وطِئْنا المشركين ولم نجدْ
لأمر رسول الله عَدْلاً ولا صَرْفَا

بمُعْتَرَكٍ لا يَسْمع القوم وَسْطه
لنا زَجْمةً إلا التذامر والنَّقْفَا[4]

---

(١) المصاعب : الفحول وزافت : تبخترت في مشيها والطروقة الناقة التي بلغت أن يطرقها الفحل والكلف : جمع كلفاء وهي الناقة التي كلفت حمرتها فلم تصف ومعنى البيت على هذا مضطرب

(٢) الغضف : المسترخية أجفانها على أعينها غضباً وكبراً .

(٣) كذا في ط وفي ابن هشام : مراودها عزفاً : وفي ت غرفا .

(٤) الزجمة : النبسة بكلمة . والنقف : كسر الهامة عن الدماغ أو ضربها أشد الضرب.

بِبِيضٍ تُطِيرُ الهامَ عن مُستقرِّها
وتقطفُ أعناقَ الكُماةِ بها قَطْفا

فكائنْ تركنا من قتيلٍ مُلَحَّبٍ[1]
وأرملةٍ تدعو على بَعْلها لَهْفا

رضا اللهِ ننْوِي لارضا الناسِ نبتغي
وللهِ مايَبْدُو جميعاً وما يَخْفَى

وقال عباس [بن مرداس[2]] أيضاً :

مابالُ عينيكَ فيها عائرٌ سَهِرُ
مثلُ الحَماطةِ أغْضَى فوقَها الشُّفُرُ[3]

عينٌ تأوَّبَها من شَجْوِها أرَقٌ
فالماءُ يَغْمُرُها طوراً وينحدرُ

كأنه نَظْمُ دُرٍّ عندَ ناظِمِه
تقطَّعَ السِّلْكُ منه فهو مُنْتَثِرُ

مابعدَ منزلِ من ترجو مودتَه
ومن أتى دونَه الصِّمانُ فالحَفَرُ[4]

دَعْ ماتقدَّم من عهدِ الشبابِ فقد
ولَّى الشبابُ وزارَ الشيبُ والزَّعَرُ[5]

---

(١) ملحب : مقطع .

(٢) من ت

(٣) العائر : كل ما أعل العين والحماطة : عشب خشن المس أو تين الذرة . والشفر أصل منبت الشعر فى الجفن

(٤) الصمان والحفر : موضعان

(٥) الزعر : قلة الشعر

واذكر بــــلاء سُلَيم في مَواطنها
وفي سُلَيم لأهــل الفخر مفتخَرُ

قومٌ همُ نصروا الرحمن واتبعوا
دِينَ الرسول وأمرُ النــاس مُشْتجِرُ

الضاربون جنودَ الشّرك ضـــاحية
ببطن مـــكة والأرواح تُبْتدرُ

حتى رفعنا وقتــلاهم كأنهمُ
نخلٌ بظاهرة البطحـــاء مُنْقعرُ

ونحن يوم حنين كان مَشْهدنا
للدين عِزًّا وعنـــد الله مُدّخَرُ[1]

إذ نَرْكب الموتَ مُخْضرا بطائنــه
والخيل ينجاب عنها ساطــع كدرُ

تحت اللوامع[2] والضحــاك يقدمنا
كما مشى الليثُ في غاباته الخدرُ[3]

في مَأزِق من مَجرّ الحرْب كَلْكلها
تكاد تأفل منــه الشمسُ والقمرُ

وقد صــبرنا بأوْطاس أسنتنــا
لله ننصر من شئنا وننتصرُ

---

(١) سقط من ت .
(٢) كذا بالأصل وفي ابن هشام وابن كثير : تحت اللواء مع الضحاك يقدمنا .
(٣) الخدر : الداخل في خدره .

حتى تأوّب أقوامٌ منـــازلهم
لو لا المليك ولولا نحن ما صدروا
فـما ترى معشراً قلُّوا ولا كثروا
إلا قد أصبح منا فيهم أثرُ(١)
وقال عباس بن مرداس أيضاً رضى الله عنه :

يا أيها الرجل الذى تَهْوِى به
ووَجْناء مُجْمرة المنـاسم عِرمسُ(٢)
إمّا أتيت على النبىّ فقل له
حقّاً عليك إذا اطمأن المجلسُ
يا خير من ركب المطىّ ومن مشى
فوق التراب إذا تُمـدّ الأنفسُ
إنا وفينا بالذى عاهَدْتنـا
والخيل تُقْدَع بالـكماة وتُضرسُ(٣)
إذ سال من أفنـــاء بُهْثة كلها
جَمْع تظل به المخارم تَرْجُسُ(٤)

---

(٩) من ت .
(١٠) الوجناء : البارزة الوجنات ، والمناسم : أطراف خف البعير والمجمرة : المستوية والعرمس : الناقة الشابة .
(١١) تقدع : تـكبح وتضرس : تجرح .
(١) بهثة : حى من سليم والمخارم : الطرق فى الجبال . وترجس : تهتز .
(٢) الأشوس : المتـكبر .
(٣) الدخال : نسج الدرع .
(٤) العرندس : القوى

حتى صبَحْنا أهلَ مكة فَيْلقاً
شهباء يقدمها الهمام الأشوسُ [٥]

من كل أغلب من سُلَيم فوقه
بيضاء مُحْكمة الدخال وقونسُ [٢]

وعلى حُنَين قد وفى من جمعنا
ألفٌ أمِدَّ به الرسولُ عَرَنْدسُ [٣]

كانوا أمام المؤمنين دَرِيئة
والشمس يومئذ عليهم أشمسُ [٤]

نمضي ويَحْرُسنا الإله بحفظه
والله ليس بضائع من يحرُسُ

ولقد حُبِسْنا بالمناقب مَحْبِساً
رضى الإلهُ بهم فنعم المحبسُ [٥]

وغداة أوْطاس شَدَدْنا شدّة
كفت العدوّ وقيل منها يحبسُ [٧]

تدعو هوازنُ بالإخاءة [٨] بيننا
ثديٌ تمدُّ به هوازن أيبَسُ

---

(٥) الدريئة : الكتيبة المدافعة ورواية ابن هشام : عليهم أشمس .

(٦) المناقب : طريق الطائف من مكة ورواية ابن هشام رضى الإله به .

(٧) ابن هشام : يا : احبسوا.

(٨) ت : بالإخاوة .

حتى تركنا جمعهم وكأنه
عَيْر تعاقبه السِّبــاعُ مُفَرَّسُ

* * *

وقال عباس بن مِرْداس أيضا :

نَصَرْنا رسولَ الله من غضب له
بألف كَمِىٍّ لا تُعَدُّ حَوَاسِرُهْ

حملنا له فى عامل الرُّمح رايةً
يَذُود بها فى حَوْمة الموت ناصرُهْ

ونحن خضبناهــا دماً فهو لونهــا
غــداة حُنَيْن يوم صَفوان شاجِرُهْ

وكنّا على الإســلام مَيمنــةً له
وكان لنا عَقْــدُ اللواء وشاهرُهْ

وكنا له يوم الجنود بِطانةً
يُشَاورنا فى أمره ونُشَــــاوره

دعانا فسمّانا الشِّعار مقــدَّما
وكنا له عَوْنا على من يُنَاكره

جزى الله خيراً من نبىٍّ محمداً
وأيّده بالنصر والله ناصره

غزوة الطائف

ولما قدم فَلُّ ثقيف الطائفَ أغلقوا عليهم أبواب مدينتها وصنعوا الصنائع للقتال ، ولم يشهد حُنَيْناً ولا الطائف[1] عروةُ بن مسعود ولا غَيْلان بن سلَمَة كانا بجُرَش يتعلمـان صنعـة الدبابات والمجانيق والضُّبُور[2] .

ثم سار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف حين فرغ من حنين ، فقال كعب بن مالك حين أجمع رسولُ الله صلى الله عليه وسلم السَّير إليها :

قضَيْنا من تِهامـة كلّ رَيْب
وخيبر ثم أجْمَمْنـا السيوفا

نخيّرهـا ولو نطقت لقالت
قواطعهن : دَوْساً أو ثقيفـا

فلستُ لحاضن[3] إن لم تَرَوْها
بساحـة داركم منّا ألوفا

---

(١) ابن هشام : ولا حصار الطائف .

(٢) الضبور : الدبابات التي تقرب للحصون لتنقب من تحتها .

(٣) لحاضن : لأم تحضن ولدها ، وذلك كناية عن الشرف و النسب .
قال أبو ذر : وأصله : لحاصن — بالصاد — وهي المرأة العفيفة كأنه يقول : لست لرشدة .

وننتزع العروش ببطن وجّ
وتصبح دوركم منا خلوفا

ويأتيكم لنا سَرَعان خيل
يغادر خَلْفه جمعا كثيفا

إذا نزلوا بساحتكم سمعتم
لها مما أناخ بها رَجيفا

بأيديهم قَوَاضب مُرْهَفات
يُزِرْن المصْطلين بها الحتوفا

كأمثال العقائق أخلصتْها
قيونُ الهند لم تُضْرب كتيفا[1]

تخال جَدِيّة الأبطال فيها
غداة الرَّوْع جادِيًّا مَدُوفا[2]

أجِدّهم أليس لهم نصيحٌ
من الأقوام كان بنا عَريفا

يخبِّرهم بأنا قد جَمَعْنا
عِتاق الخيل والنُّجُبَ الطُّروفا[3]

وأنّا قد أتيناهم بزَحْفٍ
يحيط بسُور حصنهم صُفُوفا

---

(١) الكتيف : الضبة . قال السهيلي : وهي صفيحة صغيرة .

(٢) الجدية : الدم السائل . والجادي : الزعفران . والدوف : المبلول . ورواية ابن هشام : غداة الزحف .

(٣) الطروف : الكرام من الخيل .

رئيسهم النبيّ وكان صُلْبـاً
نقيّ القلب مُصْطبرا عَزُوفـاً

رشيـد الأمر ذا حُـكْمٍ وعِلْمٍ
وحِلْمٍ لم يكن نَزِقاً خفيفـاً

نطيـع نبيـنـا ونطيـع ربّاً
هو الرحمن كان بنا رءوفا

فإن تُلقوا إلينـا السّلم نقبل
ونجعلـكم لنا عَضداً وريفاً[1]

وإن تأبوا نُجاهدكم ونَصْبِر
ولايك أمْرنا رَعِشاً ضعيفاً

نُجـالد ما بقينـا أو تنيبوا
إلى الإسلام إذعاناً مُضيفاً[2]

نجاهـد لا نُبـالي ما لقينـا
أأهْلـكنا التّـلاد أم الطّريفاً[3]

وكم من مَعْشَرٍ ألَبُوا علينـا
صَميم الجِـذْم منهم والحليفاً[4]

أتونا لا يرون لهم كفـاءاً
فجدّعنا المسامـــــعَ والأنوفا

---

(٤) الريف : الخصب . وأصل الكلمة : وريفا : ممتداً واسعاً .

(١) مضيفا : ملجئا .

(٢) التلاد : القديم . والطريف : الجديد .

(٣) الجذم : الأصل .

بكل مهنّد لَيْن صَقِيل
نَسُوقهمُ بها سَوْقا عنيفا
لأمر الله والإسلام حتى
يقوم الدين معتدلا حَنيفا
وتُنسى اللاتُ والعُزّى ووَدّ
ونَسْلبها القلائد والشُّنوفا[1]
فأمسَوْا قد أقرّوا واطمأنوا
ومن لا يمتنع يَقْبل خُسوفا

* * *

وسلك رسول الله صلى الله عليه وسلم على نخلة اليمانية ، وانتهى إلى بُحْرة الرُّغاء فابتنى بها مسجداً فصلّى فيه وأقاد فيه يومئذ بدم رجل من هذيل قتله رجل من بنى ليث فقتله به ، وهو أول دم أُقيد به فى الإسلام ، وأمر فى طريقه بحصن مالك بن عوف فهدِم . ثم سلك فى طريق فسأل عن اسمها فقيل له الضيِّقة فقال بل هى اليسرى . ثم خرج حتى نزل تحت سِدْرة يقال لها الصادرة قريبا من مال رجل من ثقيف فأرسل إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : إما أن تخرج وإما أن نخرب عليك حائطك . فأبى أن يخرج فأمر بإخرابه .

ثم مضى حتى نزل قريبا من الطائف فضرب به عسكره ، فقُتل ناسٌ من أصحابه بالنَّبْل ، وذلك أن العسكر اقترب من حائط الطائف ، فكانت النبل تنالهم ، ولم يَقْدر المسلمون على أن يدخلوا حائطهم أغلقوه دونهم .

فلما أصيب أولئك النفر من أصحابه بالنَّبْل وضع عسكره عند مسجده الذى

---

(٤) الشنوف : جمع شنف وهو القرط .

بالطائف اليوم فحاصرهم بضعا وعشرين ليلة . وقيل ابضع عشرة ليلة ومعه امرأتان من نسائه ، إحداهما أم سَلَمة ، فضرب لهما قبتين ثم صَلّى بينهما ، فلما أسلمت ثقيف بنى عَمْرُو بن أمية بن وهب بن مُعَتّب بن مالك على مُصَلاّه ذلك مسجد . وكانت فيه سارية فيما يزعمون لا تطلع الشمس عليها يوما من الدهر إلا سُمِع لها نقيض .

فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقاتلهم قتالا شديداً ، وتراموْا بالنَّبْل ، ورماهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمنجنيق فيما ذكر ابن هشام . قال : وهو أول من رمى به فى الإسلام إذ ذاك .

حتى إذا كان يومُ الشَّدْخة عند جدار الطائف دخل نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت دبَّابة ثم زحفوا بها إلى جدار الطائف ليحرقوه ، فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد مُحماة بالنار ، فخرجوا من تحتها فرمتهم بالنَّبْل فقتلوا منهم رجالا ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطع أعناب ثقيف فوقع الناس فيها يقطعون ، وتقدم أبو سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة إلى الطائف فناديَا ثقيفاً أن آمِنونا حتى نكلمكم فآمَنُوهما . فدعَوْا نساءاً من قريش وبنى كنانة منهن ابنة أبى سفيان ليخرجْن إليهما وهما يخافان عليهم السِّباء[1] فأَبَيْن ، فلما أَبَيْن قال لهما الأسود بن مسعود : يا أبا سفيان ويا مغيرة ألا أدلكما على خير مما جئتما له ؟ إن مال بنى الأسود حيث علمتما ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم نازلا بينه وبين الطائف بواد يقال له العَقِيق ، إنه ليس بالطائف مال أبعدَ رِشاء[2] ولا أشد مؤنة ولا أبعد عِمارة

---

(١) زاد ابن هشام : إذا فتح الحصن .

(٢) الرشاء : الحبل ، وهى كناية عن سعته .

من مال بنى الأسود وإن محمدا إن قطعه لم يَعمر أبدا ، فكلماه فليأخذه لنفسه أو ليدَعْه لله وللرّحم فإن بيننا وبينه من القرابة مالا يجهل .

فزعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تركه لهم. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما ذكر لأبى بكر الصديق رضى الله عنه وهو مُحاصر ثقيفاً : يا أبا بكر إنى رأيت أنى أهديتُ إلى قَعْبة[1] مملوءة زبدا فنقرها ديك فهراق ما فيها . فقال : ما أظن أن تدرك منهم يومك هذا ما تريد . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وأنا لا أرى ذلك .

ثم إن خُويلة بنت حكيم السلمية ، امرأة عثمان بن مَظْعون قالت : يارسول الله أعطنى إن فتح الله عليك الطائف حُلِىّ بادية بنت غَيْلان أو حُلِىّ الفارعة ابنة عقيل . وكانتا من أحْلى نساء ثقيف . فذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لها : وإن كان لم يُؤْذَن فى ثقيف يا خُوَيلة ؟ فخرجت خويلة فذكرت ذلك لعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فدخل عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله ماحديثٌ حدّثتنيه خويلة ، زعمتْ أنك قلته ؟ قال: قد قلته . قال : أو ما أُذن فيهم يارسول الله ؟ قال : لا . قال: أفلا أُؤذِّن بالرحيل ؟ قال : بلى فأذَّن عمر بالرحيل فلما استقلّ الناسُ نادى سعيد بن عبيد: ألا إن الحى مقيم . يقول عيينة بن حصن : أجل والله مَجَدَةً كِرَاماً ! فقال له رجل من المسلمين: قاتلك الله يا عيينة ؟ أتمدح المشركين بالامتناع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد جئت تنصره ؟ قال : إنى والله ما جئت لأقاتل ثقيفاً معكم ، ولكنى أردت أن يفتح محمد الطائف فأصيب من ثقيف جارية

(١) القعب : القدح الضخم .

أنطئها لعلها تلد لي رجلاً فإن ثقيفاً قومٌ مناكير[1] .

ونزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في إقامته عليهم عبيدٌ لهم فأسلموا فأعتقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما أسلم أهل الطائف تكلم نفر منهم في أولئك العبيد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا ، أولئك عتقاء الله .

* * *

واستشهد بالطائف من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنا عشر رجلا ، سبعة من قريش وأربعة من الأنصار ورجل من بني ليث . ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الطائف حتى نزل الجِعْرانة وإليها كان قدم سبي هوازن وأموالهم ، وقال له رجل من أصحابه يوم ظعَن عن ثقيف : يارسول الله ادع عليهم فقال : اللهم اهد ثقيفاً وائت بهم[2] .

[قدوم وفد هوازن]

ثم أتاه وفد هَوازن بالجعرانة ، وقد أسلموا ، وكان معه من سَبْيِهم ستة آلاف من الذَّرارى والنساء ومن الإبل والشاء ما لا يُدْرى ما عِدَّته ، فقالوا : يا رسول الله إنا أهلٌ وعشيرة وقد أصابنا من البلاء ما لم يخفَ عليك فامنن علينا منَّ الله عليك ، وقام رجل منهم من سعد بن بكر يقال له زهير[3] يكنى بأبي صُرَد : فقال : يا رسول الله إنما في الحظائر عمّاتك وخالاتك وحَوَاضنك اللاتى كن تَكْفُلْنك ، ولو أنا ملَحْنا[4] للحارث بن أبي شِمر

---

(١) المناكير : ذوو الدهاء . هذا وقد ذكر ابن كثير عن البيهقي أن عيينة بن حصن استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في أن يأتي أهل الطائف فيدعوهم إلى الإسلام . فأذن له ، فجاءهم فأمرهم بالثبات في حصنهم وقال : لا يهولنكم قطع ما قطع من الأشجار في كلام طويل . سيرة ابن كثير ٣/٦٠٩ .

(٢) وقد روى الترمذي في صحيحه عن جابر أن المسلمين قالوا : يا رسول الله أحرقتنا نبال ثقيف فادع الله عليهم . فقال : « اللهم اهد ثقيفا » . ثم قال : هذا حديث حسن غريب .

(٣) ابن كثير : زهير بن صرد أبو صرد .

(٤) ملحنا : أرضعنا .

أو للنعمان بن المنذر . ثم نزلا[1] منا بمثل ما نزلت به رجَوْنا عطفه ، وعائدته علينا ، وأنت خير المكفولين . ثم أنشأ يقول[2] :

امنن علينا رسول الله فى كرم فإنك المرء نرجوه وننتظرُ
امنن على بيضة قد عاقها قَدَر مفرّق شملها فى دهرها غِيَرُ
أبقت لنا الحربُ هُتّافاً على حَزن على قلوبهم الغمّاء والغَمَرُ[3]
إن لم تَدَارَكهم نعماء تنشرها يا أرجح الناس حِلماً حين يختبرُ
امنن على نسوة قد كنت ترضعها إذ فوك تملأه من مخضها الدِّرَرُ
إذ أنت طفل صغير كنت ترضعها وإذ يزينك ما تأتى وما تذرُ
لا تجعلنا كمن شالت نعامته واستبق منا فإنا معشر زُهرُ
إنا لنشكر للنعمى وقد كُفرتْ[4] وعندنا بعد هذا اليوم مُدَّخَرُ
فألبس العفوَ من قد كنت ترضعه من أمهاتك إن العفو يشتهرُ
إنا نؤمّل عفواً منك تُلْبسه هذى البرية أن تعفو وتنتصر
فاعفُ عفا الله عما أنت راهبُه يوم القيامة إذ يُهدَى لك الظَّفَرُ

فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم » ؟ فقالوا : يا رسول الله خيّرتنا بين أموالنا وأحسابنا ، بل تردّ إلينا نساءنا وأبناءنا فهو أحب إلينا . فقال لهم : « أمّا ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم وإذا أنا صليت الظهر بالناس فقوموا فقولوا : إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله فى أبنائنا ونسائنا . فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم » .

---

(١) ابن هشام : ثم نزل .
(٢) لم يذكر ابن هشام هذا الشعر .
(٣) الغمر : بالتحريك : الحقد .
(٤) ابن كثير : إنا لنشكر آلاء وإن كفرت .

فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر قاموا فتكلموا بالذى أمرهم به ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمّا ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم . فقال المهاجرون : وما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وقالت الأنصار : ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال الأقرع بن حابس : أمّا أنا وبنو تميم فلا . وقال عُيَيْنة بن حِصْن : أمّا أنا وبنو فَزارة فلا .

وقال عباس بن مِرْداس : أمّا أنا وبنو سُلَيْم فلا . فقالت بنو سليم : بلى ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال عباس : وهّنتمونى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمّا من تمسّك منكم بحقه من هذا السَّبْىِ فله بكل إنسان ست فرائض من أول شىء أصيبه فردُّوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم ».

وكان عُيَيْنة بن حصن أخذ عجوزا من عجائزهم وقال حين أخذها : أرى عجوزا إنّى لأحسب أن لها فى الحىّ نسباً وعسى أن يَعظم فِداؤها . فلما ردّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم السَّبايا بست فرائض أبى أن يردّها ، فقال له زهير أبو صُرَد[1] : خذها عنك فوالله ما فُوها ببارد ولا ثَدْيها بناهد ولا بطنها بوالد ولا زوجُها بواجد ولا دَرّها بماكِد[2]. فردّها بست فرائض حين قال له زهير ماقال .

* * *

---

(١) ابن كثير : ابن صرد .

(٢) الماكد : الغزير .

وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد هَوازن : ما فعل مالك بن عوف ؟ فقالوا : هو بالطائف مع ثَقِيف . فقال لهم : أخبروا مالكاً أنه إن أتانى مُسلما رددْتُ عليه أهلَه وماله وأعطيته مائةً من الإبل . فأُتى مالك بذلك فخاف ثقيفا أن يعلموا بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيحبسوه ، فأمر براحلته فهيئت له وأمر بفرس له فأتى به بالطائف ، فخرج ليلا على فرسه حتى أتى راحلته حيث أمر بها أن تُحْبس فركبها فلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم فأدركه بالجِعْرانة أو بمكة ، فردَّ عليه أهله وماله وأعطاه مائة من الإبل وأسلم فحسن إسلامه وقال :

ما إن رأيتُ ولا سمعت بمثله ... فى الناس كلهم بمثل محمدِ

أوْفَى وأعطَى للجزِيل إذا اجتـدى ... ومتى تشأ يُخْـبرك عمّا فى غَد

وإذا الكتيبة عرّدتْ أنيابُهـا ... بالسَّمْهرى وضَرْبِ كلِّ مهنَّـدِ[1]

فكأنه ليثٌ على أشباله ... وسط الهَباءة خادِرٌ فى مَرْصَدِ[2]

فاستعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم على من أسلم من قومه فكان يقاتل بهم ثَقِيفا لا يخرج لهم سَرْح إلا أغار عليه حتى ضيقٌ عليهم فقال أبو مِحْجَن بن حبيب الثقفى[3] :

---

(١) عردت : اشتدت وضريت .

(٢) الهباءة : غبار الحرب . والخادر : المقيم فى عرينه .

(٣) أبو محجن بن حبيب بن عمرو بن عمير الثقفى ، والبيتان مع ثالث فى ابن هشام وفى تاريخ الطبرى ١٦٧٨ (ط أوربا) .

هابت الأعــــداء جانبنا ثم تغزونا بنــو سلمة

وأتانا مالكٌ بهـــم ناقضا للعهدِ والحرْمه

[قَسْم الغنائم]

ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من ردّ سبايا حنين إلى أهلها ركب واتبعه الناس يقولون : يارسول الله اقسم علينا فيئنا . الإبل والغنم ، حتى ألجأوه إلى شجرة فاختطفت عنه رداءه فقال: « ردُّوا علىّ ردائى أيها الناس فوالله إنه لوكان لكم بعدد شجر تهامة نعماً لقسمْته عليكم ثم ما ألفيتمونى بخيلا ولا جبانا ولا كذوبا » . ثم قام إلى جنب بعير فأخذ وبَرَةً من سنامه فرفعها ثم قال : « أيها الناس والله مالى من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخُمُس والخُمُس مردود عليكم فأدُّوا ، الخائط[1] والمِخْيَط ، فإن الغُلول يكون على أهله عارا وشنارا وناراً يوم القيامة » .

فجاء رجل من الأنصار بكُبَّة[2] من خيوط شعر فقال : يارسول الله أخذت هذه الكبة أعمل بها بَرْذعة بعير لى دَبِر[3] . فقال : أمّا نصيبى منها فلك . قال : أما إذ بلغت ذلك فلا حاجــة لى بها . ثم طرحها من يده .

ويروى أن عقيل بن أبى طالب دخل يوم حنين على امرأته فاطمة

---

(١) كذا وفى ابن هشام والطبرى : فأدوا الخياط والمخيط .

(٢) الكبة : الخيوط المجتمعة .

(٣) الدبر : المقروح .

بنت شيبة وسيفه متلطِّخ دماً فقالت : إنى قد عرفت أنك قد قاتلت فماذا أصبت من غنائم المشركين ؟ قال : دونك هذه الإبرة تخيطين ثيابك . فدفعها إليها فسمع منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من أخذ شيئا فليردّه حتى الخائط والمِخْيط . فرجع عقيل فقال : ما أرى إبرتك إلا قد ذهبت ! وأخذها فألقاها فى الغنائم .

* * *

وأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤلَّفة قلوبُهم ، وكانوا أشرافا من أشراف النـاس يتألَّفهم ويتألف بهم قومهم ، فأعطى أبا سفيان بن حَرْب وابنه معاوية وحكيم بن حِزَام والحارث بن كَلَدة ، والحارث بن هشام ، وسُهَيْل بن عمرو ، وحُوَيْطب بن عبد العُزّى وصَفْوان بن أمية ، وكل هؤلاء من أشراف قريش والأقرع بن حابس التميمى وعُيَيْنة بن حِصْن الفَزَارىّ ومالك بن عوف النَّصْرى ، كل واحد من هؤلاء المسلمين من قريش وغيرهم مائةً بعير . وأعطى دون المـائة رجالا من قريش منهم مَخْرمة بن نوفل وعُمَيْر بن وهب ، وأعطى سعيـــد بن يَرْبوع المخزومى وعَدِىّ بن قيس السَّهْمى خمسين خمسين ، وأعطى عبـاس بن مِرْداس أباعِر فسَخِطها[1] وقال يعاتب فيها النبىَّ صلى الله عليه وسلم :

كانت نِهَابًا تلافَيْتُهـا بكرِّى على المُهْر فى الأَجْرَعِ[2]

وإيقاظىَ القومَ[3] أن يرقدوا إذا هجَع النـــاسُ لم أهجَعِ

---

(١) الطبرى : فتسخطها .

(٢) النهاب : جمع نهب . والأجرع : الأرض ذات الحزونة .

(٣) ابن كثير : وإيقاظى الناس .

فأصبح نَهْبِى ونهب العُبَيْــــد بين عُيَيْنة والأقرعِ

وقد كنت فى الحرب ذا تُدْرَإٍ فلم أُعْطَ شيئًا ولم أمنعِ (١)

إلا أفائلَ أعطيتُهـــا عَدِيدَ قوائمه الأربعِ (٢)

وما كان حِصْن ولا حابس يفوقان مِرْداس فى مَجْمعِ

وما كنت دون امرئٍ منهما ومن تَضَع اليومَ لا يُرْفعِ

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذهبوا فاقطعوا عنى لسـانه . فأعطوه حتى رضى فـكان ذلك قطع لسانه .

وذكر ابن هشام أن عباسًا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنت القائل :

فأصبح نَهْبِى ونهب العبيد بين الأقــرع وعُيَيْنة

فقال أبو بكر : بين عيينة والأقرع . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هما واحد . فقال أبو بكر : أشهد أنك كما قال الله : « وَمَا عَلَّمْنَـاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِى لَهُ » .

وذكر ابن عُقْبة أن عباسًا لما أمر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بقطع لسانه فزع لها وقال : من لا يعرف أمر عباس يمثل به . فأتى به إلى الغنائم فقيل له : خذ منها ما شئت فقال عباس : إنما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقطع لسانى بالعطاء بعد أن تـكلمت . فتـكرّم أن يأخذ منها شيئًا فبعث إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بحُلّة فقبلها ولبسها .

وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم قائل من أصحابه : يا رسول الله :

---

(١) ذا تدرأ : ذا عناء ودفع .

(٢) الأفائل : الصغار من الإبل .

أعطيت عيينة بن حصن والأقرع بن حابس مائةً مائةً وتركت عُقَيل بن سُرَاقة الضَّمْرى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمَا والذى نفس محمد بيده لَجُعَيل بن سراقة خير من طلاَع الأرض كلهم مثل عيينة والأقرع ولكنى تألفتهما ليُسْلما ووَكَلْت جعيلَ بن سراقة إلى إسلامه » .

[ذو الخويصرة]

وجاء رجل من بنى تميم يقال له ذو الُخوَيْصرة فوقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يعطى الناس فقال : يا محمد قد رأيتُ ما صنعتَ فى هذا اليوم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أجل فكيف رأيت ؟ قال : لم أرك عَدَلْتَ . فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : ويحك ! إذا لم يكن العدل عندى فعند من يكون ؟ ! فقال عمر بن الخطاب ألاَ نقتله ؟ فقال : لا دعوه فإنه سيكون له شيعة يتعمقون فى الدِّين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهمُ من الرَّمية، يُنْظَر فى النَّصْل فلا يوجد شيء، ثم فى القِدْح فلا يوجد شيء، ثم فى الفَوق[1] فلا يوجد شيء سبقَ الفَرْث والدم .

[الأنصار والغنائم]

ولما أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أعطى فى قريش وفى قبائل العرب ولم يعط الأنصار شيئًا وجدوا فى أنفسهم حتى كثرت منهم القالة وحتى قال قائلهم : لقى والله رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه .

وذكر ابن هشام أن حسان بن ثابت قال يعاتبه فى ذلك :

زاد الهمومَ فماء العين مُنْحدر سحًّا إذا حَفَلَتْه عَبْرَةٌ دِرَرُ[2]

---

(١) الفوق : موضع الوتر من السهم .

(٢) ابن هشام : زادت هموم . والسح : الصب . وحفلته : جمعته .

وَجْدًا بشمّاء إذ شمّاء بَهْكنةٌ هَيْفَاء لا ذَنَن فيها ولا خَوَرُ(١)

دَعْ عنك شمّاء إذ كانت مودتها نَزْرًا وشَرُّ وصال الواصلِ النَّزِرُ(٢)

وائت الرسولَ فقل ياخيرَ مُؤْتمن المؤمنين إذا ما عُدِّد البَشَرُ

علاَم تُدْعَى سُلَيم وهي نازحة قُدَّام قومٍ هُمُ آووا وهُمْ نَصَرُوا

سمَّاهمُ الله أنصارًا بِنَصْرهم

دِينَ الهدى وعَوانُ الحرب تستعر(٣)

وسارَعوا في سبيل الله واعترفوا للنائبات وما خافوا وما ضَجِروا(٤)

والناسُ إلْبٌ علينا فيك ليس لنا إلا السيوف وأطراف القَنا وزَرُ

نُجَالد الناسَ لا نُبْقي على أحدٍ ولا نضيِّع ما تُوحِي به السُّوَرُ

ولا تهرّ جُناة الحربِ نادينا ونحن حين تلظَّى نارُها سُعرُ(٥)

كما رددْنا ببدرٍ دون ما طلبوا أهلَ النفاق وفينا يَنْزِل الظَّفَرُ

ونحن جُنْدك يوم النَّعْف(٦) من أحدٍ

إذ حزّبَتْ بطَرًا أحزابها مُضَرُ

فما ونينا ولا خِمْنا(٧) وما خبروا

منّا عِثارا وكلُّ الناس قد عَثَرُوا

---

(١) البهكنة : الشابة الغضة . والذنن : القذر . والخور : الضعف .

(٢) النزر : القليل .

(٣) العوان : الحرب التي قوتل فيها مرة بعد أخرى .

(٤) اعترفوا : صبروا . وفي ابن كثير : واعترضوا للنائبات .

(٥) تهر : تكره . وجناة الحرب : أبطالها . والسعر : من يوقدون الحرب .

(٦) النعف : أسفل الجبل .

(٧) ابن هشام : وما خمنا . وخمنا : جبنا .

فدخل سعد بن عبادة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله إن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك لما صنعتَ فى هذا الفىء الذى أصبت به ، قسمت فى قومك وأعطيت عطايا عظاما فى قبائل العرب ولم يك فى هذا الحى من الأنصار منها شىء . قال : فأين أنت من ذلك ياسعد ؟ قال : يارسول الله ما أنا إلا من قومى[1] . قال : فاجمع لى قومَك فى هذه الحظيرة . فخرج سعد فجمع الأنصار فى تلك الحظيرة ، فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا وجاء آخرون فردّهم ، فلما اجتمعوا له أعْلمه سعدٌ بهم فأتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله وأثنى عليه بما هو له[2] ثم قال : «يامعشر الأنصار ماقالةٌ بلغَتنى عنكم وجِدَة[3] وجدتموها علىّ فى أنفسكم ؟ ألم آتكم ضُلّالًا فهداكم الله وعالةً فأغناكم الله وأعداء فألّف الله بين قلوبكم ؟ » قالوا : بل الله ورسوله أمَنّ وأفضل . ثم قال : ألا تجيبونى يامعشر الأنصار ؟ قالوا بماذا نجيبك يارسول الله ، لله ولرسوله المنُّ والفضل . فقال صلوات الله عليه : «أمَا والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصُدِّقتم : أتيتنا مكذَّبا فصدَّقناك ومخذولا فنصرناك وطريداً فآوَيْناك وعائلا فآسَيْناك ، أوجدتم يامعشر الأنصار فى أنفسكم فى لُعَاعة[4] من الدنيا تألَّفْتُ بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم ؟ ألا ترْضون يامعشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رِحالكم، فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنتُ امرأً من الأنصار ولو سلكَ النــاسُ شِعبًا

---

(١) ابن كثير : ما أنا إلا امرؤ من قومى .

(٢) ابن هشام وابن كثير : بما هو أهله .

(٣) كذا بالأصل وابن هشام ، وفى الطبرى : وموجدة . قال أبو ذر : الموجدة : العتاب وتروى : جدة .

(٤) اللعاعة : الجرعة من الشراب ، والكلأ الخفيف .

وسلكت الأنصار شِعباً لسلكتُ شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار » .

فبكى القومُ حتى أخضَلوا لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله صلى الله عليه وسلم قسْماً وحظّاً [1] . ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرقوا .

[عمرة الجعرانة]

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من الجعرانة مُعْتمراً ، وأمر ببقايا الفيء فحبس بمجنة بناحية [مَرّ] [2] الظَّهران ، فلما فرغ من عمرته انصرف راجعاً إلى المدينة واستخلف عتّاب بن أسيد على مكةَ وخلّف معه معاذَ بن جبل يفقّه الناس فى الدين ويعلمهم القرآن ، وأتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ببقايا الفيء .

ولما استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم عتّاباً على مكةَ رزقه فى كل يوم درهمًا ، فقام عتاب خطيبا فى الناس فقال : أيها الناس أجاع الله كبد من جاع على درهم ، فقد رزقنى رسول الله صلى الله عليه وسلم درهما كل يوم فليست بى حاجة إلى أحد .

وكانت عُمْرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذى القعدة ، وقدم المدينة فى بقيته أو فى أول ذى الحجة .

وحج الناسُ تلك السَّنة على ما كانت العرب تحجّ عليه وحجّ عتّاب بن أسيد بالمسلمين فيها وهى سنة ثمان .

---

(١) ابن كثير : رضينا بالله ربا ورسوله قسما .

(٢) من ابن هشام والطبرى .

وأقام أهلُ الطائف على شِرْكهم وامتناعهم فى طائفهم ما بين ذى القعدة إذ انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رمضان سنة تسع .

[إسلام كعب بن زهير]

ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سَفره هذا منصرفا عن الطائف كتب بُجَـيْر بن زُهَير بن أبى سُلْمى إلى أخيه كعب بن زُهَير يخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قَتل رجالاً بمكة ممن كان يهجوه ويؤذيه ، وأن من بقى من شعراء قريش ابن الزِّبَعْرى وهُبَيْرة بن أبى وهب قد هربوا فى كل وجه ، فإن كانت لك فى نفسك حاجة فطِرْ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه لا يقتل أحداً جاء تائباً إن أنت لم تفعل فانجُ إلى نجائك من الأرض .

فلما بلغ كعبا الكتابُ ضاقت به الأرض وأشفق على نفسه وأرجف به من كان فى حاضره من عدوِّه فقالوا : هو مقتول . فلما لم يجد من شىء بُدًّا قال قصيدته التى يمدح فيها رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ويذكر فيها خوفَه وإرجاف الوشاة به ، ثم خرج حتى قدم المدينة فنزل على رجل من جُهَيْنة كانت بينه وبينه معرفة ، فغدا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين صلى الصبح فصلى معه ثم أشار له إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: هذا رسول الله فقم إليه فاستأمنه . فذكر أنه قام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس إليه فوضع يده فى يده ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعرفه فقال : يارسول الله إنّ كعب بن زُهَيْر قد جاء ليستأمن منك تائبا مُسْلما فهل أنت قابلٌ منه إن أنا جئتك به ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم . قال : أنا يارسول الله كعب بن زهير ، فوثب عليه رجل من الأنصار فقال : يارسول الله دَعْنى وعدوَّ الله أضربْ عنقه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : دَعْه عنك فإنه

قد جاءنا تائبا نازعا . فغضب كعبٌ على الأنصار لما صنع به صاحبهم ومدَح المهاجرين دونهم إذ لم يتكلم فيه رجل منهم إلا بخير .

والقصيدة التي قالها كعب في ذلك وذكر أنه أنشدها رسولَ الله صلى الله عليه وسلم في المسجد :

بانَتْ سُعادُ فقَلْبي اليومَ مَتْبُـول
متيم عنـدها لم يُجْزَ مـكبولُ[1]

وما سعادُ غَداةَ البَيْنِ إذ برزَتْ[2]
إلاّ أغنُّ غَضيضُ الطرف مكحولُ

تجلو عوارضَ ذي ظَلْمٍ إذا ابتسمت
كأنه مُنْهَلٌ بالرّاح مَعْلولُ[3]

شُجَّت بذي شَبَمٍ من ماء مَحْنيةٍ
صافٍ بأبطح أضحَى وهو مشمولُ[4]

تَنفِي الرياحُ القذَى عنه وأفرطه
من صَوْب غادية بيضٌ يعاليـــلُ[5]

---

(١) ابن هشام : متيم إثرها . وفي ابن هشام وابن كثير : لم يفد مكبول . وبانت : بعدت . والمتبول : السقيم من الحب . والمكبول : المقيد .

(٢) ابن هشام وابن كثير : إذ رحلوا . والأغن : الظبي .

(٣) تجلوا : تكشف . والظلم : بريق الأسنان وبياضها . والراح : الخمر .

(٤) شجت : مزجت . والشبم : الشديد البرد . والمحنية : منعطف الوادي. والمشمول : الذي ضربته ريح شمال حتى برد .

(٥) أفرطه : سبق إليه . والصوب : المطر . والغادية : السحابة تمطر غدوة . واليعاليل : السحب البيض .

وَيلُمّهـــا خُلّةً[1] لو أنها صدَقَتْ
بوعدها أو لو أن النُّصح مقبولُ

لـكنها خُلّة قد سِيط من دمهـــا
فَجْع ووَلْع وإخْلاف وتبديلُ[2]

فـــا تدومُ على حالٍ تـكون بها
كما تلوّن في أثوابهـــا الغولُ

كانت مواعيد عُرْقوب لهـــا مثلاً
وما مواعيدهـا إلا الأباطيــلُ

فلا يَغُرّنْك ما منّتْ وما وعدت
إن الأمانيّ والأحلامَ تَضْـليلُ

أمسَتْ سعادُ بأرض لا تبلّغهـا
إلا العِتَـاقِ النّجيبــات المَراسيلُ

ولا يبلّغهـــــا إلا عُذافِرةٌ
فيها على الأَيْن إرقالٌ وتَبْغيلُ[3]

من كل نَضّاخة الذِّفْرَى إذا عَرِقتْ
عُرْضتهـا طامِس الأعلام مجهولُ[4]

---

(١) ابن هشام وابن كثير : فيالها خلة .

(٢) الخلة : الصحبة. وسيط : خالط . والفجع : الإصابة بالمكروه . والولع : الكذب.

(٣) العذافرة : العظيم الشديد من الإبل . والأين : التعب . والإرقال : الإسراع والتبغيل : ضرب من سير الإبل .

(٤) النضاخة : الغزيرة . والذفرى : العظم الشاخص خلف الأذن . وعرضتها : وجهتها . وطامس الأعلام : المتغير الذى لا يهتدى فيه .

ضخم مقلدها فعم مقيدها
في خلقها عن بنات الفحل تفضيل[(١)]

حرف أخوها أبوها من مهجنة
وعمها خالها قوداء شمليل[(٢)]

كأن أوب ذراعيها وقد عرقت
وقد تلفع بالقور العساقيل[(٣)]

أوب يدي شمطاء معولة
قامت فجاوبها نكد مثاكيل[(٤)]

نواحة رخوة الضبعين ليس لها
لما نعى بكرها الناعون معقول[(٥)]

تفرى اللبان بكفيها ومدرعها
مشقق عن تراقيها رعابيل[(٦)]

تمشي الغواة بجنبيها[(٧)] وقولهم
إنك يا ابن أبي سلمى لمقتول

---

(١) المقلد : موضع القلادة من العنق . والفعم : الممتلىء .

(٢) الحرف : الناقة الضامرة أو المطية . والقوداء : الشديدة العنق . والشمليل : السريعة .

(٣) الأوب : رجع القوائم في السير . والقور : جمع قارة وهو الجبل الصغير والعساقيل : السراب .

(٤) الشمطاء : التي خالطها الشيب . والمعولة : الصائحة بالبكاء . والنكد : جمع نكداء وهي التي لا يبقى لها ولد . والمثاكيل : جمع مثكلة وهي التي لزمها الثكل .

(٥) الرخوة : المسترخية . والضبع : العضد .

(٦) اللبان : الصدر . والمدرع : القميص . والرعابيل : الممزق .

(٧) ابن هشام وابن كثير : تسعى الغواة جنابيها .

وقال كلُّ صديق كنت آمله
لا أُلهينّك إنّى عنك مشغولُ
فقلت خلوا طريقى لا أبا لكم
فكل ما قدّر الرحمن مفعولُ
كل ابن أنثى وإن طالت سلامتُه
يوماً على آلةٍ حدباء محمولُ
نُبئت أن رسولَ الله أوْعدنى
والعفو عند رسولِ الله مأمولُ
مهلا هداك الذى أعطاك نافلة الـ قرآن فيها مواعيظٌ وتفصيلُ
لا تأخذنى بأقوال الوشاة ولم
أذنب ولو كثرت فيّ الأقاويلُ
لقد أقوم مقاماً لو يقوم به
يَرى ويَسْمع[1] ما قد أسمعُ الفيلُ
لظل يُرْعَد من خوفٍ بَوادره
إن لم يكن من رسول الله تنويلُ[2]
حتى وضعتُ يمينى ما أُنازعها
فى كف ذى نَقَمات قوله[3] القيلُ

---

(١) ابن هشام : أرى وأسمع .

(٢) الرواية فى ابن هشام وابن كثير :

لظل يُرْعد إلا أن يكون له من الرسول بإذن الله تنويلُ

(٣) ابن هشام : قيله القيل .

فلَهْوَ أخوَفُ عندى إذ أكلّمه
وقيلَ إنك منسوبٌ ومسؤولُ

من ضَيْغَمٍ بضَرّاء الأرض مُخْدَره
في بطن عَثَّرَ غِيلٌ دونه غِيلُ (١)

إنّ الرسولَ لنورٌ يستضاء به
مُهَنّد من سيوف الله مَسْلولُ

في عُصْبة من قريش قال قائلهم
ببطن مكّة لمّا أسلموا زُولوا

زالوا فما زال أنكاسٌ ولا كُشُفٌ
عند اللقاء ولا مِيلٌ مَعازيلُ (٢)

يَمْشون مَشْى الجمال الزُّهْر يَعْصِمهم
ضَرْبٌ إذا عرّد السودُ التنابيلُ (٣)

شُمُّ العَرانين أبطالٌ لَبُوسهمُ
من نَسْج داود في الهَيْجا سَرابيلُ

بِيضٌ سَوابغُ قد شُكَّتْ لها حلقٌ
كأنها حَلَق القَفْعاء مجدولُ (٤)

---

(١) الضراء : الأرض المستوية . والمخدر : أجمة الأسد . وعثر : موضع كثير الأسود . والغيل : الشجر يتخذه الأسد مأوى له .

(٢) الأنكاس : جمع نكس وهو الجبان . والمعازيل : الذين لا سلاح معهم .

(٣) عرد : هرب . والتنابيل : القصار . مفرده : تنبال .

(٤) القفعاء : شجرة ينبت فيها حلق كحلق الخواتيم إلا أنها لا تلتقي .

ليسوا مَفَارِيحَ إن نالت رماحهمُ
قوماً وليسوا مجـــــازيعاً إذا نِيلوا
لا يقــعُ الطّعن إلا فى نحورهمُ
ليس لهم عن حِياض الموتِ تهليلُ(١)

* * *

ويروى أن كعبا لما أنشد رسولَ الله صلى الله عليه وسلم :

إن الرسولَ لنورٌ يُسْتضــــاء به
مهنَّد من سُيوف الله مَسْلولُ

أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده إلى الخَلْق : أى اسمعوا . تعجباً بقوله .

ومن مُستجاد شعر كعب بن زهــير قوله أيضا يمدح النبى صلى الله عليه وسلم :

تَخْدى(٢) به الناقة الأَدْماء مُعْتجِرا
بالبُرْد كالبَدْر جَلَّى ليــــلة الظُّلَمِ
وفى عِطَافَيْهِ أو أثنـــاء بُرْدته
مايعلم اللهُ من دِين ومن كرمِ

ولما قال كعب فى لاميته المتقدمة : إذا عرّد السود التنابيل . يريد الأنصار وخص المهاجرين بمدحته دونهم غضبت عليه الأنصار فقال بعد أن أسلم يمدحهم

---

(٢) ابن هشام : وما لهم عن حياض الموت .. وفى ابن كثير : ولا لهم الخ , والتهليل : النكوص والإحجام .

(٣) تخدى : تسرع .

(٤) الروض الأنف ٢/٣١٥ : فى عطافيه .

ويذكر بلاءهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومواضعهم من اليمن ، ويقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حمله على ذلك وقال لما أنشده القصيدة المتقدمة : لولا ذكرت الأنصار بخير فإن الأنصار لذلك أهل ؟ فقال كعب هذه الأبيات :

مَن سرَّه كرمُ الحيـــاة فلا يزلْ
في مِقْنَب[1] من صـــالحي الأنصارِ

ورِثوا المكارمَ كابراً عن كابرٍ
إنّ الخيـــار هُمْ بنو الأخيارِ

المكرهـــين السَّمْهريَّ بأذرعٍ
كسوالف الهنديّ غـــير قصارِ[2]

والنـــاظرين بأعـــينٍ محمرةٍ
كالجمر غير كليـــلة الإبصارِ

والبائعـــين نفوسَهم لنبيهـــم
للموت يوم تعـــانق وكِرارِ

يتطهرون يرونه نسكاً لهـــم
بدماء من علقوا من الكفـــارِ

دَرِبوا كما دَرِبتْ ببطن خفيةٍ
غُلْب الرِّقاب من الأسود ضَوَاري[3]

---

(١) المقنب : الجماعة من الخيل .

(٢) السمهري : الرمح الصلب . والهندي : السيف . وسوالفه : حواشيه .

(٣) خفية : موضع كثير الأسود والغلب : الغلاظ الأعناق .

وإذا حَلَلْتَ ليمنعوكَ إليهمُ
أصبحتَ عند مَعَاقِلِ الأغْفارِ[1]

ضَرَبوا عليًّا يومَ بَدْرٍ ضربةً
دانت لوقعتها جميعُ نزارِ[2]

لو يعلمُ الأقوامُ عِلْمِي كلَّه
فيهم لصدَّقني الذين أُمَارِي

قومٌ إذا خوت النجومُ فإنهم
للطارقين النازلين مَقَارِي

في الفرّ من غسّان في جُرْثومة
أعْيت مَحَافِرُها على المِحْفَارِ[3]

[إسلام عبد الله بن الزبعرى]

وكان عبد الله بن الزبعرى السَّهْمي شاعر قيس ولسانها في مناقضة حسان ابن ثابت وغيره من شعراء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، له في ذلك أشعار كثيرة ذكرها ابن إسحق في مواضعها وأضربنا نحن عنها وعن سائر أشعار الجاهلية لما فيها من تنقص الإسلام والنيل من أهله ، فلما كان عام الفتح فرّ ابن الزبعرى إلى نجران فرماه حسان بن ثابت ببيت واحد مازاد عليه وهو :

---

(١) الأغفار: جمع غفر بفتح الغين وضمها أكثر ، وهو ولد الأروية وهي أنثى الوعول .

(٢) ضربوا عليا : يريد به على بن مسعود بن مازن الغساني وإليه تنسب بنو كنانة ، يريد : ضربوا قريشاً لأنهم من بني كنانة .

(٣) ابن هشام : على المقار .

لا تَعْدَمَنْ رجلاً أحلّكَ بُغْضُه
نَجْرانَ في عيشٍ أحـــذَّ لئيم[1]

فلما بلغ ذلك ابن الزِّبعرى خرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم وقال في ذلك أشعاراً منها في أبيات :

يـا رسول المليك إن لسـانى
راتِقٌ ما فتَقْتُ إذ أنـــا بُورُ

إذ أبارى الشيطان فى سَنَن الـ
ـغىّ ومن مال مَيْله مَثْبورُ

وقال أيضاً حين أسلم :

منـــع الرقادَ بلابـــلٌ وهمومُ
والليـــل مُعْتلِجُ الرِّواق بهيمُ[2]

ممـا أتـانى أن أحمـد لامَنى
فيـــــه فبتّ كـأننى محمومُ

ياخـير من حَملتْ على أوصـالها
عَيْرانةٌ سُرُحُ اليـدين غَشُومُ[3]

إنى لمعتـــــذر إليـك من الذى
أسْديتُ إذ أنـا فى الضـلال أهيمُ

أيـــــام تأمرنى بأغوى خطـــةٍ
سَهْمٌ وتـأمرنى بهــــا مخزومُ

---

(١) الأحذ : القليل المنقطع . وفى ط : أجد .
(٢) معتلج الرواق : ممتد الإقامة ، أى طويل . والبهيم : المظلم .
(٣) العيرانة من الإبل : الناجية فى نشاط . وسرح اليدين : سريعتهما فى المشى .

وأمدُّ أسبابَ الردَى ويقودنى
أمرُ الغُوَاة وأمرهم مشئومُ

فاليوم آمن بالنبىِّ محمد
قلبى ومخطئُ هذه محرومُ

مضت العداوةُ فانقضت أسبابها
ودعَتْ أواصرُ بيننا وحُلومُ

فاغفر فدًى لك والداى كلاَهما
زَلَلى فإنك راحمٌ مَرْحومُ

وعليك من عِلْمِ المليك علامة
نورٌ أغَرّ وخاتم مختومُ

أعطاك بعد محبة برهانه
شرفاً وبرهانُ الإله عظيمُ

ولقد شهدتُ بأن دِينك صادقٌ
حقٌ وأنك فى العِبَاد جَسِيمُ

والله يشهد أن أحمد مصطفىً
متقبَّل فى الصالحين كريم

قرمٌ علاَ بنيانَه من هاشم
فَرْع تمكن فى الذرى وأروم(١)

---

(٣) القرم : السيد . والأروم : الأصول . قال ابن هشام : وبعض أهل العلم بالشعر ينكرها له .

غـــزوة تبوك

وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة بعد منصرفه من عمرة الجعرانة ما بين ذى الحجة إلى رجب ثم أمر أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم ، وذلك فى زمان عُسْرة من الناس وشدة من الحر وجدب من البلاد ، وحين طابت الثمار والناس يحبون المقام فى ثمارهم وظلالهم ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذى هم عليه .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلّ ما يخرج فى غزوة إلا ورّى عنها وأخبر أنه يريد غير الوجه الذى يصمد إليه ، إلا ما كان من غزوة تبوك ، فإنه بيّنها للناس لبُعْد الشُّقة وشدة الزمان وكثرة العدو الذى يصمد إليه ، ليتأهب الناسُ لذلك أُهْبته .

فأمر الناسَ بالجهاز ، وأخبرهم أنه يريد الروم .

[المنافقون]

فقال صلى الله عليه ذات يوم وهو فى جهازه للجدّ بن قيس أحد بنى سلمة : يا جَدّ هل لك العام فى جلاد بنى الأصفر ؟ فقال : يا رسول الله أوَ تأذن لى ولا تفتنى ، فوالله لقد عرف قومى أنه ما من رجل أشدّ عُجْبا بالنساء منى ، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر أن لا أصبر . فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : قد أذنتُ لك ، ففيه نزلت : « ومنهم من يقول ائذن لى ولا تَفْتِنّى . ألا فى الفتنة سَقطوا وإن جهنم لمحيطةٌ بالكافرين[1] » .
أى إن كان إنما خشى[2] الفتنة من نساء بنى الأصفر وليس ذلك به فما سقط فيه

(١) سورة التوبة ٤٩

(٢) الطبرى : إنما يخشى .

من الفتنة أكبر لتخلفه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والرغبة بنفسه عن نفسه ، يقول : وإن جهنم لمن ورائه .

وقال قوم من المنافقين بعضهم لبعض : لاتنفروا فى الحر : زهادة فى الجهاد وشكا فى الحق وإرجافاً بالرسول ، فأنزل الله فيهم : « وقالوا لاتنفروا فى الحر قل نارُ جهنم أشد حرًّا لو كانوا يفقهون فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون[1] » .

وبلغ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أن أناساً من المنافقين يجتمعون فى بيت سُوَيلم اليهودى يثبّطون الناس عنه فى غزوة تبوك ، فبعث إليهم طلحة بن عبيد الله فى نفر من أصحابه وأمره أن يحرّق عليهم البيت وفعل طلحة ، فاقتحم الضحاكُ بن خليفة من ظهر البيت فانكسرت رجله واقتحم أصحابه فأفلتوا فقال الضحاك فى ذلك :

كادت وبيت الله نـــارُ محمد
يَشيط بهـا الضحاكُ وابن أبَيْرقِ
وظلْتُ وقـد طبقت بِكبْس[2] سُوَيلم
أنوء على رِجْـلى كسيراً ومِرْفَـقى
سلامٌ عليكم لا أعود لمثلها
أخاف ومن تَشْمَل به النارُ يحرقِ

* * *

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم جَدَّ فى سفره وأمر الناسَ بالجهاز

---

(١) سورة التوبة ٨١ ، ٨٢ .

(٢) الكبس : بيت من طين .

والانكماش ، وحضّ أهلَ الغنى على النفقة والحُملان في سبيل الله ، فحمل رجال من أهل الغنى واحتسبوا ، وأنفق عثمان بن عفان في ذلك نفقة عظيمة لم ينفق أحدٌ مثلها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم ارضَ عن عثمان فإني عنه راضٍ » .

ثم إن رجالا من المسلمين أتوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وهم البكاءون وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم ، سالم بن عُمَير وعُلْبة بن زيد وأبو ليلى بن كعب ، وعمرو بن حمام ، وهَرَمي(1) بن عبد الله ، وعبد الله بن مُغفّل المزني ، ويقال عبد الله بن عمرو المزني وعِرْباض بن سارية الفَزَاري ، فاستحملوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وهم أهلُ حاجة فقال : لاأجد ما أحملكم عليه ، فتولّوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا أن لايجدوا ماينفقون ، فذكر أن ابن يامين ابن عمير النضري لقي أبا ليلى بن كعب وابن مغفل وهما يبكيان فقال : مايبكيكما ؟ قالا جئنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحملنا فلم نجد عنده مايحملنا عليه وليس عندنا مانتقوّى به على الخروج معه فأعطاهما ناضحا له فارتحلاه وزودهما شيئاً من تمر فخرجا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وجاء المعذِّرون من الأعراب فاعتذروا إليه ، فلم يعذرهم الله ، وذكر أنهم نفر من بني غِفَار .

* * *

ثم استتب برسول الله صلى الله عليه وسلم سفره ، وأجمع السير وتخلّف عنه نفر من المسلمين من غير شك ولا ارتياب ، منهم كعب بن مالك أخو بني سلمة ومرارة بن الربيع أخو بني عمرو بن عوف ، وهلال بن أمية أخو بني واقف ،

(1) في شرح المواهب ٣/٦٧ : وحرمي بفتح المهملة .

وأبو خَيْثمة أخو بنى سالم ، وكانوا نفرَ صِدْق لا يُتَّهمون فى إسلامهم .

فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب عسكره على ثنية الوداع وضرب عبد الله بن أُبىّ معه على حِدَة عسكره أسفل منه نحو ذُباب[1] وكان فيما يزعمون ليس بأقل العسكرين ، فلما سار رسول الله صلى الله عليه وسلم تخلَّف عنه عبدُ الله فيمن تخلف من المنافقين وأهل الرَّيْب .

وخلف رسولُ الله صلى الله عليه وسلم علىَّ بن أبى طالب على أهله وأمَره بالإقامة فيهم ، فأرجف به المنافقون وقالوا : ماخلفه إلا استثقالا له وتخففاً منه فلما قالوا ذلك أخذ علىّ سلاحه ثم خرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نازل بالجرف فقال : يانبى الله زعم المنافقون أنك إنما خلفتنى أنك استثقلتنى وتخففتَ منى ، فقال : « كذبوا ولكنى خلَّفتك لما تركتُ ورائى ، فارجع فاخلُفْنى فى أهلى و أهلك ، أفلا ترضى ياعلى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لانبى بعدى » . فرجع على إلى المدينة رضى الله عنه ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على سفره .

[أمر أبى خيثمة]

ثم إن أبا خيثمة بعد أن سار رسول الله صلى الله عليه وسلم أياماً رجع إلى أهله فى يوم حارّ ، فوجد امرأتين له فى عريشَيْن لهما فى حائطه قد رشَّت كلُّ واحدة منهما عريشها وبرّدت له فيه ماء وهيأت له طعاماً ، فلما دخل قام على باب العريش فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا ، فقال : رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى الضِّح[2] والريح والحر ، وأبو خيثمة فى ظل[3] بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء فى ماله مقيم ! ماهذا بالنَّصَف ثم قال : والله لا أدخل على

(١) ذباب : جبل بالجبانة أسفل من ثنية الوداع .

(٢) الضح : ما أصابته الشمس من الأرض .

(٣) الطبرى : فى ظلال باردة وماء بارد .

عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله صلى الله عليه وسلم فهيئا لى زاداً. ففعلتا ثم قدّم ناضحه فارتحله ثم خرج فى طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أدركه حين نزل بتبوك.

وقد كان أدرك أبا خيثمة فى الطريق عمير بن وهب الجمحى يطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم فترافقا، حتى إذا دنوا من تبوك قال أبو خيثمة لعمير: إنّ لى ذنباً فلا عليك أن تخلّف عنّى حتى آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ففعل حتى إذا دنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نازلٌ بتبوك قال الناس: هذا راكبٌ على الطريق مقبل. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كن أبا خيثمة. قالوا: هو والله أبو خيثمة يارسول الله. فلما أناخ أقبل فسلّم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أولى لك يا أباخيثمة! ثم أخبره خبره فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم خيراً ودعا له بخير. ويروى أن أبا خيثمة قال فى ذلك:

ولمّا[1] رأيتُ النـاسَ فى الدين نافقوا
أتيتُ التى كانت أعفّ وأكرما

وبايعتُ باليمنَى يَدِى لمحمـدٍ
فلم أكتسبْ إثماً ولم أغشَ محرما[2]

تركتُ خضيباً فى العريش وصِرْمـةً
صفـايا كراما بُسْرها قد تحمّـا[3]

---

(١) ابن هشام: لما رأيت.

(٢) الخضيب: المرأة المخضوبة. والصرمة: الطائفة من النخل والصفايا: كثيرة الحمل وأصله فى الإبل يقال ناقة صفى إذا كانت غزيرة الدر وجمعها صفايا. والبسر: التمر قبل أن يطيب وتحمم: أخذ فى الإرطاب فسود (شرح السيرة لأبى ذر).

وكنت إذا شك المنافق أسمحت
إلى الدين نفسى شطره حيث[1] يمما

* * *

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مرّ بالحِجْر نزلها واستقى الناسُ من بئرها فلما راحوا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لاتشربوا من مائها ولا يتوضأ[2] منه للصلاة وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبلَ، ولاتأكلوا منه شيئاً[3]، ولا يخرجنّ أحدٌ منكم الليلة إلا ومعه صاحبٌ له ».

ففعل الناس ما أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلا أن رجلين من بنى ساعدة خرج أحدهما لحاجته وخرج الآخر فى طلب بعير له، فأما الذى ذهب لحاجته فإنه خُنق على مذهبه، وأما الذى ذهب فى طلب بعيره فاحتملته الريحُ حتى طرحته بجبلَى طيىء، فأخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ألم أنهكم أن يخرج أحدٌ منكم إلا ومعه صاحبه؟ ثم دعا للذى أصيب على مذهبه فشُفى، وأما الذى وقع بجبلى طيىء فإن طيئاً أهدته لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة.

ولما مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحِجْر سجّى ثوبه على وجهه، واستحث راحلته ثم قال: « لاتدخلوا بيوتَ الذين ظلموا إلا وأنتم باكون خوفاً أن يصيبكم ما أصابهم ».

فلما أصبح الناسُ ولا ماء معهم شكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم،

---

(١) أسمحت: انقادت. وشطره: نحوه وقصده. ويمم: قصد.

(٢) الطبرى وابن هشام: ولا تتوضئوا.

(٣) انظر روايات الحديث عن البخارى والإمام أحمد ومسلم، وكما أوردها ابن كثير فى سيرته ١٨/٤.

فدعا فأرسل الله سبحانه سحابةً فأمطرت حتى ارتوى الناس واحتملوا حاجتهم من الماء . قال محمود بن لبيد : لقد أخبرني رجالٌ من قومي عن رجل من المنافقين معروف نفاقه كان يسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث سار ، فلما كان من أمر الماء بالحِجْر ما كان ودعا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حين دعا فأرسل الله السحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس قالوا : أقبلنا عليه نقول : ويحك ! هل بعد هذا شيء ؟ قال : سحابةٌ مارّة . قيل لمحمود : هل كان الناس يعرفون النفاق فيهم ؟ قال : نعم والله إنْ كان الرجل ليعرفه من أخيه ومن أبيه ومن عمه وفى عشيرته[1] ثم يلبس بعضهم بعضاً على ذلك .

* * *

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سار حتى إذا كان ببعض الطريق ضلت ناقته فخرج أصحابه فى طلبها وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من أصحابه يقال له عمارة بن حزم وكان عَقَبيًّا بدريًّا وهو عم بنى عمرو بن حزم وكان فى رحله زيد بن لُصَيت[2] القينقاعى وكان منافقاً فقال زيد وهو فى رحل عُمارة وعمارة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم : أليس محمد يزعم أنه نبى ويخبركم عن خبر السماء وهو لا يدرى أين ناقته ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمارة عنده : «إن رجلا قال : هذا محمد يخبركم أنه نبى ويزعم أنه يخبركم بأمر السماء وهو لا يدرى أين ناقته ! وإنى والله لا أعلم إلا ما علّمنى الله وقد دلنى الله عليها وهى فى الوادى من شِعْب كذا وكذا وقد حبستها شجرة بزمامها فانطلقوا حتى تأتونى بها » فذهبوا فجاءوا بها فرجع عمارة بن حزم إلى رَحْله فقال : والله لَعجبٌ من شيء حدثناه رسول الله صلى الله عليه وسلم آنفاً عن مقالة قائل أخبره

---

(١) الطبرى : ومن عشيرته .

(٢) ابن هشام : ابن اللصيت . ويقال فيه أيضا : ابن لصيب .

الله عنه الذى قال زيد بن اللُّصَيْت . فقال رجل ممن كان فى رَحْل عمارة ولم يحضر رسولَ الله صلى الله عليه وسلم : زيدٌ والله قال هذه المقالة قبل أن تأتى فأقبل عمارة على زيد يجأ[1] فى عنقه ويقول : ياعباد الله ! إن فى رحلى لَداهية وما أشعر ! اخرج أىْ عدو الله من رَحْلى فلا تصحبنى . فزعم بعض الناس أن زيدا تاب بعد ذلك وقال بعض : لم يزل متهماً بشرٍّ حتى مات .

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم سائراً فجعل يتخلف عنه الرجل فيقولون : يارسول الله تخلف فلان فيقول: « دعوه فإن يك فيه خير فسيُلْحقه الله بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه » حتى قيل : يارسول الله تخلف أبو ذَرّ وأبطأ به بعيره . فقال : دعوه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه . وتلوّم[2] أبو ذر على بعيره فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فحمله على ظهره ثم خرج يتبع أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ماشياً ، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض منازله فنظر ناظرٌ من المسلمين فقال : يارسول الله إن هذا الرجل يمشى على الطريق وحده .. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كن أبا ذَرّ . فلما تأمله القومُ قالوا : يارسول الله هو والله أبو ذر . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رحم الله أبا ذر يمشى وحده ويموت وحده ، ويُبعث وحده » .

فقضى الله سبحانه أن أبا ذر لما أخرجه عثمان رضى الله عنه إلى الرَّبَذة[3] وأدركته بها منيته لم يكن معه أحد إلا امرأته وغلامه ، فأوصاهما أن أغسلانى وكفنانى ثم ضعانى على قارعة الطريق فأول ركبٌ يمرّ بكم فقولوا : هذا أبو ذر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعينونا على دفنه ، فلما مات فعلا ذلك

---

(١) يجأ : يطعن .

(٢) تلوم : انتظر .

(٣) الربذة : موضع قرب المدينة .

وأقبل عبد الله بن مسعود في رهط من العراق عُمّار ، فلم يرُعْهم إلا بالجنازة على ظهر الطريق قد كادت الإبلُ تطؤها وقام إليهم الغلام فقال : هذا أبو ذر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعينونا على دفنه . فاستهل عبدُ الله يبكي ويقول : صدق رسولُ الله : تمشي وحدك وتموت وحدك وتُبعث وحدك ! ثم نزل هو وأصحابه فواروه . ثم حدّثهم عبد الله بن مسعود حديثه[1] وما قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسيره إلى تبوك .

* * *

وقد كان رهط من المنافقين منهم وديعة بن ثابت أخو بني عمرو بن عوف وحليف لبني سلمة من أشجع يقال له مُخشّن بن حُمَيّر ، ويقال مَخْشِيّ ، يشيرون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو منطلق إلى تبوك فقال بعضهم لبعض : أتحسبون جِلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً ؟ والله لكأننا بكم [غداً][2] مقرّنين في الحبال إرجافاً وترهيباً للمؤمنين ، فقال مخشّن بن حُمير : والله لوددت أني أُقاضي على أن يُضرب كلُّ رجل منا مائة جلدة وأنا ننفلت أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغنا لعمّار بن ياسر : أدرك القوم فإنهم قد احترقوا فسَلْهم عما قالوا ، فإن أنكروا فقل : بلى قلتم كذا وكذا فانطلق إليهم عمار فقال ذلك لهم فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتذرون ، فقال وديعة بن ثابت ورسول الله صلى الله عليه وسلم واقف على ناقته فجعل يقول وهو آخذ بحقبها : يارسول الله إنما كنا نخوض ونلعب . فأنزل الله عزوجل فيهم « ولئن سألتهم ليقولُنّ إنما كنا

(١) قال ابن كثير : إسناده حسن ولم يخرجوه . السيرة ٤/١٥ .

(٢) من الطبري وابن هشام .

نخوضُ ونلعب[1] » ! ! وقال مخشن بن حمير : يارسول الله قعد بى اسمى واسم أبى . فكان الذى عفى عنه فى هذه الآية مخشن بن حمير فتسمى عبد الرحمن ، وسأل الله أن يقتله شهيداً لايُعلَم مكانه ، فقتل يوم اليمامة فلم يوجد له أثر .

[مصالحة أهـــل أيلة]

ولما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك أتاه يُوحَنة بن رُؤْبة صاحب أيلة فصالح رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعطى الجزية . وأتاه أهل جَرْباء وأَذْرُح فأعطوا الجزية ، وكتب[2] لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً فهو عندهم : « بسم الله الرحمن الرحيم هذه أَمَنَةٌ من الله ومحمد النبى رسول الله ليُحَنَّة بن رؤبة وأهـل أيلة سفنهم وسيارتهم فى البر والبحر ، لهم ذمة الله ومحمد النبى ومن كان منهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر فمن أحْدَث منهم حَدثاً فإنه لايَحُول مالُه دونَ نفسه وإنه طيِّب لمن أخذه من الناس ، وإنه لايحلّ أن يُمنَعوا ماء يَرِدونه ولا طريقاً يردونه[3] من برّ أو بحر .

[سَرِية خالد إلى أُكيدر]

ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد فبعثه إلى أُكَيْدر دَوْمة ، وهو أُكيدر بن عبد الملك رجل من كندة كان ملـكا عليها وكان نصرانياً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لخالد : إنك ستجده يصيد البقر . فخرج خالد حتى إذا كان من حصنه بمنظر العَيْن فى ليلة مُقْمِرة صائفة وهو على

---

(١) سورة التوبة ٦٥ .

(٢) الطبرى : وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم لـكل كتاباً فهو عندهم .
وفى ابن هشام : فـكتب ليحنة بن رؤبة .

(٣) ابن هشام : يريدونه.

سطح له ومعه امرأته فباتت البقر تحكّ بقرونها باب القصر ، فقالت له امرأته هل رأيت مثل هذا قط ؟ قال : لا والله . قالت : فمن يترك هذه[1] ؟ قال : لا أحد . فنزل فأمر بفرسه فأسرج له وركب معه نفر من أهل بيته فيهم أخ له يقال له حسان فركب وخرجوا معه بمطاردهم ، فلما خرجوا تلقتهم خيلُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذته وقتلوا أخاه ، وكان عليه قباء ديباج مخوَّصٌ بالذهب ، فاستلبه خالد فبعث به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل قدومه عليه ، فجعل المسلمون يلمسونه بأيديهم ويتعجبون منه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتعجبون من هذا ؟ فوالذى نفسى بيده لمناديل سعدِ بن معاذ فى الجنة أحسن من هذا !

ثم قدم خالد بأُكَيْدر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فحقَن له دمه وصالحه على الجزية ثم خلى سبيله .

فقال رجل من طيىء يقال له بُجَير بن بُجْرة يذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لخالد : إنك ستجده يصيد البقر . وما صنعت البقر تلك الليلة حتى استخرجته لتصديق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

تبـارك ســـــائقُ البقرات إنى
رأيتُ الله يَهْدى كلَّ هـــــادِى

فمن يكُ حائداً عن ذى تبـــوك
فإنا قـــد أُمرنا بالجهـــــــــادِ

[رجوع الرسول عن تبوك]

فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بتبوك بضع عشرة ليلة ولم يجاوزها ، ثم انصرف قافلا إلى المدينة .

---

(١) الطبرى : فمن يترك هذا .

وكان فى الطريق ماء يخرج من وَشَل[1] يَرْوِى الراكب والراكبين والثلاثة بواد يقال له وادى المشقّق ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من سبقنا إلى الماء فلا يستقينّ منه شيئاً حتى نأتيه . فسبقه إليه نفر من المنافقين فاستقوا مافيه فلما أتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف عليه فلم ير فيه شيئاً فقال : من سبقنا إلى هذا ؟ فقيل : يارسول الله فلان وفلان . فقال : أو لم أنهكم أن تستقوا منه شيئاً حتى آتيه ؟ ثم لعنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعا عليهم ، ثم نزل فوضع يده تحت الوشل فجعل يصبّ فى يده ماشاء الله أن يصب ثم نضحه به ومسّحه بيده ودعا بما شاء الله أن يدعو به ، فانخرق الماء كما يقول من سمعه ما إن له حِسّاً كحس الصواعق ، فشرب الناس واستقوا حاجتهم منه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لئن بَقِيتم أومن بقى منكم لتَسمعُن بهذا الوادى وهو أخْصَب مابين يديه وما خلفه » .

* * *

ومات فى هذه الغزوة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : عبد الله ذو البِجَادين ، لأنه كان ينازع إلى الإسلام فيمنعه قومه من ذلك ويضيقون عليه حتى تركوه فى بِجَاد ليس عليه غيره ، والبجاد : الكِساء الغليظ ، فهرب منهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما كان قريباً منه شقّ بجاده باثنين فاتزر بواحد واشتمل بالآخر ، ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل له ذو البِجَادين لذلك . فكان عبد الله بن مسعود يحدّث قال : قمت من جوف الليل وأنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك ، فرأيت شُعْلة من نار فى ناحية العسكر فاتبعتها أنظر إليها ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) الوشل : حجر أو جبل يقطر منه الماء قليلا قليلا .

وأبو بكر وعمر، وإذا عبد الله ذو البجادين قد مات، وإذاهم قد حفروا له ورسول الله صلى الله عليه وسلم في حفرته وأبو بكر وعمر يدلّيانه إليه وهو يقول: أدْليا إليّ أخاكما فدلّياه إليه، فلما هيّأه لشقه قال: «اللهم إني قد أمسيتُ راضياً عنه» يقول عبد الله بن مسعود: ياليتني كنت صاحب الحفرة!

وقال أبو رهم الغفَارى، وكان ممن بايع تحت الشجرة: غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة تبوك، فسرت ذات ليلة معه قريباً منه وألقي علينا النعاس، فطفقت أستيقظ وقد دنَتْ راحلتي من راحلته عليه السلام فيفزعني دنوها مخافة أن أصيب رجله في الغرز فما استيقظت إلا لقوله: حَسِّ[1] فقلت يارسول الله استغفر لي قال: سِرْ. فجعل يسألني عمن تخلّف من بني غفار فأخبره به، فقال وهو يسألني: مافعل النفر الحُمْر الطِوال الثّطاط[2] فحدثته بتخلفهم، قال: فما فعل النفر السُّود الجِعاد القِصار؟ قلت: والله ما أعرف هؤلاء منا. قال: بلى الذين لهم نعم بشبكة شَدَخ[3] فتذكرتهم في بني غفار فلم أذكرهم حتى ذكرت أنهم رهط أسلم كانوا حلفاء فينا، فقلت: يارسول الله أولئك رهط من أسلم حلفاء فينا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما منع أحد أولئك حين تخلّف أن يحمل على بعير من إبله امرءاً نشيطاً في سبيل الله؟! إن أعزّ أهلي عليّ أن يتخلف عني المهاجرون من قريش والأنصار وغفار وأسلم».

[مسجد الضرار]

قال ابن اسحق: ثم أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل بذي أوان

---

(١) حس: كلمة تدل على التألم.

(٢) الثطاط: جمع ثط، وهو القليل شعر اللحية.

(٣) شبكة شدخ: ماء لأسلم من بني غفار.

بلد بينه وبين المدينة ساعةٌ من نهار وكان أصحاب مسجد الضِّرَار قد أتوه وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا : يارسول الله إنا قد بنَيْنا مسجداً لذى العِلّة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية وإنا نحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه فقال : إنى على جناح سَفَر وحال شغل . أو كما قال صلى الله عليه وسلم . ولو قد قدِمْنا إن شاء الله لأتيناكم فصلينا لكم فيه . فلما نزل بذى أوان أتاه خبر المسجد فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك بن الدُّخْشُم أخا بنى سالم بن عوف ومَعْن بن عَدِىّ أو أخاه عاصم بن عدى أخا بنى العَجْلان فقال : انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرِّقاه فخرجا سريعين حتى أتيا بنى سالم بن عوف رهط مالك فقال مالك لمعن : أنْظِرنى حتى أخرج إليك بنارٍ من أهلى . فدخل إلى أهله فأخذ سَعفاً من النخل فأشعل فيه ناراً ثم خرجا يشتدّان حتى دخلاه وفيه أهله فحرّقاه وهدَماه وتفرقوا عنه ونزل فيهم من القرآن ما نزل : « والذين اتخذوا مَسْجداً ضِرَاراً وكُفْراً وتفريقاً بين المؤمنين[1] » إلى آخر القصة .

[المخلفون]

وقدِم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وقد كان تخلف عنه من تخلف من المنافقين ، وأولئك الرهطُ الثلاثة من المسلمين من غير شك ولا نفاق : كعب بن مالك ومُرارة بن الربيع وهلال بن أمية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : لاتُكَلِّمنّ أحداً من هؤلاء الثلاثة . وأتاه من تخلَّف عنه من المنافقين فجعلوا يحلفون له ويعتذرون فصفَح عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يَعْذرهم اللهُ ولا رسوله ، فاعتزل المسلمون كلامَ أولئك النفر الثلاثة .

---

(١) سورة التوبة ١٠٧ .

فحدّث كعب بن مالك قال : ماتخلفتُ عن رسول الله في غزوة غزاها قط ، غير أني تخلفتُ عنه في غزوة بدر ، وكانت غزوةً لم يعاقب الله فيها ولا رسولُه أحداً تخلّف عنها ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما خرج يريد عِير قريش لجمع الله بينه وبين عدوّه على غير ميعاد ، ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبة حين تواثقْنا على الإسلام وما أُحب أن لي بها مَشْهد بدر ، وإن كانت غزوة بدر هي أذْكر في الناس منها .

وكان من خَبَرى حين تخلفتُ عنه في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيْسَر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة ، والله ما اجتمعت لي راحلتان قط حتى اجتمعتا لي في تلك الغزوة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلَّ مايريد غزوةً يغزوها إلا ورَّى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حَرّ شديد واستقبل سفراً بعيداً واستقبل غَزْو عدوٍّ كثير ، فجلّى للناس أمرهم ليتأهبوا لذلك أهْبته وأخبرهم خبره بوجهه الذى يريد ، والمسلمون من تبع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير لايجمعهم كتاب حافظ ، يعنى بذلك الدِّيوان ، فقلَّ رجلٌ يريد أن يتغيب إلا ظن أنه سيَخفى له ذلك مالم ينزل فيه وحىٌ من الله تعالى .

وغزا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم تلك الغزوة حين طابت الثمار وأُحِبت الظلال فالناس إليها صُعْر[1] ، فتجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم وتجهز المسلمون معه ، وجعلت أغدو لأتجهز معهم فأرجع ولم أقض حاجةً فأقول في نفسي : أنا قادر على ذلك إذا أردتُ . فلم يزل ذلك يتمادَى بي حتى شمّر بالناس

(١) صعر : مائلون .

الجِدُّ (١) وأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم غاديا والمسلمون معه ولم أقض من جهازى شيئا فقلت : أتجهز بعده بيوم أو بيومين ثم ألحق بهم ، فغدوت بعد أن مَضَوا لأتجهز فرجعت ولم أقضِ شيئا ، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئا ، فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى أسرعوا وتفرّط (٢) الغزو فهممتُ أن أرتحل فأدركهم ، وليتنى فعلتُ ، فلم أفعل ، وجعلت إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم فطُفْت فيهم يُحزننى أنى لا أرى إلا رجلا مَغْموصًا (٣) عليه فى النفاق أو رجلا ممن عذر الله من الضعفاء . ولم يذكرنى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس فى القوم بتبوك : مافعل كعب بن مالك ؟ فقال رجل من بنى سلمة : يارسول الله حبَسه بُرْداه والنظر فى عِطْفَيْه . فقال له معاذ : بئس ماقلت ، والله يارسول الله ماعلمنا منه إلا خيراً . فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فلما بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توجّه قافلا حضر لى بثّى (٤) فجعلت أتذكر الكذب وأقول : بماذا أخرج من سخط رسول الله صلى الله عليه وسلم غداً ؟ وأستعين على ذلك كلّ ذى رأى من أهلى ، فلما قيل لى إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظل قادما زاح عنى الباطل وعرفت أن لا أنجو منه إلا بالصدق ، فأجمعت أن أصْدُق .

وصبّح رسول صلى الله عليه وسلم المدينة ، وكان إذا قدِم من سَفر بدأ

---

(١) ابن هشام : حتى شمر الناس بالجد . ورواية البخارى : حتى اشتد بالناس الجد

(٢) رواية البخارى : وتفارط الغزو . والمعنى : فات وسبق .

(٣) مغموصا : مطعونا .

(٤) البخارى : حضرنى همى .

بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه المخلّفون من
الأعراب فجعلوا يحلفون له ويعتذرون ، وكانوا بضعة وثمانين رجلا ، فيقبل
منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم علانيتهم وإيمانهم ويستغفر لهم ويكل
سرائرهم إلى الله ، حتى جئتُ فسلمت عليه فتبسم تبسم المغضب ثم قال لى :
تعاله . فجئت أمشى حتى جلست بين يديه فقال لى : ماخلّفك ألم تكن ابتعت
ظهرك ؟ قلت : يارسول الله والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنى
سأخرج من سخطه بعذر ولقد أعطيتُ جدلا ، ولكن والله لقد علمتُ لئن
حدّثتك اليوم حديثاً كذباً لترضين عنى وليوشكن الله أن يسخط علىّ ، ولئن
حدّثتك اليوم حديثاً صادقاً تجد علىّ فيه إنى لأرجو عقباى من الله فيه ، لاوالله
ما كان لى عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفتُ عنك
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمّا هذا فقد صدقت فيه ، فقم حتى يقضى
الله فيك . فقمت .

وثار معى رجالٌ من بنى سلمة فاتبعونى فقالوا : والله ماعلمناك كنت
أذنبت ذنباً قبل هذا ، ولقد عجزت أن لاتكون اعتذرت إلى رسول الله
صلى الله عليه وسلم بما اعتذر إليه المخلّفون فقد كان كافيك ذنبك استغفارُ
رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فوالله مازالوا بى حتى أردت أن أرجع إلى
رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكذّب نفسى ، ثم قلت لهم : هل لقى هذا
أحدٌ غيرى ؟ قالوا : نعم رجلان قالا مثل ذلك وقيل لهما مثل ماقيل لك . قلت :
من هما ؟ قالوا : مرارة بن الربيع العمرى وهلال بن أمية الواقفى . فذكروا لى
رجلين صالحين فيهما أسوة حسنة ، فقمت حين ذكروهما . لى ونهى رسول الله
صلى الله عليه وسلم عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلّف عنه ، فاجتنبنا الناس

وتغيّروا لنا حتى تنكرتْ لى نفسى والأرضُ فما هى بالأرض التى كنت أعرف .

فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباى فاستكانا فقعدا فى بيوتهما ، وأما أنا فكنت أشبَّ القوم وأجلَدهم فكنت أخرج وأشهد الصلوات مع المسلمين وأطوف بالأسواق لايكلمنى أحد ، وآتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فأسلِّم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة فأقول فى نفسى: هل حرّك شفتيه بردّ السلام علىّ أم لا ؟ ثم أصلّى قريباً منه فأسارقه النظر ، فإذا أقبلتُ على صلاتى نظر إلىّ ، وإذا التفتُّ نحوه أعرَض عنى .

حتى إذا طال ذلك من جَفْوة المسلمين مشيت حتى تسوّرْتُ جدار حائط أبى قتادة وهو ابن عمى وأحبّ الناس إلىّ فسلمت عليه فوالله ماردّ السلام ، فقلت : يا أبا قتادة أنشدك الله هل تعلم أنى أحبّ الله ورسوله ؟ فسكت فعُدْت فناشدته فقال : الله ورسوله أعلم . ففاضت عيناى ووثبتُ فتسوّرْت الحائط . ثم غدوت إلى السوق فبينا أنا أمشى بالسوق إذا نبطى يسأل عنّى من نَبَط الشام ممن قدِم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدلّ على كعب بن مالك ؟ فجعل الناس يشيرون له إلىّ ، حتى جاءنى فدفع إلى كتاباً من ملك غسّان فى سَرَقة [1] من حرير فإذا فيه : أمّا بعد فإنه قد بَلَغنا أن صاحبك جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مَضْيَعة فالحقْ بنا نُوَاسِك . قلت حين قرأتها : هذا من البلاء أيضاً قد بلَغ بى ماوقعت فيه أن طمع فىّ رجلٌ من أهل الشرك فعمدت إلى تنّور فسجَرْته [2] بها .

---

(١) السرقة : شقة الحرير .

(٢) سجرته : أشعلته .

فأقمنا على ذلك حتى مضت أربعون ليلة من الخمسين ، إذا رسولُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم يأتيني فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تعتزل امرأتك . فقلت : أطلقها أم ماذا ؟ قال : لا بل اعتزلها ولا تقربها . وأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك ، فقلت لامرأتي : الحقي بأهلك وكوني فيهم حتى يقضي الله في هذا الأمر ما هو قاض .

وجاءت امرأة هلال بن أمية رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يارسول الله إنّ هلال بن أمية شيخ كبير ضائع إلاّ خادم[1] ، أفتكره أن أخدمه ؟ قال : ولكن لا يَقْرَبنّك . قالت : يارسول الله والله ما به من حركة ، والله مازال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذ ولقد تخوّفتُ على بصره . فقال لي بعض أهلي : لو استأذنتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم لامرأتك فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه فقلت : والله لا أستأذن فيها ، ما أدري ما يقول لي في ذلك إذا استأذنته وأنا رجلٌ شابّ .

* * *

قال : فلبثنا بعد ذلك عشرَ ليال ، فكمُل لنا خمسون من حين نهى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن كلامنا ، ثم صليت الصبح صبح خمسين ليلة على ظهر[2] بيت من بيوتنا على الحال[3] التي ذكر الله منا ، قد ضاقت علينا الأرض بما رَحُبت وضاقت عليّ نفسي ، وقد كنت ابتنيت خيمة

(١) كذا بالأصل . ورواية ابن هشام : لا خادم له . ورواية البخاري : ليس له خادم .

(٢) البخاري : وأنا على ظهر .

(٣) البخاري : فبينا أنا جالس على الحال الخ .

فى ظهر سَلْع ، فـكنت أكون فيها إذ سمعت صوتَ صارخ أوْفَى على سَلْع يقول بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أبشر . فخرَرْت ساجداً وعرفت أن قد جاءنى الفرج .

قال : وآذن رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الناسَ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر ، فذهب الناسُ يبشروننا وذهب نحو صاحبىَّ مبشرون ، وركض رجلٌ إلىّ فرساً وسعى ساع من أسْلم ، حتى أوفى على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى نزعتُ ثوبىّ فكسوتهما إياه ببشارتهِ ، ووالله ما أملك يومئذ غيرهما ، واستعرت ثوبين فلبستهما ، ثم انطلقت أتيمّم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، وتلقانى الناس يبشروننى بالتوبة يقولون : ليَهْنِك توبة الله عليك . حتى دخلت المسجد ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس حوله الناس فقام إلىّ طلحة بن عبيد الله فحيّانى وهنّأنى ، ووالله ما قام إلىّ رجل من المهاجرين غيره . فكان كعب لا ينساها لطلحة .

قال كعب : فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ووجهه يَبْرق من السرور : أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ يوم ولدتك أمك . قلت : أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال : بل من عند الله . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استبشر كأن وجهه قطعة قمر ، وكنا نعرف ذلك منه .

قال : فلما جلست بين يديه ، قلت : يا رسول الله إن من توبتى إلى الله أن أنخلع من مالى صدقةً إلى الله وإلى رسوله . قال : أمسك عليك بعضَ

مالك فهو خيرٌ لك . قال : إنى ممسك سهمى الذى بخيبر . وقال :
يا رسول الله إن الله قد نجانى بالصدق ، فإن توبتى إلى الله أن لا أحدّث
إلا صدقاً ما بقيت . والله ما أعلم أحداً من الناس أبلاه الله فى صدق الحديث
منذ ذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك أفضل مما أبلانى ، والله
ما تعمدت من كذبة منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى
يومى هذا ، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله فيما بقى .

وأنزل الله تبارك وتعالى : « لقد تاب الله على النبىّ والمهاجرين والأنصار
الذين اتبعوه فى ساعة العُسْرة من بعد ما كاد يزيغ قلوبُ فريقٍ منهم
ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم * وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا حتى إذا
ضاقت عليهم الأرض بما رَحُبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ
من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم * يأيُّها
الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين[1] » .

قال كعب : فوالله ما أنعم الله علىّ نعمةً قط بعد أن هدانى للإسلام
كانت أعظم فى نفسى من صدقى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يومئذ ،
أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوه ، فإن الله تبارك وتعالى
قال فى الذين كذّبوه شرّ ما قال لأحد : « سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم
لتُعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رِجْسٌ ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا
يَكْسِبُونَ * يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى
عن القوم الفاسقين[2] » .

---

(١) سورة التوبة ١١٧ — ١١٩ .
(٢) سورة التوبة ٩٥ ، ٩٦ .

قال : وكنا خُلِّفْنا أيها الثلاثة عن أمر هؤلاء الذين قَبِل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حلفوا له فعذرهم واستغفر لهم ، وأرْجأَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أمرَنا حتى قضى الله فيه ما قضى ، فلذلك قال الله تبارك وتعالى : « وعلى الثلاثة الذين خُلِّفُوا » وليس الذى ذكر من تخليفنا لتخلفنا عن الغزوة ، ولكن لتخليفه إيانا وإرجائه أمرَنا عن من حلَف له واعتذر إليه فقبل منه .

ذكر إسلام ثقيف

وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة من تبوك فى رمضان وقدم عليه فى ذلك الشهر وفدُ ثقيف .

وكان من حديثهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما انصرف عنهم اتبع أثره عروة بن مسعود حتى أدركه قبل أن يصل إلى المدينة ، فأسلم وسأله أن يرجع إلى قومه بالإسلام ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يتحدث قومه : إنهم قاتلوك . وعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أن فيهم نخوة الامتناع الذى كان منهم . فقال عروة : يا رسول الله أنا أحَبّ إليهم من أبكارهم . ويقال : من أبصارهم . وكان فيهم كذلك محبّباً مطاعاً .

فخرج يدعو قومه إلى الإسلام رجاء ألاّ يخالفوه لمنزلته بينهم ، فلما أشرف لهم على عُلّية له وقد دعاهم إلى الإسلام وأظهر لهم دينه رموْه بالنّبل من كل وجه فأصابه سهم فقتله ، فقيل له : ما ترى فى دمك ؟ قال : كرامة أكرمنى الله بها وشهادة ساقها الله إلىّ فليس فىّ إلا ما فى الشهداء الذين قُتلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يرتحل عنكم فادفنونى معهم . فزعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن مثله فى قومه لكمثل صاحب ياسين فى قومه » .

ثم أقامت ثقيف بعد قتل عروة أشهراً ، ثم إنهم ائتمروا بينهم ورأوا أنهم لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب ، وقد بايعوا وأسلموا ، فمشى عمرو ابن أمية أخو بنى عِلاَج . وكان من أدهى العرب إلى عبد ياليل بن عمرو

حتى دخل داره وكان قبلُ مهاجراً له الذى بينهما سيّيء[1] ثم أرسل إليه ، أن عمرو بن أمية يقول لك : اخرج إلىّ . فقال عبد ياليل للرسول : ويلك أعمرو أرسلك إلىّ ؟ قال : نعم وها هو ذا واقفاً فى دارك . قال : إن هذا الشىء ما كنت أظنه ، لَعمرو كان أمنع فى نفسه من ذلك . فخرج إليه فلما رآه رحّب به فقال له عمرو : إنه قد نزل بنا ما ليس معه هجرة ، إنه قد كان من أمر هذا الرجل ما قد رأيت ، وقد أسلمت العرب كلها ، وليست لكم بحربهم طاقة فانظروا فى أمركم .

فعند ذلك ائتمرت ثَقِيف بينها وقال بعضهم لبعض : ألا ترون أنه لا يَأمن لكم سِرب ولا يخرج منكم أحد إلا اقتُطع ؟ فائتمروا بينهم وأجمعوا أن يرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أرسلوا عروة . فكلموا عبد ياليل وكان سِنّ عروة ، وعرضوا عليه ذلك فأبى أن يفعل وخشى أن يُصْنَع به إذا رجع كما صُنع بعروة فقال : لست فاعلا حتى ترسلوا معى رجالا . فأجمعوا أن يبعثوا معه رجلين من الأحلاف وثلاثةً من بنى مالك فيكونوا ستة ، فبعثوا مع عبد ياليل الحَكَمَ بن عمرو بن وهب بن مُعتّب ، وشَرحْبيل ابن غَيْلان بن سَلمة بن مُعتب . ومن بنى مالك : عثمان بن أبى العاص وأوس ابن عوف ونُمَيْر بن خَرَشة .

فخرج بهم عبدُ ياليل وهو نابُ القوم[2] وصاحب أمرهم ، ولم يخرج بهم إلا خشيةً من مثل ما صُنع بعروة بن مسعود لكى يشغل كلّ رجل منهم

---

(١) فى شرح المواهب : لشىء كان بينهما .
(٢) ناب القوم : كبيرهم والمدافع عنهم .

إذا رجعوا إلى الطائف رهطه ، فلما دنوا من المدينة ونزلوا قناة[1] ألفوا بها المغيرةَ بن شُعْبة يرعى فى نَوْبته رِكَابَ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت رِعْيتها نُوَبًا عليهم ، فلما رآهم ترك الركاب عند الثقفيين وضَبر[2] يشتدّ يبشِّر رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بقدومهم ، فلقيه أبو بكر الصديق قبل أن يدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبره بقدومهم يريدون البيعة والإسلام وأن يشترطوا شروطاً ويكتبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً . فقال أبو بكر رضى الله عنه المغيرة : أقسمت عليك بالله لا تسبقنى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أكون أنا أحدِّثه . ففعل المغيرة . فدخل أبو بكر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك ثم خرج المغيرة إلى أصحابه فروَّح الظَّهْرَ معهم وعلَّمهم كيف يحيُّون رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يفعلوا إلا بتحية الجاهلية .

ولما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب عليهم قبةً فى ناحية مسجده كما يزعمون ، فكان خالد بن سعيد هو الذى يمشى بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اكتتبوا كتابهم ، كتبه خالد بيده وكانوا لا يَطْعمون طعاماً يأتيهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يأكل منه خالد حتى أسلموا وفرغوا من كتابهم .

وقد كان فيما سألوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أن يدع لهم الطاغيةَ وهى اللات لا يهدمها ثلاثَ سنين فأبى ذلك عليهم ، فما برحوا يسألونه

---

(١) قناة : واد بالمدينة ، وهو أحد أوديتها الثلاثة ، عليه حرث ومال ، وقد يقال : وادى قناة . معجم البلدان .

(٢) ضبر : أسرع . يقال : ضبر الفرس إذا عدا ، أو جمع قوائمه ووثب .

سنة سنة ويأبى حتى سألوه شهراً واحداً بعد مَقْدمهم فأبى عليهم أن يدعها شيئًا مسمًّى ، وإنما يريدون بذلك فيما يظهرون أن يَسْلموا بتركها من سفهائهم ونسائهم وذراريهم ويكرهون أن يروِّعوا قومهم بهدمها حتى يدخلهم الإسلام ، فأبى عليهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلا أن يبعث أبا سفيان بن حَرْب والمغيرة بن شعبة فيهدماها . وقد كانوا سألوه مع ترك الطاغية أن يُعفيهم من الصلاة وأن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمّا كسْر أوثانكم فسنعفيكم منه ، وأما الصلاة فلا خير في دين لا صلاة فيه[1] » .

فلما أسلموا وكتب لهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم كتابا أمّر عليهم عثمان بن أبي العاص وكان من أحْدثهم سِنًّا فقال أبو بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يارسول الله إني قد رأيت هذا الغلام من أحرصهم على التفقّه في الإسلام وتعلّم القرآن . فحدّث عثمان بن العاص قال : كان من آخر ما عهد إليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بعثني على ثقيف أن قال : « يا عثمان تَجاوزْ في صلاتك واقْدر الناسَ بأضعفهم فإن فيهم الكبير والصغير والضعيف وذا الحاجة » .

فلما فرغوا من أمرهم وتوجهوا راجعين إلى بلادهم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شُعبة في هدم الطاغية ، فخرجا مع القوم حتى إذا قدموا الطائف أراد المغيرة أن يقدِّم أبا سفيان ،

---

(١) زاد ابن هشام والطبري : فقالوا : يامحمد أما هذه فسنؤتيكها وإن كانت دناءة .

فأبى ذلك عليه أبو سفيان وقال : ادخل أنت على قومك . وأقام أبو سفيان بماله بذي الهَدْم(١) ، فلما دخل علاها يضربها بالمِعْول وقام دونه قومه بنو مُعتِّب خشية أن يُرْمَى أو يصاب كما أصيب عروة ، وخرج نساء ثقيف حُسَّرا يبكين عليها ويقلن :

لِتُبْـكَيَنَّ دُفَّاع ... أسلمها الرُّضَّاع(٢)

لم يُحْسِنوا المِصَاع(٣)

فلما هدمها المغيرة وأخذ مالها وحليَّها أرسل إلى أبي سفيان وحليُّها [مجموع(٤)] وما لها من الذهب والجزْع(٥) .

وقد كان أبو مُليح ابن عروة وقارب بن الأسود قدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل وفد ثقيف حين قُتل عروة يريدان فراق ثقيف وأن لا يُجَامعاهم على شيء أبداً . فأسلما فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم تولّيا من شئتما فقالا : نتولّى الله ورسولَه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وخالكما أبا سفيان بن حرب . فقالا : وخالنا أبا سفيان . فلما أسلم أهلُ الطائف ووجَّه رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا سفيان والمغيرة إلى هَدْم الطاغية سأل أبو مليح رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أن يقضي

(١) كذا في الأصل موافقا لابن هشام وابن كثير . وفي الطبري ط أوربا : بذي الهرم . والهدم : ماء وراء وادي القرى . كما في معجم البلدان .

(٢) الطبري : ألا ابكين . وفي ابن الأثير : ابكين : والدفاع الشيء العظيم يدفع به مثله سموها بذلك لظنهم أنها تدفع عنهم . والرضاع : اللئام .

(٣) المصاع : الضرب .

(٤) من الطبري وابن هشام .

(٥) الجزع : الخرز اليماني الصيني فيه سواد وبياض .

عن أبيه عروة ديناً كان عليه من مال الطاغية . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم . فقال له قارب بن الأسود : وعن الأسود يارسول الله فاقضه. وعروة والأسود أخوان لأب وأم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الأسود مات مشركا » . فقال قارب : يارسول الله لكن تَصِل مُسْلما ذا قرابة . يعنى نفسه . إنما الدَّين علىّ وإنما أنا الذى أُطلب به . فأمر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أبا سفيان أن يقضى دَين عروة والأسود من مال الطاغية فلما جمع المغيرة مالها ذكَّر أبا سفيان بذلك فقضى منه عنهما .

[رواية موسى بن عقبة]

هكذا ذكر ابن إسحق إسلام أهل الطائف بعقب غزوة تبوك فى رمضان من سنة تسع قبل حج أبى بكر بالناس آخر تلك السنة . وجعل ابنُ عُقْبَة قدومَ عروة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومَقْتله فى قومه وإسلام ثقيف كل ذلك بعد صدر أبى بكر عن حجِّه . وبين حديثه وحديث ابن إسحق بعضُ اختلاف ، رأيت ذِكر حديث ابن عقبة وإن كان أكثره مُعاداً لأجل ذلك الاختلاف ، ثم أذكر بعده حجة أبى بكر فى الموضع الذى ذكرها فيه ابن إسحق .

قال موسى بن عقبة : فلما صدَر أبو بكر من حَجّه بالناس قدم عروة ابن مسعود الثقفى على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم ثم استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الرجوع إلى قومه فقال له : إنى أخاف أن يقتلوك قال : لو وجدونى نائما ما أيقظونى . فأذن له فرجع إلى الطائف وقدمها

عشاءً فجاءته ثقيف يسلمون عليه فدعاهم إلى الإسلام ونصح لهم فاتهموه وأعضوه[1] وأسمعوه من الأذى مالم يكن يخشاه منهم فخرجوا من عنده حتى إذا أسحروا وسطع الفجرُ قام على غرفة فى داره فأذّن بالصلاة وتشهّد، فرماه رجلٌ من ثقيف[2] بسهم فقتله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغه قتله : « مثل عُرْوة مثل صاحب ياسين ، دعا قومه إلى الله فقتلوه » .

وأقبل بعد قتله وفدٌ من ثقيف بضعة عشر رجلاً هم أشراف ثقيف ، فيهم كنانة بن عبد ياليل وهو رأسهم يومئذ ، وفيهم عثمان بن أبى العاص وهو أصغر القوم حتى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة يريدون الصلح حين رأوا أن قد فُتحت مكة وأسلم عامّة العرب ، فقال المغيرة بن شُعبة : يارسول الله أنزل على قومى أكرمهم بذلك فإنى حديث الجرم فيهم[3] . قال : لا أمنعك أن تكرم قومك ولكن تُنْزلهم حيث يسمعون القرآن . فأنزلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد وبنى لهم خياماً لكى يسمعوا القرآن ويروا الناس إذا صلّوا . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خطب لم يَذْكر نفسه ، فلما سمعه وفدُ ثقيف قالوا : يأمرنا أن نشهد أنه رسول الله

(١) أعضوه : قالوا له : اعضض كذا . . مما كانت العرب تسب به بعضها .

(٢) قال الواقدى : يقال له وهب بن جابر . ويقال : رماه أوس بن عوف من بنى مالك وهذا أثبت عندنا . مغازى الواقدى ٣ / ٩٦١ .

(٣) قال الواقدى : وكان جرم المغيرة أنه خرج فى ثلاثة عشر رجلا من بنى مالك ، قدموا على المقوقس فحيا بنى مالك وجفاه وهو من الأحلاف ، وكان معه رجلان الشريد ودمون ، فلما كانوا ببساق وضعوا شرابا لهم لمنادم المغيرة بيده ، فجعل يخفف عن نفسه ويترع لبنى مالك حتى ثملوا وناموا ، فلما ناموا وثب إليهم فقتلهم . مغازى الواقدى ٣ / ٩٦٤ .

ولا يشهد به فى خطبته ! فلما بلغه قولهم قال : فإنى أول من يشهد أنى رسول الله .

وكانوا يغدون على رسول الله كلَّ يوم ويخلِّفون عثمان بن أبى العاص على رِحَالهم لأنه أصغرهم ، فكان عثمان كلما رجع الوفد إليه وقالوا بالهاجرة عَمِد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله عن الدِّين واستقرأه القرآن ، فاختلف إليه عثمانُ مراراً حتى فَقُه فى الدِّين وعلم . وكان إذا وجد رسولَ الله صلى الله عليه وسلم نائماً عمد إلى أبى بكر ، وكان يكتم ذلك من أصحابه ، فأعجب ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وأحبَّه .

فمكث الوفدُ يختلفون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يدعوهم إلى الإسلام ، فقال له كنانة بن عبد ياليل : هل أنت مُقَاضِينا حتى نرجع إلى قومنا ثم نرجع إليك ؟ فقال : « نعم إن أنتم أقررتم بالإسلام قاضيتكم وإلا فلا قضية ولا صلح بينى وبينكم ». قالوا : أرأيت الزنا ؟ فإنا قومٌ نَغْترب ولا بدّ لنا منه . قال : هو عليكم حرام إن الله يقول : « ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا[1] » .

قالوا : فالربا ؟ قال : والربا . قالوا : إنه أموالنا كلها . قال : فلكم رءوس أموالكم ، قال الله : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذَرُوا مابقى من الربا إن كنتم مؤمنين[2] » قالوا فالخمر ؟ فإنها عصير أرضنا ولابد لنا منها . قال إن الله قد حرمها قال الله : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمرُ والميْسر والأنصابُ والأَزْلام

(١) سورة الإسراء ٣٢ .

(٢) سورة البقرة ٢٧٨ .

رِجْسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون[1] » .

فارتفع القوم فخلا بعضهم إلى بعض وقالوا : ويحكم إنا نخاف إن خالفناه يوماً كيوم مكة ، انطلقوا فأعطوه ماسأل وأجيبوه . فأتوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : لك ماسألت . أرأيت الرَّبة ماذا نصنع فيها ؟ قال : اهدموها قالوا : هيهات ! لو تعلم الرَّبة أنا نريد هَدْمها لقتلت أهلنا . فقال عمر : ويحك يا بن عبد ياليل ما أحمقك إنما الرَّبة حجَر ! قال : إنا لم نأتك يا بن الخطاب . ثم قال : يارسول الله تولّ أنت هَدْمها فأما نحن فلن نهدمها أبداً . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فسأبعث إليكم من يكفيكم هَدْمها . قال كنانة ائذن لنا قَبْل رسولك ثم ابعث فى آثارنا ، فإنى أعلم بقومى . فأذن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكرمهم وحباهم . قالوا : يارسول الله أمِّر علينا رجلاً يؤمّنا . فأمَّر عليهم عثمان بن أبى العاص لِمَا رأى من حرصه على الإسلام وقد كان عَلِم سُوَراً من القرآن قبل أن يخرج .

وقال كنانة لأصحابه : أنا أعلمكم بثقيف فاكتموهم إسلامكم وخوِّفوهم الحرب والقتال وأخبروهم أن محمداً سألنا أموراً أبيناها عليه ، سألنا أن نهدم اللات ونبطل أموالنا فى الربا ونحرِّم الخمر .

حتى إذا دنَوْا من الطائف خرجت إليهم ثقيف يتلقَّوْنهم ، فلما رأوهم قد ساروا العَنَق[2] وقطروا الإبل وتغشَّوْا ثيابهم كهيئة قومٍ قد حزنوا أو كُرِبوا قالت ثقيف بعضهم لبعض : ماجاءوكم بخير . فلما دخلوا حصنهم عمدوا اللاّت

(١) سورة المائدة ٩٠ .

(٢) العنق من السير : المنبسط .

(٣) قطروا الإبل : قربوا بعضها إلى بعض على نسق .

فجلسوا عندها ، واللات بيتٌ كانوا يعبدونه ويسترونه ويُهدون له الهَدْى يُضَاهون به بيت الله . ثم رجع كل واحد منهم إلى أهله فجاء كلَّ رجل حامية من ثقيف فسألوه : ماذا جئتم به ؟ قالوا : أتينا رجلا فظًّا غليظًا يأخذ من أمره ماشاء قد ظهر بالسيف وأداخ العربَ ودان له الناس ، فعرض علينا أموراً شِداداً هَدْم اللات وتركَ الأموال فى الربا إلا رءوس أموالكم وحرَّم الخمر والزنا . قالت ثقيف : والله لانقبل هذا أبداً . قال الوفدُ : أصلحوا السلاح وتهيئوا للقتال ورُمّوا حصنكم .

فمكثت ثقيف بذلك يومين أو ثلاثة تريد القتال ثم ألقى الله الرعبَ فى قلوبهم وقالوا : والله مالنا به طاقة أداخ العرب كلها فارجعوا إليه فأعطوهُ ماسأل وصالحوه عليه . فلما رأى الوفد أنهم قد رُعِبوا واختاروا الأمنَ على الخوف وعلى الحرب ، قالوا لهم : إنا قد فرغنا من ذلك ، قد قاضيناه وأسلمنا وأعطانا ما أحببنا واشترطنا ما أردنا وجدناه أتقَى الناس وأوفاهم وأرحمهم وأصدقهم وقد بورك لنا ولكم فى مسيرنا إليه وفيما قاضيناه عليه . فقالت ثقيف : فلم كتمتمونا هذا الحديث وغممتمونا بذلك أشدَّ الغم ؟ قالوا : أردنا أن ينزع الله من قلوبكم نخوة الشيطان ، فأسلموا مكانهم واستسلموا .

فمكثوا أياماً ثم قدم عليهم رُسل رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمَّر عليهم خالد بن الوليد وفيهم المغيرة بن شعبة ، فلما قدموا عليهم عمدوا إلى اللات ليهدموها وانكفأت ثقيف كلها الرجال والنساء والصبيان حتى خرج العواتق من الحِجَال وهم لايرون أنها تُهْدم ويظنون أنها ستمتنع . فقام المغيرة بن شعبة وقال لأصحابه : لأضحكنكم من ثقيف فأخذ الكرزن[1] فضرب به ثم أخذ

(١) الكرزن : المعول .

يرتكض فارتجّ أهلُ الطائف بصيحة واحدة وقالوا : أبعد الله المغيرة قد قتلته الرَّبة ! وفرحوا حين رأوه ساقطاً وقالوا : من شاء منكم فليقترب ويجهد على هَدْمها فو الله لا تستطاع أبداً . فوثب المغيرة فقال : قبحكم الله يامعشر ثقيف ! إنما هى لكاع حجارة ومدَر ! ثم ضرب الباب فكسره ثم علا على سورها وعلا الرجال معه ، فما زالوا يهدمونها حجراً حجراً حتى سوّوها بالأرض وجعل صاحب المفاتيح يقول : ليغضبن الأساسُ فليخسفن بهم . فلما سمع ذلك المغيرة قال لخالد : دعنى أحفر أساسها . فحفروها حتى أخرجوا ترابها وأخذوا حليها وثيابها . فبهتت ثقيف .

وانصرف الوفد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحليتها وكسوتها فقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه وحمد الله على نصر نبيه وإعزاز دينه .

ذكر حج أبي بكر الصديق

رضى الله عنه بالناس سنة تسع وتوجيه رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب بعده بسورة براءة

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر أميرا على الحج من سنة تسع ليقيم للمسلمين حجهم ، ونزلت بعد بعثه إياه « براءة » فى نقض ما بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين المشركين من العهد الذى كانوا عليه فيما بينه وبينهم : أن لا يُصَدّ عن البيت أحدٌ جاءه ولا يخاف على أحد فى الشهر الحرام ، وكان ذلك عهداً عامًّا بينه وبين أهل الشرك ، وكان بين ذلك عهودٌ خصائص بينه وبين قبائل العرب إلى آجال مُسمَّاة فنزلت فيه وفيمن تخلّف من المنافقين عن تبوك وفى قول من قال منهم فكشف الله سرائر قوم كانوا يَسْتخفون بغير ما يُظْهرون .

فقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لو بعثت إلى أبى بكر ؟ فقال : لا يؤدّى عنى إلا رجل من أهل بيتى . ثم دعا عليّ بن أبى طالب فقال : « اخرج بهذه القصة من صَدْر براءة وأذِّن فى الناس يوم النَّحْر إذا اجتمعوا بمنى : أنه لا يدخل الجنة كافر ولا يحجّ بعد العام مُشْرك ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عهدٌ فهو إلى مدته » .

فخرج علىٌّ على ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم العَضْباء حتى أدرك

أبا بكر الصِّدّيق بالطريق ، فلما رآه أبو بكر قال : أميرٌ أم مأمور ؟ قال : بل مأمور . ومضى .

فأقام أبو بكر للناس الحجّ ، والعربُ فى تلك السنة على منازلهم من الحج التى كانوا عليها فى الجاهلية ، حتى إذا كان يوم النحر قام علىٌّ بن أبى طالب فأذّن فى الناس بالذى أمره به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وأجّل الناس أربعة أشهر من يوم أذّن فيهم ليرجع كلٌّ إلى قومه إلى مأمنهم وبلادهم ، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة إلا أحدٌ كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد إلى مُدّة فهو له إلى مدته .

فلم يحجج بعد ذلك العام مُشْرِك ولم يطُفْ بالبيت عريان ، وكانت براءة تسمّى فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم « المُبَعْثِرة » لما كشفت من سرائر الناس .

[عدد غزوات الرسول]

وكانت تبوك آخر غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان جميع ما غزا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بنفسه سبعاً وعشرين غزاة:[1] غزوة ودّان وهى غزوة الأبْواء ، ثم غزوة بُواط من ناحية رضْوَى ،

---

(١) قال الطبرى : وكانت غزواته (ص) بنفسه ستا وعشرين غزوة .

ويقول بعضهم : هى سبع وعشرون غزوة ، فمن قال هى ست وعشرون جعل غزوة النبى صلى الله عليه وسلم خيبر وغزوته من خيبر إلى وادى القرى غزوة واحدة . . ومن قال هى سبع وعشرون غزوة جعل غزوة خيبر غزوة وغزوة وادى القرى غزوة أخرى . . تاريخ الطبرى ١٧٥٦ (ط أوربا) .

ثم غزوة العُشَيْرة من بطن يَنْبع ثم غزوة بَدْر [الأولى [1]] يطلب كُرْز ابن جابر ، ثم غزوة بدر التى قتل الله فيهـا صناديدَ قريش ، ثم غزوة بنى سُلَيم حين بلغ الـكُدْر ، ثم غزوة السَّويق يطلب أبا سفيان بن حرب ، ثم غزوة غَطَفـان [إلى نجد [2]] وهى غزوة ذى أَمَرّ ، ثم غزوة بَحْران مَعْدن بالحجـاز ، ثم غزوة أُحد ، ثم غزوة حَمْراء الأسد ، ثم غزوة بنى النّضير ، ثم غزوة ذات الرِّقاع من نخل ، ثم غزوة بدر الآخرة [3] ، ثم غزوة دُومة الجنْدل ، ثم غزوة الخندق ، ثم غزوة بنى قُرَيْظة ، ثم غزوة بنى لِحْيان من هُذَيل ، ثم غزوة ذى قَرَد ، ثم غزوة بنى المصْطَلق من خُزاعة ، ثم غزوة الحديبيـة لا يريد قتالا فصـدَّه المشركون ، ثم غزوة خيبر ، ثم عُمْرة القضاء [4] ، ثم غزوة الفتح ، ثم غزوة حُنين ، ثم غزوة الطائف ، ثم غزوة تبُوك .

قاتل صلى الله عليه وسلم فى تسع غزوات منها : بَدْر ، وأُحـــد ، والخندق ، وقُريظة ، وبنى المُصْطَلِق وخيبر ، والفتح ، وحنين ، والطائف .

وهذا الترتيب عن ابن إسحق ، وخالفه ابن عُقْبة فى بعضه .

[سرايا رسول الله]

وكانت بعوث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسَرَاياه ثمانية وثلاثين

---

(١) من الطبرى .
(٢) من الطبرى .
(٣) الطبرى : الأخرى .
(٤) الطبرى : ثم اعتمر عمرة القضاء .

من بين بَعْث وسَرِيّة : غزوة عُبيدة بن الحارث أسفل ثنية المُرَّة ، وغزوة حمزة بن عبد المطلب ساحل البحر من ناحية العِيص ، وبعض الناس يقدم غزوة حمزة قبل غزوة عبيدة . وغزوة سعد بن أبي وقّاص الخَرّار ، وغزوة عبد الله بن جحش نخلة ، وغزوة زيد بن حارثة القَرَدة ، وغزوة محمد بن مَسْلمة كعبَ بن الأشرف ، وغزوة مَرْثَد بن أبي مرثد الغنوي الرَّجيع ، وغزوة المنذر بن عمرو بئر مَعُونة ، وغزوة أبي عبيدة بن الجرّاح ذا القَصّة ، من طريق العراق ، وغزوة عمر بن الخطاب تُرَبة من أرض بني عامر ، وغزوة على بن أبي طالب اليمن .

[غزوة غالب بن عبد الله إلى الكَديد]

وغزوة غالب بن عبد الله الكلبي كلب ليث ، الكَديد . فأصاب بني الملوّح وكان من حديثها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه في سرية وأمره أن يشن الغارة على بني الملوّح وهم بالكَديد . قال جُنْدَب بن مَكيث الجُهَني ، وكان مع غالب في سريته هذه : فخرجنا حتى إذا كنا بقُدَيْد لقينا الحارث بن مالك وهو ابن البَرْصاء الليثي فأخذناه فقال : إني جئت أريد الإسلامَ وما خرجت إلا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقلنا له : إن تك مسلما فلن يَضيرك رباط ليلة ، وإن تك على غير ذلك كنا قد استوثقنا منك فشدَدْناه رباطا ثم خلّفنا عليه رجلاً من أصحابنا وقلنا له : إن عازّك[1] فاحتزّ رأسه .

قال : ثم سرنا حتى أتينا الكَديد عند غروب الشمس فكمنّا في ناحية الوادي وبعثني أصحابي رَبيئةً لهم ، فخرجتُ حتى آتي تلاًّ مُشرفا على

(١) عازك : غالبك .

الحاضر فأسندتُ فيه فعلوت فى رأسه فنظرت إلى الحاضر فوالله إنى لمنبطح على التل إذ خرج رجل منهم من خبائه فقال لامرأته : إنى لأرى على التل سواداً ما رأيته فى أول يومى فانظرى إلى أوعيتك هل تفقدين شيئاً لا تكون الكلاب جرّت بعضها . فنظرتْ فقالت : والله ما أفقد شيئاً . قال : فناولينى قوسى وسهمين . فناولتْه فأرسل سهماً فوالله ما أخطأ جنبى[1] فأنزعه وأضعه وثبتّ مكانى . ثم أرسل الآخر فوضعه فى منكبى فأنزعه وأضعه وثبتّ مكانى . فقال لامرأته : لو كان ربيئة تحرّك[2] لقد خالطه سهماى، لا أبالك إذا أصبحت فابتغيهما[3] فخذيهما لا يمضغهما الكلاب . ثم دخل .

وأمهلناهم حتى إذا اطمأنوا وناموا وكان فى وجه السَّحر شنَنَّا عليهم الغارة فقتلنا واستقْنا النَّعم وخرج صريخُ القوم ، فجاءنا دَهْم[4] لا قِبَل لنا به ومضينا بالنعم ، ومررنا بابن البَرْصاء وصاحبه فاحتملناهما معنا . وأدركنا القومُ حتى قربوا منا فما بَيْنَنا وبينهم إلا وادى قُدَيْد فأرسل الله الوادى بالسَّيل من حيث شاء الله تبارك وتعالى من غير سحابة نراها ولا مطر فجاء بشىء ليس لأحد به قوة ولا يقدر على أن يجاوزه ، فوقفوا ينظرون إلينا وإنا لنسوق نعمهم وما يستطيع منهم رجل أن يُجيز إلينا حتى فُتْنَاهم . فقدمنا بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

* * *

(١) ابن سعد : ما أخطأ بين عينى .

(٢) ابن هشام : لو كان ربيئة لقوم لقد تحرك .

(٣) ابن سعد : فانظريهما .

(٤) الدهم : الجماعة الكثيرة .

وغزوة علي بن أبي طالب بني عبد الله بن سعد من أهل فَدَك ، وغزوة أبي[1] العَوْجاء السُّلَمي أرضَ بني سُلَيم فأصيب بها هو وأصحابه جميعاً . وغزوة عُكَّاشة بن مِحْصَن الغَمْرَة ، وغزوة أبي سلمة بن عبد الأسد قطنًا ماء من مياه بني أسد من ناحية نجد قُتل فيها مسعود بن عروة ، وغزوة محمد بن مسلمة القُرَطاء من هوازن ، وغزوة بشير بن سعد بني مُرّة بفدك ، وغزوته أيضاً بناحية خيبر ، وغزوة زيد بن حارثة الجموم من أرض بني سُلَيم .

وغزوته أيضاً جذام من أرض خُشَين ويقال من أرض حِسْمَى .

وكان من حديثها كما حدث رجال من جُذام كانوا علماء بها أن رفاعة بن زيد الجذامي لما قدم على قومه من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتابه يدعوهم إلى الإسلام فاستجابوا له لم يلبث أن قدم دحْية بن خليفة الكلبي من عند قيصر صاحب الروم حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه تجارة له ، حتى إذا كان بواد من أوديتهم[2] أغار عليه الهُنَيد بن عُوص[3] الضُّلَيعي بطن منهم وابنه عُوص ، فأصابا كل شيء كان معه ، فبلغ ذلك قوماً من بني الضُّبَيب رهط رفاعة ممن كان أسلم وأجاب ، فنفروا إلى الهُنَيد وابنه فاستنقذوا ما كان في أيديهما فردّوه على دحْية ، فخرج دحْية حتى قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره خبره واستسقاه دم الهُنَيد وابنه ، فبعث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة وبعث معه جيشاً فأغاروا فجمعوا ما وجدوا من مال أو ناس وقتلوا الهنيد وابنه ورجلين معهما ، فلما سمعت بذلك بنو

(١) الطبري : ابن أبي العوجاء

(٢) يقال له شنار . قاله ابن هشام .

(٣) ابن سعد : الهنيد بن عارض ، وابنه عارض بن الهنيد .

الضُّبَيْب ركب نفر منهم فيهم حسان بن مَلَّة فلما وقفوا على زيد بن حارثة قال حسّان : إنا قومٌ مسلمون فقال له زيد: فاقرأ أمَّ الكتاب. فقرأها حسان . فقال زيد بن حارثة : نادوا فى الجيش : إن الله قد حرم علينا ثُغْرة القوم التى جاءوا منها إلا من خَتَرَ(١) . وإذا أخت حسان فى الأسارى فقال له زيد : خذها . فقالت أم الفزر الضليعة : أتنطلقون ببناتكم وتذرون أمهاتكم ؟ ! فقال أحد بنى الخصيب : إنها بنو الضُّبَيْب وسحر ألسنتهم سائر اليوم فسمعها بعض الجيش فأخبر بها زيداً فأمر بأخت حسان وقد كانت أخذت بحَقْوَىْ أخيها ففُكّت يداها من حقويه وقال لها : اجلسى مع بنات عمك حتى يحكم الله فيكن حكمه .

فرجعوا ونهى الجيش أن يهبطوا إلى واديهم الذى جاءوا منه فأمسوا فى أهليهم ، فلما شربوا عتمتهم(٢) ركبوا إلى رفاعة بن زيد فصبّحوه فقال له حسان ابن مَلّة : إنك لجالس تحلب المعزى ونساء جُذام أسارى قد غرّها كتابك الذى جئت به ! فدعا رفاعةُ بجمل له فشدّ عليه رحله وهو يقول :

* هل أنت حَىّ أو تنادى حَيّا *

ثم غدا وهم معه مبكرين فساروا إلى جوف المدينة ثلاث ليال ، فلما دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ورآهم ألاح إليهم بيده أن تعالوا . من وراء الناس ، فلما استفتح رفاعة بن زيد المَنْطق قال رجل من الناس : يارسول الله

---

(١) ثغرة القوم : ناحيتهم التى يحمونها .
وختر : نقض العهد (عن شرح السيرة لأبى ذر الخشنى ص ٤١٠)

(٢) أى شربوا لبنهم الذى انتظروه إلى ذلك الوقت . وأصل الاستعتام التأخير . قال أبو ذر : ومن رواه : « عيمتهم » فيعنى اللبن الذى أزال عنهم شوق اللبن .

إن هؤلاء الناس قومٌ سَحَرة . فردّدها مرتين . فقال رفاعة : رحم الله من لم يَحْذَنا[1] في يومنا هذا إلا خيراً .

ثم دفع رفاعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابه الذي كان كتب له ، فقال : دونك يارسول الله قديماً كتابه حديثاً غدْره . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقرأه ياغلام وأعْلِن . فلما قرأ كتابه استخبرهم فأخبره فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف أصنع بالقتلى ؟ ثلاث مرات فقال رفاعة : أنت أعلم يارسول الله لا نحرّم عليك حلالا ولا نحلّ لك حراماً . فقال أبو زيد ابن عمرو أحد من قدم مع رفاعة : أطلق لنا يارسول الله من كان حيًّا ومن قُتل فهو تحت قدميّ هذه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . صدق أبو زيد اركب معهم يا عليّ . فقال له عليّ : يا رسول الله إن زيداً لن يطيعني . قال : فخذ سيفي هذا . فأعطاه سيفه .

فخرجوا فإذا رسولٌ لزيد بن حارثة على ناقة من إبلهم فأنزلوه عنها فقال : يا على ما شأني ؟ فقال : مالهم عرفوه فأخذوه . ثم ساروا فلقوا الجيش فأخذوا ما بأيديهم حتى كانوا ينتزعون لُبَيْد المرأة من تحت الرَّحل .

* * *

وغزوة زيد بن حارثة أيضاً الطرف من ناحية نخل من طريق العراق ، وغزوته أيضاً وادى القُرى لقى فيه بنى فَزَارة فأصيب بها ناس من أصحابه وارْتُثّ[2] زيد من بين القتلى فلما قدم زيد آلى أن لا يمسّ رأسه غُسْل من

---

(١) لم يحذنا : لم يعطنا ولم ينفعنا .

(٢) ارتث : نما .

جماعة حتى يغزو بنى فَزارة ، فلما استبلّ من جراحه بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بنى فزارة فى جيش فقتلهم بوادى القُرَى وأصاب فيهم .

[غزوة عبد الله بن رواحة إلى خيبر]

وغزوة عبد الله بن رواحة خيبر مرتين ، إحداهما التى أصاب فيها اليُسَيْر ابنَ رِزَام ويقال ابن رازم ، وكان من حديثه أنه كان بخيبر يجمع غطفان لغزو رسول الله صلى الله عليه وسلم فبعث إليه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عبدَ الله بن رَوَاحة فى نفر من أصحابه منهم عبد الله بن أُنَيْس حليف بنى سلمة ، فلما قدموا عليه كلّموه وقرّبوا إليه وقالوا له : إنك إن قدِمْتَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم استعملك وأكرمك . فلم يزالوا به حتى خرج معهم فى نفر من يهود ، فحمَله عبدُ الله بن أُنَيْس على بعيره ، حتى إذا كان بالقَرْقَرة من خيبر على ستة أميال ندِم اليسير على مَسِيره إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففطن له عبد الله بن أنيس وهو يريد السيف فاقتحم به ثم ضربه بالسيف فقطع رجله وضربه اليسير بمِخْرَشٍ فى يده من شَوْحط فأمّه[1] ومال كل رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على صاحبه من يهود فقتله إلا رجلاً واحداً أفلت على رجليه[2] . فلما قدم عبد الله بن أنيس على رسول الله صلى الله عليه وسلم تفل على شجته فلم تقِحْ ولم تؤذه .

وغزوة عبد الله بن عَتِيك خيبر فأصاب بها أبا رافع بن أبى الحُقَيْق .

[غزوة عبد الله بن أنيس إلى خالد بن سفيان]

وغزوة عبد الله بن أُنَيْس خالدَ بن سفيان بن نُبَيح بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه وهو بنخلة أو بعُرنة يجمع لرسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) المخرش : المحجن . والشوحط : شجر تتخذ منه القسى أو ضرب من النبع . وأمه : أصابه فى رأسه . وفى الطبرى : فأمه فى رأسه .

(٢) الطبرى : أفلت على راحلته .

فقال : إنه بلغنى أن ابن سُفيان بن نبيح الهُذلى يجمع لى الناس ليغزونى وهو بنخلة أو بعُرَنة فأْته فاقتله . فقلت : يا رسول الله انعتْه لى حتى أعرفه . قال : إنك إذا رأيته أذكرك الشيطان وآيةُ ما بينك وبينه أنك إذا رأيته وجدت له قُشَعْريرة . قال : فخرجت متوشّحاً سيفى حتى دفعت إليه وهو فى ظُعُن[1] يرتاد لهن منزلا وكان وقت العصر ، فلما رأيته وجدتُ ماقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم من القشعريرة فأقبلت وخشيت أن تكون بينى وبينه مُجاولة تَشْغلنى عن الصلاة فصليت وأنا أمشى نحوه وأومئ برأسى . فلما انتهيت إليه قال : من الرجل ؟ قلت : رجل من العرب سمع بك وبجَمْعك لهذا الرجل فجاءك لذلك . قال : أجل أنا فى ذلك . قال : فمشيت معه شيئاً حتى إذا أمكننى حملتُ عليه بالسيف فقتلته ، ثم خرجت وتركت ظعائنه مُنْكبّات عليه . فلما قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فرآنى قال : أفلح الوجْه ! قلت : قد قتلته يارسول الله . قال : صدقْت . ثم قام بى فأدخلنى بيته فأعطانى عصا فقال : أمسك هذه العصا عندك ياعبد الله بن أنيس . قال : فخرجت بها على الناس فقالوا : ماهذه العصا ؟ قلت : أعطانيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمرنى أن أمسكها عندى . قالوا : أفلا ترجع إليه فتسأله لم ذلك ؟ فرجعت فقلت : يا رسول الله لم أعطيتنى هذه العصا ؟ قال : آية بينى وبينك يوم القيامة إنّ أقلّ الناس المتخصّرون[2] يومئذ . فقرنها عبدُ الله بن أنيس بسيفه فلم تزل معه حتى مات ثم أمر بها فضُمّت فى كفنه ثم دفنا جميعاً .

---

(١) الظعن : النساء

(٢) المتخصرون : الذين يحملون المخاصر ، وهى العصى

وقال عبد الله فى ذلك :

تركتُ ابن ثَوْر كالحُوَار وحولَه
نوائح تَفْرى كلّ جيبٍ مُقَدَّدِ[1]

تناوَلْته والظُّعْن خَلْفى وخلفَه
بأبيض من ماء الحديد مهنَّدِ

عَجُوم لهام الدارعين كأنه
شهابٌ غضًا من مُلْهِب متوقِّدِ[2]

أقول له والسيف يعجم رأسَه
أنا ابن أُنَيْس فارسًا غير قُعْدُدِ[3]

وقلت له خذها بضَرْبة ماجدٍ
حنيفٍ على دِين النبىّ محمدِ

وكنت إذا همّ النبىُّ بكافر
سبقت إليه باللسان وباليدِ

* * *

ومن البعوث أيضًا : بَعْث مُؤْتة حيث أصيب جعفر بن أبى طالب وأصحابُه ، وغزوة كعب بن عُمَيْر الغِفَارى ذات أطلاح من أرض الشام أصيب بها هو وأصحابه جميعًا ، وغزوة عُيَيْنة بن حِصْن بنى العَنْبر من تميم .

---

(١) الحوار : ولد الناقة . وتفرى : تشق .

(٢) عجوم : عضوض . والهام : الرءوس . والدارعون : من يلبسون الدروع فى الحرب . والشهاب : القطعة من النار .

(٣) القعدد : اللئيم الجبان .

وكان من حديثهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه إليهم فأغار عليهم وأصاب منهم أناساً وسبى منهم أناساً . وقالت عائشة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله إن عليّ رقبة من ولد إسماعيل . قال : هذا سَبْي بن العنبر يقدم الآن فنعطيك منهم إنساناً فتعتقينه . فلما قدم بسبيهم ركب فيهم وفدٌ من بني تميم منهم ربيعة بن رُفَيع ، وسَبْرة بن عمرو والقعقاع ابن مَعْبَد ووَرْدان بن مُحْرِز وقيس بن عاصم ومالك بن عمرو والأقرع ابن حابس وفِرَاس بن حابس ، فكلّموا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فيهم فأعتق بعضاً وأفدى بعضاً وذلك هو الذى يقول الفرزدق :

وعند رسول الله قام ابنُ حابس ... بخطّة سوّار إلى المجد حازم[1]

له أُطلق الأسرى التى فى حباله ... مُغلّلةً أعناقها والشكائم

كفى أمهات الخالفين[2] عليهمُ ... غلاء المفادى أو سهام المقاسم

* * *

[غزوة غالب بن عبد الله إلى بنى مرة]

وغزوة غالب بن عبد الله الكلبى أرض بنى مُرّة ، وفيها قتل أسامةُ ابن زيد حليفاً لهم يقال له مِرْداس بن نُهَيْك بن الحُرَقة من جهينة . قال : أدركته أنا ورجل من الأنصار ، فلما شهرت عليه السلاح قال : أشهد أن لا إله إلا الله . فلم ننزع عنه حتى قتلناه .

هكذا ذكر ابن إسحق فى حديثه . وخرّج مسلم فى صحيحه عن أسامة ابن زيد قال : فكفّ عنه الأنصارى وطعنته برمحى حتى قتلته ، فلما قدمنا

---

(١) قال أبو ذر : الخطة : الخصلة . والسوار : الذى يرمى ويثب .

(٢) قال أبو ذر : يريد الذين تخلفوا فى أهلهم . ويروى : الخائفين .

بلغ ذلك النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقال : يا أسامة أقتلتَه بعد ما قال لا إله إلا الله ؟ قلت : يا رسول الله إنما كان متعوِّذاً . فقال : أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله ؟! فما زال يكررها علىّ حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم[1] ، وفى بعض طرق مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأسامة : لم قتلته ؟ قال : يا رسول الله أوْجع فى المسلمين وقتل فلاناً وفلاناً وفلاناً وسمّى له نفراً وإنى حملت عليه فلما رأى السيفَ قال : لا إله إلا الله . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أقتلته ؟ قال : نعم . قال : فكيف تَصْنَع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة ؟ قال : يا رسول الله استغفرلى . قال : وكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة ! فجعل لا يزيده على أن يقول : كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة .

وفى حديث ابن إسحق أن أسامة قال : أنظرنى يارسول الله ، إنى أعاهد الله أن لا أقتل رجلا يقول لا إله إلا الله .

[غزوة ذات السلاسل]

وغزوة عمرو بن العاص ذات السلاسل من أرض بنى عُذْرة[2] ، وكان من حديثه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث يستنفر العرب إلى الشام ، وذلك أن أم أبيه العاص بن وائل كانت امرأة من بَلِيّ فبعثه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إليهم يستألفهم لذلك ، حتى إذا كان على ماء بأرض جُـذَام يقال له السَّلْسل وبذلك سميت تلك الغزوة ذات

---

(١) صحيح مسلم كتاب الإيمان حديث رقم ٩٧ (ط الحلبى) .

(٢) قال ابن سعد : وراء وادى القرى ، وبينها وبين المدينة عشرة أيام .

السلاسل ، خاف فبعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمده فبعث إليه أبا عبيدة ابن الجراح فى المهاجرين الأولين فيهم أبو بكر وعمر وقال لأبى عبيدة حين وجّهه : لا تختلفا . فخرج أبو عبيدة حتى إذا قدم عليه قال له عمرو : إنما جئتَ مدداً لى . قال أبو عبيدة : لا ولكنى على ما أنا عليه وأنت على ما أنت عليه . فقال له عمرو : بل أنت مدد لى فقال له أبو عبيدة وكان رجلا ليّناً سهلا عليه أمر الدنيا : ياعمرو إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لى لا تختلفا وإنك إن عصيتنى أطعتك قال : فإنى الأمير عليك وأنت مدد لى . قال : فدونك . فصلى عمرو بالناس .

وحدّث رافع بن أبى رافع الطائى وهو رافع بن عميرة قال : كنت امرءا نصرانياً فلما أسلمت خرجت فى تلك الغزاة ، يعنى غزوة ذات السلاسل ، فقلت : والله لأختارن لنفسى صاحباً فصحبت أبا بكر فكنت معه فى رحله فكانت عليه عباءة له فدكية فكان إذا نزلنا بسطها وإذا ركبنا لبسها ثم شكها[1] عليه بخلال له وذلك الذى يقول أهل نجد حين ارتدوا كفارا بعد موت النبى صلى الله عليه وسلم ومبايعة الناس بعده لأبى بكر : أنحن نبايع ذا العباءة ! جهلوا يومئذ أن فضل الكمال ليس فى ظاهر البهاء وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء .

قال رافع : فلما دنونا من المدينة قافلين قلت : يا أبا بكر إنما صحبتك لينفعنى الله بك فانصحنى وعلّمنى قال : لو لم تسألنى ذلك لفعلت ، آمرك

(١) الواقدى : فإذا ركب خلها عليه . أى جمع بين طرفيها بخلال من عود أو حديد . مغازى الواقدى ص ٧٧٢ .

أن توحّد الله لا تشرك به شيئا ، وأن تقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج هذا البيت وتغتسل من الجنابة ولا تتأمرّن[1] على رجلين من المسلمين أبدا .

قال قلت : يا أبا بكر أما أنا والله فإنى أرجو أن لا أشرك بالله أبدا ، وأما الصلاة فلن أتركها أبدا إن شاء الله ، وأما الزكاة فإن يكن لى مال أؤديها إن شاء الله ، وأما الحج فإن أستطع أحج إن شاء الله ، وأما الجنابة فسأغتسل منها إن شاء الله ، وأما الإمارة فإنى رأيت الناس يا أبا بكر لا يَشْرفون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وعند الناس إلا بها فلم تنهى عنها ؟ قال : إنما استجهدتنى لأجهد لك ، وسأخبرك عن ذلك : إن الله تبارك وتعالى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بهذا الدين فجاهد فيه حتى دخل الناس فيه طوْعا وكرها فلما دخلوا فيه كانوا عُوّاد[2] الله وجيرانه وفى ذمته ، فإياك أن تخفر الله فى جيرانه فيتبعك الله فى خفرته ، فإن أحدكم يُخفَرُ فى جاره فيظل ناتئا عَضَله[3] غضبا لجاره إن أصيب له شاة أو بعير ، فالله أشدّ غضبا لجاره قال : ففارقته على ذلك فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر أبو بكر على الناس قدمت عليه فقلت : يا أبى بكر ألم تكن نهيتنى عن أن أتأمّر على رجلين من المسلمين ؟ قال : بلى وأنا الآن أنهاك عن ذلك . فقلت : فما حملك على أن تلى أمرَ الناس ؟ قال : لا أجد من ذلك بُدّا خشيت على أمة محمد الفُرْقة .

---

(١) أى لا تطلبن الإمارة .

(٢) عواذ : جمع عائذ ، أى استجاروا بالله من الظلم .

(٣) ناتئا : مرتفعا منتفخا . والعضل : جمع عضلة وهى القطعة الشديدة من اللحم (شرح السيرة لأبى ذر ص ٤٥٤)

وفي هذه الغزاة أيضا صحب عوف بن مالك الأشجعي أبا بكر وعمر رضي الله عنهما قال : فمررت بقوم على جزور لهم قد نحروها وهم لا يقدرون على أن يعضّوها[1] فقلت : أتعطوني منها عُشيرا على أن أقسمها بينكم ؟ قالوا : نعم . فأخذت الشَّفْرتين فجزّأتها وأخذت منها جزءا فحملته إلى أصحابي فاطّبخناه فأكلناه ، فقال أبو بكر وعمر : أنّى لك هذا اللحم ياعوف ؟ فأخبرتهما خبره فقالا : والله ما أحسنت حين أطعمتنا هذا ، ثم قاما يتقيآن ما في بطونهما من ذلك . فلما قفل الناس كنت أول قادم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فجئته وهو يصلي في بيته فقلت : السلام عليك يارسول الله ورحمة الله وبركاته . قال : أعوف بن مالك ؟ قلت نعم بأبي أنت وأمي يارسول الله . قال : أصاحب الجزور ؟ ولم يزدني رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك .

[غزوة ابن أبي حدرد]

وغزوة ابن أبي حَدْرد وأصحابه بطن إضم ، وكانت قبل الفتح قال عبد الله بن أبي حَدْرد : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى إضم في نفر من المسلمين فيهم أبو قتادة ومحلّم بن جثّامة ، فخرجنا حتى إذا كنا ببطن إضم مرّ بنا عامر بن الأضبط الأشجعي على قعود له معه متيّع له ووطب من لبن[2] فسلّم علينا بتحية الإسلام فأمسكنا عنه وحمل عليه محلم بن جثامة فقتله لشيء كان بينهما وأخذ بعيره ومتيعه . فلما قدمنا على رسول الله

---

(١) يعضوها : يقسموها : قال أبو ذر : التعضية : القسمة .(شرح السيرة ص ٤٠٤)

وأخبرناه الخبر نزل فينا : « يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبيَّنوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عَرَض الحياة الدنيا[1] » . إلى آخر الآية .

وعن ضُمَيْرة بن سعد السُّلَمى عن أبيه ، وكان شهد حُنَيْنا قال : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر ثم عمد إلى ظل شجرة فجلس تحتها وهو بحنين فقام إليه الأقرع بن حابس وعُيَيْنة بن حصن يختصمان فى عامر بن الأضبط يطلب بدمه ، وهو يومئذ رئيس غطفان ، والأقرع يدفع عن مُحَلِّم بن جَثَّامة لمكانه من خِندف ، فتداوَلا الخصومة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نسمع ، فسمعنا عيينة يقول : والله لا أدَعه حتى أذيق نساءه من الحَرَ[2] مثل ما أذاق نسائى ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : بل تأخذون الدية خمسين فى سفرنا هذا وخمسين إذا رجعنا . وهو يأبى عليه ثم ذكر تكرار رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله هذا ، فقبلوا الدية ثم قالوا : أين صاحبكم هذا يستغفر له رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقام رجلٌ آدم ضَرْب[3] طويل عليه حُلّة له قد كان تهيأ فيها للقتل حتى جلس بين يَدَىْ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : ما اسمك ؟ فقال : أنا مُحلِّم بن جَثَّامة فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه ثم قال : اللهم لاتغفر لمحلّم بن جثامة . ثلاثا فقام يتلقى دمعه بفضل ردائه قال : فأما نحن فنقول فيما بيننا إنا انرجو أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استغفر له وأما ماظهر من رسول الله فهذا .

---

(١) سورة النساء ٩٤ . (٢) ابن هشام : من الحرقة ٣ .

(٣) الضرب : القليل اللحم .

وذكر سالم أبو النضر أنه حدّث أن عيينة بن حصن وقيساً لم يقبلوا الدية حتى خلا بهم الأقرع بن حابس وقال : يامعشر قيس منعتم رسول الله قتيلا يستصلح به الناس، أفأمنتم أن يلعنكم رسول الله فيلعنكم الله بلعنته أو أن يغضب عليكم فيغضب الله عليكم بغضبه ؟ والله الذي نفس الأقرع بيده لتسلمنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فليصنعن فيه ما أراد أو لآتين بخمسين رجلا من بني تميم يشهدون بالله لقتل صاحبكم كافراً ما صلى قط فلأطلن دمه . فقبلوا الدية .

وفي حديث عن الحسن البصري قال : والله ما مكث محلّم بن جثّامة إلا سبعاً حتى مات فلفظته الأرض والذي نفس الحسن بيده ، ثم عادوا له فلفظته ، ثم عادوا له فلفظته فلما غلب قومه عمدوا إلى صدّين[1] فسطحوه بينهما ثم رضموا عليه الحجارة حتى واروه فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم شأنه فقال : والله إن الأرض لتطابق على من هو شر منه ولكن الله أراد أن يعظكم في حُرَم ما بينكم بما أراكم منه .

[غزوة ابن أبي حدرد إلى الغابة]

وغزوة ابن أبي حدرد الأسلمي أيضاً الغابة . قال : تزوجت امرأة من قومي فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم أستعينه على نكاحي فقال : وكم أصدقت ؟ قلت : مائتي درهم قال : سبحان الله ! لو كنتم تأخذون الدراهم من بطن وادٍ مازدتم ، والله ماعندي ما أعينك به . قال : فلبثت أياماً وأقبل رجل من بني جُشَم بن معاوية يقال له رفاعة بن قيس أو قيس بن رفاعة في بطن عظيم من بني جُشَم حتى ينزل بقومه ومن معه بالغابة يريد أن يجمع قيساً على حرب

---

(١) الصد : بالفتح ويضم : الجبل .

رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ذا اسم فى جُشم وشرف ، فدعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجلين معى من المسلمين فقال: اخرجوا إلى هذا الرجل حتى تأتوا منه بخبر وعِلْم قال : وقدّم لنا شارفاً (١) عجفاء فحمل عليها أحدنا ، فو الله ماقامت به ضعفاً حتى دعمها الرجال من خلفها بأيديهم حتى استقلت وما كادت ثم قال : تبلّغوا عليها واعتقِبوها .

قال : فخرجنا ومعنا سلاحنا من النَّبْل والسيوف حتى إذا جئنا قريباً من الحاضر عُشَيْشية (٢) مع غروب الشمس كمَنت فى ناحية . وأمرت صاحبىّ فكمَنا فى ناحيـــة أخرى من حاضر القوم وقلت لهما : إذا سمعتمانى قد كبَّرت وشددت فى ناحية العسكر فكبِّرا وشُدًّا معى . فو الله إنا لكذلك ننتظر غِرّة القوم أو أن نصيب منهم شيئاً وقد غشينا الليلُ حتى ذهبت فحمة العشاء وكان لهم راع سرّح فى ذلك البلد فأبطأ عليهم حتى تخوّفوا عليه ، فقام صاحبهم ذلك فأخذ سيفه فجعله فى عنقه ثم قال : والله لأتبعنّ أثر راعينا هذا ولقد أصابه شر . فقال نفر ممن معه : والله لا تذهب أنت نحن نكفيك . قال : والله لا يذهب إلا أنا . قالوا : فنحن معك . قال : والله لايتبعنى أحد منكم . وخرج حتى مرّ بى فلما أمكننى نفحته بسهم فوضعته فى فؤاده فوالله ماتكلم . ووثبت إليه فاحتززت رأسه وشددت فى ناحية العسكر وكبّرت وشد صاحباى وكبّرا فو الله ما كان إلا النجاء ممن فيه ، عندَك ، عندَك ، بكل ماقدروا عليه من نسائهم وأبنائهم وماخفّ معهم من أموالهم واستقنا إبلا عظيمة وغنما كثيراً فجئنا بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجئت برأسه معى فأعاننى رسول صلى الله عليه وسلم من تلك الإبل بثلاثة عشر بعيراً فى صَداقى فجمعت إلىّ أهلى.

(١) الشارف : الناقة المسنة . والعجفاء : المهزولة .

(٢) عشيشية : تصغير عشية . على غير قياس .

[غزوة عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل]

وغزوة توجه فيها عبد الرحمن بن عوف . قال عطاء بن أبي رباح : سمعت رجلا من أهل البصرة يسأل عبد الله بن عمر عن إرسال العمامة من خلف الرجل إذا اعتم ؟ فقال عبد الله : سأخبرك إن شاء الله عن ذلك بعلم . ثم ذكر مجلساً شاهده من رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] أمر فيه عبدَ الرحمن ابن عوف أن يتجهز لسرية بعثه عليها . قال : فأصبح وقد اعتم بعمامة من كرابيس[2] سود فأدناه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم منه ثم نقضها ثم عمَّه وأرسل من خلفه أربع أصابع أو نحواً من ذلك . ثم قال : هكذا يابن عوف فاعتمّ فإنه أحسن وأعرف . ثم أمر بلالاً أن يدفع إليه اللواء ، فدفعه إليه فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نفسه ثم قال : « خذه يابن عوف ، اغزوا جميعاً في سبيل الله فقاتلوا من كفر بالله لا تغلُّوا ولا تغدُّروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً ، فهذا عهد الله وسيرة نبيّه فيكم » فأخذ عبد الرحمن بن عوف اللواء . قال ابن هشام : فخرج إلى دُومة الجندل .

[سرية أبي عبيدة إلى سيف البحر]

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية إلى سيف البحر عليهم أبو عبيدة بن الجراح وزوّدهم جراباً من تمر فجعل يقوّتهم إياه حتى صار إلى أن يعدّه لهم عدداً حتى كان يعطى كلّ رجل منهم كل يوم تمرة فقسمها يوماً فنقصت تمرة عن رجل فوجد فقْدها ذلك اليوم !

(١) انظر تفصيل ذلك المجلس في ابن هشام ٤ / ٢٨٠ (ط الحلبي الأولى) .

(٢) الكرابيس : جمع كرباس وهو الثوب من القطن الأبيض .

قال بعضهم : فلما جهدَنا الجوعُ أخرج الله لنا دابة من البحر فأصبنا من لحمها وودَكها وأقمنا عليهـا عشرين ليلة حتى سَمِنَّا وأخذ أميرنا ضِلَعًا من أضلاعها فوضعها على طريقه ثم أمر أجْسَم بعير معنا فحَمَل عليه أجْسم رجلٍ منا فجلس عليه فخرج من تحتها وما مسَّت رأسَه فلما قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرناه خبرها وسألناه عن أكلنـا إياها فقال : رزقٌ رزَقَـكموه الله .

[بعث عمرو بن أمية إلى أبى سفيان بن حرب]

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضَّمْرى بعد مقتل خُبَيْب وأصحابه إلى مكة وأمره أن يقتل أبا سفيان بن حرب وبعث معه جبَّار بن صَخْر الأنصارى ، فخرجا حتى قدِما مكة وحبسَا جمليهما بشِعْب من شعاب يَأْجج (١) ثم دخلا مكة ليلاً فقال جبَّار لعمرو : لو أنا طُفْنا بالبيت وصلّينا ركعتين ؟ فقال عمرو : إن القوم إذا تعشَّوْا جلسوا بأفنيتهم فقال : كلاَّ إن شاء الله . قال عمرو : فطُفْنا بالبيت ثم خرجنا نريد أبا سفيان فو الله إنا لنمشى بمكة إذ نظر إلىّ رجل من أهل مكة فعرفنى فقال : عمرو بن أمية ! والله إنْ قدِمها إلا لشرّ . فقلت لصاحبى : النَّجاء . فخرجنا نشتدّ حتى أصْعَدْنا فى جبل وخرجوا فى طلبنا حتى إذا علَوْنا الجبل يئسوا منا فرجعنا فدخلنا كهفًا فى الجبل فبتنا وقد أخذنا حجارةً فرضَمْناها دوننا . فلما أصبحنا غدا رجل من قريش يقود فرسًا له ويختلِى (٢) عليها فغشِيَنا ونحن فى الغار فقلت : إن رآنا صاح بنا فأخذنا فقتلنا . قال : ومعى خنجر قد أعددته لأبى سفيان ،

---

(١) يأجج : موضع بمكة .

(٢) ابن هشام . ويخلى عليها . والمراد : يجمع لها الخلى ، وهو الرطب من النبات .

فأخرج إليه فأضربه على ثديه وصاح صيحةً أسمع أهلَ مكّة ، وأرجعُ فأدخل مكانى . وجاءه الناس يشتدّون وهو بآخر رمق فقالوا : من ضربك ؟ فقال عمرو بن أمية . وغلبه الموت فمات مكانه ولم يَدْلُل على مكاننا فاحتملوه . فقلت لصاحبى لما أمسينا : النَّجاء .

فخرجنا ليلاً من مكّة نريد المدينة فمررنا بالحرس وهم يحرسون جيفة خُبَيْب بن عدىّ فقال أحدهم : والله ما رأيت كالليلة أشبه بمشية عمرو ابن أمية ، لولا أنه بالمدينة لقلت هو عمرو بن أمية . فلما حاذى عمرو الخشبة[1] شدّ عليها فاحتملها وخرج هو وصاحبه شدًّا وخرجوا وراءه حتى أتى جُرْفاً بيأجج[2] فرمى بالخشبة فى الجرف فغيبه الله عنهم فلم يقدروا عليه .

قال عمرو بن أمية : وقلت لصاحبى : النجاء حتى تأتى بعيرك فتقعد عليه فإنى شاغل عنك القوم وكان الأنصارى لا رُجْلة له[3] . قال : ومضيت حتى أخرج على ضَجْنان[4] ثم آويت إلى جبل فأدخل كهفاً ، فبَيْنا أنا فيه دخل علىّ شيخ من بنى الدِّيل أعور فى غُنَيْمة فقال : من الرجل ؟ فقلت : من بنى بكر فمن أنت ؟ قال . من بنى بكر . قلت : مرحباً فاضطجع ثم رفع عقيرته فقال :

---

(١) أى الخشبة التى صلبوا عليها خبيب بن عدى حين قتلوه . انظر ما تقدم فى قصة أصحاب الرجيع . ص ١٣٤ من هذا الجزء .

(٢) ابن هشام : حتى أتى جرفا بمهبط مسيل يأجج .

(٣) أى لا يقوى على المشى على رجليه .

(٤) ضجنان : جبل قرب مكة .

ولست بمسلم ما دمتُ حيًّا ولا دانٍ لدين المسلمينا

فقلت فى نفسى : ستعلم . فأمهلته حتى إذا نام أخذت قوسى فجعلت سِيَتَها[1] فى عينه الصحيحة ثم تحاملتُ عليه حتى بلَغْت العظم . ثم خرجت النَّجاء[2] حتى جئت العَرْج[3] ثم سلكت رَكُوبة[4] حتى إذا هبطت النَّقيع[5] إذا رجلان من قريش من المشركين كانت قريش بعثتهما عينًا إلى المدينة ينظران ويتحسّسان فقلت : استأسرا . فأبيا فأرمى أحدهما بسهم فأقتله واستأسر الآخر فأوثقته رباطا وقدمت به المدينة .

* * *

[سرية زيد بن حارثة إلى مدين]

وسرية زيد بن حارثة إلى مدين فأصاب سَبْيًا من أهل ميناء وهى السواحل وفيها جُمَّاعٌ من الناس فبيعوا ففرّق بينهم يعنى بين الأمهات والأولاد ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يبكون فقال : مالهم ؟ فقيل : يارسول الله فرق بينهم . فقال : لا تبيعوهم إلا جميعًا .

وغزوة سالم بن عُمَيْر أبا عَفَك أحد بنى عمرو بن عوف وكان نجمَ

---

(١) سية القوس : ما عطف من طرفيها .

(٢) أى خرج هاربا .

(٣) منزل بطريق مكة .

(٤) ركوبة : ثنية بين الحرمين .

(٥) النقيع : موضع ببلاد مزينة .

بنفاقه حين قتل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الحارث بن سُوَيْد بن صامت فقال :

لقد عِشْتُ دهراً وما إنْ أرى
من الناسِ داراً ولا مَجْمعا
أبرَّ عهوداً وأوْفَى لمن
يعاقِدَ فيهم إذا ما دعا
من أولاد قَيْلَةَ[1] في جمعهم
تهدُّ الجبال ولم تخضعا
فصدَّعهم راكبٌ جاءهم
حلالٌ حرام لشتى معا
فلو أن بالعز صدَّقتمُ
أو المُلْك تابعتمُ تُبَّعا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من لى بهذا الخبيث ؟ فخرج سالم بن عُمَيْرة أخو بنى عمرو بن عوف ، وهو أحد البكائين فقتله فقالت أمامة المريدية فى ذلك .

تكذِّب دِينَ الله والمرء أحمدا
لعَمْرى الذى أمناك بئس الذى يُمْنى[2]

(١) أولاد قيلة : الأوس والخزرج .
(٢) أمناك : منّاك من الأمنية .

حباك حنيفٌ آخرَ الليل طعنةً

أبا عَفَك خُـذها على كِبَرَ السنِّ

[غزوة عمير بن عدى إلى عصماء بنت مروان]

وغزوة عمير بن عدى الخطْمىّ وهو الذى يدْعى القارئْ عصماء بنت مروان من بنى أمية بن زيد ، وكانت تحت رجل من بنى خَطْمة يقال له يزيد بن زيد ، فلما قُتل أبو عفَك نافقت فقالت تعيب الإسلامَ وأهله وتؤنّب الأنصار فى اتباعهم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم :

أطعتم أتاوِىّ من غيركم

فلا من مُرَاد ولا مَذْحجِ

تُرَجُّونه بعد قتل الرءوس

كما يُرْتجى مرَقُ المُنْضَجِ

ألا آنِف يبتغى غِرّةً

فيقطع من أمل المرتجى

فلما بلغ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : ألا أحدٌ لىَ من ابنة مروان ؟ فسمع ذلك من قوله عمير بن عَدىّ فلما أمسى من تلك الليلة سما عليها فى بيتها فقتلها ثم أصبح مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله إنى قد قتلتها . فقال : نَصرتَ الله ورسوله يا عمير . فقال : هل علىّ شىء من شأنها يارسول الله ؟ فقال : لا ينتطح فيها عَنْزان .

فرجع عمير إلى قومه وبنو خطمة يومئذ كثير فوجّههم في شأن بنت مروان ولها بنون خمسة رجال . فقال : يا بنى خطمة أنا قتلت بنت مروان فكيدونى جميعاً ثم لا تنظرون . فذلك اليوم أول ما عزّ الإسلام في دار بنى خطمة وكان يستخفى بإسلامه فيهم من أسلم . ويومئذ أسلم رجالٌ منهم لما رأوا من عز الإسلام .

[أسر ثمامة بن أثال]

والسرية التى أسرت ثمامة بن أثال الحنفى سيد أهل اليمامة ، وذلك أن خيلًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم خرجت فأخذت رجلًا من بنى حنيفة لا يشعرون من هو حتى أتوا به رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال : أتدرون من أخذتم ؟ هذا ثمامة بن أثال الحنفى فأحسنوا إساره . ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهله . فقال : اجمعوا ما كان عندكم من طعام فابعثوا به إليه وأمر بلقحته[1] أن يُغدى عليه بها ويراح فجعل لا يقع من ثمامة موقعاً ، ويأتيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول : أسلم يا ثمامة وفي رواية : ما تقول يا ثمامة ؟ فيقول : يا محمد إن تَقتل تقتل ذا دم وإن تنعم تنعمْ على شاكر ، وإن ترد الفداء فسَلْ تُعطَ منه ما شئت .

فمكث ما شاء الله أن يمكث ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم يوماً : أطلقوا ثُمامة فلما أطلقوه خرج حتى أتى البقيع فتطهّر فأحسن طهوره ثم أقبل فبايع النبىَّ صلى الله عليه وسلم على الإسلام . فلما أمسى جاءوه بما كانوا يأتونه به من الطعام فلم ينلْ منه إلا قليلًا ، وباللّقحة فلم يصب من حلابها

(١) اللقحة : الناقة لها لبن .

إلا يسيراً ، فعجب المسلمون من ذلك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« ممّ تعجبون من رجل أكل أول النهار فى مِعَى كافر وأكل آخر النهار
فى مِعَى مُسْلِم ، إن الكافر يأكل فى سبعة أمعاء وإن المسلم يأكل فى
مِعًى واحد » .

وقال ثمامة حين أسلم لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد كان وجهك
أبغضَ الوجوه إلىّ فأصبح وهو أحبّ الوجوه إلىّ ، ولقد كان دِينك
أبغضَ الدِّين إلىّ فأصبح وهو أحب الأديان إلىّ ، ولقد كان بلدك أبغض
البلاد إلىّ فأصبح وهو أحب البلاد إلىّ . ثم قال : يا رسول الله إنّ خيلك
أخذتنى وأنا أريد العمرة فأذن لى يارسول الله . فأذن له فخرج
معتمراً فلما قدِم مكة قالوا : صبأت ياثمامة . قال لا ولكنى اتبعت خير الدِّين
دين محمد ، ولا والله لا تصل إليكم حَبّة من اليمامة حتى يأذن فيها رسول
الله صلى الله عليه وسلم . ثم خرج إلى اليمامة فمنعهم أن يحملوا إلى مكة
شيئا ، فكتبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنك تأمر بصلة الرحم
وإنك قد قطعتَ أرحامنا . فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن
خلّ بين قومى وبين مِيرتهم . ففعل .

ويقال إنه لمّا كان ببطن مكة فى عمرته لبّى فكان أول من دخل
مكة بالتلبية ، فأخذته قريش فقالوا : لقد اجترأت علينا . وهمُّوا بقتله ثم
خلوه لمكان حاجتهم إليه وإلى بلده فقال بعض بنى حنيفة :

ومنا الذى لبّى بمكة مُعْلِنـــــــا

برغم أبى سفيان فى الأشهر الحُرُمْ

[سرية علقمة بن مجزز]

وبعث علقمة بن مُجَزِّز المُدلجي لما قتل وقّاصُ بن مجزّز أخوه يوم ذى قَرَد وسأل رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أن يبعثه فى آثار القوم ليدرك ثأره فيهم ، فبعثه فى نفر من المسلمين . قال أبو سعيد الخدرى : وأنا فيهم ، حتى إذا بلغنا رأس غزاتنا أو كنا ببعض الطريق أذن لطائفة من الجيش واستعمل عليهم عبد الله بن حذافة السَّهْمى وكانت فيه دُعابة ، فلما كان ببعض الطريق أوقد ناراً ثم قال للقوم : أليس لى عليكم السمع والطاعة ؟ قالوا : بلى قال : فما آمركم بشىء إلا فعلتموه ؟ قالوا : نعم . قال : فإنى أعزم عليكم بحقى وطاعتى إلا تواثبتم فى هذه النار فقام بعض القوم يحتجز حتى ظن أنهم واثبون فيها . فقال لهم : اجلسوا فإنما كنت أضحك معكم فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : من أمركم منهم بمعصية فلا تطيعوه .

ويقال إن علقمة بن مجزّز رجع هو وأصحابه ولم يلق كيداً .

[سرية كرز بن جابر]

وبعث كُرْز بن جابر ، وذلك أن نفرا من قيس كُبَّة من بَجِيلة قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستوبأوا المدينة وطَّلحوا[1] وكانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقاح ترعى ناحية الجمّاء يرعاها عبد له يقال

---

(١) طلحوا : تعبوا . وفى ابن هشام . طحلوا . أى أصابهم مرض الطحال .

له يَسار كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أصابه فى غزوة بنى محارب وبنى ثعلبة ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو خرجتم إلى اللِّقاح فشربتم من ألبانها وأبوالها فخرجوا إليها فلما صحُّوا وانطوت بطونهم عُكَناً عَدوْا على راعى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذبحوه وغرزوا الشوكَ فى عينيه واستاقوا اللِّقاح فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى آثارهم كرزاً فلحقهم ، فأُتى بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مَرْجِعه من غزوة ذى قَرد فقطع أيديهم وسمَلَ أعينهم وألقوا بهم فى الحرة يستسقون فلا يُسْقون حتى ماتوا .

[غزوة على بن أبى طالب إلى اليمن]

وغزوة علىّ بن أبى طالب اليمن غزاها مرتين . وقال أبو عمر المدينىّ:[1] بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب إلى اليمن وبعث خالد بن الوليد فى جند آخر وقال : إن التقيتما فالأمير علىٌّ بن أبى طالب .

[بعث أسامة بن زيد إلى فلسطين]

ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيدبن حارثة إلى الشام وأمره أن يوطىء الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين ، وهو آخر بَعْثٍ أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم . فتجهز الناسُ وأوعب

(1) ابن هشام : المدنى .

مع أسامة المهاجرون الأولون ، فبينا الناس على ذلك ابتدئ رسول الله صلى الله عليه وسلم بشكوه الذى قبضه الله فيه إلى ما أراد من رحمته وكرامته ، فلم ينفذ بعث أسامة إلا بعد وفاته صلوات الله عليه ورحمته وسيأتى ذكر ذلك مستوفى إن شاء الله .

* * *

فهذه مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعوثه وسراياه التى أعز الله بها الدين ودوّخ بها الكافرين ، وشدّ أزْره فيها بعن اختاره لصحبته ونصرته من الأنصار والمهاجرين رضى الله عنهم أجمعين ، وتلك أيامُ الله التى يجب بها التذكّر والتدّكير ، ويبدأ بحمد شكر الله على ما يسّره منه المقادير .

* * *

وقال حسان بن ثابت يعدّد أيامَ الأنصار مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ويذكر مواطنهم معه فى أيام غزوه وتروى لابنه عبد الرحمن :

ألستُ خيرَ معدّ كلها نفرًا
ومعشرًا إن هُمُ عُمُّوا وإن حُصِلوا

قومٌ همُ شهِــــــدوا بدرًا بأجمعهم
مع الرسول فما آلوا[1] وما خذلوا

---

(١) ألوا : قصروا . ويروى : ألوا .

وبايعوه فلم ينكث به أحدٌ
منهم ولم يك فى أيمانهم دَخَلُ
ويوم صَبَّحهم فى الشِّعب من أحد
ضربٌ رَصِين كحرّ النار مُشْتعِلُ
ويوم ذى قَرَدٍ يوم استثار بهم
على الجياد فما خاموا[1] وما نَكلوا
وذا العشَيْرة جاسُوها بخيلهمُ
مع الرسول عليها البيض والأَسَلُ
ويوم وَدّان أجْلَوْا أهله رقصاً
بالخيل حتى نهانا الحَزْن والجبلُ
وليلةً طلبوا فيها عدوَّهم
لله واللهُ يجزيهمْ بما عملوا
وغزوةَ يوم نَجدْ ثم كان لهم
مع الرسول بها الأسلاب والنَّفَلُ
وليلةً بحنين جالَدُوا معه
فيها يَعُلُّهم بالحرب إذ نَهِلُوا
وغزوة القاع فرّقنا العدوّ به
كما تفرّق دون المشْرب الرَّسَلُ[2]

---

(١) خاموا : جبنوا .
(٢) الرسل : القطيع من الإبل والغنم .

ويومَ نُويعٍ كانوا أهلَ بيعتهِ
على الجلادِ فآسَوْه وما عَدلُوا

وغزوة الفتح كانوا في سريتهِ
مُرابطين فما طاشُوا وما عجِلوا

ويوم خيبر كانوا في كتيبتهِ
يمشون كلهم مُستبسلٌ بطلُ

بالبيض تَرْعش في الأيمان عارية
تعوجّ في الضرب أحياناً وتعتدلُ

ويوم سار رسولُ الله مُحتسباً
إلى تبوك وهم راياته الأولُ

وساسةُ الحرب إن حرب بدتْ لهم
حتى بَدا لهم الإقبالُ فالقفلُ[1]

أولئك القومُ أنصار النبي وهم
قومي أصير إليهم حين أتصلُ

ماتوا كراماً ولم تُنْكَث عهودهم
وقتلهم في سبيل الله إذ قتلوا

* * *

وقال حسان أيضاً :

كنا ملوكَ الناس قبل محمدٍ
فلما أتى الإسلامُ كان لنا الفضلُ

(١) ابن هشام : والقفل .

وأكرمنا الله الذى ليس غيره
إلهٌ بأيامٍ مضَتْ مالها شَكْلُ

بنصر الإلهِ والرسولِ ودينه
وألبسناه اسماً مضى ماله مِثْلُ

أولئك قومى خيرُ قومٍ بأسْرِهم
فما كان من خير[1] فقَوْمى له أهلُ

يُرَبُّون بالمعروف معروف من مضى
وليس عليهم دون معروفهم قفلُ

إذا اختُبِطوا لم يُفْحِشوا فى نَدِيِّهم
وليس على سُؤّالهم عندهم بخلُ

وإن حاربوا أو سالموا لم يشبّهوا
فحربهم حَزْنٌ[2] وسلمهم سَهْلُ

وجارهمُ موفٍ بعلياء بيته
له ماثَوى فيها الكرامة والبذلُ

وحاملهم مُوفٍ بكل حمالةٍ
تحمّل لا غرم عليه ولا خذلُ

وقائلهم بالحق إن قال قائلٌ
وحلْمُهم عَوْد وحكمهم عَدْلُ

---

(١) ابن هشام : فما عد من خير .

(٢) ابن هشام : فحربهم حتف .

ومنا أمير المسلمين حياته
ومن غسّلته من جنابته الرسلْ

* * *

وقال حسان أيضاً من قصيدة له أولها :

قومى أولئك إن تسألى
كرامٌ إذا الضيفُ يوماً ألمْ

عظام القدور لأيسارهم
يكبّون فيها المسنّ السنمْ

يواسون جارهم فى الغنى
ويحمون مولاهمُ إن ظُلِمْ

فكانوا ملوكاً بأرضيهم
يُبادون غضباً بأمرٍ غشمْ.[1]

ملوكاً على الناس لم يُملكوا
من الدهر يوماً كحلّ القسمْ[2]

ملوكاً إذا غشموا فى البلا
د لا ينكلون ولكن قُدُمْ

فأُبنا بساداتهم والنساء
وأولادهم فيهمُ نقتسمْ

---

(١) ابن هشام : ينادون غضباً .

(٢) أى إلا فترة قصيرة كحلة القسم .

ورثنـــا مساكنهم بعدهم
وكنا ملوكا بها لم نرم (١)

فلما أتانا الرسولُ الرشيـــ
ـدُ بالحق والنور بعد الظُّلَمْ

فنشهد أنك عبـــدُ الإلا
ه أرسلت نورا بدينٍ قيَمْ

فإنا وأولادنا جُنَّـــة
نقيـــك وفي مالنا فاحتكمْ

فنحن أولئك إن كذَّبوك
فنـــادِ نداء ولا تحتشمْ

وناد بمـا كـنت أخفيته
نداء جهـــارا ولا تكتتمْ

فسار الغُـــواة بأسيافهم
إليه يظنـــون أن يُخترمْ

فقمنـــا إليهم بأسيافنـــا
نجالد عنـــه بغـــاة الأممْ

بكل صقيل له ميْعـــة
رقيق الذُّباب عَضُوض خَذِمْ

---

(١) لم نرم : لم نزل .

إذا ما يصادف ضيم العظا م لم ينب عنها ولم يحتشم

فذلك ما ورّثتنا القرو م مجداً تليداً وعزّاً أشمّ

إذا مرّ نسلٌ كفى نسله وغادر نسلاً إذا ما انقصمْ

فما إنْ من الناس إلاّ لنا عليه وإن خاس[1] فضلُ النّعَمْ

وإلى هنا ينتهي الجزء الثاني من كتاب « الاكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء » للكلاعي ويتلوه الجزء الثالث وأوله: « ذكر الوفود على رسول الله صلى الله عليه وسلم ».

---

(١) خاس: غدر.

فهرس الموضوعات

ملاحظة: وقعت بعض الأخطاء المطبعية اليسيرة فى الضبط ، مما لا يخفى على القارئ.

رقم إيداع دار الكتب

٦٦٢٢ لسنة ١٩٧٠